صلاح الدين

وسقوط مملكة القدس

ترجمه عن الانكليزية

فاروق سعد ابوجابر

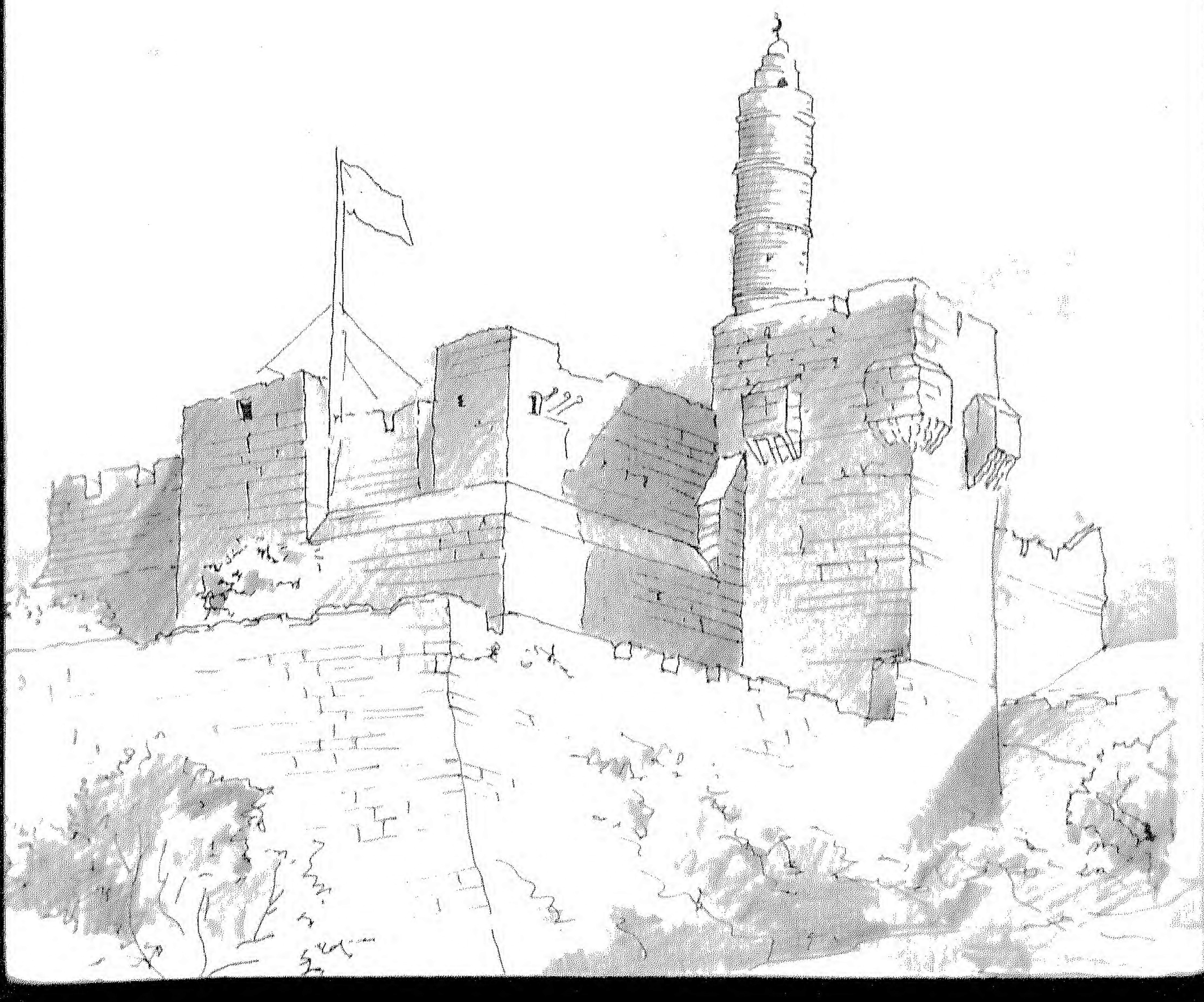

صلاح الدين

وسقوط مملكة القدس

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

الطبعة الاولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رسمت الغلافين بتصرف المهندسة رجاء السليم

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الاهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

طبع بمطابع الأهرام التجارية - قليوب

اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

909.04927092
رقم التسجيل :
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

صلاح الدين وسقوط مملكة القدس

SALADIN
AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM

ترجمة
فاروق سعد أبو جابر

أشرف على اللغة العربية
الأستاذ روكس بن زائد العزيزي

تأليف ستانلي لين بوول
STANLEY LANE - POOLE, M.A.
باللغة الإنكليزية، طبعة نيويورك ١٨٩٨م.

الإهداء

لكل عربي في أرجاء هذا العالم
لعل في قراءة هذا الكتاب عبرة لمن يعتبر
لأن التاريخ لا يعيد نفسه.
بل الرجال "الرجال" هم صانعو التاريخ !

تمهيد
من قلم الأستاذ روكس بن زائد العزيزي

بين عظماء الإسلام الخالدين تبرز شخصية صلاح الدين الأيوبي «يوسف بن أيوب بن شاذي» أبو المظفر الملقب بالملك الناصر تبرز قمراً منيراً في ليل بهيم. كان أبوه وأهله من قرية رودين في شرقي اذربيجان، وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذانية، من الأكراد الذين نزلوا بتكريت، وفيها ولد (صلاح الدين) وفيها توفي جده شاذي، وتولى أبوه أعمالاً في بغداد والموصل ودمشق وبعلبك. ونشأ صلاح الدين في دمشق.

كان صلاح الدين ميالاً إلى الفقه، ولم يخطر في باله أن يكون محارباً. ويوم دعاه عمه (شيركوه) أن يرافقه في الحملة التي وجهها (نور الدين للاستيلاء على مصر) سنة ٥٥٩هـ، رافقه كارهاً فصحت فيه الآية الكريمة «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» صدق الله العظيم.

أجل لقد كان هذا، لأن مزايا صلاح الدين الحربية برزت في هذه الحرب التي انتصر فيها شيركوه باسم السلطان نور الدين زنكي. فلما توفي شيركوه، اختار الخليفة القاطمي (العاضد) صلاح الدين وزيراً له وسلمه قيادة الجيش، ولقبه بالملك الناصر، وفي هذه الأثناء هاجم الفرنجة (دمياط) فصدهم صلاح الدين. ثم استقل صلاح الدين بمصر، معترفاً بسيادة (نور الدين زنكي). مرض (العاضد) ولقي ربه في مرضه هذا فقطع صلاح الدين ذكر الفاطميين في خطبه وخطب للعباسيين. فيكون قد ألغى المذهب الشيعي وأحل محله المذهب السني. مات نور الدين، فاضطربت الأمور في بلاد الشام والجزيرة فدعي صلاح الدين لضبط البلاد، فذهب إلى دمشق سنة (٥٧٠) هـ فاستقبل بحفاوة بالغة. وأخذ يتردد بين سورية ومصر ثم صار شغله

الشاغل ضد غارات الفرنجة. ولصلاح الدين مع أعماله الكثيرة الخالدة عملان بارزان هما: انتصاره على الصليبيين في:

١- واقعة حطين.

٢- استرداده القدس (٥٨٣) هـ ١١٨٧م الذي تميز على غيره من الفتوحات التي سالت فيها أنهار الدماء! ولو أردت أن أصور شخصية صلاح الدين لقلت: «انها تكونت من الشجاعة العجيبة. والكرم، المتسامي والتسامح، والعفو عند المقدرة، ورقة القلب في المواقف الإنسانية. تضرعت إليه نساء الفرنجة أن لا يستعبد رجالهن يوم فتح القدس فرق لهن وعفا عن رجالهن جميعاً، فبكت النساء فرحاً، فبكى صلاح الدين الرجل العظيم إشفاقاً لأن المواقف الإنسانية كانت تهز أعماق قلبه الكبير!

وقد تغنى أعداء صلاح الدين بمكارم أخلاقه!..

وبعد صراع طويل عقد صلحاً مع (ريتشارد قلب الأسد) **Richard Coeur de Lion** ملك انكلترا بحيث يكون للفرنجة الساحل من عكا إلى يافا وأن يسمح لحجاجهم بزيارة القدس. وأن تدمر عسقلان ويكون الساحل من أوله إلى الجنوب لصلاح الدين وبعد الصلح عاد ريتشارد إلى بلاده.

وتحول صلاح الدين عن القدس بعد أن بنى فيها المشافي والمدارس التي تسمى باسمه إلى اليوم وفي دمشق لقي ربه بعد أن ضرب المثل الأعلى في العفة عن المال، يوم استولى على خزائن الفاطميين التي لا يمكن إحصاء ما كان فيها من أموال ومجوهرات فوهبها كلها لرجاله لم يمس منها شيئاً، عند موته لم يجدوا عنده سوى ٤٧ درهماً فضة وقطعة واحدة من ذهب الفرنجة ضربت في مدينة صور.

كان متواضعاً يشعر أمراء جيشه أنه واحد منهم. كان مطلعاً على الحديث والفقه والأدب مولعاً بأنساب العرب، حفظ ديوان الحماسة. حكم مصر ٢٤ سنة وسورية ١٩ سنة خلف ١٧ من الذكور وأنثى واحدة. تناولت سيرته كتب كثيرة من أهمها هذا الكتاب باللغة الانكليزية شهدت المعلمة البريطانية المطبوعة عام ١٩٩٣م أنه خير ما كتب على صلاح الدين. ترجمه بالعربية صديقنا الأخ فاروق سعد أبوجابر، وقد كرمنا بالإشراف على لغته العربية!

مقدمة المترجم

لدي هواية مفيدة وهي جمع الكتب القديمة عن منطقتنا العربية سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة. وبتاريخ ١٩٨٦/١٠/٢٤في إحدى زياراتي لمدينة لوس أنجليس الأمريكية عثرت في إحدى المكتبات المختصة ببيع الكتب القديمة على هذا الكتاب «صلاح الدين وسقوط مملكة القدس» لمؤلفه ستانلي لين بوول المطبوع في نيويورك عام ١٨٩٨.

لماذا ترجمت هذا الكتاب ؟!

صادف يوم الخميس الموافق ١٩٩٣/٣/٤ مرور ثمنمئة عام على وفاة بطل الأمة صلاح الدين. كنت قد قرأت الكتاب، فجال بخاطري أن أكتب مقالة على صلاح الدين نشرتها جريدة «الرأي» الأردنية مشكورة وبالتاريخ نفسه في صفحتها الثانية وتحت باب «منبر الرأي» بعنوان «موت بطل أمة : صلاح الدين !»

لإعجابي بالكتاب وما احتوى رأيت أن أترجمه للعربية ليطلع عليه من يشاء من أبناء أمتي، عن قصة حياة بطلهم الشهير وعصره، والمعروف لديهم بأنه كردي الأصل ولد في مدينة تكريت في العراق وحرر القدس من الصليبيين بعد انتصاره عليهم في معركة حطين عام ١١٨٧م.

هذا وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية في طبعتها الصادرة عام ١٩٩٣ أنه أفضل ما كتب على صلاح الدين لتاريخه.

اعتمد الكاتب، وكان لفترة من الوقت مسؤولاً عن المتحف المصري في أواخر القرن التاسع عشر، على ثقاة عرب في مصادره كانوا قد عاصروا صلاح الدين أو جاؤوا بعده بقليل.

الأمانة العلمية والأخلاقية اقتضت أن تكون الترجمة صحيحة

قدر الإمكان وحسب مقدرتي باللغة العربية وباللغة الإنكليزية وأن لا أغير من كتابة المؤلف شيئاً سوى بعض ما يسيء للعرب بعض الشيء كما يسيء أيضاً للفرنجة في هذا العصر.

فعلى قارىء هذا الكتاب أن يتحلى بالصبر الجميل وسعة الإدراك لهذا الحذف الذي تفرضه الظروف الاجتماعية التي نمر بها.

أما بالنسبة إلى أسماء الأشخاص والأماكن فقد حاولت قدر الإمكان ترجمتها للعربية حسب معرفتي مع إبقاء الاسم الإنكليزي لها عند ذكرها لأول مرة. ولما لم أجد المعنى العربي لها فأبقيت على اسمها كما ذكر مع كتابته بالعربية. هذا ومن الملاحظ أن الصليبيين قد حولوا كثيراً من الأسماء العربية إلى أجنبية إبّان احتلالهم كما يعمل الصهاينة الآن في فلسطين بتغييرها إلى العبرية.

وإنني لعلى ثقة كبيرة بأن القارئ والمحب للتاريخ سيجد في هذا الكتاب من المعلومات الوافية واليومية عن حياة صلاح الدين منذ كان عمره خمسة وعشرون عاماً وحتى وفاته في سن الخامسة والخمسين، مالا يجده في أي كتاب آخر. أما السنوات الأولى من عمره فلم يعرف عنه الكثير سوى أنه ولد في تكريت ونشأ حتى الخامسة عشرة من عمره في بعلبك بلبنان حيث كان والده حاكماً لها ثم انتقل إلى دمشق لعشر سنوات قضاها في بلاط السلطان حيث لم يعرف عنه سوى ورعه وتقواه وميله إلى الفقه. ولم يلمع نجم صلاح الدين إلى أن شارك عمه شيركوه مرغماً على مهاجمة مصر من سورية. وهنا لمع نجمه وبرزت براعته العسكرية ومواهبه الحربية وحزمه وسماحته التي لا توصف.

فاروق سعد أبو جابر

عمان فى الفاتح من تموز عام ١٩٩٥ ميلادية.
الموافق ٣ صفر ١٤١٦ هجرية.

شكر واجب

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود وهم كثر بحمدالله، وعلى رأسهم أستاذي الفاضل العلامة روكس بن زائد العزيزي حفظه الله وأطال في عمره ومتعه بوافر الصحة والعافية .

ملاحظات للقاريء الكريم

أرجو لفت انتباه القارئ الكريم بأنني رأيت أن لا أغفل شيئاً مما ورد في الطبعة الانكليزية، حتى ولو لم تكن له أية علاقة بصلاح الدين من قريب أو بعيد، إلا وأوردته في هذه الترجمة، إما مترجماً أو كما ورد أصلاً.

ولمتطلبات التحرير والطباعة وجب عليّ تغيير مواقع الخرائط والخطط الحربية والصور ووضعها في نهاية الكتاب. هذا وقد تركت تسلسل العائلات الحاكمة في ذلك العصر كما هي بالانكليزية.

كما انني تركت بعض الصفحات التي لا علاقة لها بالكتاب، بل هي على الأكثر دعاية للناشر حين طباعة الكتاب (١٨٩٨م). تركتها كما وردت بالنسخة الانكليزية.

أما بالنسبة لحواشي الكتاب فقد قمت بترجمة أهم ما جاء فيها من المعلومات ووضعت لها أرقاماً مسلسلة حسب ما وردت في صفحات الكتاب، وطبعت بعد نهاية الفصل الأخير منه.

[redacted]

المراجع الرئيسية للكتاب

إبن الأثير (١١٦٠-١٢٣٣م.) الباهر: تاريخ الأتابكس في الموصل كتب عام ١٢١١م. الكامل في التاريخ: تاريخ عام كتب حتى عام ١٢٣١م. حرره تورنبرج Tornberg، ١٤ جزء - ليدن - هولندا - ١٨٦٦ - ١٨٧٦م.

بهاء الدين ابن شداد (١١٤٥-١٢٣٤م.) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. حياة صلاح الدين. حرره شلتنز Schultens، ليدن - هولندا، ١٧٣٢م.

إبن خلكان (١٢١١-١٢٨٢م.) وفيات الأعيان: قاموس حيوات شخصية، ترجمة دي سلين de slane، ٤أجزاء، باريس -فرنسا، (١٨٤٣-١٨٧١م.)

أسامة ابن منقذ (١٠٩٥-١١٨٨م.) كتاب الاعتبار: سيرة شخصية، حرره وترجمه هـ. دير أنبورغ H. Derenbourg، جزئين، باريس - فرنسا، (١٨٨٦-١٨٩٣م.)

عماد الدين الكاتب (١١٢٥-١٢٠١م.) الفتح القدسي: لاندبرج Landberg، جزء واحد، ليدن - هولندا ١١٨٨م.

أبو شامة (حوالي ١٢٦٧م.) كتاب الروضتين: تاريخ نورالدين وصلاح الدين. جزءين، القاهرة، (١٨٧٠-١٨٧١م.)

وليم حاكم صور (نحو ١١٣٧-١١٨٥م.) William of Tyre بالافرنسية

– تاريخ المشرق – جزء واحد، باريس – فرنسا ١٨٤٤م.

ايرنول (توفي نحو ١١٨٧م.) تدوين وقائع – حررها ماس لاتري Mas Latrie باريس – فرنسا ١٨٧١م.

ايتينيراريوم Itinerarium Peregrinorum et Gest Regis Ricardi (1190-92 A.D.) تحرير ستبز Stubbs في مسلسل رولز – ٣٨ مجلداً – لندن، ١٨٦٤م.

آرشر. ت.أ. Archer , T.A. الحملة الصليبية لرتشارد الأول – لندن، ١٨٨٨م.

لـ سترينج جاي Le Strange, Guy فلسطين تحت حكم المسلمين – صندوق استكشاف فلسطين، ١٨٩٠م.

ري . إي Rey, E. مستعمرات الفرنجة في سورية، باريس – فرنسا ١٨٨٣م.

الفهرس

صفحة

- عنوان الكتاب ٣
- الإهداء ٥
- تمهيد ٧
- مقدمة المترجم ٩
- شكر واجب ـ ملاحظات للقارئ الكريم ١١
- المراجع الرئيسية ١٣
- الفهرس ١٥
- مقدمة المؤلف ١٩

- **الجزء الأول** ٢٧
صلاح الدين ـ المقدمة.

- **حياة صلاح الدين** ٢٩

- **الفصل الأول** ٢٩
عالم صلاح الدين.

- الفصل الثانى ٤٥
الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٨ م.

- **الفصل الثالث** ٥٥
البشير ١١٢٧ م.

- **الفصل الرابع** ٦٣
سقوط الرها.
من عام ١١٢٧ ـ ١١٤٤ م.

تابع الفهرس

صفحة

- **الجزء الثانى** ٧٥
مصر ١١٣٨ ـ ١١٧٤م.

- الفصل الخامس ٧٧
- شباب صلاح الدين.
١١٣٨ ـ ١١٦٤م.

- الفصل السادس ٨٧
فتح مصر ١١٦٤ ـ ١١٦٩م.

- الفصل السابع ١٠١
وزير مصر ١١٦٩ ـ ١١٧١م.

- الفصل الثامن ١١١
صلاح الدين فى القاهرة.
١١٧١ ـ ١١٧٣م.

- **الجزء الثالث** ١٢٣
الانبراطورية ١١٧٤ ـ ١١٧٦م.

- الفصل التاسع ١٢٥
غزو سورية ١١٧٤ ـ ١١٧٦م.

- الفصل العاشر ١٣٥
الهدنات والمعاهدات ١١٧٦ ـ ١١٨١م.

- الفصل الحادى عشر ١٤٧
فتح بلاد الرافدين
١١٨١ ـ ١١٨٣م.

تابع الفهرس

صفحة

ـ الفصل الثاني عشر ١٥٥
دمشق ١١٨٣ ـ ١١٨٦م.

ـ **الجزء الرابع** ١٧١
الحرب المقدسة ١١٨٧ ـ ١١٩١م.

ـ الفصل الثالث عشر ١٧٣
معركة حطين ١١٨٧م.

ـ الفصل الرابع عشر ١٨٧
استعادة القدس ١١٨٧م.

ـ الفصل الخامس عشر ١٩٩
الحشد في صور
١١٨٧ ـ ١١٨٨م.

ـ الفصل السادس عشر ٢٠٩
معركة عكا ١١٨٩م.

ـ الفصل السابع عشر ٢١٩
حصار عكا ١١٨٩ ـ ١١٩١م.

ـ **الجزء الخامس** ٢٢٩
ريتشارد وصلاح الدين
١١٩١ ـ ١١٩٢م.

ـ الفصل الثامن عشر ٢٣١
سقوط عكا ١١٩١م.

تابع الفهـرس

صفحة

ـ الفصل التاسع عشر ٢٤٧

التقدم على الشاطئ آب ـ أيلول ١١٩١م.

ـ الفصل العشرون ٢٦٣

مشاهدة القدس

أيلول ١١٩١ ـ تموز ١١٩٢م.

ـ الفصل الحادى والعشرون ٢٧٧

آخر قتال فى يافا ١١٩٢م.

ـ الفصل الثاني والعشرون ٢٨٧

الراحة ١١٩٢ ـ ١١٩٣م.

ـ الفصل الثالث والعشرون ٣٠١

صلاح الدين فى القصص.

ـ هوامش الكتاب ٣٠٣

ـ عناوين الكتاب ـ بالإنكليزية ٣١٧

ـ شعر بهاء الدين ـ بالإنكليزية ٣٢٠

ـ مطبوعات أبطال الأمم ـ بالإنكليزية ٣٢١

ـ قصص الأمم ـ بالإنكليزية ٣٢٢

ـ أبطال الأمم ـ بالإنكليزية ٣٢٤

ـ صور الكتاب ٣٢٦

ـ زخارف وخطوط الكتاب ٣٥٣

ـ الخرائط والخطط ٣٥٦

ـ السلالات الحاكمة فى عصر صلاح الدين ٣٦٩

ملاحظة : الرسومات والخطوط بالعربية وبالخط الكوفى من القرن الثالث عشر الميلادى وماقبله.

مقدمة المؤلف

صلاح الدين من الشخصيات الشرقية القليلة الغنية عن التعريف بل هو من القلائل الذين لا يحتاجون إلى تقديم للقارىء باللغة الانكليزية. وقد قام السير والتر سكوت **Sir Walter Scott** بهذه المهمة بكل إخلاص وعمق وروية وإعجاب بهذا النابغة.

ومن حسن حظ صلاح الدين أنه لم يسحر المعجبين به وحدهم بل تعداهم فنال إعجاب الملك ريتشارد **King Richard** ونتيجة لهذه المصادفة، أصبح التعبير التاريخي الجاف " الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب" لا يرقى الى قولنا " صلاح الدين " هذا الاسم الذائع الصيت في كل مكان.

والفكرة هي في الحقيقة غامضة ورومانسية. الطلسم **Talisman** قدم لنا صورة نبيلة للسلطان الذي اثارت فروسيته وكرمه إعجاب الصليبيين به، ولكن القارىء واجه الشك في تاريخ إنجازات هذا البطل وان هذه الصفحات المثيرة غير موثوق بها في الغالب.

وفي نهاية هذا الكتاب إشارة للعلاقة التاريخية عن كيفية كسب صلاح الدين هذه السمعة.

أما السيرة الذاتية الحديثة التي كتبت باللغة الانكليزية لأول مرة، فهي مقتبسة من المصادر المعاصرة. وتقول بأنه متفرد بالنسبة إلى ما جاء في الأدب الإنكليزي وترك أخلاق وتاريخ صلاح الدين أجبرت على البقاء حيث تركها سكوت قبل سبعين عاماً. ولم توجد صورة كاملة عن حياة الخصم الشهير لريتشارد قلب الاسد، فالمعلومات وافرة كما يفهم العلماء الشرقيون السير الذاتية، ويجب ألا نتوقع التفاصيل الشخصية التي تسر طلاب"المقابلات":

كما ولا توجد جرائد مصورة في زمن صلاح الدين.

أما بالنسبة للحقائق الاساسية عن طبيعة ونوعية حياته، فلدينا الدليل الممكن والغني والأمين بالتفصيل. وكاتبا السجلات العربية الرئيسيان كان لديهما أفضل الفرص لتأكيد الحقيقة، وكلاهما كانا رجلي علم وأخلاق عالية.

بهاء الدين كان أصغر من صلاح الدين بسبع سنوات فقط، وعاش بعده أربعين عاماً، كان عربياً من قبيلة معروفة باسم أسد، ولد في الموصل على نهر دجلة عام ١١٤٥م. وقد تجشم عناء الدراسة التي اعتبرها المسلمون في ذلك الوقت مؤهلاً لتولي مركز القضاء. وفي الكلية النظامية المعروفة ببغداد والتي أسسها الوزير العظيم نظام الملك، الصديق وزميل الدراسة للفلكي والشاعر عمر الخيام، كان بهاء الدين يستمع لمحاضرات الأساتذة المرموقين حينذاك، وكذلك للأساتذة الذين كانوا يتنقلون مثل علماء العصور الوسطى من جامعة إلى أخرى، من قرطبة الاسبانية إلى تتر سمرقند يُعلمون ويتعلمون حيث يذهبون. وعليه أصبح هو نفسه أستاذاً في مدينته الأصلية الموصل حيث جعلته حكمته وصواب رأيه يزكى لحاكم وادي الرافدين الأتابيك الذي اختاره صلاح الدين تكراراً ليكون سفيراً في الأزمات السياسية.

وكان بهاء الدين في الموصل عندما حاصرها صلاح الدين مرتين خلال عام ١١٨٢م، وعام ١١٨٥م؛ وذهب سفيراً إلى دمشق عام ١١٨٤م حيث أعجب صلاح الدين ببهاء الدين وقدراته فعرض عليه منصب القاضي الذي رفضه المندوب بولاء. ولكن تقابلا في حران في ربيع ١١٨٦م عندما ساعد بهاء الدين في عقد معاهدة السلم بين السلطان وصلاح الدين. وبعد أداء الحج الى مكة ثم القدس التي استردت حديثاً من المسيحيين، زار السلطان مرة أخرى، ومنذ ذلك الوقت لم يترك جانبه. ثم انضم الى خدمته في ٢٨ حزيران ١١٨٨م، وكان موجوداً خلال حملاته المتتابعة وشهد حصار عكا Acre من البداية إلى النهاية. وقد رافقه عند مضايقته لمسيرة ريتشارد في الساحل وأخذ دوراً مهماً في المعارك التي حصلت في يافا عام ١١٩٢م،

حيث كان ملازماً لفراش صلاح الدين خلال مرضه الخطير. وبعد وفاة السلطان رضي بمنصب الحاكم الأعلى في حلب، واصبح يقف حماسته ومدخراته لغرض إنشاء كليات ومعاهد لتدريب أساتذة متعمقين في القانون. وقد ترك أحد تلاميذه وصفاً للقاضي الجليل، كما عرفه، حيث لا يستطيع تدفئة مكان نومه أو الفراء الثقيل من تدفئة الدم المتجمد لرجل في الخامسة والثمانين؛ ولكن الباحث المعمر ظل محباً لتعليم تلامذته الذين كانوا يفدون إليه بعد صلاة الجمعة، حيث لم يعد بإمكانه الذهاب إلى الجامع وحتى في صلواته الخاصة لم يستطع تحريك أقدامه، وكان واهناً من الضعف كالطير بلا ريش كما يقول كاتب سيرته. وتوفي في عام ١٢٣٤م، بعد بضع سنوات من الحوادث التي ذكرها بحياته عن سيده.

وفي الخمس سنوات الأخيرة من عمل صلاح الدين، كانت لبهاء الدين سلطة لا تضاهى كان شاهد عيان على ما حدث وصديقاً حميماً ومستشاراً للسلطان. أما في الفترات الأولى فقد كان أقل صحة وأقل تفصيلاً، مع أنه كان قادراً على تدوين بعض الأمور المهمة بجدارة، ثم كانت اتصالاته المألوفة بالسلطان وأتباعه وذويه التي مكنته من الاطلاع على الكثير من المعلومات. وكان يكتب بحق كمادح صريح، وحسب رأيه كان يعتبر الملك لا يخطيء فصراحته وإخلاصه في سرد الحكايات والأخبار والحوادث، لم تؤثر في ما يكتب كما يرى ويفكر ولم تتأثر ترجمة صلاح الدين بحبه الذي يقرب من العبادة لهذا البطل. وهذا ما يوضح الطابع الجلي للحقيقة ومدى تحيزه الشخصي ومغالاته الشرقية التي يمكن عدم اعتبارها بسهولة. وحسب كونه شاهد العيان الوحيد للمباحثات ما بين ريتشارد الأول وصلاح الدين، فإن دقة بهاء الدين كانت صفة حميدة ذات أهمية كبرى.

وإذا كان بهاء الدين من المجاهرين في عبادة الأبطال فإننا نجد في السلطة العليا الأخرى مصلحاً مفيداً لإعجابه غير المبرر. كان لابن الأثير كل مبرر سياسي ليستهجن تغييرصلاح الدين للأمراء المحليين بالقوة، ويومياته السنوية كانت تنتقد قيادة صلاح الدين باتهام أو اتهامين من أشد الاتهامات خطورة على نقد لزعامة صلاح

الدين. وكان ابن الأثير عربياً من قبيلة شيبان وأصغر سناً من بهاء الدين بخمسة عشر عاماً وولد عام ١١٦٠م، في جزيرة ابن عمر على نهر دجلة في المدينة التي كان والده والياً عليها أو عريفاً. أمضى المؤرخ معظم حياته في الدراسة الجادة في الموصل، عندما كان أخوه مستشاراً مرموقاً للاتابيك الذي حكم وادي الرافدين، والأخ الآخر كان له منصبٌ في مكتب صلاح الدين.

ابن الأثير كما هو بهاء الدين وُجد عندما حاصر صلاح الدين الموصل عام ١١٨٥م. وانضم للفريق الذي أرسله فيما بعد أمراء وادي الرافدين لمرافقة جيش السلطان في حملة شمالي سورية في عام ١١٨٨م. وكان سائحاً في رحلاته إلى دمشق والقدس وحلب التي حققت صحة معلوماته.

أنهى كتابه "تاريخ أتابكة الموصل" عام ١٢١١م. وكان متألقاً في المديح والاطراء كما هو في السيرة التي كتبها بهاء الدين لصلاح الدين، ولكنها كانت مديحاً لأعداء صلاح الدين؛ ولا يمكن أن يغفر للمؤلف في إحلاله لدور الأتابكة في سورية، وكذلك جعل سيده الأعلى في الموصل تابعاً له. لذا فان ابن الأثير لم يتغاض عن متناقضات صلاح الدين، ومع هذا التحيز الطبيعي لصالح كبار السادة والمحسنين من اسرته، وهو غالباً ليس عادلاً وليس متسامحاً، واعترف بخدمات صلاح الدين الجليلة للإسلام، وكتابه الاخير "الكامل في التاريخ" الذي صدر خلال السنوات الثلاث الأولى قبل وفاته عام ١٢٣٣م قد أوضح تلك الروح غير المتحيزة أكثر من تأبينه الخاص للأتابكة في الموصل.

لقد كان لهذين المؤرخين السلطة العليا لكتابة حياة صلاح الدين، ولكن بعض الآخرين كان لهم تأثير كبير في النواحي الخاصة بعمل صلاح الدين، ومنهم عماد الدين في أصفهان الذي يعرف عموماً بالخطيب وهو الكتوم الرئيسي أو المستشار للمقاطعات السورية الذي له تأثير كبير. ومن المؤسف أنه لم يطبع غير الجزء القليل من أعماله. فقد كان في حصار عكا، مع أن كتاباته ليست على درجة عالية من البلاغة، ولكنها كوثائق تعتبر

من الطراز الممتاز. أما أسامة الذي كتب سيرة حياته فهو أمير عربي وشاعر في قلعة شيزر Sheyzar على نهر العاصي Orontes الذي شهد القسم الاكبر من فترة الصليبيين منذ ولادته في عام ١٠٩٥م وحتى وفاته في عام ١١٨٨م التي مثلت الصورة الحيوية لذلك العصر. ومع تقدم سنه فقد عاش بضع سنوات في دمشق مع الاتصال الدائم بصلاح الدين، أما ذكرياته في هذا المضمار فكانت مخيبة للآمال. فالعربي القديم كان معتزاً بنفسه ليعطي مجالاً واسعاً لأقوال وأفعال الآخرين. ابن خلكان المترجم المجتهد لسِيَر حيوات الأشخاص البارزين، وأبو شامة مؤلف (الحديقتان)، لم يكونا كلاهما من المعاصرين ولكنهما عرفا من عرفوا صلاح الدين، وكتاباتهما كانت في بعض الأحيان تشير إلى ما هو مفقود أو تضخم ما هو هزيل في السجلات المعاصرة.

ومن بين المؤرخين المسيحيين كنا ذوي حظ بفلسطين بوجود الأسقف وليام حاكم صور William of Tyre الذي تميز في كتابه التاريخ (Historia) بالحيوية والادراك. ودرس اللاتينية والسجلات العربية لتلك الفترة التي جرت حوادثها في الشرق من عام ١١٤٤م الى ١١٨٣م. والأسقف هذا لم يترك خليفة له في مثل منزلته ولم يعش لعشر سنوات اخرى لكي يتم نقل تاريخه حتى نهاية الحملة الصليبية الثالثة، وكان يعد خسارة لكل تلميذ ودارس لتلك الفترة، والحزن عليه ليس أقل من حزن المؤرخين على صلاح الدين، الذين استمروا في متابعة أعماله لم يوكدوا أن أعماله كانت مدعاة لاعتباره مؤرخاً ولكنها لم تكن عادمة الأهمية، وحكاية ارنول Ernoul إثباتات معاصرة وقيمة. ارنول كان حاكم باليان عبلين Balian of Ibelin لعب دوراً مهماً في الحرب المقدسة وكان مراراً على علاقات شخصية مع صلاح الدين. ومما لا شك فيه أنه حضر معركة حطين الحاسمة وبعدها في الدفاع عن القدس. حكاية أرنول أيضاً كانت مليئة باللمسات الشخصية. والحيوية التي تعد ذات أهمية في تمثيل الجانب المسيحي للأحداث التي وصفها الكتاب العرب من وجهة النظر الإسلامية. ومن المفيد أيضاً وعلى درجة أقل في تدقيق Ricardolatry الضخمة Of The Itinerarium Regis Ricardi التي تكوّن ثقتنا التامة بالحملة الصليبية الثالثة بالرغم

من المبالغات والإتجاه الروحي والمدهش في التصميم الروائي لمنجزات البطل الإنكليزي.

هذه هي المصادر الرئيسة التي صورت حياة صلاح الدين. والملاحظ أن معظمها من المعاصرين، كما أن القسم الأكبر من حياته نقله شهود عيان حقيقيون، في حين لم يكن بالإمكان الإعتماد على شاهد بعد مرور جيل كامل، ومراجع هذه المصادر كانت تؤخذ عند وجوب تصحيح الوقائع. وفي الفصول الأخيرة كانت الأهمية هي التمييز بين الشهادة المسيحية وشهادة المسلمين، ومثل هذه الهوامش كثيرة. ولكن في الجزء السابق عندما كان المرجعان الأساسيان هما ابن الأثير وبهاء الدين كانت الأهمية لبيان التناقض بين الاثنين. ففي الدراسة التاريخية الجادة يجب أن تبنى على البحث الأصيل، والتحقيق لمثل هذا البحث ضروري جداً، وعندما يتوافر مثل هذا البحث فإن الأمل متوقف على مقدار الثقة لكاتب تلك السيرة. ولا يوجد في هذا المجلد الضخم سطر واحد يخلو من الدليل العملي المعاصر.

ومن الملاحظ أنه من الغريب أن تكون هذه المواد الوافرة لم يستفد منها منذ فترة طويلة في كتابة حياة صلاح الدين المضنية. ولكن من غير الإنصاف إنكار الاعجاب بأعمال السيد مارين **M. Marin**.

“ Un ecrivan aussi connu par la douceur de ses moeurs que par l’etendue de ses lumieres et l’elegance de sa plume. ”

الكاتب المعروف أيضاً بحسن الاخلاق وصاحب الأفق النير وكتاباته الأنيقه والسلسة.

وقد ولد م.لوي فرانسوا كلود **M. Louis - Francois - Claude** في المقاطعة بروفانس **Provence** التي تقلد فيها مناصب كالمراقب الملكي وفي الشرطة والسكرتير العام لمكتبة وأكاديمية مارسيليا ونانسي. وفي عام ١٧٥٨م. طبع كتابه بمجلدين عن "تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسورية"، والكتاب يبدو على الاغلب ليس معروفاً وإلا لوجد له بالتأكيد مترجماً، وقد كُتب بشكل علمي وفلسفي وبإحساس الفرنسي البارز الذي بإمكانه مواجهة النتيجة

المملة في حقيقة التعليم. وسيرة حياة مارين **Marin** يجب قراءتها للاعجاب بها. وقد جعل الاستفادة التامة من تاريخ حوادث الصليبيين ومن الطبعة **Schultens** لبهاء الدين، واستعان بالأتابكة لابن الأثير في مخطوطة عربية في باريس. ولما كانت كتاباته المعاصرة مستمرة فهو ممتاز، ولكنه اعتمد كثيراً على الكُتّاب المتأخرين وكذلك على نصوص لا توازن بالمكتبة الشرقية (هربلوت) **Herblot**. والحقيقة أنه اكتشف وطبع الكثير حينذاك. وما زالت تحديداته الضرورية تعتبر إنجازاً ناجحاً له. والخطأ الجدي الوحيد الذي لوحظ في أسلوب تناوله للحقائق أنه كان ميالاً للقراءة ما بين السطور أكثر من التحقيق في النص نفسه. وقد استخدم مارين **Marin** ما يسمى بالتصور أو التخيل التاريخي بشكل حر، بالرغم من إشارته للمراجع في المصادر الأصلية. يستطيع الشخص أن يلاحظ معادلة شخصية يجب حذفها. ومن المهم جداً أن يكون الشخص حراً في كتابة التاريخ ولكن يجب التقليل من الإغراء واحترام المحتوى في النص.

إن البعض من المؤرخين في بحوثهم عن تاريخ وادي الرافدين كانوا يعتقدون أنه من الضروري الاعداد لقرائهم منذ بداية الفيضان. وكان مارين يعتقد أن حياة صلاح الدين تحتاج إلى مقدمة تعود إلى فترة النبي محمد (صلعم) من تعاليم الإسلام. وأنا لم أحاول معرفة مدى صبر القاريء ولكن الوضع السياسي الذي بدأ فيه صلاح الدين عمله لا يمكن فهمه دون وصف تاريخ غربي آسيا خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر، وخاصة ما حققه سلفه زنكي فاتح الرها (اديسا **Edessa**) حيث أن طموحاته غير المنجزة مهدت لطموحات صلاح الدين الإمبراطورية. أما فصول المقدمة فقد اختصرت على أضيق نطاق ممكن.

فالأسماء الشرقية كانت عائقاً طبيعياً بالنسبة لقراء الغرب، واستعمال اللهجات والاشارات الطويلة، النقاط، وماشابهها لاتساعد كثيراً بالنسبة لغير المتعلمين. وفي هذا البحث تكتب الأسماء بأبسط مايمكن ويطلب من القارئ أن يلفظ الحروف بالطريقة الإيطالية، أما أولئك الفضوليون الذين يطلبون الترجمة الدقيقة فيجب عليهم مراجعة الفهرس حيث أن كل اسم مزود بالألفاظ الصحيحة والعلامات المميزة وبإمكان الباحث تحويلها

بسرعة إلى الصيغة العربية، وفي النص الفقرة (el) عموماً تحذف قبل الأسماء المعروفة للمدن مثل الموصل (el - Mosil) والرملة (El - Ramla) والأسماء الغربية المألوفة مثل الرها وهي (Edessa for er-Ruha) وحلب (Aleppo) والقاهرة (Cairo for el- Kahira). وعندما يكون للمدينة اسمان أحدهما يستعمله العرب والآخر يستعمله الفرنجة Franks أو الصليبيون، وكلاهما تعطى لهما أولوية الاستعمال، والأسماء الصليبية بقيت مستمرة باستمرار وجود الصليبيين في تلك الأماكن.

جداول السلاطين والأمراء في غربي آسيا لأسرة صلاح الدين وكذلك لبيوت الحكام الصليبيين ستساعد القارىء على معرفة الوضع السياسي. والخرائط قامت على بحث غربي فلسطين لـ (توليه) Thuilier و (شمال سورية) لريز Rey's و الجغرافيون العرب. وقد كان عمل السيد جاي لسترانج Mr. Guy Le Strange القيم عن (فلسطين تحت سلطة المسلمين) مساعدة كبرى للباحثين. والملاحظات التي قدمها اللفتنانت كولونيل كوندير وسير شارلز ويلسون Lieut-Col.Conder R. E., Gen. Sir Charles Wilson في (الحج الى فلسطين)، والنص المترجم لبهاء الدين، ولكن النص الذي لم يترجم مباشرة إلى العربية لم يؤخذ به. والمؤلف كان مديناً للسيد ت.أ.آرشر Mr. T.A. Archer ليس في استعداده للمساعدة عند بروز مشكلة متعلقة بتاريخ احداث الصليبيين، ولكن أيضاً في السماح لاقتباس ترجمته لأجزاء من (يوميات الملك ريتشارد) Itinerary of King Richard التي طبعت في كتابه الرائع الصغير الحملات الصليبية لريتشارد الأول – The Crusade of Ritchard I – في (سلسلة من التاريخ الإنكليزي للكتاب المعاصرين) English History from Contemporary Writers الذي ألفه الأستاذ البروفسور يورك باول Professor York Powell. وشكره يعود للسيد إي. بي. كنوبل Mr. E. B. Knobel الرئيس السابق لجمعية الفلكيين الملكية لبحثهم الجيد للتسلسل الزمني للكسوف والخسوف التي دونت في فترة حملات صلاح الدين، ولمحرري النشرة الفصلية Quarterly Review للسماح بطبع جزء من المقال عن "زمن صلاح الدين" "The Age of Saladin".

صلاح الدين

الجزء الأول

المقدمة

حياة صلاح الدين
الفصل الاول
عالم صلاح الدين

في العام ١١٣٢م وصل الجيش الهارب أمام ملاحقيه إلى الضفة اليسرى من نهر دجلة.

وفي الجانب الآخر، وعلى المرتفع المنحدر تقع قلعة تكريت الحصينة التي تحمي أصحاب الأراضي بخندق عميق يمكن الوصول إليه بسلالم سرية محفورة في الصخر تؤدي إلى قلب القلعة وإلى حافة المياه، وكان الأمل الوحيد للهاربين، هو اللجوء إلى القلعة ويتقرر مصيرهم كما يقرر مأمور القلعة. ومن دواعي السرور أن الجيش اختار الجانب الودي لتجهيز قارب ليعبروا بسلام، والقوارب في نهر دجلة هي التي جلبت الحظ لأسرة صلاح الدين. وكان زنكي حاكم الموصل القدير مديناً للذين أنقذوا حياته بطريقتهم الخاصة وفي الوقت المناسب. وبعد ذلك عندما انتصرت قواته لم ينس الدين الذي كان عليه لتكريت وكان مقدراً دائماً للخدمات التي قدمها له مأمور تكريت التي جعلته يتقدم في مركزه إلى أعلى مع موجة تقدم صلاح الدين، ذلك الحارس كان والد صلاح الدين.

أيوب (بالانكليزية البسيطه **Job**)، سمي باللقب الذي أطلقه عليه العرب نجم الدين أي بمعنى (نجم الإيمان). وهو الآمر السعيد الحظ في تلك اللحظة الحاسمة، مع انه كان شرقياً مسلماً ويتصل نسبه بالعرق الآري **Aryan** العظيم مثلنا، ولكونه ليس عربياً أو تركياً، وإنما كردي من قبيلة الروادية **Rawadiya**، فقد ولد في قرية أجداناكان **Ajdanakan** بالقرب من داوين **Dawin** في أرمينيا. ومنذ ذلك الوقت والأكراد يزاولون حياة الرعي في المناطق الجبلية ما بين فارس وآسيا الصغرى. وفي حياتهم القبلية كان يتأصل حبهم للصوصية والفروسية والإحساس بالشرف وحسن الضيافة.

كانوا في شجاعتهم المشهودة، يشبهون العرب في أيام الجاهلية قبل الاسلام أو الأسكتلنديين في المرتفعات قبل إصلاحات المارشال ويد **Wade**. وكانوا أبطالاً محبين للحرب ومنغلقين أمام قوانين التمدن وأشداء أمام الغرباء، لكنهم يتحلون بالعديد من الفضائل الفطرية. وعلى الأقل فقد أنجبوا صلاح الدين. ولم يعرف عن آبائه وأجداده الأولين أي شيء. وقد وصفت أسرته من سرد تاريخه بأنها من الأسر المرموقة في داوين. وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه في الغالب تميز محدود وإقليمي، وداوين كان يطلق عليها سابقاً دابيل **Dabil**. وكانت العاصمة لداخل أو شمالي أرمينيا في القرن العاشر قبل أن تحصل تفليس **Tiflis** على الأهمية الكبرى. وكانت مدينة واسعة لها سور ضخم وهي مقر حاكم المقاطعة ومعظم سكانها من المسيحيين يزاولون تجارة الأقمشة من شعر الماعز والسجاد الذي يحاك ويلون باللون القرمزي من الديدان القرمزية **(Kirmiz)**. وكان اليهود والمجوس والمسيحيون يعيشون في سلام بظل الفاتحين الإسلام، وكانت كنيسة الأرمن تقع إلى جوار الجامع الذي يصلي فيه المسلمون.

ولكن داوين سبق أن كانت في تأخر، عندما كان جد صلاح الدين شادهي **Shadhy** ابن مروان قد ورث مركز العائلة المرموق والمحترم؛ ولأن له أولاداً عديدين كان يبحث لهم عن عمل في بغداد حيث بلاط الخليفة والسلطان يقدم الجوائز لذوي الطموح، وكان شادهي مجرد اسم غير معروفة أخلاقه أو تاريخه ماعدا أنه كان له صديق يوناني في بهروز **Bihruz**، الذي ارتقى من العبودية في داوين إلى المقام العالي في البلاط الفارسي، وأصبح معلماً لأمراء سلجوق، وتلقى مكافأة من الحكومة الرشيدة في مدينة بغداد، وبهروز حفظ صداقته الحميمة لشادهي في رعايته لابن رفيقه أيوب، فجعله الآمر على قلعة تكريت. وبذلك صاحب الحظ الأسرة بأكملها ورافق أيوب شادهي وابنه شركوه، فإذا كان أيوب يثبت ثقته بنصيره وذلك بحكمة وشجاعة قانونه، فإن شيركوه كما يبدو كان عاطفياً ومتهوراً، حطم حظ العائلة الجيد بعمل قتل فروسي: فقد قتل وغداً ليثأر لخطأ امرأة. ولإنزعاج بهروز لهرب زنكي الذي لم يكن يحبه وعدم ميله لقسوة شيركوه، فقد أمر الأخوة

بالبحث عن عمل لهم في مكان آخر. فغادروا تكريت وهم يشعرون بسوء الحظ، وفي الليلة التي عزموا بها على ترك المكان ولد صبي لأيوب، ولم يكونوا على يقين لماذا كان تفسير تلك الحادثة بادرة سوء لأن صراخ الوليد سبب إزعاجاً لاستعداد هم للرحلة في تلك الليلة في قلعة تكريت في سنة النعمة ١١٣٨م. وكان يوسف (الوليد الجديد) الذي عرف بعد ذلك في الشرق والغرب باسم " شرف الإيمان " صلاح الدين.

وقبل المحاولة لمعرفة هل أن أيوب حمل الطفل صلاح الدين أو ماذا حدث لهم؟ يجب أولاً أن نلقي نظرة عجلى على الظروف السياسية التي أوجدت مهمة قائد العرب في المستقبل.

فشرق العالم في ذلك الوقت كان مختلفاً كلياً عن الإمبراطورية القديمة للخلافة؛ وقد غير ذلك كثيراً بحياة والد صلاح الدين، فشعلة الحماسة التي جعلت جيوش الإسلام كالنيران المستعرة من الأراضي العربية القديمة إلى صحراء السند في الشرق، ومن المحيط الأطلسي في الغرب، لم تستطع توحيد هذه الجماعات بمنظمة متينة، التي أصبحت بسرعة وبصورة مدهشة هذه الإمبراطورية واسعة الأطراف. واستمرت الخلافة لأكثر من ستمئة سنة ولكن تلك الإمبراطورية بقيت تتأرجح ثلث تلك المدة. وفي القرن السابع كان جنود النبي العربي (صلعم) قد زحفت بسرعة على مصر وسورية وفارس حتى بلاد ما وراء الاكسوس **Oxus**، وفي أوائل القرن الثامن انتهت فتوحاتهم في الساحل البربري باحتلال اسبانيا، هذه الإمبراطورية المؤلفة من عناصر متناحرة وممتدة إلى مدى واسع ومقاطعات بعيدة لا تستطيع الاستمرار طويلاً في هذا الثبات والالتزام للحكومة المركزية التي كانت تصدر التعليمات والأوامر من دمشق أو بغداد. ثم إن الحاكم الشديد في النظام الإسلامي للمقاطعات كان ميالاً للحصول على الاستقلال الفعلي أكثر من نمطه الروماني. وفكرة الخلافة التي كانت لحد بعيد دينية أكثر منها سلطة إدارية شجعت الحكام المحليين على ممارسة سلطتهم التي لا تتناقض مع سلطة الرئيس الروحية؛ ثم الانشقاق الديني في الإسلام وخاصة بين أولئك

الغرباء المتطرفين الموالين المخلصين لِ آل علي كانوا قد انقادوا بطريق آخر لتقطيع أوصال الدولة. وقد سبق أن كان الحكم في القرن التاسع بيد المتعصبين للإمبراطورية الإسلامية حيث كان الحكام إما يرفضون سلطة الخليفة العباسي في بغداد أو على الأقل يتحملون الحاكم لكونه الآمر من أجل الإيمان ويطيعونه إطاعة تقليدية. وأن أمر الخليفة أو طاعته ما يشابهه لدى العرب حتى في أيام هارون الرشيد لم يسرِ في اسبانيا أو المغرب ولكنه لاقى احتراماً وقبولاً في تونس. أمّا مصر من ناحية وشمالي شرق فارس من ناحية أخرى فقد اتبعوا قيادة الغرب القصوى. وفي أواسط القرن العاشر كانت السلطة المؤقتة للخليفة لا تتعدى كثيراً أسوار قصره، حيث أنه كان مهدداً من الحراسة المشددة بوجود الحرس المرتزقة الذين جلبهم للدفاع عنه. هذا النوع من الحكم الديني (البابوي) استمر مع بعض التغيير الطفيف حتى قضى المغول على حكم الخليفة في بغداد عام ١٢٥٨م، ومرة أخرى والآن وبسبب ضعف الجوار والتسلسل الوراثي لشخص الخليفة، فان العباسيين تدريجياً استطاعوا استعادة جزءٍ من سيطرتهم الإقليمية في وادي دجلة والفرات؛ ومع ذلك فالخليفة كان له جيش كبير وسيطرة واسعة أكثر من سلفه الذي كانت سلطته محددة على إقليم ضيق في العراق، وتأثيره كقائد ديني كان محدود الرقعة في عالم صلاح الدين السياسي.

هذا العالم السياسي كان يمارس في حدود نهر دجلة من جهة الشرق والصحراء الليبية في الغرب. ولمدة قرن ونصف القرن قبل مجيء صلاح الدين وبدئه الاختلاط بشؤون الدولة. كان الفاطميون هم الذين يحكمون مصر والسلالة المنشقة التي تتطلب التفوق الروحي بحق تسلسلها من علي زوج ابنة الرسول (صلعم) الذين كانوا ينكرون على الخلافة العباسية سلطتها في بغداد. وكان ما يزال الوضع في سورية ووادي الرافدين يؤثر في سياسة الصليبيين. وكل هذه المناطق الجبلية من كردستان حتى لبنان كانت في العنصر والسياسات متحدة مع العرب، والقبائل العربية الكبرى كانت مستقرة في الأزمان الأولى في الوديان الخصبة من وادي الرافدين التي ما زالت أسماؤها متداولة في التقسيمات

الجغرافية. والقبائل البدوية كانت تتجول سنوياً من شبه الجزيرة العربية إلى الأراضي الرعوية في الفرات حتى هذا التاريخ وبعض القبائل ما زالت مستوطنة في جميع أرجاء سورية. انحلال الخلافة من الطبيعي كان يشجع على تأسيس الدول العربية في المناطق التي تسيطر عليها القبائل العربية. وفي القرن العاشر والقرن الحادي عشر سيطرت سورية ووادي الرافدين على تفوقهما، ولكن بحلول القرن الثاني عشر قُضي على هذا كلّه. وبقي العرب في مراكزهم التي كانوا يشغلونها وخيموا في كل أرجاء البلاد حتى أعالي وديان ديار بكر كما هم عليه الآن، ولكنهم لم يعودوا يحكمون تلك الأراضي التي يرعون فيها قطعانهم. فقد انتهت سيطرة العرب في تلك المناطق نهائياً وابتدأ حكم الترك.

الترك الذين زحفوا على بلاد فارس ووادي الرافدين وسورية في القرن الحادي عشر كانوا بقيادة منحدرة من سلجوق – قائد تركماني من السهول عبر أوكسوس **Oxus** – وبسلسلة من الحملات المتسارعة، سيطروا أولاً على أجزاء كبرى من بلاد فارس، وقدِمت قبائل تركية أخرى لتضخم الجيوش واتحدت القبائل تحت حكم سلجوق من غرب آسيا وحدود أفغانستان إلى مشارق الامبراطورية اليونانية حتى مصر. استسلم الفرس والعرب والأكراد وانحنوا لموجة الغزو الهائلة. وأن مدى أهميةِ غزو سلجوق كانت أعمق من مجرد التوسع الاقليمي، وبجلولهم تكون عهد في التاريخ الإسلامي وذلك بإحياء العقيدة الإسلامية.

"وفي زمن ظهور امبراطوريتهم انتهى عهد الخلافة. الذي كان نظاماً تحت حاكم إسلامي أصبح الآن مجموعة من سلالات متفرقة وليست واحدة ما عدا الفاطميين في مصر (الذين كانوا منشقين) قادرين على حكم امبراطورية متأرجحة. وجود الانقسامات أدى إلى زيادة عدم اتحاد المقاطعات المختلفة من الامبراطورية الزائلة. وكانت الحاجة لإيجاد العلاج وحصل ذلك بغزو الترك. هؤلاء الرعاة القساة الذين لم تفسدهم حياة المدينة والتجانس الحضاري في الدين اعتنقوا الإسلام بكل حماسة من أعماق قلوبهم. لقد جاءوا لإنقاذ الدولة المحتضرة وأحيوها. فزحفوا إلى بلاد فارس ووادي

الرافدين وسورية وآسيا الصغرى مدمرين البلاد مبيدين كل سلالة كانت قائمة، والنتيجة أنهم وحدوا مرة أخرى آسيا المسلمة من الحدود الغربية لأفغانستان إلى البحر المتوسط بقيادة قائد واحد. وأقاموا حياة جديدة للمسلمين الذين انهارت حماستهم وردوا انتهاكات البيزنطيين وولدوا جيلاً من المحاربين المسلمين المتزمتين الذين على أيديهم وليس غيرهم أعيد إخفاق الصليبيين".

أما ملك شاه فهو أحد أنبل الأباطرة السلاجقة الذي كان من الحكام الذين يملكون القوة في فرض عقليتهم على عصرهم. وكونه من هذه الأسرة وبيده الأوامر لم يكن له هو الشرف والاعتبار إنما قدرته على المبادىء، والذي يقوم بخدمة السلطان يجب أن ينشأ مثله وعلى مستوى من السلوك الذي يشبه نمط حياة السيد ومثال نموذجي للعصر، وقد سجل ذلك أحد المؤرخين العرب بأن الرأي العام هوالذي يقرر اعتبار الرئيس أو الحاكم وذلك وفقاً لدرجة محاكاته لتصرفات السلطان، والمستوى الذي يتبناه يكون نموذجاً سيئاً تجاه التزامات الأمير. وكانت العدالة هي الهدف الأول لملك شاه. كما أن هدفه الرئيسي هو بذل جهود لتعزيز ازدهار شعبه. وكان لإنشاء الجسور والقنوات والخانات الدليل الوحيد على تشجيعه للتجارة والاتصالات المتبادلة ضمن سلطاته، فالطرق كانت آمنة، حيث بإمكان اثنين من المسافرين أن يسيرا وحدهما دون حارس من ميرف **Merv** إلى دمشق، وكان كريماً وشجاعاً وعادلاً وحي الضمير. وقد حقق النموذج المثالي باعتباره أميراً مسلماً وكان خير مثال لأتباعه. عظيماً كما كان بخلقه وحكمه، كان ملك شاه مديناً بمبادئه وتنظيمه الناجح إلى الرجل الأكثر حكمة والذي شغل أعلى مركز في الحكم. نظام الملك يعتبر من أقدر السياسيين في العالم الذين كانوا يمدحونه من المسلمين يعجبون بفضائله الروحية ويثنون على قدرته في حفظ القرآن غيباً وهو في سن الثانية عشرة؛ ولكن الدليل الأسمى على قدرته اتضح في ازدهار وتقدم امبراطوريته العظمى التي دامت تحت حكمه لفترة ثلث قرن من الزمن.

كان ضليعاً في القانون، عميق المعرفة محباً للعلم والتعليم

وهو الذي شجع عمر الخيام في أبحاثه الفلكية ، التي كانت قليلة الأهمية بالنسبة لأيامنا ولكنها لاتقل أهمية عن رباعياته المشهورة - وأسس الكلية النظامية المعروفة في بغداد. وهو الذي كان مثالاً في كتابه " أطروحة حول مباديء الحكومة " التي وضعت بأمر من ملك شاه وتبناها السلطان كقانونه، التي كانت ذات مفهوم مثالي عن الملكية التي تعتمد على الشريعة المبنية بدون هوادة على الحق الإلهي. فرئيس الدولة يعتقد أنه بدون شك مقدس من الله؛ ولكن المبدأ السياسي يتطلب إصراراً حازماً على مسؤلية الملك تجاه الخالق في كل مناحي سلوكه نحو مواطنيه الذين وضعوا تحت حمايته. "لأن الذي يُعطى كثيراً يتطلب منه الشيء الكثير"، وهذا هو مبدأ الوزير **Vezir** الذي كان المعلم الأكبر أمامه ومثاليته في الملك الحقيقي أنه يتفهم النصائح المثالية. وقد عرّف صفة الملك وفق هذه الفكرة من الرواية الفارسية القديمة : -

" يجب أن يخضع البغض والكره والحسد والكبرياء والغضب والشهوة والطمع والآمال الخاطئة والمجادلة والمماحكة والكذب والحقد والجشع والعنف والانانية والعاطفية ونكران الجميل والتفاهة. كما أنه يجب أن يتحلى بصفات التواضع والتوازن في المزاج ودماثة الخلق والرأفة وشدة الحزم والصبر والعرفان بالجميل والشفقة والرحمة وحب المعرفة والعدالة ."

ويقال أن حكمة واحدة ذات قيمة تكون أفضل للملك من جيش قوي. وهو يحذر لتجنب المحاباة والمكافآت غير المتزنة، وتحاشي الافراط في شرب النبيذ والطيش الأرعن الذي لايناسب الملوكية، ويوصي بأن يكون ملتزماً بالصوم والصلاة ودفع الزكاة وممارسة التعاليم الدينية كافة. وتحت كل ظرف يجب أن يتقيد بالاعتدال الذي أثنى عليه نبي الإسلام (صلعم) متشهداً بأرسطو "أنه يجب اتباع الاعتدال".

والوجه الأكثر تأثيراً في طريقة حكومة نظام الملك هو إصراره على واجبات الحاكم عند مواطنيه، والمراقبات المتصلة المقترحة لاكتشاف ومعاقبة الفساد الرسمي والاستبداد. وكان السلطان مجبراً على الاستماع لمطالب الشعب مرتين في الاسبوع حيث

يستطيع أياً كان، مهما كان متواضعاً وغير معروف، يكون باستطاعته أن يستعرض مظالمه مطالباً بالعدالة. فالسلطان يجب أن يستمع لمثل هذا الالتماس دون أي تدخل ويستمع بصبر ويقرر حسب كل حالة بكل إنصاف وعدالة، وتوفر جميع الاحتياطات لكل فرد في الرعية بحقه في أن يصل إلى الملك. فالمثل يضرب بملك فارسي واستمع وهو على صهوة حصانه في وسط سهل كي يراه الجميع ويقتربوا منه حيث جميع عراقيل الأبواب والحواجز والممرات والستائر وحسد المستشارين تكون قد أزيلت. وملك آخر أوجب على المتظلمين أن يرتدوا الملابس الحمر لكي يستطيع أن يميزهم عن الآخرين ويأخذهم جانباً لاجتماع خاص؛ ومثل موافق عن الأميرسمانيد **Samanid** الذي كان جالساً وحده دون حراسه في الثلوج الغزيرة طوال الليل وسط الساحة الكبيرة لبخارى **Bokhara** على أمل أن يأتي بعض المظلومين الذين أعادهم وزراؤه ومستشاروه كانوا يأتون لرؤيته مطالبين بالإنصاف. وكانت هنالك جهود جبارة تؤخذ حتى لا تمر سوء إدارة الحكام دون اكتشافها .

"فعندما يعين الموظف في مركز يجب أن يكون رؤوفاً بعباده. ويجب ألا ينتزع من الناس أكثر مما هو الحق بكل لطف وتقدير. يجب أن لا يطالبوا بالضرائب قبل اليوم القانوني المحدد، لأن الناس إذا أرغموا باعوا حاجياتهم بأبخس الأثمان مما يدمرهم ويفرقهم."

المراقبة الدائمة لجباة الضرائب مفضلة ومعاقبة غير المحقين بصرامة. أما "الجواسيس" فيقول "يجب أن يكونوا باستمرار في طرق المقاطعات المختلفة متنكرين بهيئة تجار أو دراويش وماشابه، ويبعثون بتقارير عما يسمعونه بحيث لايخفى عنهم أي شيء يحدث". والحذر الآخر كان باستبدال جباة الضرائب كل سنتين أو ثلاث لكي لا تتعمق جذورهم ويستبدوا في مراكزهم. وأكثر من ذلك أن المفتشين ذوي الأخلاق العالية، الذين هم فوق الشبهات يدفع لهم من الخزينة لامن الجبايات المحلية، حيث يعينون لمراقبة الامبراطورية بكاملها؛ "ومن حسنات استقامتهم ستضاعف مئات

المرات قيمة معاشاتهم". فنظام سعاة البريد يحقق إيصال المعلومات السريعة بين المفتشين والحكومة المركزية. وأخيراً فإن السلوك الجيد للرؤساء الاقطاعيين كان مضموناً من خلال ارسالهم الرهائن الذين يفرج عنهم البلاط الامبراطوري كل عام حيث لم يبق أكثر من خمسمئة منهم محتجزين باستمرار.

هذه الترتيبات هي للإدارة العادلة والتفتيش المستمر كانت في الغالب ضرورية في إمبراطورية أقيمت على النظام العسكري عندما كانت الحكومة بأيدي الأجانب. أما قوة ونفوذ السلجوقيين فقد استقرا في تكوين الجيش لحد كبير باستئجار أو شراء جنود وقادة من العبيد في البيوت الملكية. الرجال الأحرار ليسوا موضع ثقة بالنسبة إلى السلطات العليا وعلى الأقل في المقاطعات البعيدة؛ أما المواطنون الفرس والعرب كقاعدة عامة فلم يكن متوقعاً منهم العمل بإخلاص للفاتحين الترك؛ فكان من الأولى الاعتماد على إخلاص العبيد الذين نشأوا في البلاط مع العلاقات المتينة والتفاني الشخصي للأمراء السلجوقيين. هؤلاء العبيد البيض أو المماليك **Mamluks** هم المواطنون للجزء الأكبر من كب جاك **Kipchak** وتارتري **Tartary**، الذين كونوا حاشية السلطان وحرسه الذين شغلوا المراكز الرئيسة في مناصب البلاط والمعسكر، وترقوا خطوة خطوة حسب جدارتهم الشخصية وميزاتهم حيث في النهاية حصلوا على الحرية والسلطة. وكانوا يكافأون بمنحهم قلاعاً أو مدناً حتى المقاطعات التي كان يمتلكها سيدهم السلطان بشرط القيام بالخدمة العسكرية. فالامبراطورية بكاملها كانت منظمة على الأساس الاقطاعي الذي يبدو أنه اعتيادي فيما بين الترك الذين ورثوها عن السلجوقيين وانتقلت إلى مصر بواسطة صلاح الدين وقد حافظ عليها السلاطين المماليك لعدة قرون. أما الجزء الأعظم من بلاد فارس ووادي الرافدين وسورية فكانت مقسمة إلى مقاطعات عسكرية يحكمها القادة السلجوقيون والعبيد السابقون من حراس المماليك الشخصيين الذين استأجروهم بأجور زهيدة وأبطلوا عبوديتهم ببراءة من السلطان وقد عاشوا على تحصيل الضرائب بشرط واحد وهو تجهيز الجنود عند طلب السلطان. ومعظم الاقطاعيين بالمقابل منحوا أجزاءاً من اقطاعياتهم لمماليكهم

على شرط أن يكونوا ملزمين بتجهيز الجنود لدعم سيدهم، كما هو وضع أسيادهم. وقد قرأنا عن الطريقة البدائية في استدعاء الفرق العسكرية وذلك بتصويب سهم من معسكر إلى آخر ومن قرية إلى أخرى كعلامة للتجمع. وبعد الحملة فالجنود الاقطاعيون يعودون إلى بيوتهم حيث يرتاحون دائماً خلال فصل الشتاء ويتعهدون باشتراك في القوات المحاربة في فصل الربيع. وفي هذا الوقت كان قائد الجيوش العسكرية مجبراً على الاكتفاء بأتباعه المقربين وحرسه الخاص وأي من المرتزقة الذين يقنعون بالبقاء في الحقول. وكما لوحظ فان صلاح الدين كان متقيداً بهذه العادة. فالأتباع الذين يعملون لدى الاقطاعيين ويعيشون على أراضيهم يسمح لهم بجمع الضريبة القانونية التي تبلغ عُشر الناتج على ما يظهر، ويكونون مقتنعين بأنهم لم يظلموا شعبهم أو يحجزوا غلالهم. "فالأرض وسكانها ملك السلطان" هذا ما كتبه الوزير العظيم"، والاقطاعيون والحكام وجدوا بمجموعهم كحراس لحمايتهم". بدون شك عندما كانت الامبراطورية السلجوقية متحدة، كان على كل جاسوس أن يبتعد عن الفساد والتخريب، والبؤس كان سائداً بدلاً من الأمن والحماية حيث لم تكن هناك سلطة حكومية عليا خلال الأيام العصيبة التي سبقت إنشاء حكم نورالدين وصلاح الدين المنظم والسبب هو تعاقب النظام الاقطاعي. وقد قرأنا دوماً عن البارونات والأمراء الذين مارسوا الحروب ومعهم أتباعهم ومثل هذا الفريق لم يقدر على مواجهة الخصوم على حدود وادي الرافدين الوعرة بالنتيجة المعتادة نفسها من المناوشة أو ربما النصر وبعدها الذبح والسلب. وحياة الراعي والمزارع والتاجر كان يجب أن تكون ولابد مثيرة تماماً دون أدنى شك وسط النشاط الباسل للرؤساء المجاورين، أما الوصايا العادلة لملك شاه ووزيره الحكيم فقد كانوا يتناسونها عند الانتصار.

مما يثير اهتمام المؤرخ العربي، مع قابليته للتأكيد على الأعمال العسكرية العظيمة فلا يغض النظر تماماً عن أحوال السكان السلمية، ومن المهم ملاحظة إبراز العدالة والإنصاف الذين يمارسهما الحاكم نحو رعيته. فالجيرفاكون **Gyrfalcon** وإكسنكور **Ak-Sunkur** حاكم الموصل كان يلاقي إعجاباً لأنه الحاكم الحكيم

وحامي شعبه. العدالة المثالية سيطرت على جميع أنحاء سلطنته فالأسواق كانت رخيصة والطرق كلها آمنة والنظام كان سائداً في جميع الأنحاء. كانت سياسته أن يجعل المنطقة هي التي تدفع ثمن ذنوبها، فإذا سلبت قافلة ما فإن أقرب القرى يجب أن تدفع التعويض، وهكذا يصبح السكان جميعهم الحرس العام المسؤول عن حماية المسافر. فمن الأمور الحسنة التي دونت عن هذا الحاكم أنه لم يكن يتراجع عن كلمته، وهذا ما كان يقال على أغلبية قادة المسلمين أكثر من القادة المسيحيين في عهد الصليبيين. والمثال على الرئيس العادل والفاضل هو الذي يثير بالطبيعة المنافسة بين أتباعه، وليس من الصعب في حالات عديدة تتبع نتائج هذه المؤثرات. فالمسعى الحثيث والثابت للبارون العظيم هو أن يحيط نفسه بهيئة من أتباعه المخلصين وصغار الاقطاعيين الذين يمكن الوثوق بهم في دعم قوته العسكرية وصون سلطته واتساع نفوذه والأخذ بسياسته في إدارة أملاكهم. وبناءً على دعمهم يعتمد نجاح أسرته بالبقاء في الحكم. وعندما يموت البارون فإن أتباعه ومماليكه يؤيدون ولي عهده ويبايعونه بوراثة الاقطاع وتنصيبه على العرش. ولم يصدف لحاكم ضعيف أن تكون له فرصة في تلك الحقبة الحرجة من الزمن؛ فيجب أن يكون شجاعاً في الحرب وحازماً في السلم. وأحياناً عندما يتفق أن يخفق الأمير في إرضاء طلبات أتباعه والمحافظة على إخلاصهم وولائهم فإنهم يحولون خدماتهم إلى حاكم آخر أكثر شعبية.

وبالرغم من الطابع العسكري والقساوة لمعظم قادتها فإنه يلاحظ في حضارة السلجوقيين الأهمية الكبيرة التي يولونها للثقافة والعلم. على الرغم من أن الكليات كانت موجودة في الأقطار الإسلامية من قبل، ولكن لا بد من الإشارة إلى بعض الرعاية والاهتمام الثقافي من قبل السلجوقيين وبالأكثر بتأثير نظام الملك في إدخال التحسينات الهائلة للاستعداد الثقافي في الشرق خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر. فالمدرسة النظامية الشهيرة في بغداد أو الجامعة التي أوجدها الوزير نفسه، كانت المركز الذي يشيع الحماسة للعلم في كل بلاد فارس وسورية ومصر، حيث لاقت تياراً متقارباً واسع الاطلاع نابعاً من جامعة

الأزهر في القاهرة.

وكان إنشاء كلية ما يعتبر عملاً ورعاً بالنسبة إلى أمراء السلاجقة، مثل بناء جامع أو فتح مدينة من مدن الأعداء. وبالإتجاه نفسه انقاد الاقطاعيون الكبار وأعدادٌ هائلة من السلالات الحاكمة التي انبثقت عند اضمحلال سلطة السلاجقة لكي يوجهوا اهتماماً خاصاً بالمسائل الثقافية، وفي زمن صلاح الدين كانت دمشق وحلب وبعلبك وحمص والموصل وبغداد والقاهرة والمدن الأخرى مراكز مهمة جداً للاهتمام بالتعليم. فالأساتذة أصبحوا يتنقلون من كلية إلى أخرى كما كان البحاثة الأوربيون في العصور الوسطى يتنقلون من جامعة إلى أخرى. (وفي معظم الأحيان تكون جميع هذه المزايا يتحلى بها رجل واحد) العديد من هؤلاء الرجال المثقفين ووزراء الدولة كانوا ينحدرون من سلالة السلطان السلجوقي أو من ذوي المناصب في أسرته. أتابك زنكي الموصل مع كل طاقته الكبيرة وموهبته العسكرية، كان نادراً ما يستطيع حفظ إمبراطوريته الواسعة بدون مساعدة وزيره وذراعه الأيمن جمال الدين الملقب بالجواد **Bountiful** الذي كان جده قائماً على الحظائر التي تحفظ بها النمور التي يصطادها السلطان ملك شاه. وقد استطاع بقدرة أن يرى الحكومات العديدة التي خضعت لسيطرته بكل نجاح، وقد كانت أحاديثه وأخلاقه جذابة مما حدا زنكي أن يتخذه صديقاً حميماً له ورفعه لمنصب المفتش العام لمقاطعته وكذلك رئيساً للديوان أو مجلس الدولة. كان مرتبه عُشر ما تنتج الأرض حيث كان ينفق ثروته على الأمور الخيرية بلا حدود، وقد خدم بسخاء ما يتعلق بمستلزمات الحج إلى مكة والمدينة؛ وبنى قنوات ورمم بعض المساجد واحتفظ بجداول هائلة للمتقاعدين. وعندما مات كان صراخ الأرامل والأيتام وأعداد هائلة من الفقراء يشق عنان السماء وكانوا يلقبونه بالمحسن.

وقد طغت صفوف من الحكماء والعلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، فالأساتذة من نيسابور متعوا مجالس المستمعين في دمشق. والصوفيون الفرس من أمثال السهروردي التقى بالتقليدين من أمثال ابن عساكر الذي حضر جنازته صلاح الدين

نفسه في عام ١١٧٦م، وفي السنة نفسها وصل إلى القاهرة شخص غريب من اكساتيڤا Xativa من الأندلس البعيدة. الذي جذب بشهرة إحياء التعليم؛ وكان ابن فيرو Ibn-Firro الذي نظم قصيدة طويلة من الشعر في ١١٧٣ بيتاً حول Varialectiones في القرآن الكريم التي تعني The greater glory of God "عظمة الله الكبرى".
هذا التعجب من سعة الاطلاع التي اعترف بها بكل تواضع بأن ذاكرته كانت مثقلة بالعلوم بحيث تكسر ظهر الجمل. وعندما كان يلقي المحاضرات على جماهير المستمعين كانت كلماته كلها موزونة.
ولم يكن غريباً أن القاضي الفاضل رئيس القضاة وحاكم مصر في عهد صلاح الدين أسكنه في بيته الخاص ودفنه في ضريحه الخاص.
إن وجود مثل هؤلاء الفلاسفة خفف مع الحكمة الهادئة شدة النار المتأججة لدى الرؤساء الكاسرين. وأن العديد من كبار الجنود في تلك الفترة كانوا راضين عن وجود رجال الثقافة في المجتمع. ومع أن الأتابيك المنتصر يعلن عن قوله: «بأن قعقعة السلاح كانت أهم بكثير من أنغام المغنين البارعين، ومحاولة الوصول إلى نتيجة مع عدو قدير هي أكثر سروراً من متعته مع خليلة له». ولكنه كان يحب رفقة مستشاره الحكيم الجواد el-Jawad وخليفته نور الدين كا ن مخلصاً لمجتمع المثقفين والشعراء والكتاب الذين يجتمعون في بلاطه؛ في حين كان صلاح الدين يجد متعة خاصة في أحاديث الفقهاء الضُلّع من القانون. وكان أكثر البارونات تعطشاً للدم لا يستطيع العيش بلا وجود شاعر أو مؤرخ له، وهذا ما كان يحدث في العصور المتأخرة للسلاطين المماليك في مصر. برابرةٌ ومتوحشون كما يظهرون، ميالون لسفك الدماء والخيانة، ولكنهم أيضاً كانوا يحبون الفنون ويشجعون الكتابات الجيدة وقد جعلوا القاهرة جميلة بفنونها المعمارية الرائعة. وعلى ما يبدو كان في الشرق وفي جميع الأحوال يسير العنف جنباً إلى جنب مع الذوق والثقافة، ولم يكن شاؤل Saul وحده تريح مزاجه موسيقى المغنين العذبة.

نتائج سيطرة السلجوقيين شملت مساحات واسعة وعريضة، ولكن السلالة الحاكمة نفسها كانت قصيرة العمر. وبعد أقل من نصف قرن حين دخلوا بلاد فارس فاتحين، كان العمل الضخم الذي

قاموا به بكل جرأة لتوحيد البلاد وحافظوا عليه ببراعة قد تقسّم إلى قطع صغيرة. وكان ثلاثة من الأباطرة السلاجقة يتمتعون بسلطة واسعة المدى تحت حكم شخصي دون خوف من الخصوم أو الثورة؛ ولكن عندما مات ملك شاه في سنة ١٠٩٢م اندلعت حرب أهلية بين أولاده، وتقسمت الامبراطورية. استمر السلجوقيون في الحكم في نيسابور وأصفهان وكرمان؛ وكذلك وجد السلاجقة في دمشق وحلب والأناضول، ولكنهم انقسموا إلى أقسام عديدة ولم يستطيعوا مقاومة القوى والضغوط عليهم من الداخل والخارج. فتنحيتهم عن الحكم التي حدثت كانت نتيجة حتمية لنظامهم الإقطاعي. فالعبيد الذين استوردوهم للدفاع عنهم أصبحوا هم المخربين، والاقطاعات التي أنشأوها لحماية الامبراطورية أثبتت أنها الخطر الرئيسي. والخطأ الأكبر في الاقطاعية الأوربية أنها كانت مماثلة تماماً لنظام السلجوقيين. فالعبد أصبح مديناً لخدمة سيده، والتابع أو الخادم مقيداً بالحاكم الأعلى، ولكن الخدمة والولاء لم يتعديا لأبعد من حدود الرئيس المباشر. فإذا وجد رئيس الاقطاعية نفسه قوياً بما يكفي فإنه يثور على سيده ويتبعه الموالون والخدم والعبيد حيث لم يعودوا يخدمون الحاكم الأعلى. كما ولم يوجد ما يشابه قسم الولاء للسلطان ، لذا فأحياناً يتولد نوع من الإحساس بالولاء الذي يدعوهم لترك الرئيس الثائر والإلتحاق بالتاج. ولما أصبح نفوذ السلطنة يتضاءل انتهى ذلك الشعور وأصبحت الاقطاعيات المهمة قادرة على إيجاد ممالك مستقلة لها مع وجود التعاون التام من قبل أتباعهم. وعندما انقسمت الامبراطورية على نفسها أصبح الضباط الذين حاربوا في المعارك وجنوا ثمار حروبهم أمراء مستقلين؛ أما المماليك الذين انتصروا لأباطرتهم فقد أصبحوا أوصياء على العرش أو الحكام (Atabegs) لورثة الأباطرة؛ حيث كانت وظيفة الانتداب متبادلة للحقوق الكاملة للملكية ونقل الوراثة الملكية.

وفي القرن الثاني عشر كان القسم الأكبر من الامبراطورية السلجوقية في أيدي السلاطين الضعفاء الذين برزوا من مراتب المماليك وحولوا إقطاعياتهم إلى دول مستقلة. ففي بلاد فارس ما وراء اوكسوس **Oxus** كان سقاة الخمر و **Major domo** قد أوجدوا

لهم سلالة ذات نفوذ وعبيداً لهؤلاء العبيد، وجيلاً من نبلاء النبلاء أنشأوا إمارات صغيرة على حدود مقاطعات أسيادهم. وبهذه الطريقة أصبح العبد هو الوصي على وارث سيده وبوفاته يتقلد القوة الملكية في دمشق؛ لذا فإن زنكي هو مؤسس السلالات الطويلة للأتابكس **Atabegs** في الموصل وكان ابن لأحد عبيد ملك شاه والأورتوكيدس **Ortukids** وغيرهم من السلالات المحلية. في وادي الرافدين ساروا على الأسلوب نفسه. ومهما كان هؤلاء اذلاءً وعبيداً في الأصل فإن النسب لا يحمل معه الإحساس بالعار. وفي الشرق كان العبد يعتبر أحسن من الابن، وعندما يكون عبداً لدى ملك شاه يصبح له لقب احترام خاص، فالأتباع أو الخدم العبيد لدى السلجوقيين كانوا يفخرون بأنفسهم وشرفهم كما كان الولد غير الشرعي في العصور الوسطى عند الأرستقراطيين وعندما يحصلون بدورهم على النفوذ الملكي فإنهم يورثون ذريتهم التقاليد التي كانت لأسيادهم السابقين.

والأتابكة في سورية ووادي الرافدين تابعوا العمل الحضاري الذي بدأ بظهور الوزير الحكيم ملك شاه. وقد أعاقت الخلافات الداخلية هذا العمل ولكن العائق الأساسي خلال القرن الثاني عشر جاء مع الصليبيين.

الفصل الثاني
الحملة الصليبية الاولى
١٠٩٨م

توفي ملك شاه السلطان السلجوقي العظيم عام ١٠٩٢م وبعد وفاته مباشرة اندلعت الحرب الأهلية بين أولاده. وبعد أربع سنوات بدأت الحملة الصليبية الأولى تقدمها نحو الشرق. وفي عام ١٠٩٨م احتلوا المدن الكبرى مثل الرها وانطاكيه **Edessa** و **Antioch** وقلاعاً عديدة أخرى.

أما في سنة ١٠٩٩م فقد استعاد المسيحيون احتلال القدس نفسها، وفي السنوات القليلة التي تلتها سقط الجزء الأكبر من فلسطين وساحل سورية وطرطوس وعكا وطرابلس، أما صيدا **Sidon** فقد سقطت في عام ١١١٠م على أيدي الصليبيين، وفتحوا صور **Tyre**، في عام ١١٢٤م حيث تأكد أوج قدرتهم. وتحقق هذا النصر السريع بسبب التفوق الجسماني والشجاعة الشخصية لرجال الشمال، والأهم هو انعدام أية مقاومة منظمة. وقد توفي نظام الملك قبل سيده حيث لم يوجد رجل دولة مقتدر لتنظيم الاختلافات بين ورثة الامبراطور. وبينما كان أمراء السلجوقيين يرمون بعيداً تاجهم في معركة مع الاخوان، فإن الأتباع وأغلبية الخدم الذين كانوا يسعون للاستقلال لم يقدروا مدى قوتهم بل كانوا كلهم يناضلون من أجل الحصول على أجزاء من التاج المحطم. وكان كل منهم حاسداً لجاره ولم تكن عند أي منهم شجاعة ومقدرة كافية للقيادة. حيث كان مؤسسو السلالات يومها في ميدان القتال ولكن السلالات نفسها لم تكن قد وجدت بعد. وسلطة السلجوقيين كانت لا تزال سائدة في وادي الرافدين وشمالي سورية، والعديد من حكام المدن وحراس القلاع اكتشفوا ان سلطة السلجوقيين كانت مجرد صدى لاسم رنان، وأن الحكم كان قاب قوسين من الأقوى.

وساد في ذلك الوقت من عدم الثقة والتردد وجود حاشية غريبة حول الصراعات المميتة لامبراطورية قوية. ووجود فراغ

من الفوضى حتى تجمع القوات الجديدة قدراتها.

وباختصار فقد كانت اللحظة المناسبة لإمكانية اكتساح أوربا الناجح. فقد كانت سلطة السلجوقيين لا تقهر في الجيل السابق. وبعد جيل آخر تمكن زنكي أو نورالدين من قواعد للسلجوقيين في سورية كان بإمكانها أن تلقي بالغزاة في البحر. ونجمة الحظ السعيد هي ألتي قادت الوعاظ في حملة الصليبيين الأولى للحصول على فرصة لم يدركوا مدى أهميتها، واختاربطرس الناسك Peter the Hermit واربان الثاني Urban II اللحظة السعيدة مع الحصافة كشيء لا يقبل الخطأ وكأنهم أوجدوا دراسة عميقة التفكير للسياسات الآسيوية. فالصليبيون كانوا نافذين ومخترقين بشكل يشبه الاسفين بين الخشب القديم والحديث، ولبرهة قصيرة ظهروا وكأنهم شقوا جذع الامبراطورية الإسلامية لقطع صغيرة.

وقبل سبع سنوات من ولادة صلاح الدين كان فلك انجو Fulk of Anjou مرتقياً عرش القدس في سنة ١١٣١م. وكانت المملكة الاتينية مازالت في أوج عظمتها. أما سورية وأعالي وادي الرافدين فكانت تحت أقدام الصليبيين الذين كانت غاراتهم اليومية قد وصلت من ماردين Maridin وعميد Amid في ديار بكر إلى العريش وجدول مصر "The Brook of Egypt". ومع ذلك فإن البلاد لم تخضع تماماً. فالصليبيون أنفسهم كانوا مقتنعين بالاحتلال الجزئي، في حين أنهم احتجزوا الأراضي الساحلية والعديد من القلاع في الداخل في الأردن ولبنان ، ولم يكونوا جادين تماماً بانتصار كلي. فالمدن الكبيرة مثل حلب و دمشق وحماه وحمص Emessa كانت لاتزال في أيدي المسلمين ولم يسيطر عليها المسيحيون أبداً. بينما كان من الممكن مسحهم في أكثر من أزمة. فالمدينة الكبيرة الوحيدة التي خضعت في الداخل للصليبيين بجانب القدس هي الرها التي خسروها عاجلاً. أما المملكة الاتينية مع إماراتها الخاضعة لها وممتلكات الكونتات وممتلكات البارونات والاقطاعيات الأخرى فكانت كقوى عسكرية محتلة أكثر مما هي احتلال منظم. وحتى كقوة احتلال لم تكن

قديرة. وفي زمن امتدادها الواسع كانت مقاطعة الافرنج قد اتسعت مساحتها نحو خمسمئة ميل طولاً من الشمال إلى الجنوب ولكن ليس أكثر من ذلك بل بالأحرى أقل من خمسين ميلاً عرضاً، وفي الشمال من إقليم الرها (er-Ruha- Orfa) كانت ممتدة من حدود ديار بكر بل وأكثر من ذلك ولكن ليس أبعد من شمالي حلب حيث شملت إقطاعيات مهمة مثل سروج Saruj وتل بشير Tell-Bashir (Turbessel) وساموساتا (Samosata) وعينتاب (Ayn-Tab) (Hatap). وإلى الغرب والجنوب من مقاطعة الرها تقع إمارة انطاكية Antioch التي ضمت في وقت ما طرسوس Tarsus وادنه Adana في سيليسيا Cilicia، ولكن في الغالب كانت ممتدة من بيراموس (Pyramus) وعلى طول ساحل البحر إلى الجزء الصغير من شمالي مارجات Margat . وفي الجزء الداخلي من البلاد بالقرب من المدن الإسلامية حلب وحماة. ومن إقطاعياتها الرئيسية كانت أتاريب Atharib (Cerep) ومارا Maarra وافاميا Apamea وميناء اللاذقية (Laodicea). وفي جنوب انطاكية كان اقليم طرابلس Tripolis قطعة ضيقة بين لبنان والبحر المتوسط الذي يشمل مركب Margatوطرطوس Tortosa وCrac des Chevaliers قلعة الفرسان، وطرابلس وجبيل. وكان ملك القدس هو المسيطر على هذه الدول حيث كانت مقاطعاته تمتد من بيروت إلى صيدا Sidon وصور Tyre و عكا Acre وقيصريه Caesarea وأرسوف Arsuf ويافا Jaffa وقلعة عسقلان Ascalon على الحدود المصرية التي كانت محاطة عموماً من الشرق بوادي الأردن والبحر الميت. والأجزاء الصغيرة الرئيسية كانت مثل أقاليم يافا وعسقلان (التي تضم قلاع عبلين Ibelin وبلانش جارد Blanche Garde وميرابيل Mirabel ومدن غزة واللد والرملة).

أما السيادة على الكرك (Crac) والشوبك Shoubak أو (Mont Real) فهذه القلاع البعيدة كانت وراء البحر الميت تقطع طريق القوافل من دمشق إلى مصر؛ فإمارات الجليل Galilee التي تشمل طبرية Tiberias وصفد Safed و كوكب الهوى (Belvoir) Kaukab والحصون الأخرى، وصيدا والإقطاعيات الصغرى تورون Toron وبيسان Beysan (Bethshan) ونابلس وغيرها.

ونظرة إلى الخارطة ترينا أن الجزء الواسع من هذه الممتلكات المسيحية كانت تبعد يوماً أو يومين زحفاً من مدينة مسلمة أو قلعة محصنة، حيث تكثر الغارات للثأر والانتقام من الافرنج. أما السيرة الذاتية التي كتبها أحد كبار المعاصرين لصلاح الدين أسامة العربي فقد وجد الحالة المستمرة من مواجهات العصابات قد توقفت في فترات العلاقات الودية والصديقة. والاتجاه العام للسكان الاصليين في الحملة الصليبية الأولى كان نحو علاقات طيبة مع جيرانهم المسلمين، والغالبية العظمى من المزارعين في الأقاليم المسيحية كانوا من المسلمين ولهم علاقات مستمرة معهم، وأن هذه العلاقات الاجتماعية المنزلية ذات الطبيعة المتآلفة والصادقة تزيل جوانب الاختلاف وتقوي المصالح والفضائل المشتركة. وفي ذلك الزمن كان من النادر أن تعيش الأسرة الأوربية للجيل الثالث في الشرق ما لم تصبح بشكل من الاشكال شرقية. فالصليبيون الاوائل بعد ثلاثين عاماً من سكناهم في سورية أصبحوا بشكل كبير متشابهين في الأخلاق والعادات مع الذين انتصروا عليهم والذين عاشوا معهم ولم يتوانوا في الزواج من بناتهم وأصبحوا شرقيين. وقد عرفوا باسم بلاني **Pullani** أو كريولس **creoles** (المنحدرين من اصل أوروبي). أما المسلمون من ناحيتهم فنادراً ما كانوا متسامحين. ومن العسير جداً أن يوافقوا على الزواج من المسيحيين كما كانوا يسمونهم المثلثين **Trinitarians**؛ ولكنهم كانوا مستعدين للتعامل معهم وقبض أتعابهم، بل والعديد من الحكام المسلمين لم يمانعوا في إجراء إتحادات مع الافرنج حتى ولو كانوا ضد جيرانهم المسلمين.

ونجد مثل هذا التقارب بين الأجناس المتخاصمة الذي يظهر بوضوح في الذكريات الممتعة لأسامة الذي لا يشيخ، الأمير العربي في شيزر **Sheyzar**، وكان أسامة كشاهد للتاريخ حَسن الحظ في زمنه. حيث ولد عام ١٠٩٥م، قبل ثلاث سنوات من الاستيلاء على انطاكية **Antioch** الذي فتح للافرنج **point d'appui** عندما تقدموا إلى فتح القدس. ومات في عام ١١٨٨م حالما استعاد صلاح الدين المدينة المقدسة. فهو قد شاهد تقريباً المد والجزر الكامل من جهد الصليبيين. وامتداد عمره الذي بلغ الثالثة والتسعين جعله يطوق

كل فترة الحكم اللاتيني في القدس، ولكنه لم يشهد فقط الحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد **Richard Coeur de Lion**. وأسرته بنو منقذ **Beny Munkidh** كانوا السادة وورثة القلعة الصخرية لشيزر وآثارها ما زالت تطل على نهر العاصي **Orontes**. وهي القلعة المحصنة بجبال الأنصارية **Ansariya** التي يمكن الولوج إليها بواسطة ممر تمر منه الخيل، حيث يعبر النهر وله نفق خلال الصخر محمي بخندق عميق يمر عليه بواسطة جسر من الخشب، ووقوعه مباشرة بجوار الحاميات العسكرية المسيحية في منتصف الطريق ما بين مراكز الصليبيين في انطاكية وطرابلس التي جلبت لهم الاحتكاك الخطر مع الغزوات التي كانت تمر تحت تحصيناتها. وشيزر كانت إحدى هذه الدول الصغيرة على الحدود ما بين المسيحيين والمسلمين حيث اتخذت الاستقامة والدبلوماسية كسياسة آمنة لها. ولم يوجد أي تفكير آخر لاختيار موقع أحسن من الممكن اتخاذه للصراع الذي لم يتوقف خلال القرن الثاني عشر، ولاتوجد شهادة شاهد أكثر مقدرة من القائد العربي الذي يمكن أن يراقب النزاع من برج قيادة شيزر. وكان يعرف جميع القادة الكبار في الحرب وغالباً ما يشاركون في النزاع. وبدأت معركته الأولى بالحرب بالتعاون مع التركمان القساة، والغازي **Al-Ghazy** كان ذلك الرجل الذي عمل أكثر من أي واحد آخر قبل مجيء زنكي لينشر الرعب في صفوف المسيحيين. وعمل أسامة تحت سلطة زنكي نفسه، وكان حاضراً في الهروب الشهير عبر الفرات إلى تكريت حيث كانت مساعدة أيوب في حينها هي التي جلبت السعد لبيت صلاح الدين. وكان قد رأى تنكريد **Tancred** أكثر من مرة. عندما قاد الأمير الحملة ضد شيزر **Sheyzar** وتذكر ذلك الحصان الجميل الذي تسلمه الصليبيون هدية من آمر القلعة. الملك بالدوين دي بورج **Baldwin du Bourg** كان سجيناً في القلعة لبضعة أشهر في عام ١١٢٤ م وكافأ مضيفه لقاء عطفه وإنسانيته، وكذلك العديد من فرانكوروم **Francorum** بإلغاء ارتباطاته في اللحظة التي أطلق فيها سراحه. جوسلين كورتناي **Joscelin of Courtenay** كان الشخصية الأخرى المعروفة في الحملات المسلحة التي تقدمت باستمرار عبر العاصي؛ وكاتب السيرة شاهد أيضاً الامبراطور جون كومنينوس **John Comnenus** يحاصر منطقته في

كوكس كومب Cock's Comb. وبعد ذلك زار الملك فلك في عكا وشرح له بوساطة مترجم لأن أسامة العربي لا يعرف اللغة الافرنجية Lingua Franca وكان يسمي نفسه (الفارس) وهو حسب مفهوم أسرته وعرقه بأن الفارس يجب أن يكون نحيفاً وطويلاً. ولم تكن معرفة أسامة الشخصية محدودة لمثل هذه الشخصيات البارزة عندما سنح له أن يلتقي في شيزر Sheyzar أو يزور خلال رحلاته القصيرة مناطق الافرنج. وقد عاش لسنوات طويلة في دمشق في بلاط نور الدين حيث كان يدير المراسلات الدبلوماسية مع مصر. وقد أصبح في وقتٍ ما ضيف الخليفة الفاطمي في القاهرة وأدار إقطاعية بالقرب من كوم اشفين Kom Ashfin حيث كان له مائتا رأس من البقر وألف رأس من الغنم وكانت له محاصيل غنية من الحبوب والفواكه، وفي أواخر أيامه كان صديقاً حميماً لصلاح الدين الذي كان معجباً بشعره وقصصه الارتجالية.

وقد وضع أسامة الحد المميز والفاصل بين الافرنج المستوطنين وهم أسر الصليبيين الأوائل الذين اعتادوا بل نشأوا على الحياة الشرقية وأصبحوا أصدقاء لجوارهم المسلمين وبين القادمين الجدد وهم مجموعة من الحجاج والمغامرين المحتاجين الذين كانت لهم حماستهم الظاهرة وشهوتهم للغزو قد طغت المودة على النواحي الحسنة التي نشأت بين العقيدتين في فلسطين. "أولئك الافرنج" كما يقول "هم الذين جاءوا واستقروا بيننا واهتموا بالمجتمع الإسلامي، فهم أرقى بكثير من أولئك الذين انضموا إليهم فيما بعد ... فالقادمون الجدد كانوا غير إنسانيين بدون شك أكثر من القدامى المستوطنين الذين تآلفوا مع المسلمين". أما العلاقات والصداقات الشخصية فكانت مألوفة بين الصليبيين المستوطنين وجيرانهم من المسلمين، ولم يكن أمراً غير مألوفٍ تمتع المسلم بضيافة الفارس المسيحي. وأسامة نفسه كان له بعض المعارف من الهيكليين Templars الذين كان يعتبرهم أصدقاءه ويفضلهم على غيرهم من الافرنج. وعندما زار القدس قدموا له إحدى كنائسهم بالقرب من المسجد الأقصى لكي يؤدي صلاته الإسلامية؛ وسار معهم الى الحرم المقدس وأخذوه إلى قبة الصخرة وبيت السلسلة، ولم يكن بخيلاً كذلك في مدحه لضيافة فرسان القديس جون

St. John. وكان شاهداً على طريقة التعذيب في المعركة والتعذيب بالماء التي جعلته لا يزيد من احترامه للقانون المسيحي، بحيث لم يستطع أن يكتم سخطه على خرق الصليبيين للايمان بالقسم لأنهم كانوا نادراً ما يحفظون العهد مع المسلمين، في حين أنه كان معجباً إعجاباً شديداً بشجاعتهم واهتمامهم الخاص بأساليبهم الدفاعية، والحركات المنظمة وحيطتهم وحذرهم ضد الكمائن والمفاجآت والسيطرة على أنفسهم بعد النصر بنكران ذاتهم والابتهاج بعد مطاردة طويلة. وكان كالشرقي الرزين الذي لا يستطيع ان يقبل المرح التافه ولا القهقهات الصاخبة وملاحقة المسرات بجنون الذي كان يلاحظه في الافرنج على مختلف الصُّعد. فالرجل الشرقي المهذب لا يستطيع أن يفهم هزل الأطفال أو الابتسامات العريضة بين رجال ذوي مكانة وإحساس. وباقل من ذلك كان يتسامح قليلاً مع عامة الناس الذين يصيبهم مثل هذا الإحساس ومثله كمسلم حقيقي كان يختفي وراء ستار حريمه. ولم يكن يحتمل مثل هذا التحرر المذهل الذي يسمح به أزواج الصليبيين لزوجاتهم.

"فهم لا يعرفون معنى الشرف "وقد كتب "وبدون أية مشاعر للغيرة، فإنهم عندما كانوا يسيرون مع زوجاتهم ويلتقون شخصاً آخر يدعونه يأخذ بيد الزوجة جانباً ويتحدث معها بينما يبقى الزوج بعيداً حتى تنتهي محادثتهما! فإذا طال حديث الزوجة أكثر مما يجب فإن الزوج يتركها وحدها مع صديقها!".

مثل هذا المشهد السلمي في العلاقات والتسامح المتبادل بين المسيحيين والمسلمين لم يدم أجله طويلاً، فإن اللحظة الأولى من التعصب هي التي تفجر هذا النسيج المترابط إلى شذرات متفرقة، وجاء ذلك من كلا الجانبين. أما بالنسبة إلى الصليبيين الأوائل فقد أصبحوا أكثر تسامحاً وتساهلاً وليس بمعنى الاهمال والتحرر وغيرهم من الصليبيين المتأخرين وجدوا مبرراً أكبر لنشر التعصب، لمغامرة سياسية واحتلال عسكري يتبعه عهدٌ من ورع الحج حيث تمارس القرصنة بحجاب شفاف. ولما جعل الصليبيون الأوائل فلسطين ساحة آمنة للسياح المخلصين، فقد طوقت الضرائح بالحجاج الذين كانت خبرتهم المحدودة لاتستطيع هضم

التسامح الدنيوي الذي مارسه المسيحيون المستوطنون الأوائل. إضافة إلى تعصب المخلصين الذين جاءوا بالحجاج المغامرين الذين لم يخضعوا للقانون وكذلك المستغلون المبطنون بشهوة النهب تحت قناع الورع الديني. وكلا الطبقتين أغضبت المسلمين وحرضت القادة الصليبيين على الغزوات غير الاستفزازية. وقد وصف المؤرخ المسلم الوضع في أواخر الربع الأول من القرن الثاني عشر حيث قال :

" إن الافرنج أغاروا على البلاد يوماً بعد يوم وسببوا أذى لايوصف بالنسبة للمسلمين و جلبوا لهم الخراب والدمار... وكانت غزواتهم الثقيلة في ديار بكر حتى عميد **Amid** ولم يرحموا لا الأرثوذوكس ولا الهراطقة. وفي وادي الرافدين جردوا السكان من الحلي الفضية والثمينة التي يملكونها. أما بالنسبة لأهل حاران **Harran** والرقة **Rakka** فقد قمعوهم بالخزي والعار وأذاقوهم كأس الموت يومياً". وكانت جميع الطرق إلى دمشق مقطوعة ماعدا الطرق من الرحبة **Rahba** والصحراء حيث التجار والمسافرون يعانون من الأخطار والمتاعب من الرحلة الطويلة عبر الأراضي القاحلة وحيث تتعرض حياتهم وممتلكاتهم للخطر من البدو الرحل. حتى أن الافرنج كانوا يمارسون ابتزاز المال بتهديد المدن المجاورة لهم كلها. وفوق ذلك أنهم كانوا يرسلون عملاء لهم إلى دمشق لتحرير المسيحيين العبيد. وفي حلب أرغموا السكان أن يدفعوا الجزية حتى نصف دخلهم - وحتى عائدات المطحنة في بوابة الحديقة **Garden Gate**.(١)

ومن ناحية أخرى كان العرب وعلى الأقل المسلمون الترك منقسمين حين ذاك وليس باستطاعتهم المواجهة أو المعارضة للعدو الذي كانت جيوشه متدربة حسب جنسهم واعتيادهم على التعصب. فالنظام العسكري للسلاجقة أنتج شعباً من المحاربين الذين اعتنقوا الدين الاسلامي حديثاً، وجهلهم بسبب تعصب رجال الدين، الذين خلقوا فيهم التعصب المميز حيث أن كل مجلس صغير كان يتولى القيام بصفات مهمة لإضعاف القوة المركزية التي أصبحت مرتعاً للمحاربين حيث كان كل واحد منهم هو الداعم والمنقذ للإسلام.

أما بالنسبة لخصومهم المسيحيين فإن الغنيمة والجنة بدون شك اتمدتا لإثارة حماستهم للحرب الدينية. ولكن مهما يكن الحافز سامياً فمن المؤكد أنهم يحتاجون إلى مجرد مجموعة وقائد لتحويل هذه القوى المشتتة إلى جيش ضخم مستعد للموت في سبيل العقيدة. وكان من الضروري الوعظ للجهاد -الحرب المقدسة- ولكي يعرفوا أن القائد يجب أن تحترم شجاعته ونبوغه العسكري، وأن الرؤساء التركمان والأتباع يصبحون مرة واحدة المناضلين للدين حيث بإمكان الصليبيين أن يعترفوا بهم على نحو جاد تماماً. هذا القائد وجد في شخص عماد الدين زنكي.

الفصل الثالث
البشير
١١٢٧م

عين العديد من عبيد ملك شاه في مناصب مهمة مكافأة لخدماتهم ومنهم اكسنكور Ak-Sunkur الذي حصل على مكانة عليا. لكونه حاجباً للبلاط ومركز ثقة سيده العليا، حيث كان متمتعاً بامتياز خاص بالوقوف إلى يمينه في الإجتماعات العامة لمجالس الدولة. وكونه حاكماً لمقاطعة حلب بعد ذلك فقد كان رحيماً ومثقفاً وأصبح اسمه يتردد كمثل للإخلاص والإستقامة، ومات بسبب إخلاصه لابن سيده الأقدم عام ١٠٩٤م. وترك ولداً في العاشرة من عمره وهو زنكي Zengy الملقب بـ عماد الدين أي عمود الإيمان، وقد التف حوله الحشم. وكان كوربوغا Kurbugha في ذلك الزمان الرجل الأعظم الذي حكم وادي الرافدين وكان سيداً على الموصل ومدن عديدة أخرى، وكان رئيس أتباع ابن الملك شاه وخليفته. ولم ينس كوربوغا صديقه القديم جيرفالكون Gyrfalcon. واستدعى زنكي ومماليكه إلى بلاطه "هات الغلام"، كتب يقول، "فهو ابن رفيقي في الحرب ويهمني أن أراقب نموه". لذلك ذهبوا إلى الموصل حيث أصبحوا ذوي إقطاعيات وتبعوا سيدهم الجديد في حملاته. وفي إحدى المرات بالقرب من عميد Amid عندما تأرجحت المعركة في الميزان عانق كوربوغا زنكي أمام جيشه وسلمه إلى مماليكه قائلاً : "حافظوا على ابن سيدكم الأقدم، وحاربوا لأجله !" فأحاطوا بالغلام واتجهوا بحماسة شديدة حيث انتصروا في ذلك اليوم. وكانت هذه المعركة الأولى لزنكي وهو في الخامسة عشرة من العمر.

بعد ذلك مرت سنوات عديدة حيث عاش حياته متمتعاً بامتياز في بلاط الموصل بإشراف القادة المتتابعين - ملاكاً مرموقاً من النبلاء المقاتلين الذين سيطروا على الحدود المتاخمة بين الهلال والصليب. وقد نما طويل القامة جميل المحيا، داكن البشرة، ثاقب العينين، مستقيم الأخلاق كشجاعته، وحتى عامه الثامن والثلاثين

استمر في أخذ دوره ثانوياً في الحروب والسياسة في وادي الرافدين. خمسة بارونات عظماء، واحد تلو الآخر، تقلدوا حكومة الموصل والدفاع عن المستنقعات، وكل واحد منهم عامله كأنه ابنه، وأعطوه إقطاعيات غنية، وقيادة عليا في حملاتهم المستمرة ضد الافرنج. وفي إحدى المناسبات في حصار طبريا Tiberias أظهر زنكي بسالة رائعة. وعلى رأس رجاله استطاع أن يصد هجوماً من الموقع العسكري وطاردهم حتى بوابة المدينة حيث استخدم رمحه بقوة. وعندما نظر حوله وجد نفسه وحيداً؛ وقد توقف جنوده بعد الاشتباك وتركوه يتابع العدو بمفرده، وقد احتفظ بموقعه الخطر وشغل الافرنج على أمل أن يأتي رجاله ويشاركوه في المعركة. وعندما لم يحضر أحد منهم أخذ ينسحب على مضض، وعاد راجعاً ببطء إلى خطوط المعركة الخلفية دون أن يصاب بأذى. وقد وصلت أصداء بطولته في هذه الحملة إلى الخارج وعرف بعد ذلك باسم الشامي esh-Shamy أي "السوري".

وفي عام ١١٢٢م كافأه السلطان السلجوقي على خدماته العسكرية الجليلة بهدية لأول حكومة مباشرة وهي إقطاعية واسط Wasit التي كانت مدينة كبرى مع مركز والي البصرة (٢)، وبسرعة برر اختيار السلطان له لما فعل، أما عرب الأهوار في جنوب وادي الرافدين حيث تصب مياه دجلة والفرات، فقد كانوا متعطشين لاستعادة سيادتهم المفقودة في تلك الأراضي الخصبة التي يرويها النهر العظيم. ولكن ما دام زنكي يسيطر على الحدود فقد كانوا خاضعين.

وقد قدم لنا المؤرخ العربي صورة مرسومة للمعركة الخطيرة التي جرت في الأول من آذار عام ١١٢٣م بين العرب والترك. فالعرب كانوا بقيادة الأمير المعروف من قبيلة أسد دوبيس Dubeys ابن صديقه الذي كان يسكن مدينة الحلة. هجم على المدائن (Ctesiphon) Madain وزحف أيضاً على "مدينة السلام" بغداد نفسها مقر الخلافة العباسية ولكن الخليفة المسترشد لم يكن متقاعساً، جعل نفسه رئيساً لحرسه التركي والقائد الأعلى لجنوده، فارتدى عباءته السوداء وعمامته وألقى عباءة النبي (صلعم) على كتفيه

والصولجان المقدس في يده وأبحر في سفينته. وعندما وصل إلى الضفة الثانية من النهر استقبله تابعه العظيم البرسوكي el-Bursuky حاكم الموصل، وزنكي البصرة، ورئيس القضاة، ورئيس السادة الأشراف، ورئيس العلماء والعديد من المحاربين المعروفين وأصحاب المقامات الرفيعة الذين سرعان ما رأوا الحرير البغدادي الموشى بخيوط الذهب على حصان الخليفة، ركعوا وقبلوا الأرض أمامه، واستقبلهم المسترشد في خيمته وقام واحد بعد الآخر من الحكام بحلف يمين الولاء. ثم توجهوا نحو الحلة حيث قلعة العدو، والتقاهم دوبيس عند قنال يسمى النيل الذي يربط دجلة والفرات حيث كانت الاستعدادات للمعركة تجري من الطرفين.

وكان عدد العرب حينذاك يبلغ عشرة الآف من الخيالة واثني عشر ألف من المشاة، أما الخليفة وأتباعه من الحكام فكان عددهم ثمانية آلاف خيال في حين أن الجنود المشاة لم يتجاوز عددهم خمسة آلاف. اتخذ أمير المؤمنين هو وأتباعه موقعاً خلف خط المعركة ولكنه مشرف تماماً على مشهد المحاربين. وأمامه يقف رجال الدين كل واحد منهم أمامه القرآن مفتوحاً، وأهالي بغداد كلهم كانوا مطأطئي الرؤوس خشوعاً في ذلك اليوم يتلون الآيات الكريمة، مطالبين الحماية من الله؛ وما قرئ مرة، فإن كتاب الله كان يقرأ ألف مرة في تلك الساعة الحرجة. والجناح الأيمن من جيش الخليفة -كان بقيادة زنكي وأمير آخر-كانوا يصدون معظم هجوم العدو. عنتر **Antar** قاد الخيالة البدو بهجومين لامعين. كاد يجعل جنود الخليفة يهربون في حين أن زنكي قام بحركة التفافية بارعة طوق بها جيش العرب وساعده البرسوكي ورموا بالعدو في القنال، فكانت هزيمتهم كاملة، وذبحوا السجناء بلا رحمة وهرب قائدهم وسقطت نساؤه في أيدي الفاتحين.

وبعد انتصار زنكي حاول تجربة حظه في البلاط، فقد تعب من الوقوف رهن الاشارة ومناداة أصحاب المقام العالي. ونادى أتباعه المخلصين ورفاقه معاً وخاطبهم قائلاً : "لقد أصبح وضعنا لايحتمل حيث استمر تعيين الحكام الجدد وما علينا غير إطاعة رغباتهم وأهوائهم! فهم الآن يرسلوننا إلى العراق ويوم وغداً إلى الموصل ثم

إلى وادي الرافدين وبعده إلى سورية. انصحوني ماذا أفعل؟ قال زين الدين علي الصديق المخلص الأمين لزنكي : سيدي، إن التركمان لهم مقولة جيدة : "إذا كنت رجلاً تحتاج إلى وضع الحجر فوق رأسك فدعه ينقلع من محجر فوق جبل عال." وبنفس الطريقة إذا كان من الضرورة أن نخدم شخصاً فليكن السلطان نفسه."

فاتخذ زنكي هذه النصيحة وذهب إلى همدان Hamadhan حيث بلاط محمود السلجوقي. وبقي هناك ينتظر دون أي رد سوى ما كان لوالده من مكانة شرف الوقوف قرب العرش. وقد تمتع بهذا الشرف حتى فرغت جيوبه. فقال لصديقه زين الدين "آه يا صديقي علي، نحن حقيقة وضعنا الحجر على رؤوسنا كما اقترحت وآمنا بأنه ثقيل كفاية!".

وبعد فترة جاء السلطان في أحد الأيام إلى بلاطه وركب ليلعب الكرة والصولجان Polo . ولما أراد اختيار شركاءه في اللعب، اختار زنكي وأعطاه (شوجان Chogan) مضرب اللعبة قائلاً : "تعال والعب"، وبعد انتهاء اللعبة استدار إلى رجال حاشيته وعاب عليهم غيرتهم الجلفة، وسألهم : "ألاتخجلون ؟ هذا رجل معروف ووالده كان ذا مكانة محترمة في الدولة، ولم يقدم أحد منكم هدية له أو دعاه إلى مائدته، والله انني تركته دون أن أعطيه حقه أو أمنحه إقطاعية حتى أرى ما بإمكانكم عمله." فالتفت إلى زنكي وقال له : أنا أعطيك أرملة كوندوغلي Kundughly زوجة وشعبي سوف يجهزك بالذهب لأجل الزواج، وكان كوندوغلي من أنبل وأغنى رجال البلاط وأرملته كانت تعامله وكأنها ابنة ملك. وبعد زواجه جاء الأمير بموكب مهيب محاطاً بأتباعه وأتباع زوجته.

لقد نجحت زيارة زنكي للبلاط وعاد في عام ١١٢٤م إلى إقطاعيتي البصرة وواسط اللتين حكمهما بحزم ولكن بيد خيرة. وعندما جاء الخليفة مع قاضي القضاة التابع له مهاجماً فقد دافع زنكي عن واسط ضد جيش الخليفة وحاصر كل قارب وضع يده عليه ورحل جنوده وأعاد في الوقت المناسب قوة السلطان الذي كان

خارج بغداد، وقد كان استغرابه وارتياحه متساويين عندما شاهد فجأة إشارة بارونه الموثوق به معروضة على الأسطول المقترب، وكانت النتيجة أن الخليفة كان مرغماً على إجراء الصلح، ووافق السلاجقة بكل لباقة على بقاء مقامه الذي لم يرغب فيه بمدينة السلام، وتسلم زنكي المنصب الكبير الذي تمناه وهو والي بغداد مع السيطرة ورعاية كل العراق (Chaldaea).

وفي خريف ١١٢٧م عين في حكومة الموصل والجزيرة (جزيرة وادي الرافدين) ولم يكن مجرد إقطاعي كبير أو حاكم على أراضٍ واسعة ولكن كانت مهمته تنشئة وتربية اثنين من أولاد السلطان، ونظراً لهذه المكانة فقد بلغ منصب الأتابك **Atabeg** أو المربي للأمراء. هذا المنصب الجديد جعله في واجهة الصراع مع السلطة اللاتينية، وبدأنا نراه المحارب في سبيل الإيمان ضد الافرنج أي سيد الشرق **The Cid Campeador**، والمادح له يروي إنجازاته بهذا النثر المقفى :

"قد اكتسح الافرنج في وسط مقاطعتهم، وانتقم بثأر لمعاناة صاحب العقيدة الحق، حتى أن هلال الإسلام أصبح كاملاً بعد ضعفه. وأشرقت شموس الإيمان مرة أخرى، وسار المسلمون بخطى الكبرياء لابسين لباس النصر، وشربوا من آبار النجاح ما استطاعوا، وجردوا الهيكليين **Trinitarians** من الحصن ما شاءوا، وأطاحوا بأكاذيبهم وشرهم، وبقيت عبادة الواحد الأحد هي السائدة في الجزيرة والمناطق السورية، وتجمعوا لأجل الدفاع عن الإسلام في الفيالق ".

وقبل أن يستطيع زنكي قياس تجربة السيوف مع الصليبيين، حاول أولاً ان يكون حكيماً وعادلاً في مقامه الجديد ومهماً لدى الحكومة، وحتى ذاك اليوم كان يعتبر أحد العديدين من الشرفاء والقائد الكبير ولكن ليس ملكاً. ولكن في الموصل على بعد مائتي ميل من شمالي دجلة كان حكمه حكماً مستقلاً ولا يتدخل في حكومته أحد. ونظامه الذي كان قد تسلمه كمرسوم من الامبراطور المثالي ملك شاه ظهر انموذجاً لإدارة الدول كافة التي برزت نتيجة

تدمير الامبراطورية السلجوقية. وهي التي اعتمدت على الحكم المباشر وسارت وفق شبكة منظمه من المخبرين حيث كان جمهور من الجواسيس والمراقبين يدقق التقارير، وزنكي كان له عملاء في عواصم الأمراء الذين إلى جواره حتى في البلاط الامبراطوري، حيث كان يعرف جيداً ماذا يعمل السلطان من الصباح حتى المساء. وفي كل يوم يحضر له المراسلون من مختلف الجهات رسائل لأنه يجب أن يكون الشخص الأول الذي يعرف كل الأخبار. أما سخاوه لزواره فقد كان يجري برقابة شديدة، ولا يمكن لأي من ممثلي الدول أن يمر عبر إقليمه بلا استئذان أو موافقته، وعندما يدخلون يرافقهم أحد الذين يثق بهم حيث لا يلقون بالأسئلة على السكان لكي يتأكد له أن هؤلاء الأغراب ليسوا جواسيس على هذه الأرض. أما شعبه فلا يسمح لهم بمغادرة مقاطعته حتى لا يخونوا نقاط الضعف في دفاعاته، وإذا هرب واحد منهم فإنه يجبره على التسليم.

وعندما هاجرت مجموعة من الفلاحين من الموصل إلى ماردين **Maridin** طلب من أمير تلك المدينة أورتوكيد **Ortukid** أن يعيدهم واعترض **Timurtash** تيمورتاش: "إننا نعامل فلاحينا بشكل جيد ولانأخذ غير عُشر ما ينتجون، فهل عاملتوهم بالمثل حتى لا يترككم فلاحوكم؟". أجاب زنكي الرسول: "حتى لو افترضنا أننا نأخذ منهم ١٪ من المحصول فإن هذا كثير، حيث نرى الذين في ماردين يعيشون في رخاء، في حين لو أنني أخذت ضريبة من شعبي أي ٣/٢ مما ينتجون لما اعتبرته شيئاً بالنسبة إلى الخدمات التي أقدمها لهم، لأن الأعداء ليسوا ضدي فقط إنما يجب أن أقوم بالحرب المقدسة، ولولاي لما تمكن أحد أن يشرب كأساً من الماء في ماردين وهو آمن لأن الافرنج كانوا قد استحوذوا عليها، لذلك مالم يعيدوا هؤلاء الفلاحين إلى أراضيهم فسوف أجلب كل ريفي من ماردين وأرميه كالقاذورات في الموصل".

لقد عاد المهاجرون إلى أماكنهم، وحصل في وقت ما أن جعل زنكي السلطان يسلم أحد النبلاء الهاربين الذي ألقي في السجن ولم يعرف عنه احد شيئاً بعد ذلك.

ومن الجلي أنه لم يكن حاكماً متساهلاً، وقد رويت قصة عن زنكي الذي استغرب من وجود بحار نائماً في مركزه، بينما يجب أن يكون مستيقظاً بانتظاره، وعندما أيقظوه نهض الرجل خائفاً من رؤية سيده واقفاً أمامه فسقط ميتاً. وقد اشتكى العبيد وهم صادقون من قسوته، كما وقد أصاب خدمه نوع من الذعر الشديد مما جعلهم لايستطيعون الاعتراض على أوامره وطلباته التي لم يفهموها لأول وهلة. وروي أنه مرة أعطى أحد رجاله قطعة من الكعك ليمسكها، فلم يجرؤ الخادم على وضعها جانباً وظل ممسكاً بها. وبعد نحو سنة، عندما طلب فجأة زنكي أن تجلب له قطعة الكعك جاء بها الخادم و هي مغلفة بمنديل، وطاعته كانت تكافأ بمنصب جيد.

وكان زنكي حاكماً قديراً بين الرجال، وكلما كان يجد خادماً أو موظفاً جديراً كان يحميه ويثق به بسرعة فائقة. وعلى الرغم من أنه كان هو نفسه شخصاً قاسياً. لم يسمح لاحد غيره أن يضطهد أو يستبد بشعبه، حيث كان يقول : "لا يوجد غير مستبد واحد على هذه الأرض". ومرة في إحدى الحملات اكتشف أن أحد ضباطه المفضلين كان قد طرد عائلة يهودية من بيتها في موسم الشتاء البارد ليجعل منه مركزاً له. فنظر زنكي إلى وجهه نظرة واحدة فقط، فخرج ذلك الضابط من المدينة حالاً ووضع خيمته في الوحل والمطر. ولم يكن يسمح لأحد من ضباطه بإجازة أو اضطهاد أحد ولم يكن لأي منهم أن يعاقب النساء، لأن زوجات ضباطه كما صرح يقعن تحت حمايته الخاصة. ولا يمكن لأي رجل أن يهينهن أو يفلت من العقوبة خلال غياب أزواجهن في الحرب.

ولم يشجع أتباعه على طلب الملكية "حيث قال : ما دامت البلاد بأيدينا، ماذا يهمك ما دام الإقطاعي العسكري يخدمك كذلك؟ فإذا خسرنا هذه البلاد فإن مقاطعاتكم كلها تذهب أيضاً، وعندما يمتلك أتباع السلطان الأراضي فإنهم يستبدون ويظلمون ويسلبون ويغيرون ويزعجون الشعب بغاراتهم المتكررة". ولم يسمح لجيوشه أن تدوس على محاصيل الشعب وكانوا يسيرون كما يروي المؤرخ في طريق مستقيم كأنهم يسيرون (بين حبلين)، ولا يسمح

لأي جندي أن يأخذ حزمة من القصب من الفلاح دون أن يدفع له ثمنه. وكان العنف الذي يستخدم في العقاب هو الإعدام صلباً. وكان رحيماً بالفقراء من ناحية الضرائب، و لكن المدن الغنية مثل حلب فقد أثقلها بالضرائب حتى تغطي ما ينفق على حملاته.

وبعد كل هذا منحهم مبلغاً جيداً مقابل أموالهم. وكان تأثير قسوته وحكمه المطلق واضحاً في حماية وازدهار مقاطعاته، وخاصة عند أحياء عاصمته، وقد علق أبو المؤرخين ابن الأثير : "وقد رأيت الموصل أم الجزيرة كيف كانت عندما جاءها سيدنا الشهيد"[٢]، فالجزء الأكبر من المدينة كان خرباً، وأرض الفقراء كانت ممتدة من حي الطبالين بعيداً حتى القلعة والقصر... والجامع القديم كان مهجوراً، كل البيوت قرب الأسوار كانت خالية على مدى مرمى الحجر... لكن باستمرار حكم الشهيد تمتعت البلاد بالحماية وأحبطت مؤامرات الأشرار، ومنع الأقوياء من الاستبداد، وقد شمل الإزدهار التقدم الداخل والخارج، وتجمع الناس بعضهم إلى بعض وأمّوا إقليمه واستقروا فيه. الحقيقة أن الكرم يولد الترابط والتضامن. وازداد عدد الأبنية في الموصل والمدن الأخرى حتى أن العديد من المقابر اختفت لظهور الضواحي الجديدة.

زنكي بنى مبنى الحكومة الفخم مقابل الميدان**Almeida**[١] وضاعف ارتفاع الأسوار وعمق الخندق، وأقام البوابة التي سميت باسمه باب العمادي **El-Bab el-Imady** . وقبل مجيئه كانت الموصل فقيرة بالفواكه، فعندما كان بقّال يبيع العنب كان يخصل من عناقيده خصلاً ويضيفها إلى الميزان لتعادل الوزن. ولكن زنكي جعل الجنائن والحدائق تزدهر بالفواكه من الرمان والأجاص والتفاح والعنب. بحيث أن نتاج السنة الماضية يبقى بحالة جيدة قبل أن يكون نتاج السنة الحالية صالحاً للقطاف.

الفصل الرابع
سقوط الرها Edessa
من عام ١١٢٧ - ١١٤٤م

إن أهمية زنكي التاريخية لا تعتمد على حسناته التي قام بها نحو الموصل واستقلاله، لكن على نصرته للإسلام ضد الصليبيين في وقت كان فيه المسلمون في وضع بائس جداً، ورؤساء التركمان في وادي الرافدين غير متحدين ولهم نزعة لمحاربة بعضهم بعضاً كأنه (العمل في سبيل الله) وكأنهم ملزمون بصورة مطلقة لأتباع قيادة الحاكم الجديد في الموصل، فالبلاد كانت كلها موزعة على إقطاعيات عسكرية موالية لزنكي، وكل منها لها عدد من الفلاحين، وبين الاقطاعيين الكبار البعض منهم القدامى والمعروفين وأمراء أورتوكيد Ortukid كانوا قد استوطنوا في قلاع قيافا Keyfa وماردين Maridin منذ بداية القرن، وولدا أورتوك Ortuk الاثنان سكمان Sukman والغازي Il-Ghazy كانا من المعروفين في غاراتهم على الافرنج. والغازي كان له منصب عال في محافظة بغداد يترأس دائرة عليا في أمانتها، وما كان هناك من يثير نصف الرعب في قلوب المسيحيين مثل الذي كان يثيره ذلك القائد التركماني الشرس. ومن معقل جبله كان يغير على شمالي سورية. وعندما خضعت حلب لسلطته توجه لإنقاذ المدينة مع ثلاثة آلاف فارس وثمنمئة ألف من المشاة، وهجموا على تل افرين Ifrin حيث كان موقع الافرنج الحصين، وحصل على إشارة النصر بذبح روجر حاكم انطاكية Roger of Antioch. وتوفي الغازي Il-Ghazy في عام ١١٢٢م في السنة التي تعين فيها زنكي لأول مرة، ولكن ابنه تيمورطاش Timurtash نجح في جولته القضائية إلى ماردين وبعدها إلى حلب. وكان أميراً متساهلاً محباً للهدوء، يحب الحياة الهادئة كالأمراء المتساهلين. ولم ينس واجبه نحو أخيه من والده، إلى أن تعلم درساً عندما نفي من البلاد.

وكان القائد المتمكن والقوي من أورتوكيدز الذي عمه داوود David قد ورث قلعة قيافا في عام ١١٠٨م. وأصبح قائداً مشهوراً

في ديار بكر كلها، وعندما صوب أحد سهامه نحو التركمان تقلد كل منهم سيفه بفرح غامر لخوض المعركة، وفي الحال انضم عشرون ألفاً من الرجال تحت رايته، ومثل هذا الأمير لم يكن ميالاً للتنازل عن منصبه للقادم الجديد. وقد أدرك زنكي مباشرة ضرورة الاتفاق مع داود قبل أية مناكفة في ميادين أوسع. وكان يجب أن تكون ديار بكر منزوعة السلاح، وإلا لم يكن بإمكانه أن يتقدم إلى سورية دون الخوف من الهجمات. وكانت حركته الأولى ضد مدينة جزيرة ابن عمر **Jeziret -ibn - Omar** التي كانت قد تخلصت من سلطة الموصل حديثاً، فسير جيشه عبر نهر دجلة بعضهم سابحاً والبعض الآخر في القوارب وقد ساعدهم السكان الخونة ودخلوا المدينة في الوقت الملائم لأنه في اليوم الثاني وصل ارتفاع النهر إلى مستوى قامة الإنسان فلم يستطع أحد العبور. ومن الجزيرة **Jezira** توجه ضد نصيبين **Nisibin** التي كانت عاصمة مشهورة وقد فتحها تراجان **Trajan** التي اشتقت لقبه بارتيكوس **Parthicus**. وهي الآن إحدى مدن أورتوكيد التي فتحها زنكي بخدعة، حيث قبض على إحدى الحمام الزاجل الذي يستخدم مراسلاً في وادي الرافدين وسورية حيث أرسل برسالة مضللة بواسطة هذا الحمام أدت إلى خضوع نصيبين المباشر وقلدتها سنجار **Sinjar** بسرعة.

هنا كان بانتظاره خطر جديد، فالمدن التي تحكم الجزء الأعلى من الفرات مثل الرها وسروج **Saruj** وبيرا **Bira** وغيرها كانت تؤلف القواعد الأمامية للمسيحيين وبأيدي جوسلين دي كورتناي **Joscelin de Courtenay** ومواقعهم العسكرية كانت في **Corp d'elite**، ولايمكن تركهم آمنين دون الحيطة والحذر. وواجه زنكي صعوبة كبرى لعقد هدنة مع جوسلين الذي كان سعيداً جداً لتأجيل الصراع مع عدوه الرهيب. وترك الأتابك حراً للتوجه نحو سورية، و كان مرتبطاً بإنشاء نظام في أقاليمه الجديدة، عندما تسلم استغاثة من حلب للتحرر من هجمات الافرنج، وكان يبحث عن الفرصة الجيدة، ومباشرة عبور الفرات في عام ١١٢٨م ومر عبر منبج **Manbij** ووصل إلى حلب، و استقبل بالترحيب. وكان توغتيجين **Tughtigin** الحاكم السوري الوحيد الذي استطاع أن يكون عدواً يقف في وجه الصليبيين، وأتابك دمشق الذي كان قد توفي حينذاك. وجاء زنكي

السوري ليحتل مكانه وليكون نصيرا للمسلمين البائسين ضد النصارى.(٥)

زنكي سيد حلب بقي لأكثر من سنة في شمالي سورية محاولاً بكل جهوده لإلحاق أكبر الضرر بالمسيحيين، وحارب مع السلطان الذي عينه حاكماً للمقاطعات الغربية كافة، وقاد الحصار إلى القلعة الضخمة لـ أتاريب **Atharib** ويسميها الافرنج **Cerep** التي تبعد عن حلب مسافة يوم واحد، حيث كان خطراً عليهم ومواقعه العسكرية كانت مليئة بالمحاربين ومن موقعه حتى منطقة الدفاع كانت توجد أقوى وأهم القلاع اللاتينية. وكان زنكي مضطرباً لفترة طويلة ولكنه لم ينثنِ عن عزمه إنما حاول دفع خطوطه العسكرية إلى الأمام، ولم يفقد شجاعته. فالمحاصرون كانوا في أوضاع مؤلمة، والملك بالدوين **Baldwin** في القدس عقد مجلس الحرب وكان مستعداً لإنقاذهم، لكن بعض أعضاء المجلس اعتبر الأمر لا يستحق الاهتمام وأن العرب سوف يتقهقرون كما حصل لهم في السابق، لكن أحد أعضاء المجلس كما ذكر أحد المؤرخين وجد الاهتمام الجدي في تحركات زنكي وقال: "إن لهيباً سوف يعقب هذه الومضات، وتوجد شعلة تحت هذا الدخان أليس هذا هو الأسد الذي ترك آثاره في طبريا".

وأخيراً بالدوين حاول السعي لإنقاذ المدينة وتقدم مع فرسانه ومشاته مع أعلامهم وصلبانهم والأمراء والقادة والأسياد لمقابلة أسد طبرية. أما مستشارو زنكي فقد نصحوه بالتراجع إلى حلب لكنه لم يستجب وقال: "دعونا نثق بالله ونقابلهم سواء بالسوء أو الحسن"، وبدلاً من أن ينتظر الجيش لإنقاذه فقد تقدم إلى الأمام واشتدت المعركة. وكان زنكي على رأس رجاله يتقدم وينادي بكلمات النبي (صلعم) ويقول (ليذوقوا عذاب جهنم)، والصليبيون كانوا منهزمين تماماً، "وغرزت سيوف الله في أعناق العدو". وقليل من شرائد الموت الذين نجوا ليخبروا بالدمار وهول المجزرة، "جاءوا ليطيروا ولكن ماذا ينفع عندما تعلق القنينة في الوتد، وأن الجراد قد أنهى أغنيته" (يقابل هذا المثل ماذا يجدي بعد خراب البصرة). فالشهيد كان غارقاً ببحرٍ من الدم والرؤوس المقطوعة والعظام الملقاة حتى أصبح الميدان مملوءاً بالجثث والأطراف، وهرب

منهم فقط من استطاع أن يختبىءتحت أكوام الجثث أوالذين ركبوا الجمال ليلاً.

بالرغم من انعدام آخر أمل فإن أثاريب احتلت بالهجوم ودمرت حصنهم وحوصرت قواتهم العسكرية حتى أن اكواماً هائلة من عظامهم وجدت بعد سنوات عديدة. وأخمد رعب أثاريب ولم تكن الخسارة لجانب واحد فقط، وإنما زنكي كان متحمساً لأخذ جرحاه والعودة إلى بيوتهم للاستراحة. وبعد إجراء اتفاق مع الحصن المجاوره لحريم Harim (Harenc) عاد إلى الموصل في ١١٣٠م كأشهر قائد في الإسلام وشاعت مآثره في أنحاء الأرض وأصبح اسمه كممثل للبسالة والشجاعة والفتك. وقد كتب اسمه سانجوينوس Sanguineus المسيحيون ووقع عليه بالدم في ميدان أثاريب.

وارتاح زنكي لمدة أربع سنوات بعد الحرب المقدسة حيث كان الكثير الذي يشغله في الموصل كتدبير السيطرة والهيمنة على الرؤساء المجاورين له. وموت سلطان مملكته في ١١٣١م جلب له حرباً أخرى لخلافة السلاجقة حيث نال زنكي حصته. وكانت في هذه الحملة التي واجه فيها هجوماً من كراجا حامل الكأس Karaja the Cupbearer جعله هو وجيشه يهربون إلى دجلة حيث حمته قوارب حاكم تكريت من الدمار. والخليفة حاول أن يستفيد من الموقف انتقاماً لأحقاده القديمة على الأتابك، ولكن حصاره للموصل في عام ١١٣٣م الذي طوقه زنكي وحاصر المطوقين تماماً، وبعد ثلاثة أشهر من الهجوم غير الموفق تقاعد زنكي، وأصبح الأفق الشرقي مرة أخرى في حالة هدوء تام، والتفت أتابيك إلى سورية مرة ثانية. ومن أجل الجهاد كان يقتضي أن تكون له دمشق "قلب سورية" التي كانت مركزاً حدودياً للفرنجة. و لأن دمشق يجب أن تكون له جمع جيوش سورية "والجزيرة" وليلقي المسيحيين في البحر.

وكان ذلك حلماً لم يدركه الحالم ولكن هذا حصل بعد وفاته. وكانت محاولته الأولى في ١١٣٥م في صد العدو ناجحة جداً. ثم جاء رجل الدولة القدير الذي حكم دمشق باسم مجموعة من الحكام معين الدين أنار Muin-ed-din Anar وأناردوس عند المؤرخين اللاتين

الذي أخذ على عاتقه إمكانية دحر **Ainardus of the Latin chroniclers** مخطط زنكي وإتحد بهدف واحد مع الافرنج. فالصليبيون أنفسهم لم يهابوا المحارب المسلم وكانوا سعداء لمساعدة دمشق في كبح تقدمه. وعندما وصل زنكي مرة أخرى إلى سورية في صيف ١١٣٧م وجد الافرنج إلى جانب أنار وكانت الخطوة الأولى هي أن يدفعهم مع ملك القدس إلى قلعة بارين **Barin** جبل فراند (**Mont Ferrand**). وقد وصف المؤرخون العرب القلعة بأنها كانت عالية كهلال **Orion** وشاهقة اكثر من قمم الجبال التي لم تستطع الطيور المجنحة الوصول إليها والافرنج كانوا متمسكين بها. وقد أرغم جبل فراند بإنزال العلم بعد أن عملت مجانيق(٦) زنكي ما عملت بأسواره، والأتابك قدم للملك فولك **Fulk "ab hoste satis humane tractatus"** كما أقر وليم حاكم صور وهو في بزة الاحتفال حيث الحامية العسكرية المنهكة والمثبطة الهمة أجبرت على السير مع فخار الحرب.

هذه الرحمة غير المألوفة كانت نتيجة الحذر. وقد علم زنكي بأن التعزيزات القوية القادمة من أوروبا قد استقرت في سورية وهي لأجل تسوية هدنة مع دمشق لذلك انسحب إلى الموصل. وفي الواقع كان التجمع الهائل من أجل دحره. فالامبراطور جون كومنينوس **John Comnenus** جلب جيشاً إلى سورية ولم يتصل هذا الجيش بدول الصليبيين فقط وإنما مع الحاكم المسلم في دمشق. وقد بدأ الامبراطور جون بتبادل العلاقات الودية والدبلوماسية مع زنكي، وقد قرأنا عن الهدايا من طيور الباز والنمور الصيادة ومعاهدة لضمان مناعة حلب ولكن هذه الحقائق لم تعادل الجلد الخفيف الذي كتبت عليه بحيث كان القانون الذي وصفه رجال الدين ينص على أن القَسَمْ (لغير النصراني) يعد باطلاً. ثم أخذ الامبراطور بيزا **Bizza** وكافور تاب **Kafur Tab** وحاصر شيزر **Sheyzar** قلعة أسرة أسامة على نهر العاصي في آذار ١١٣٨م. وسارع زنكي لإنقاذهم وضغط على جيوشه المشاة، ولم يمض وقت حتى دحر العدو من مواقعهم في المرتفعات، وبغاراته ومناوشاته شاع تقدم داود حاكم قيافا سوية مع شيء من المهارة الدبلوماسية وتمرير شيء من العملة الصعبة مما غير من التفكير الامبراطوري الذي سبق أن كان مشمئزاً من طيش وعدم مبالاة الأمراء اللاتين، لأنه في اليوم الرابع والعشرين من

الحصار" كلب الرمانيين "الذي انفصل وتركت حاشيته الحصار وثمانية عشر من المجانيق الضخمة التي استولى عليها زنكي بسرعة، "وهكذا كما كان" قال ابن الأثير:"كفى الله المؤمنين شر القتال".

أما تدخل الامبراطور فقد ثبت قائلاً: ولكن الاتفاقات التي تمت ما بين دمشق والقدس كانت جيدة، وعبثاً حاول زنكي أن يصالح حكام العاصمة السورية عن طريق زواج السيدة الزمردية (زمرد هانم) الأرملة وأم السلطان الحاكم الذي زوج ابنته للأمير نفسه. وقتل الشاب بعد ذلك في الحال، وبدأ كل شيء من جديد، ولم يخف أنار الحاكم الأصلي للمدينة حتى بالإجراء الوحشي لحامية بعلبك التي هي إقطاعيته الخاصة بعد أن حوصرت في تشرين الأول عام ١١٣٩م. والاعتماد الوحيد لسلامة زنكي في تصرفه هو القرآن الكريم والطلاق بالثلاث. هذه الخيانة والغدر في سفك الدماء هي الوحيدة التي مكنت التحالف مع المسيحيين التي عُززت بالمعاهدة الرسمية عندما وافق أنار أن يدفع لملك القدس معونة شهرية قدرها ٢٠,٠٠٠ قطعة من الذهب ليعطيه بدلها بانياس Banias إذا هو ساعد في أخذها من زنكي وإخراجه من الأرض. والمدينة أخذت تحالف الغريب ولكن زنكي أنقذهم من مشكلة تنفيذ آخر جزء من الاتفاق معه بانسحاب جيشه من سورية. وترك والد صلاح الدين محافظاً لبعلبك مكافأة لخدماته الجليلة والطويلة، ومرة أخرى ترك زنكي دمشق غير خاضعة له إلى الموصل.

مقاومة دمشق هي التي أحبطت مخططات زنكي في سورية. وهو الذي طور الهجوم على الصليبيين من جهات مختلفة، فالصد في الجنوب جعله يستطيع السيطرة عليهم من جبال الشمال. واستعداداته كانت محددة. وقد حمى المؤخرة وجناح جيشه عن طريق إرهاب الأكراد واحتلال أشيب وشهرزور Shahrzur و Ashib الذي أعاد بناءها وسماها باسمه العمادية Amadia أو el-Amadiya كما تسمى لهذا اليوم. وتحالف زنكي مع شاه ارمينيا بالزواج. ثم تقدم تدريجاً نحو عدوه. ديار بكر أصبحت بيديه الواحدة بعد الأخرى حتى أن جيشه وضع أمام الأسوار القوية لـ عميد حيث بدأ يضيق الحصار

ليس بسبب ما وإنما فقط للقول العربي المأثور: "إن السيف هو سند الملكية وأحسن من ما تكتب عليه". { وينطبق هذا المثل على ما يقابل الشعر العربي :

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب }

ولكن عميد لم تكن هدفه، لأن أطماعه كانت باتجاه آخر، وكما قال أحد المؤرخين الشرقيين أن محبته لـ عميد كانت مجرد إخفاء لطموحه ورغبته في الرها.

وبما أن خصمه القديم جوسلين دي كورتناي كان يحكم المدينة البروتستنتية الشهيرة كاليرهوي Callirrhoe ذات المياه العذبة، فلم يجرؤ زنكي على التقدم نحوها. فالكونت المضطرب كان إرهاباً لديار بكر وسورية: "والشيطان الرجيم بين الكفرة". كما يسميه المحلل التاريخي المسلم والرها كانت أقوى قاعدة عسكرية في الدولة المسيحية، وعندما مات جوسلين حل محله من يختلف عنه تماماً، وكان شجاعاً مثل أبيه ولكنه يختلف من حيث الدوافع، وفي العادة كان كسولاً وباحثاً عن الملذات ويسمى جوسلين الثاني Joscelin II الذي فضل الراحة التامة في إقطاعيته تل بشير Tell Bashir (Turbessel) على التلال الشديدة البرد والقاسية، وخداع زنكي في حصار عميد كان كافياً لأن يجعل الكونت يصمم على الذهاب إلى مقاطعته السورية، وأتباعه اللاتينيون لم ينفروا من قدوته وتركت الرها لعناية كالدي Chaldee وتجار الأرمن Isnbelles Viri الذين لم تكن سواعدهم كافية للدفاع واعتمد على حماية المرتزقة الذين كانوا يدفعون لهم أرزاقهم متأخرة حتى سنة أو أكثر. وجود مثل هؤلاء المدافعين يجعل أقوى الأسوار ليست ذات قيمة تذكر.

وجاءت فرصة زنكي عندما كانت المدينة قد أخلاها اللورد والفرسان الصليبيون المختارون. فك زنكي مباشرة حصاره لـ عميد وتقدم إلى الرها ونظم صفوفه بسرعة. فهو قد استدعى أولاً الحامية العسكرية للاستسلام ليستولي عليها وكان يعز عليه إلحاق أضرار جسيمة بالمدينة الملكية. ولما رفض أهلها الاستسلام تذكر مصير بعلبك - فقد استفتح القرآن الكريم الذي جاء بالبشير

الحسن حيث أمر بالحصار وجلب المجانيق والخبراء والألغام وتقدم المهندسون مع مدافعهم لتحقيق الهجوم المتواصل إلى أن أدرك المحاصرون كلمات القرآن "حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم". صدق الله العظيم.

وأحد الشعراء العرب أنشد فيه قائلاً:

ركب وسط موج من الفرسان
يزحفون على الأرض كالطوفان
رماحه متوهجة صوب عدوه
وألسنة فرسانه كالدم محمره
والسواد كالليل في جماله
وجبينه كشعاع الصبح ساطع
يشع رحمة في ساعة انبساطه
ولكن ليس في وطأة معركته
وقلباً لقلب مع مضيفه
وأجنحة لأجنحة هي قوته.

وبعد أن ذهبت هجوم القوات المتكررة أدراج الرياح، أخذ المهندسون يعبئون الألغام بالعِصي المشتعلة ويطلقونها إلى الأسوار. زنكي نفسه فتش عن الخنادق ثم قال: " لا يستطيع أي رجل أن يتعشى معي هذا المساء ما لم يأتِ معي إلى الرها في الصباح". وبعد شهر من الحصار، حصل خرق لامتداد مائة ذراع ودخلت جيوش التركمان في المدينة المحررة في ٢٣ كانون الأول عام ١١٤٤م. وكانوا في حالة جنون بنشوة النصر الكاسح، وفي حماسة للثأر من ألف من الإهانات التي صبها لوردات الرها في حلوق المسلمين. والآن جاء الوقت، وقت فوران الدم وشهر الغارات والسحق والحرق لفرسان بالدوين وجوسلين الذين أرهبوا جانباً من البلاد. ففي غاراتهم الأولى لم يتركوا أمامهم شيئاً لم يمس: "فقد قتلوا أرامل الأغراب والأيتام" وقلبوا الصلبان وقتلوا الرهبان والقساوسة، وسحقوا كل شيء تحت أقدامهم وأبقوا على البنات الرشيقات كالغزلان والشباب ليتخذوهم عبيداً وكذلك الخزائن والتجار، وكانت القسوة بلا رحمة، ولكن ألم يصور القرآن الكريم مثل هذه العقوبات الحق كهذه؟ " وكذلك أَخْذُ ربك إذا أَخَذَ القُرَى وهي ظالمةٌ إنَّ أَخذهُ أليمٌ

شديد". صدق الله العظيم.

ودخل زنكي نفسه المدينة وأعجب بجمالها وفخامتها وتألم لأنها تألمت على يديه. فأوقف عمل الجنود التخريبي وأطلق سراح السجناء والشباب والبنات شبيهات الغزلان وأعاد الكنوز والبضائع التي أخذوها، وأعاد المواطنين الباقين إلى بيوتهم حتى تعيد المدينة ازدهارها ولم يألُ جهداً لإصلاح الخراب الذي أحدثه.

الرها في عبارات المؤرخ العربي كانت "فتح الفتوح" فقد استأصل أقوى سند للمملكة اللاتينية. واستسلمت سروج وغيرها من توابع المدينة الكبيرة مباشرة. ولكن وادي الفرات أخيراً تحرر من الاضطهاد المسيحي. "جاء الحق وزهق الباطل" صدق الله العظيم. قد أعلن عنه في طول الأرض وعرضها بأن الإسلام انتصر. وكان النصر الحديث العام في العالم المتمدن والناس كانوا سعداء بهذه الأعاجيب الغريبة وللنذير العظيم. وبعيداً كان رجل دين يحرم جسده بالتقشف الصارم جاء يوماً من صومعته بوجه متسم بالفرح وقال للناس: "إن أحد الإخوان قد أخبرني بأن زنكي استولى على الرها اليوم". وبعد فترة من الزمن جاء بعض الرجال الذين حاربوا في الحصار يتراجعون قائلين أيها السيد: كنا نعلم أن النصر آتٍ من اللحظة التي رأيناك فيها واقفاً على الأسوار منادياً "الله أكبر" وأنكر القديس بأنه كان في الرها ولكن الجميع أقسموا بجد بأنهم عرفوه عندما كان على السور. وما زالت الغرابة أكثر في كلمات ذلك المسلم التقي الورع في باليرمو **Palermo** الذي كان الملك روجر **Roger** ملك صقلية يبتهج احتراماً لبعض النجاحات الحديثة لجيوشه على العرب. سأله: أين هو نبيك ؟ لِم لَم يأت لمساعدة المخلص له ؟ فأجاب الحكيم: لقد كان يساعد في فتح الرها فضج رجال الحاشية بالضحك ولكن الملك أوقفهم بحدة، لأن الكلمات أثرت فيه كثيراً. وبعد ذلك مباشرة تم الشرح بوضوح.

فالأتابك العظيم لم يعش طويلاً ليرى نصره المتوج. وللسنتين الأخيرتين اللتين قضاهما بلا شك في تنظيم أملاكه الجدد لأنه لم يعد بعد ذلك إلى الموصل. وأبعد من ذلك فإن خططه لامبراطورية

حيث كان بكل جد ونشاط يحاصر قلعة جابار **Jaabar** قرب نهر الفرات في عام ١١٤٦م عندما كان نائماً بعد أن أثقل في الشراب، فبعض عبيده دخلوا خيمته وشربوا الشراب المتبقي. واستيقظ زنكي على أصواتهم وأنب أتباعه ونام ثانية. ويبدو أن الرجال خافوا من العقاب الذي سيحل بهم في الصباح، لأن الـ الأتابك كان سيداً قاسياً، ومثل هذا الأمر الطفيف يمكن أن يقودهم إلى النهاية حتى لو أن حاكم القلعة المحاصرة لم يعطهم ثمن الدم. فاستجمعوا شجاعتهم وطعنوه وهو نائم فالخصي ياروكتاش **Yaruktash** ضربه الضربة القاضية وهرب الثلاثة كلهم إلى القلعة. وعندما شاع الذعر كان الأمير العظيم في نزاع الموت. وذكر أحدهم كيف أنه رأى سيده لا يزال يتنفس، فقال : "عندما رآني كان يعتقد أنني أتيت للقضاء عليه فرفع أصبعه بحالة يرثى لها وكأنه يطلب الرحمة. فوقفت أبكي قائلاً : "سيدي من الذي فعل هذا ؟ ولكنه لم يقدر أن يجب، وفي تلك اللحظة انقطع نفسه الأخير"، وذلك في ١٤ أيلول عام ١١٤٦م.

والآن مات عماد الدين زنكي (ملك الأمراء) و (عماد الإيمان) عن عمر يناهز الثانية والستين بسيفه الذي استعمله بغير رحمة. ولم يحقق هدفه وطموحه الكبير بعد. وكما كان ملقى على الأرض مذبوحاً على يد الخونة من الرجال الذين أكلوا على مائدته فلم يهتم به أحد. وكان أولاده ورجاله متعطشين لطلب التركة، أو لحماية مصلحة من يخلفه، والجيش أصبح مشلولاً بسبب الجريمة والخسارة، مفككاً نتيجة الرعب والإرهاب لأن الرجل الذي قادهم وأطعمهم واحتل مملكة معهم ترك جامداً في خيمته. وقد حفظ لغرباء من الرقة **Rakka** أنهم دفنوه في حقل صفين مع العديد من المؤمنين الذين سقطوا قبل خمسمئة عام. وعندما هدأت الأوضاع بنى أولاده قبة على قبره. والمؤرخون المعجبون سموه البطل و(الشهيد) حتى أن قديساً في تلك الأيام رأى رؤيا بأن وجهه متوهج بكل سلام واطمئنان وبسؤاله عن حالته : " كيف يعامله الله ؟" كانت الإجابة "بكل تسامح". ولأي سبب؟ فيجيب: "بسبب الرها."

وفي الوقت نفسه كان الصليبيون يهزأون بنهاية سانجوين **Sanguin** بشعرهم الركيك باللاتينية :

Quam bonus eventus ! fit sanguine sanguinolentus
Vir homicida reus romine Sanguineu.

ولكنهم ابتهجوا قبل الأوان. زنكي كان ميتاً عن حق، ولكنه عمل ما لم يعمله كل الأمراء في الدولة المسيحية، وترك ابنه نور الدين وتابعه صلاح الدين قادة يعرفون كيف يتوجون العمل الذي بدأ به. وبعد أربعين عاماً من موت أتابك العظيم أصبحت الأرض المقدسة لصلاح الدين وسقطت القدس مرة أخرى بأيدي المسلمين الذين احتفظوا بها حتى هذا اليوم. (تاريخ طبع الكتاب).

الجزء الثاني

مصر

١١٣٨م - ١١٧٤م

الفصل الخامس
شباب صلاح الدين
١١٣٨م - ١١٦٤م

تركنا أيوب يغادر حزيناً في العام ١١٣٨م قلعة تكريت، مع أخيه، في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين. ولجأ إلى زنكي في الموصل ولم يخب أملهم بالترحيب الذي لقياه، لأن الأتابك الكبير لم ينس ذلك المركب على نهر دجلة ولم يكن بالرجل الذي يرد سيفاً جديداً. وقد خدم الإخوان في الجيش في عدة حروب. وعندما سقطت بعلبك في تشرين الاول ١١٣٩م أصبح أيوب حاكماً للمدينة التي انتصروا عليها، وقد احتفلت بعلبك أو هيليوبوليس أو "مدينة الشمس" (Heliopolis) القديمة ليس لأجل قدمها ومعابدها لكن لموقعها المرتفع، وكانت تقع بين سلسلة جبال لبنان ولبنان الغربية Antilibanus وتشرف على وادي الليطاني على ارتفاع أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر. وكانت معروفة بأنها أشد مدن سورية برداً. وقد روي في الأسطورة أن الرجال سألوا البرد " أين نجدك ؟ " فأجابهم: "إن بيتي في بعلبك". ولأنها لم تكن المدينة العظيمة كما كانت في أيام انطونينوس بيوس Antoninus Pius حيث بنى الهيكل العظيم الموجود للآن. وكانت بعلبك في زمن أيوب مدينة مهمة محاطة بالحقول الخصبة والبساتين والجنائن ومحصنة بسور متين مع القلعة أو الأكروبولس في الغرب. ولم تكن بعد قد عانت من المخربين المغول ولا ثورات الزلازل التي حولتها الى مدينة خربة كما هي اليوم. وكانت مملوءة بالعنب والماء العذب يجري في المدينة والطواحين ونواعير المياه للسقي هي الشاهد على خصبها. ولتعيينه حاكماً لمدينة مزدهرة وعظيمة كان البرهان المقنع لثقة زنكي بأيوب خاصة عندما أصبحت أبعد قاعدة عسكرية في الجنوب والمقابلة لدمشق العدو، التي تبعد عنها نحو خمسة وثلاثين ميلاً فقط.

وهنا ابن الحاكم (صلاح الدين) قضى سنوات طفولته؛ وحسبما يقال كانت سنوات سعيدة لأنه لم يكن لها أي تاريخ يذكر.

إننا لا نعرف أي شيء عن أسرة أيوب ما بين ١١٣٩م - ١١٤٦م، اي فترة اقامتهم في بعلبك، وبلا شك في حين أن صلاح الدين قد تعلم التعليم الاعتيادي ؛ كأي ولد مسلم، وربما لأنه ابن القائد فقد حصل على أحسن تعليم ممكن. أيوب كان رجلاً تقياً حتى أنه بنى ديراً للنساك الصوفيين في بعلبك. ولا شك فقد تدرب ابنه على قراءة القرآن الكريم لعدة سنوات وكذلك تدرب على قواعد اللغة العربية وأسس علم البيان والشعر والفقه، لأن الحكام العرب مهما كانت أجناسهم في تلك الأيام كان مستواهم الثقافي عربياً وتُغرس فيهم لغة وتعاليم القرآن الكريم والتقاليد العربية، وكان الهدف الأساسي في التعليم هو أن يقوم المعلم بتعليم الأسلوب العربي الصحيح ودقة تركيب الجمل العربية، للقليل من الرجال الذين كان يمكن الاعتماد عليهم لتدريب الشباب المتميزين.

ومهما كان تعليم صلاح الدين في بعلبك فقد كان قليلاً بالمقارنة لما حصل عليه من الفرص لاحقاً. فلم يكن قد بلغ التاسعة من العمر عندما قتل نصير والده وكان موت الأتابيك العظيم إشارة لاستعادة بعلبك على يد مالك دمشق القديم. ولم يبذل أيوب جهداً للدفاع عن المدينة. وكان ديبلوماسياً وحكيماً وواعياً بحذق لمصالحه الخاصة، فقد لاحظ أن ولدي زنكي اللذين يتقاسمان مقاطعات والدهما منهمكين في مراقبة أحدهما الآخر وليس لديهما الوقت للاهتمام في بعلبك. الموصل كانت بعيدة وحلب جبانة، ومن ناحية أخرى كانت دمشق قريبة ومصممة على استعادة قوتها. فعندما دخلت جيوشها إلى بعلبك تفاوض أيوب من القلعة قبل أن يستسلم . حصل على إقطاعية جيدة تشمل عشر قرى بالقرب من دمشق مع مبلغ نقدي من المال وبيت في العاصمة. وهنا كانت سياسته وحصافته تجعلانه يحصل بسرعة على مركز عال في بلاط أباك **Abak** حفيد توغتجين **Tughtigin**. وفي بضع سنوات ارتقى إلى درجة القائد الأعلى للقوات المسلحة في جيش دمشق.

وقد احتفظ أيوب بهذا المركز الرفيع عندما كان ابن زنكي ملك حلب نورالدين محمد يزحف على دمشق في نيسان عام ١١٥٤م. واسم نور الدين **(Noradin)** هو الثاني فقط لصلاح الدين من بين

المدافعين الكبار عن الإسلام. وبعد الكارثة في جابار انقسمت مملكة الأتابيك إلى قسمين: الابن الأكبرسيف الدين غازي خلفه على الموصل بينما الأصغر نور الدين حكم المقاطعة السورية. وبعد أن استطاع بصعوبة تثبيت عرشه على حلب، استدعي للدفاع عن الرها. وبعد موت زنكي مباشرة دعا الأرمن الكونت السابق لهم جوسلين لاستعادة المدينة. وفي تشرين الثاني ١١٤٦م أفزع الحرس التركماني من نومهم وأصبحت المدينة له. وبقيت القلعة حتى وصول نور الدين عندما كان جوسلين وجيوشه قد انسحبوا بحذر. أما الأرمن فقد حاولوا الهروب بحمايته لكن قبض عليهم ما بين الحامية العسكرية والجيش المنقذ ومزقوهم تمزيقاً. **Foris gladius et intus pavor.**

وكان من المؤلم أن يرى المرء ومن المؤسف أن يقال أن الجمهور كان عاجزاً، فالناس المسالمون من الرجال الشيوخ والمرضى والنساء العجائز والفتيات الجميلات والسيدات والأطفال الصغار وحتى الرضع وضعوهم بين عاضدتي الباب، والبعض الآخر داسهم الفرسان والبعض اختنق بالضغط، والبعض ذبح بدون رحمة بسيوف الأعداء.

البعض القليل استطاع الهرب مع الجيش المنسحب حيث أمكن لنور الدين أن يتبعه حتى نهر الفرات.

جوسلين نفسه أُسر فيما بعد وفقد بصره ووضع في سجن حلب حيث مات بعد بؤس وشقاء لمدة تسع سنوات. وقد أعقب سقوطه الإبادة التامة لقوة الافرنج من منطقة الرها وإلى الحدود الشمالية. والحملة الصليبية المأساوية الثانية التي قادها الامبراطور لويس السابع وكونارد **Conard & Luis VII** قد أحبطت أكثرشجاعة المسيحين. وجاءوا بناءً على التبشير والوعظ للقديس برنارد **St. Bernard** لكي يمحوا عار أو خزي الرها. ولكنهم فقط فضحوا أنفسهم على أبواب دمشق في ١١٤٨م عندما لم يعد اليقظ (أنار) يخاف من زنكي وبمساعدة أيوب الأكيدة، أوقفوهم عند حدهم وفي النهاية رأى قواتهم تتبخر.

من مكان الحشد في طبرية Tiberias، كان المضيف ، وعلى رأسه الصليب المقدس، قد تقدم نحو الأردن؛ أولاً ذهب البارونات الذين كانوا تحت حكم الملك بالدوين، وبعدهم الفرنسيون وآخراً الألمان. فالسور الطيني الذي كان يحيط بالحدائق المشهورة في دمشق لم يمنع جيشاً كهذا من التقدم، ولكن البساتين الكثيفة وممراتها الضيقة وكثرة فواكهها وحشائشها كوّنت حماية جيدة جداً للمدينة. وفي كل مكان كانت الأشجار ممتدة طولاً وعرضاً وبسبب هذا الاخضرار والأشجار استطاع العرب المتربعون أن يصدوا تقدم الفاتحين؛ أو أن يقيموا على بنايات شاهقة هنا وهناك وكأنها جزر حجرية وسط هذا البحر الأخضر حيث يطلقون سهامهم من الأعالي. أخيراً وبعد قتال طويل خلت الغابات، والمسيحيون منهكون من الحرارة والعطش ذهبوا للنهرليجدوا جيشاً حديثاً متجهاً ضدهم. " لماذا لا نتقدم ؟ " صاح كونارد من المؤخرة، وعندما عرف السبب اندفع خارجاً من الكتائب الفرنسية إلى المقدمة، وهناك على طريقته التيوتونيكية Teutonic الأصيلة، قفز هو وفرسانه عن خيولهم الحربية وجلسوا خلف حائط من التروس الواقية وجعلوا العدو يتراجع داخل المدينة.

"الحصار الآن بدأ جاداً ، وكان سيحقق قضية ناجحة كما قال وليم حاكم صور لولا طمع الأمراء الكبار الذين بدأوا بالمفاوضات مع المواطنين، وحسب نصيحة الخونة فقد تحول المعسكر إلى الجنوب الغربي حيث امتدت الإشاعة بأن السور هناك ضعيف لا يقاوم أضعف هجوم. ولكن الصليبيين هنا واجهوا عدواً أشد بأساً من التحصينات القوية، لأنهم في موقعهم الجديد أصبحوا مقطوعين عن النهر ومحرومين من فواكه البساتين؛ ومن خلال انعدام الطعام والقيادة الحكيمة أصاب اليأس الجيش، حتى أخذ الرجال يفكرون في التراجع. كان هناك تحاسد بين الافرنج السوريين وبين الحلفاء الغربيين، ومن خلال هذا المصدر الخصب للشر سارع أنار وزير دمشق في جني الفائدة لنفسه. وقد أشار إلى السابق مغبة مساعدة إخوانه لاحتلال دمشق الذي كان المقدمة لاحتلال القدس أيضاً. ومجادلاته التي كانت تدعم بلا شك بالرشوات أدت إلى ترك الحصار.

في عيد الفصح عام ١١٤٩م كانت هذه الحملة الصليبية الباسلة في طريقها إلى الوطن.

وفي مثل هذه الأزمة لم يوجد رجل يمكنه أن يحمل السيف يستطيع أن يكون خاملاً في دمشق. وأيوب الذي لربما لم يحصل على رتبة قائد الجيش الأعلى حتى وفاة أنار في شهر آب الذي تلى الحصار، كان له دورٌ مهمٌ في الدفاع. وصلاح الدين حينذاك كان صغيراً جداً ولم يكن أكثر من المتفرج المتمعن. وفي الحقيقة أن الأسطورة الغربية تخبرنا كيف أن إليانور الفرنسية Eleanor of France استمرت في حبها لسلطان المستقبل "Soldan" ولكونه حينذاك ابن الحادية عشرة من العمر وجدت غيرة الملك لويس Louis باعثاً محتملاً للطلاق الذي تم بعد ذلك.

وبعد مرور خمس سنوات أصبح أيوب العامل المهم في تغيير السلالة وقبول ابن سيده القديم في عاصمة سورية. وكانت علاقة الأخ الأكبر بدمشق عاملاً بوصوله إلى السلطة العليا، فالأخ الأصغر أسد الدين شيركوه Shirkuh الذي يسمى (بأسد الجبل Mountain Lion) أخذ يخدم نور الدين. وقد أبدى شجاعة في كل معركة بحيث أن سيده لم يعطه فقط المدن المهمة في الإقطاعية مثل حمص Emessa والرحبة Rahba وإنما جعله قائداً في الجيش المقرر له فتح دمشق.

ويبدو أن الفرصة الكبرى قد حانت وان الافرنج الذين كانوا غير مؤهلين وبائسين بعد ذلك الانهيار البائس في الحملة الصليبية الثانية، ووادي الرافدين كان هادئاً تحت شهامة حكم أكبر أبناء زنكي وأنار الذي لا يقهر الذي كان باستمرار يقاوم الأتابيك العظيم المُتوفىَ حينذاك وظهر بمكانه أيوب الذي كان أخوه نور الدين القائد الأعلى الأمين. وقد سبق لأمير دمشق أن قدم الطاعة بكل تواضع لملك حلب، وجاءت الآن الساعة التي حققت حلم زنكي في الامبراطورية السورية التي تتركز في عاصمتها دمشق.

وفي نيسان ١١٥٤م برهن جيش نور الدين على أنه يريد

المفاوضة لا الإستيلاء على المدينة، فأجرى شيركوه مفاوضات مع أخيه السياسي داخل الأسوار. وخلال ستة أيام انتظم كل شيء، وأيوب أبدى عدالة لتفانيه القديم لبيت زنكي وانضم إلى جانب الكتائب القوية. وشعب دمشق كان كالخراف الضالة حيث أن أنار قد توفي فأهملوا حاكمهم وانحازوا إلى أيوب وفتحوا أبوابهم أمام أقوى سلطنة في ذلك العصر. ودخل نور الدين بدون أي هجوم وكافأ إخوته كما ينبغي، أيوب وحده من دون كل البلاط كان له الحق أن يجلس في حضور الملك ، أصبح حاكماً على دمشق. وشيركوه أقام في حمص نائباً للملك على المقاطعة الدمشقية بأسرها، والمركب على نهر دجلة يبرهن على التعويذة السائدة. ولكن إذا عُزي تقدمهما الأول كضربة حظ فإن هذين الاخوين يملكان الموهبة والشجاعة لاستخدام الفرص.

ومن عام ١١٥٤م الى ١١٦٤م عاش صلاح الدين في دمشق في بلاط نور الدين على اعتبار أنه ابن القائد الحاكم، أما ماذا عمل، ماذا درس وكيف قضى وقته ومع من؟ فقد حافظ العرب المؤرخون على هدوئهم الساخط بالنسبة لهذا الأمر، وكما أخبرنا أنه اختار لشبابه السجايا الرفيعة : أي أنه تعلم من نور الدين كيف يسير على طريق الصواب ويعمل باستقامة ويكون متحمساً في الحرب ضد المسيحيين. ولأنه ابن الحاكم المفضل فقد تمتع بمكانة مميزة ولكن لم يكن يبدو عليه أنه سيكون له ذلك المستقبل العظيم، وكان المثل اللامع لنفضيلة التي تتجنب "آخر عجز للعقول النيرة". هذا كل ما أخبرونا به عن صلاح الدين حتى سن الخامسة والعشرين من عمره. كانت منزلة صلاح الدين عند النبلاء السوريين عالية، فقضوا شبابهم في الدراسة ورجولتهم في الحرب والصيد والعناية بالكتابة ومطاردة الأسود التي كانت تعتبر سيدة الألعاب الرياضية ولكن المواجهة وصيد الصقور كانت تمارس ضمن طاقة كامنة، وقد قرأنا عن كلاب الصيد والصقور التي تستورد باستمرار من القسطنطينية حيث تربى تربية خاصة مع عناية فائقة وعلمية. ولكننا لم نسمع أية كلمة تشير إلى أن صلاح الدين كان في شبابه صياداً وكل ما نعرفه أنه كان يفضل العزلة التامة وكان كوالده حصيفاً عاقلاً وذكياً على العكس من عمه الطائش

المتهور وكانت حياته قائمة على مبادئ رباطة الجأش والحكمة. وكان أمامه طريقان أحدهما يقود إلى الشرف والشهرة، والآخر إلى الهدوء والانزواء. وصلاح الدين كما سوف نرى سعى لاختيار الطريق الأخيرة، ولم تكن حالة رسمية رتيبة ولكن بالأحرى احتجاجاً على الطبيعة الانعزالية مقابل الاندفاع والضغط لمهمة طموحه. ولكونه من الذين لهم القدرة على السيطرة، فعندما حصل مرة أنه شن هجوماً باعتدال، لم يفقد الفرصة على نشر قوته، ومن المشكوك فيه ألا يكون قد ابتدأ بسبب إلحاح أصدقائه. وشبابه الدائم.ربما هو الذي جعله يستمر بمرحلة الهدوء في الشيخوخة. وصلاح الدين الذي يبقى ببساطة صلاح الدين دمشق والاسم الغامض جداً ليفهمه الأوروبيون.

ولم يكن من الممكن أن يميز نفسه كعالم أو شاعر. ولأجل الحكم عليه في السنوات التالية، فقد كان ذوقه الأدبي فقهياً، وقد أحب الشعر حقيقة ولكن أقل من حبه للجدل الجاد ولسماع التقاليد المقدسة وأثرها وصحتها واختلاف المذاهب وطرق تفسير القرآن الكريم الذي يبدو تبريراً لاستقامة الرأي جعلته يشعر بغبطة داخلية، مثل والده أيوب كان فوق كل شيء مسلماً تقياً، وفي دمشق كانت له فرص عديدة لتنمية قدسيته. والتعلم في تلك الأيام كان يعني التسلح الفقهي أكثر منه أي شيء آخر، والرجال العقلاء كانوا يأتون من الشرق والغرب من سمرقند وقرطبة لكي يعلموا ويتعلموا في الجوامع ومدارس دمشق حيث يجلبون معهم المعرفة من تلك البقاع وكذلك العادات والفنون. وربما كان صلاح الدين يجلس مستمعاً في الزاوية الغربية لجامع أمية **Omayyad** الكبير عندما كان ابن أبي يسرون **(Ibn-Aby-Usrun)** يلقي محاضراته هناك. ولم يستطع أن يكون له أكثر من سيد واحد في عصره له المواهب والقدرة على التعليم الفقهي الذي لم يكن نورالدين قد جلبه معه إلى دمشق فقط وإنما بنى كليات في معظم المدن الكبيرة في سورية لكي يحاضر ابن أبي يسرون بها. ومثل هذه الهدية الرائعة أصبحت معروفة لدى الجميع، وقد أصبح حاكماً في وادي الرافدين. وقد روي عن إخلاص صلاح الدين عندما فقد الرجل بصره ورفض الشاب الدمشقي الذي أصبح سلطاناً فيما بعد

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

أن يجعله يترك مركزه الفخري.

إن البرهان العكسي لحياة العزلة في شباب صلاح الدين وبداية رجولته ظهر في الحقيقة عندما كان أسامة قد قضى معظم السنوات العشر من ١١٥٤م - ١١٦٤م في دمشق في علاقات ودية مع البلاط (عندما كان البلاط هناك) ولم يأت مرة على ذكره. وعندما التقاه أخيراً في عام ١١٧٤م ظهر أنه كان يجب أن يقدم له رسمياً. ولو كان حضور صلاح الدين باستمرار في البلاط فيفرض على أسامة أن يعرفه. وفي الوقت نفسه يجب أن يذكر بأن الرئيس العربي كان بحدود الستين أو السبعين من العمر في فترة سكناه في دمشق، ومن الصعوبة بمكان أن ينتبه إلى فتى صغير السن. وأبعد من ذلك أن الشاعر الكبير البوهيمي النزعة (أسامه) لم تكن له أشياء مماثلة أو مفاهيم مشتركة مع الرجل الشاب الذي يفضل المجتمع الديني ولربما اعتقد صلاح الدين أن أسامة كان تحذيراً سيئاً وأن الرجل العربي القوي الأصيل كان رأيه أن ابن الحاكم العاقل لم يكن أكثر من معتدٍ بنفسه.

في الحقيقة أصبح صلاح الدين فيما بعد قائداً معروفاً في زمانه بعد أن كان شخصاً غامضاً تماماً حتى سن الخامسة والعشرين، والأكثر فضولاً عندما نتذكر عمه شيركوه الذي قدمه فيما بعد إلى الحياة العامة كان يد نور الدين اليمنى، وكان جلياً في قدرته وطموحه كقائد، وكما كان يقال أنه زميله في السلطة. وعندما كان نور الدين في عام ١١٥٩م يصارع الموت ومكث في الفراش لأشهر في حلب، بعدها أصبح شيركوه أول شريف في سورية وفي وضع للحصول على التاج ولكنه بسبب حكمة أيوب نصحه له بالتعقل والانتظار إلى أن يموت سيدهم.

وفي عام ١١٦٠م كان شيركوه قائد دمشق لقافلة الحج إلى مكة وظهر بموكب فوق العادة بهذه المناسبة، ولم نسمع بعد عن صلاح الدين بين أتباعه اللامعين بالرغم من نزعته الدينية أنه أدى في ذلك الموكب الضخم فريضة الحج التي تعتبرنسبة إلى المسلمين تتويجاً للنعمة. وشارك شيركوه بجزء مهم في حروب نور الدين

في إخضاع حريم من الافرنج في عام ١١٦٢م وأسر خمسين قلعة سورية، في حين أن مملكة ابن زنكي الحذر امتدت للسير لمرعش عبرحدود السلطنة السلجوقية لرَم Rum حتى الشمال والجانب الجنوبي من بانياس على حافة جبل الشيخ Hermon إلى بصرى Bozra في حوران Hauran.

في كل هذا ليس لصلاح الدين نصيب، فإذا تم واشترك في جزء صغير من خلال العملية الحربية فلا بد أن يتمكن كُتاب السيرة المعجبين أن يسجلوا ذلك ولم تكن حتى الحملات المعروفة والمذكورة التي خاضها شيركوه لمصر بأن يظهر مستقبل (سلطان المسلمين) من تركه للعزلة والتقدم بشجاعة لمكانة عمه كوارثٍ حقيقي لزنكي في دوره البطولي في الإسلام.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الفصل السادس
فتح مصر
١١٦٤م - ١١٦٩م

لقد عانت مصر لقرنين من الزمن من حكم سلالة الخلفاء الذين افتخروا بانحدارهم من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي محمد (صلعم) وسموا لذلك بالفاطميين. كما أعلنوا إيمانهم بفلسفة روحانية متميزة بالشيعة الذين حافظوا على تجسيد المنطق المقدس بظهور الأئمة الذين ينحدرون من علي وفاطمة واعتقدوا قدوم المهدي الإمام الملهم المنحدر من النسب نفسه. ومع أن استقامة الرأي الثابتة لأغلبية المصريين الذين اتبعوا تعاليم الإمام الشافعي السني حيث يوجد قبره في الصحراء خارج سور القاهرة الجنوبي وما يزال رمزاً لاحترام وتقدير كبيرين. ولكن الخلفاء الفاطميين فرضوا سلطتهم بدون صعوبة كبيرة على الناس الذين اعتادوا الخضوع والطاعة في قضايا الإيمان، واستخدموا نفوذهم لأجيال عدة حيث بقيت دولتهم منقطعة النظير بين الدول الإسلامية. أما أساطيلهم فقد تنازعت السيطرة على البحر المتوسط مع خلفاء قرطبة. فقد نجحوا في احتلال صقلية وهجموا على سردينيا وكورسيكا. وتقدمت سفنهم إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي وساحل غربي افريقيا عن طريق مضيق جبل طارق. وقوافلهم كانت تتاجر مع آسيا وأوربا ونفذت إلى قلب افريقيا إلى حد بحيرة تشاد. أما جيوشهم فقد تمكنت من سورية والجزيرة العربية وكذلك مصر وأثاروا الرعب المستمر في خصومهم المنحلين أي الخلفاء العباسيين في بغداد. وثروتهم كانت ثمرة التجارة الهندية الكبرى التي كانت تعبر من دور الجمارك إلى تجار البندقية وبيزا **Pisa**، وكان الدخل رائعاً، وإذا أردنا اعتماد قائمة المجوهرات والكنوز التي ذكرها المؤرخون العرب، فإن حياة البلاط المرفهة والمسرفة كانت مثار إعجاب ممثلي الدول الأجانب. وكانت جدران وبوابات وجوامع القاهرة الشاهد الكبير على عظمة المدينة الملكية، وحتى الآن فإن ما تبقى من آثار الفن المعماري هو البرهان على الأعمال الجليلة التي عرفت بالسخاء لكل مصادر الفن الزخرفي.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مصر أثبتت نفسها للـ **Capua** أي فتح أكثر من عنصر واحد. وقد عرف الخلفاء الفاطميون عندما تركوا بساطة أيامهم الأولى، فقد حكموا كمبشرين بين برابرة القيروان الذين كانوا في أول أمرهم يعيشون ببساطة، وبعد ذلك غاصوا في الترف والثراء بقصورهم الجميلة في القاهرة، وكانوا مقتنعين بعد فترة بمنح أنفسهم فرصة التمتع وتركوا أعمال الحكم المتعبة بأيدي خدمهم. أما وزراؤهم فقد اغتصبوا بالتدريج جميع نفوذ السلطنة وانتحلوا لقب الملك. بينما كان الإمام الفاطمي مدفوناً في مخادع حريمه لحفظ السلطة الروحية الخفية حيث أن (الإمام الحقيقي) هو الذي يكون مغروساً في قلوب أتباعه المؤمنين بمذهب علي (كرم الله وجهه). وخليفة القاهرة بعرشه المجوهر أصبح لعبة بالنسبة إلى خصومه في بغداد. أما المؤامرات والمنازعات والشقاق فقد كانت النتائج الطبيعية للحكم البيروقراطي، وانقسمت المملكة الفاطمية على نفسها مع تناقص أتباع المذهب الشيعي بحيث أصبحوا فريسة لأي غزو. والحصانة الطويلة لمصر كانت متأتية بالدرجة الأولى من ضعف مجاوريها.

فالسلجوقيون انتزعوا منها سورية ولكن الامبراطورية السلجوقية انقسمت إلى أجزاء قبل محاولتهم غزو مصر. وبقيت القوة الوحيدة التي هددت الخلافة الفاطمية في النصف الأول من القرن الثاني عشر هي مملكة القدس. الافرنج لم يملكوا فقط الساحل السوري وبعض الحصون الداخلية، بل كانوا رجال قتال طموحين راغبين في النهب. ومن حسن حظ مصر أن الصليبيين حاربوا لأجل الذهب أكثر من اهتمامهم بالمجد والشهرة، ولا شك فإن الفاطميين في أواخر أيامهم أمنوا انهماكهم بتقديم مخصصات سخية إن لم تكن جزية سنوية متفق عليها.

ظهور نور الدين على مسرح السياسة السورية وخاصة بعد فتح دمشق هو الذي خلف تأثيراً كبيراً ومزعجاً، وملك سورية وملك القدس أصبحا قوتين متخاصمتين، كل منهما يحول دون تعزيز قوة الآخر للاستيلاء على مصر، وبهذا يطمح في اختيار موقع ممتاز في الجنوب. وكان كل منهما يطمح للاستيلاء على دلتا النيل ويراقب خصمه بعين الغيرة والحذر. فالوزراء المصريون والحكام الحقيقيون

للبلاد كان في استطاعتهم أن يوسعوا نفوذهم بإثارة أحدهما على الآخر. وفي النهاية استمروا في اللعبة لأبعد حد مما جعل صلاح الدين يستغل هذه الفرصة التي لم يهملها.

سبب تدخل نور الدين لأول مرة بشؤون مصر كان احتجاجاً من الوزير المخلوع. وفي زمن الاغتيالات المستمرة وتغيير الوزراء، فإن شاور Shawar ، الحاكم العربي لمصر العليا أخذ طريقه إلى الوزارة في كانون الثاني عام ١١٦٣م الذي خلع بعد سبعة أشهر وطرده من البلاد ضرغام Dirgham حارس البوابة وآمر كتيبة بركية (Barkiya). هرب شاور إلى نور الدين في دمشق طالباً النجدة. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتقدم بها وزير مصري مطالباً التحالف مع الملك السوري. ولكن مقترحات شاور وتوسلاته كانت مصحوبة باليأس، وكان مستعداً لدفع نفقات الغزو كلها، وأخيراً تبرع بإعطاء ١/٣ الحصة السنوية من دخل مصر كجزية لنور الدين. وملك سورية كان متحيزاً في اهتمامه للاستيلاء على مصر. وكان يدرك أنها المفتاح الرئيسي للوضع السياسي الذي يؤلف مصدراً وافراً للدخل. ومع ذلك فقد تردد في قبول عروض شاور، وذلك لعدم ثقته بالرجل نفسه وإدراك المخاطرات التي قد تتعرض لها الحملة في تقدمها نحو الصحراء بجانب الصليبيين، وهذا ما دعاه للتمهل.

ومرت الحوادث بسرعة بالنسبة لحكمته وحصافته، وقد تخاصم ضرغام مع أمالرك Amalric حول المعونة السنوية، وملك القدس الجديد الذي جاء قراره الحازم لغزو مصر في أيلول ١١٦٣م لغرض الحصول على الجزية الاعتيادية. وضرغام تجنب بعد تلك الهزيمة الساحقة بالقرب من بلبيس Bilbeys الهزيمة المدمرة وذلك بتحطيم السدود والقنوات وإغراق المدينة بالمياه المتجمعة في النيل التي كانت في أعلى مدها. وقد سبق ذلك اعتزال أمالرك في فلسطين ولكنه لم يكن مقتنعاً تماماً بذلك النوع من التسوية. وعندما سمع ضرغام عن مباحثات شاور في دمشق تفهم خطأه في عدم استرضاء الملك اللاتيني وحاول تحقيق التحالف الدائم وتقويته بزيادة الجزية. هذه الخطوة كانت معروفة لدى نور الدين التي عززت بالاستشهاد بالقرآن الكريم، حيث أكدت شكوكه السابقة. وقبل أن يستطيع

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

أمالرك الاعتراض بتقدم شاور نحو مصر في نيسان عام ١١٦٤م مسنداً بقوة قوية من التركمان من دمشق بقيادة أسد الدين شيركوه **Shirkuh** مع صلاح الدين على رأس قواده. وانهزم المصريون في بلبيس ثم استجمعوا قواهم مرة أخرى عند أسوار القاهرة.

وقد استمر النزاع غير المحسوم لبضعة أيام واستحوذ شاور على الفسطاط والآخر أخذ قلعة القاهرة، ولأجل زيادة مدخراته فقد اعتبر ضرغام نفسه مالكاً للوقف **Wakf** (مال الأيتام) ، لذا بدأ الناس يتخلون عنه. وأسوأ من ذلك فقد ابتعد عنه الخليفة وجيشه. ولما سيق إلى جنب نادى للمرة الأخيرة مشيراً إلى (التجمع). وعبثاً "فالطبول استمرت تقرع والأبواق تعلن (ماشاء الله) على الاستحكامات ولم يستجب أحد. والأمير اليائس كان محاطاً بحرسه خمسمئة خيال وهم كل ما بقي له من جيشه القوي متضرعاً أمام قصر الخليفة طوال النهار وحتى صلاة العشاء مستشفعاً بذكرى أجداده بأن يقف أمامهم في الشرفة ليبارك قضيته، ولم يجب أحد." فالحراس أنفسهم انسحبوا تدريجياً ولم يبق غير ثلاثين نفراً من الجيش، وفجأة سمع صراخاً يحذره ويقول: "انظر إلى نفسك وانقذ حياتك !" وعندها سمعت أصوات أبواق وطبول شاور تدخل من بوابة الجسر.

وأخيراً فإن القائد المتخلى عنه خرج راكباً من باب زويلة إلى الشوارع منادياً الناس الذين أحبوه في السابق وسمنوا من عطاياه بأن ينهضوا للقتال لأجل قضيته. ولكنهم استهزأوا به ولعنوه حيث كان هذا الأسلوب سائداً نحو من يسقط من محبيهم، ولكنه ظل راكباً حتى أن حصانه هاج من الشغب فرمى راكبه جانباً بالقرب من كنيسة (سيدتنا نفيسة). وفي الحال فإن الشعب الهائج قطع رأسه وحمله كعلامة النصر في الشوارع وبقي جسده ملقىً لتلتهمه الكلاب. هذه كانت النهاية المأساوية للرجل الشجاع الوسيم الشهم، الشاعر، نصير الأسراء، دمث الأخلاق، الجميل في محياه ومشيته، المهذب الكلام، النشيط في كل أنواع الرياضة الرجالية، ويكتب مثل ابن مقلة **Ibn Mukla** ويؤلف القصائد الشعرية "بوزن مزدوج" وأحسن خيّال في زمانه، الجريء في رمي السهام كأفضل رامي قوسٍ

في مصر. واستعاد شاور قوته في أيار عام ١١٦٤م[٧]، وكان متشوقاً لرؤية التحالفات التي أثرت في إعادة مكانته. وقد قام بحذر بإبقاء شيركوه خارج مدينة القاهرة المحصنة ووضعه في الضواحي. ولاعتقاده أنه في أمان ضمن أسواره الحصينة، تحدى حلفه وأبطل وعوده جميعها ورفض دفع التعويض. ولم يكن شيركوه ذلك الرجل الذي يضيع حقوقه أو يغفر لمن يحنث بالايمان، فقد أرسل صلاح الدين لاحتلال بلبيس والمقاطعة الشرقية. وهذه الحركة العدائية جعلت شاور يلجأ إلى أمالرك الذي كان ملكاً على القدس رأى بوضوح دمار الفكرة المسيحية بفلسطين التي انحصرت ما بين الشيطان والبحر العميق. فإذا تمكن نور الدين مرة أخرى من السيطرة على مصر فيجب أن يرسل الجيش نفسه الذي أراد فيه أن يدعم ضرغام ضد الرجل الذي يجب حمايته الآن. وانقلبت المعادلات فأصبح الافرنج هم الحلفاء لعدوهم السابق ومنقذ الوزير المصري أضحى عدوه.

وعند وصول الصليبيين تخندق الجيش السوري في بلبيس التي قاومت هجمات أمالرك لمدة ثلاثة أشهر. وأخيراً تحوّل للإنقاذ. وكان نور الدين قد شن حملة ناجحة بفلسطين. وبعد الارتداد على أيدي جلبرت دي لاسي **Gilbert delacy** وروبرت مانسل **Robert Mansel**، أخذ حريم **Harene (Harim)** وحاصر قيصرية **Caesarea (Philippi)** المهيمن عليهم بمعاونة والتر شزني **Walter Chesney**، وكان أمالرك مطلوباً بإلحاح للعودة إلى بلاده ليحمي مملكته التي تتعرض دوماً للخطر من مستنقعات الجهات الشرقية. ولم يكن شيركوه أقل تشوقاً لخلاص نفسه من الوضع الذي هو فيه حيث يتعرض للهجوم في كل يوم. ويختفي خلف المتاريس الترابية حيث يقل الغذاء. فوضعه كان ليس آمناً ولا لائقاً. وقد تم إبرام هدنة واتفق الطرفان. وفي ٢٧ تشرين الأول خرج الجيش السوري من مخيمه وملأ الخطوط بين الصليبيين الحلفاء والمصريين، وحمل شيركوه نفسه الفأس بيده متقدماً على المؤخرة. فتعجب ضابط من الافرنج من موقفه الحربي، وسأله أحد قدامى المحاربين، إن كان خائفاً من هجوم المسيحيين بالرغم من تعهدهم. ولكن شيركوه قال: "دعوهم يحاولون" واستمر ذاهباً، وبناءً على الاتفاق فقد عاد الجيش

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

إلى دمشق حيث وجد انتصارات نور الدين قد توجت بحصار بانياس في أواسط تشرين الأول وأسروا بوهيموند **Bohemond** أمير إنطاكية والكونت ريمون **Raymond** في طرابلس مع هيو أوف لوزغنان **Hugh of Lusignan** وبقية قادة الجيش وقادوهم بالسلاسل إلى حلب.

وقد انتهت الحملة على مصر بلا مجد لكنهم حققوا هدفهم، وكان التجسس على الأرض، وشيركوه كان باستطاعته أن يقدم تقريره لمصلحة الاحتلال الممكن. وقال: "إن مصر كانت بلاداً بلا رجال وحكومة متزعزعة جديرة بالازدراء". وأن ثراءها وعدم وجود دفاع فيها يجلب لها العداء.

فالحاكم الطموح كان مستبداً في رغبته بأن يكون نائب الملك على العرش في القاهرة، ومنذ ذلك التاريخ وهو يلاحق نور الدين باستمرار لكي يسمح له رسمياً بفتح مصر. أما الشخصيات الجريئة في البلاط فقد أيدت الحاحه، وبارك له الخليفة في بغداد وشجعه على مشروع خلع خصمه المنشق. نور الدين كان حذراً وقاوم هذه المؤثرات لفترة لكنه ترك الأمر جانباً عندما بلغته الشائعات بأن هناك اتحاداً خبيثاً بين شاور والافرنج الذي ثبتت صحته فيما بعد.

كان هناك في الحقيقة سباق على النيل، وشيركوه هو الذي بدأ أولاً في بداية عام ١١٦٧م مع ألفين من الفرسان المختارين واتخذ طريق الصحراء عبر وادي الغزلان لكي يتجنب المواجهة مع الافرنج، لكنه واجه في الطريق عاصفة رملية مدمرة، فوصل إلى النيل في أطفي **Atfih** على بعد أربعين ميلاً جنوب القاهرة، حيث كان يستطيع العبور إلى الضفة الغربية من النهر دون أي خوف من المضايقة. ولما أنهى نقل جيشه على أية حال، ظهر عندها أمالرك على الجانب الشرقي حيث أسرع قادماً من فلسطين حال سماعه بتحركات العدو. فالجيشان سارا على الضفتين المتقابلتين إلى القاهرة عندما وضع أمالرك معسكره مجاوراً للفسطاط، بينما أخذ شيركوه موضعاً مقابله تماماً في الجيزة، وكل واحد منهما كان ينتظر الآخر لكي يبدأ العمليات. في حين أن شاور كان قد عاد من هول المفاجئة بظهور

الافرنج بحيث لم يميز في البداية وبشكل مؤكد إذا كانوا أعداء أم أصدقاء. وبدأ يؤكد شكره لحمايتهم بالشكل المادي. وأمالرك وجد الفرصة في علاقته الودية مع الوزير لتمكين الاتحاد فيما بينهما على أسس أكثر رسمية. وكان مقتنعاً بعدم استقرار الوزير بحيث استطاع أن يصدق المعاهدة مع الخليفة نفسه. أما الشروط فكانت أن تدفع للملك حالاً مائتي ألف قطعة من الذهب [٨]، ثم كمية أخرى تماثلها في وقت آخر ليساعد في طرد العدو. وبناءً على هذا الاتفاق مد أمالرك يده لممثلي الخليفةوحاز ما يشابه التصديق من الخليفة نفسه.

إن قدوم السفراء المسيحيين أمام الحضور المقدس -الخليفة- حيث القلة ومن غُلاة قوم المسلمين نالوا هذه الحظوة كانت سابقة. ولكن أمالرك كان في وضع يمكنه أن يملي شروطه. فالإذن قد منح لهيو حاكم قيصرية **Hugh of Caesarea** وجوفري فلوشر الهيكلي **Geoffrey Flucher The Templar** اللذين اختيرا للسفارة المتميزة. والوزير نفسه هو الذي أرشدهما بالتفصيل للاحتفال الشرقي وعرض عليهما قصر الفاطميين العظيم وقادهما إلى ممرات سرية وأبواب يحرسها سودانيون طوال القامة أقوياء البنية يحيونهما بسيوفهم المسلولة وأوصلوهما إلى ساحة واسعة مفتوحة حتى السماء ومحاطة بأروقة مستندة على أعمدة من المرمر. أما السقوف فكانت منحوتة ومزخرفة بالذهب والألوان، والأرض كانت من الفسيفساء الثمينة. وكانت عيون الضباط مشدوهة بذلك الذوق الرفيع الذي لم يسبق أن رأوا مثله في كل خطوة من خطواتهم. فقد رأوا النافورات من المرمر والطيور على أشكال وأصناف ذات ريش زاهي الألوان غريبة الأشكال بالنسبة إلى العالم الغربي. وفي قاعة أخرى أكثر غرابة من الأولى كانت أنواع من الحيوانات رسمت وكأنها على يد فنان حاذق أو إبداع شاعر أو خيال نائم في رؤى الليل، وهذه هي مناطق الشرق والجنوب التي لم يرها الغرب ونادراً ما سمع عنها. أخيراً وبعد الكثير من اللف والدوران وصلا إلى غرفة العرش حيث العديد من الخدم بألبستهم المترفة التي تدل على عظمة سيدهم. ولثلاث مرات تحزم الوزير بسيفه وسجد إلى الأرض وكأنه في خضوع متواضع لخالقه. ثم بسرعة خاطفة أزيحت الستائر السميكة المطرزة بالذهب

واللؤلؤ، وعلى عرش ذهبي وبعباءة ملوكية ظهر الخليفة جالساً.

تقدم الوزير بتواضع الفرسان الأجانب، وتكلم بصوت خافت عن الخطر المحدق من الخارج وفي وجود الصداقة المتينة مع ملك القدس. ظهر الخليفة الشاب الداكن البشرة – **Fuscus, Procerus Corpore, Faiu Venusta** – وأجاب بوقار وهدوء قائلاً: إنه يرغب في التأكيد بأسلوب مسهب على الارتباطات الحاصلة مع خليفة الحبيب. وعندما طلب المصافحة كتعهد على الاخلاص، تردد وحصل سخط حول جرأة الأجانب في محضر صاحب البلاط، وبعد برهة، مد الخليفة يده بالقفاز كما هي إلى السير هيو **Sir Hugh** وتكلم الضابط الفظ مباشرة قائلاً: مولاي: "الوعد لا غطاء له: وعند الايمان الصادق فكل الأمراء يبدون عراة ومكشوفين"، وأخيراً وبغير رغبة تامة وبعيداً عن الوقار أجبر الخليفة على الابتسام وخلع قفازه ووضع يده بيد السير هيو وتلى القسم كلمة تلو الكلمة أن يحافظ على العهد بأمانة وإخلاص. (٩)

تم التصديق على المعاهدة وحاول أمالرك أن يبني جسراً من القوارب عبر النيل، ولكن وجود العدو على الجهة الأخرى أفسد تلك الخطة والتجأ إلى خطة أخرى. ووجد جزيرة عند انقسام النهر إلى فرعين أساسيين، فنقل جيشه إلى هناك ليلاً ثم إلى الجهة الثانية من النهر في السفن. واكتشف شيركوه تلك الحركة متأخراً لكي يعارضها فوجد العدو قد استقر أرضاً فتراجع إلى مصر العليا. أما مطاردة الملك له فقد جاءت في منطقة البابان (el-Baban) التي تبعد عشرة أميال جنوبي المنيا. وهنا كانت الأرض سهلة وعلى الحدود حيث الأرض الخصبة المزروعة المجاورة للصحراء والعديد من التلال الرملية التي حجبت المقاتلين. قادة شيركوه في البداية نصحوه بعدم المجازفة في المعركة. ولكن أحدهم وقف قائلاً بأعلى صوته: إن الذين يخافون الموت أو العبودية لا يصلحون لخدمة الملوك؛ فليبقوا يحرثون الأرض أو يبقوا في بيوتهم مع أزواجهم. وقد حيا صلاح الدين والآخرون ذلك. وكان شيركوه دائماً مستعداً للضربات القاسية، فتقدم إلى المعركة، وهو يشعر بالسعادة وذلك في (١٨نيسان عام ١١٦٧م.) حيث وضع الأمتعة في الوسط محاطاً

بجيش صلاح الدين الذي كان عليه أن يتحمل الضربة الأولى من الهجوم. وكانت الأوامر لصلاح الدين أن يتقهقر مرغماً العدو لملاحقتهم. ومن ثم يضغط عليهم بدوره كما تقتضي ظروف القتال. شيركوه كان الآخر على الجناح الأيمن المؤلف من هيئة من الفرسان المنتخبين ليقطعوا مؤخرة العدوالمؤلفة من عدد قليل من المصريين غير الميالين للحرب. فوقع ما توقعه وانسحب الافرنج أمام صلاح الدين؛ أما المصريون فقد تفرقوا وانهزموا، وعندما عاد الصليبيون من المطاردة وجدوا حلفاءهم قد هربوا فتراجعوا هم أيضاً تاركين أمتعتهم وهيو حاكم قيصريه من بين السجناء.(١٠)

أما المنتصرون فلم يكونوا بتلك القوة الكافية لمتابعة النجاح، والزحف إلى القاهرة وتدمير شاور وأمالرك. وبما أن شيركوه لم يستطع المجازفة تماماً فإنه توجه إلى الشمال عن طريق الصحراء ودخل الاسكندرية بدون أية معارضة، وهنا عين صلاح الدين حاكماً مع نصف جيشه في حين النصف الآخر اتجه مرة أخرى نحو الجنوب لجباية الضرائب في مصر العليا.

فالقوات المتحدة للافرنج والمصريين تغلغلت في الاسكندرية في حين حافظ الاسطول المسيحي على الساحل، أما زيادة ألف من القوات للدفاع عن المدينة من صلاح الدين فكانت أول أمر مستقل، وقد خلص نفسه جيداً. وكان له من الأتباع الخاصين به نحو الألف وسط جماهير من الهجين والغرباء الساخطين الذين لم يأسفوا على اتخاذ موقف ضد الحكومة الضعيفة أو الدفاع عن مدينتهم ضد الافرنج المتوحشين والمتعطشين للدماء. أما التجار وأصحاب المحلات فلم يستطيعوا إخفاء رعبهم من آلات الحصار والآلات الجهنمية التي جاء بها الافرنج مهددة أسوارهم. فالمؤن كانت شحيحة وكذلك التقنين جعل المعدة متواضعة. وأخيراً نهضوا بفزع وأعلنوا الرغبة في الاستسلام وقالوا: "لماذا نتألم من أجل الغريب ولسبب ليس لنا فيه مصلحة ولا يهمنا؟" وفي أثناء ذلك بعث صلاح الدين إلى عمه طالباً المساعدة، فأسرع شيركوه من كوس Kos محملاً بالكنوز. وانتعش الناس لتلك الأنباء التي أثارها صلاح الدين بنصائحه وتعهده بالتعزيز أو التخوف من الجرأة اليائسة لحكاياته عن

الوحشية الهائلة التي مارسها الافرنج على الذين يغلبونهم. ومكثوا نحو خمسة وسبعين يوماً بالرغم من الجوع والهجوم المتواصل حتى أصبح معروفاً بأن شيركوه كان في بحيرة العباسيين محاصراً القاهرة. وعليه فإن أمالرك صرف النظر عن الاستيلاء على الاسكندرية وتم السلام في (٤ آب عام ١١٦٧م) حيث أن الجهتين[١١] اتفقتا على ترك مصر للمصريين. والاسكندرية استسلمت لشاور وتبادلوا السجناء، وقاد شيركوه البقية المتعبة من جيوشه المكونة من ألفي جندي وعاد بهم إلى دمشق. وقبل أن يتركوا أقيم احتفال على شرف صلاح الدين في معسكر أمالرك لبضعة أيام ولكنه بالأحرى كان يعتبر رهينة أكثر كونه ضيفاً. وكانت تلك التجربة قيمة جداً، فقد يكون قد رأى عينةً من نظام وانضباطية الفروسية وربما كون هذا صداقة مع همفري حاكم تورون **Humphrey of Toron** الذين كانا بمثابة أخوين **Fraterno Foedere Junctus erat** مع ما لا يقل عن منزلة لأمير عربي، وحتى إمكانية أن تكون هذه فرصة عند تسلم صلاح الدين للقب الفروسية على يدي همفري.

المسيحيون ادعوا بأن الحملة نصر لهم، وإخلاء الاسكندرية كتسليم منهم، فإذا صح قول المؤرخين العرب بأن أمالرك أعطى شيركوه خمسين ألف قطعة من الذهب لأجل إبعادهم، فإن الفائدة تبدو بأنها تعود للمسلمين. ومن ناحية أخرى فإن الافرنج بانتهاكهم لاتفاقهم لم يتركوا المقيم أو العريف في القاهرة ولكنهم أصروا على تجهيز حراس أبواب المدينة من جنودهم الخاصين بهم. وكذلك أيضاً عملوا على زيادة المعونة السنوية التي يجب أن يدفعها شاور للملك القدس إلى مئة ألف قطعة من الذهب. إن التناقض الواضح لهذه الترتيبات في الاسكندرية والقاهرة ربما تفسر افتراضاً بأن المسيحيين تنبهوا إلى أخبار نجاحات نورالدين في فلسطين وكانوا متحمسين للعودة إلى ديارهم مهما يكن الأمر ولذلك تركوا الفرص ضد شيركوه مهما كانت ملائمة. ولكن لم يتركوا مصر دون تثبيت التمسك بالوزير المراوغ في القاهرة.

ولم يكن الأمر مقنعاً وكان العديد من المتهورين من بين مستشاري أمالرك الذين بدأوا يلحون لإخضاع مصر تماماً وكان

لنصائحهم الدعم الكبير من قبل الحامية العسكرية التي تركت في القاهرة والفسطاط التي كانت من أحسن الوسائل لاكتشاف مدى الضعف في وسائل الدفاع. وملك القدس عبثاً كان يقاوم مثل هذه النصائح. وبدون شك فقد اكتشف حينذاك أن السياسة الآمنة هي في فتح دمشق أولاً، وجعل المملكة بأمان من الشرق من ناحية الصحراء السورية وحدودها، قبل محاولة ضم مصر حيث أن الغزو يعني تعريض مؤخرة قواته لهجمات نور الدين. وأكثر من ذلك فإن مصر كما قال هي بقرتهم الحلوب. وأشار بأنه من سوء السياسة أن يتحول الصديق إلى عدو ورمي شاور بين أيدي نور الدين الذي كان يعتبر مخادعاً. ولكن نقاشه كان بلا فائدة. وضباطه كانوا عازمين على الغزو ومقتنعين بالنجاح وأخيراً حاول أن يقتنع هو نفسه. وفي الانتهاك الواضح لكلمته كما فهمها العرب فقد تقدم مرة أخرى نحو مصر دون أي عذر، ولكن في هذه المرة دخل دخول الأعداء حيث كان في السابق يدعى حليفاً. وعندما وصل إلى بلبيس في الثالث من تشرين الثاني عام ١١٦٨م وزاد على الخيانة جريمة القتل الجماعي بحيث لم يراعِ العمر أو الجنس في المدينة المخلصة حسبما ذكر المؤرخ اللاتيني.

هذا العمل الوحشي جعل المصريين ينحازون فوراً إلى جانب نور الدين وجعلهم يطالبون ببذل الهمة البطولية. فقد استفادوا من انشغال المسيحيين بالنهب لكي يعززوا قواهم ووسائل دفاعاتهم. حيث كانت مدينة الفسطاط القديمة عاصمة مصر لمدة ثلاثمئة عام واستمرت كضاحية للقاهرة وكانت مزدحمة بالسكان حيث أمر شاور بحرقها حتى لا يلجأ إليها الافرنج للحماية وذلك في ١٢ تشرين الثاني عام ١١٦٨م، فقد استخدموا عشرين ألف برميل من النفط وعشرة آلاف مشعل، وبقيت النار مشتعلة لمدة أربعة وخمسين يوماً. وبقيت آثارها في أكوام الرمال لعدة أميال من بقايا حرائق النفايات في الجانب الجنوبي للقاهرة. وهرب الناس خوفاً من الموت المحتم فترك الأب أولاده والتوأم توأمه وذهبوا كلهم إلى القاهرة لأن النفس عزيزة. فكان سعر إيجار الجمل للسير لمدة ميل أو ميلين يكلف ثلاثين قطعة من الذهب. والعاصمة نفسها كانت في حالة اضطراب استعداداً للهجوم، وأمالرك لم يبقها معلقة في حيرة لفترة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

طويلة ولكنه كان مجبراً على ترك المخيم الاعتيادي (بركة الحبش) بسبب الدخان الخانق الصادر عن الفسطاط، وعليه تأجل الهجوم وذلك للتفاوض الذي أوجده شاور بدهاء للتخلص من المهاجمين الطامعين. وكان التظاهر أكثر وضوحاً من الإخلاص في دبلوماسية. لأنه كان قد أرسل في اللحظة نفسها بعض السعاة إلى دمشق لطلب المساعدة من نور الدين. فالخليفة الشاب في مصر كتب له بنفسه وحتى أنه وضع بضع خصائل من شعر زوجاته كي تكون وسيلة رفيعة للتضرع أو التوسل الذي لا يمكن أن يقاومه أي رجل مهذب.

هذه المرة لم يتردد ملك سورية وكان غاضباً للنتائج الضعيفة للحملتين السابقتين، وساخطاً على الافرنج لأنه عرف عن خرقهم الفظيع للقسم. وكان بالإمكان أن يذهب بنفسه ولكنه كان مشغولاً بأحوال وادي الرافدين غير المستقرة. ولم يخسر أي وقت في إرسال قوة من ألفين من الجنود الذين اختارهم من حرسه مع ستة آلاف من التركمان المرتزقة والمعروفين بشجاعتم بقيادة شيركوه مدعماً بعدد كبير من الأمراء الراغبين في الهجوم. الشخص الوحيد الذي تأخر، ومن الغريب قول ذلك، هو صلاح الدين نفسه. فقد كان الساعد الأيمن لعمه في حملاته السابقة ولكنه ما زال يحب عزلته القديمة ومحادثاته مع الرجال الأتقياء؛ وعندما قال شيركوه في محضر نور الدين :والآن يا يوسف استعد للتقدم. "أجاب صلاح الدين، والله لو أعطيتموني سلطنة مصر ما رضيت الذهاب لأن الذي تحملته في الاسكندرية لن أنساه قط". وبعد ذلك قال شيركوه لنور الدين: من الضرورة أن يأتي معي، واستدار نور الدين إلى الرجل الشاب وكرر الكلمات نفسها: من الضروري أن تذهب مع عمك. وعبثاً حاول صلاح الدين الرجاء بعدم الانضمام للحملة، لفقدانه الإمكانات، ولكن نور الدين لم يصغ له وانما جهزه بالخيل والسلاح وجعله يستعد: وقال صلاح الدين: حسبما روى المشهد في سنوات لاحقة: "وذهبت وكأنني أساق إلى الموت". وهكذا تمت كلمات القرآن الكريم: "وعسىَ أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسىَ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم، ولكن الله يعلم وأنتم لا تعلمون" صدق الله العظيم. وترأس نور الدين نفسه مسيرة الجيش في رأس النبع التي تبعد مسيرة يوم عن دمشق وأعطى كل رجل هدية عشرين قطعة من الذهب بينما كان قد أعطى

شيركوه مائتي ألف دينار لصندوقه العسكري.

وفي ١٧ كانون الأول عام ١١٦٨م بدأت الحملة الثالثة بالتقدم نحو مصر مرة أخرى لإنقاذ شاور نفسه ولكنها في الحقيقة لترتيبات أبعد من ذلك بكثير. وكان أمالرك الدائم الطمع والإلحاح ما يزال ينتظر قبل القاهرة لأخذ ذهب الوزير الموعود به، وعندما وصل شيركوه فجأة مع المصريين في ٨ كانون الثاني عام ١١٦٩م متجنباً جيش الافرنج الذي خرج لكي يعترض تقدمه، اعتزل الملك في فلسطين بسبب خداع شاور وتفوق شيركوه. بلا أي معركة. وحقق المثل القائل (عاد بخفي حنين). دخل السوريون القاهرة منتصرين واستقبلوا كمحررين. والخليفة المعترف بالجميل قدم شيركوه للحضور وألبسه عباءة الشرف حيث عاد ليعرض نفسه للجيش. شاور كان متأثراً روحياً بالحسد والحذر، فكان يومياً يصل إلى المعسكر السوري مع أعلامه وطبوله وأبواقه مظهراً للعموم إخلاصه؛ ولكنه في أثناء ذلك لم يتخذ أية خطوات لإجراء مناوشات مع نور الدين ولكنه في الحقيقة كان يفكر في اعتقال الخائن شيركوه وضباطه في مأدبة ودية. وأدرك السوريون في الحال بأنه شخص لا يعتمد عليه، وصلاح الدين وجوردك **Jurdik** قررا التخلص منه. فبينما كان الوزير راكباً لزيارة القائد الذي كانت له الفرصة لتقديم احتراماته لقبر الإمام الشافعي قبض صلاح الدين ورجاله عليه وهو على حصانه وأخذوه سجيناً. ومهما كانت شكوك شيركوه نحو مصير شاور فقد كانت بمحض أوامر الخليفة نفسه الذي كان كالعبد الذي تحرر من سيده المتغطرس الذي طلب رأس الوزير. فأرسل له وهكذا انتهى العمل الموجز والمتقلب لذلك الوزير السياسي المرموق. فالرئيس العربي المنحدر من عشيرة مرموقة مع الاهتمام وحب أجداده للشعر يتساوى اهتمام وحب بإمكانيته على ملء فم عمارة بالذهب لسروره بذلك الشعر، ويمكن أن يضيف بأن للعربي حصة من الكذب والخداع.

فالخليفة العاضد **el-Adid** كان متأثراً بالشجاعة المحتملة لمحرريه. فقد عين في الحال شيركوه بالوظيفة الشاغرة وألبسه لباس الوزير وزوده بالصلاحية المطلقة وأعطاه ألقاب "الملك المنتصر" و "القائد العام" في (١٨ كانون الثاني عام ١١٦٩م.) وكان

الناس فرحين جداً كالخليفة؛ وأحبوا ذلك الجندي اللطيف عندما جال في المدينة منذ سنة ونصف مع أنه كان يجبي الضرائب، وأهالي القاهرة رحبوا بالأسلوب الحر في كيفية إنفاقه من صندوق الجيش الثقيل. وأنعشهم بنهب قصر شاور الذي لم يتركوا الشيء الكثير فيه حتى ولا المسند الذي كان خليفته المسرف يجلس عليه. فالشاعر العربي رأى بوضوح أكثر عندما أشار إلى مخالب الأسد.[١٢] التي كانت قابضة على فريسته. "فأسد الإيمان" لم يعش طويلاً بعد ذلك لأكثر من شهرين ليتمتع بنصره ومات فجأة في ٢٣ آذار ١١٦٩م نتيجة الإفراط في الطعام؛ لأنه كان أكولاً ومعتاداً الإكثار من الطعام الدسم. وكان شيركوه شخصياً قصيراً ضخماً شجاعاً سريع الغضب، قوي البنية، لم يمنحه الباري التفوق في الذكاء. ومع ذلك كان شجاعاً وجندياً قديراً منافساً في الشهرة صبوراً على الشدائد وحراً لأبعد الحدود، محبوباً من رجاله، وكان من نعيمه أن لا يموت في اللحظة المناسبة. وأصبح بعد ذلك الطريق ممهداً أمام صلاح الدين.

الفصل السابع
وزير مصر
١١٦٩م - ١١٧١م.

"أردت عمراً وأراد الله خارجة" **Kharija**
وهي المصطلح العربي لـ **l'homme propose et Dieu dispose** .

أُقحم صلاح الدين في مصر خلافاً لإرادته حيث لم يتوقع سوى البؤس. وهو يجهل أن ما حاول تجنبه كان أول خطوة تقوده إلى الشهرة. فالنبي (صلعم) في حديثه قال: "رب قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل". ومثل هذه الروابط هي التي قادت صلاح الدين إلى العرش. والخليفة الفاطمي اختاره من بين جميع الضباط السوريين لكي يصبح خليفة عمه، وفي ٢٦ آذار ١١٦٩م، بعد ثلاثة أيام من وفاة شيركوه، ألبس عباءة الوزير[١٣] ولقب بلقب الملك الناصر، أي (الملك القوي المعين). وكان العديد من رفاقه في الجيش أكبر منه سناً وأكثر خبرةً، ولم يك بالسهل تقدم هذا الرجل الشاب وهو في سن الثلاثين ليكون رئيساً عليهم. وكانوا يعتقدون أنه الحسن السلوك والمعين الذكي، الهادئ جداً ولم يك يطمح لمنصب عالٍ؛ وكان الرأي في الحقيقة عن صلاح الدين أنه سهل الانقياد بحيث حصل على هذه المرتبة التي تحتاج للمرونة، ولكن أن يرتقي أعلى من قادة حملات نورالدين المنهكين، فهذا ما لم يستطع أحد هضمه. وقد احتاج ذلك إلى أسلوب ودبلوماسية صلاح الدين التي تدعمها المناقشات المنطقية التي جاء بها المحامي الهكاري **el-Hakkary** والسخاء في فتح صناديق الخزينة لاستمالة المحاربين الحاسدين للخضوع؛ ولكن البعض عادوا إلى سورية كي لا يخدموا تحت سلطة من كان أصغر منهم سناً.

من ناحية بدأ صلاح الدين بإدارة حياته بشكل أشد صرامة، مؤمناً كما كان يظهرنفسه فقد أصبح أكثر شدة وتزمتاً، وترك جانباً فكرة التمتع وحب الراحة وتبنى النظام الأسبارطي **Spartan** وجعله مثالاً لجيوشه. فقد خصص كل طاقاته حينذاك لموضوع ذي أهمية

كبرى وهو إيجاد إمبراطورية إسلامية قوية متمكنة لإقصاء الفرنجة خارج الأرض. "لأن الله عندما أعطاني أرض مصر" كما قال: "فإنني متأكداً أنه كان يعني فلسطين أيضاً". ويمكن أن يكون طموحه الأناني الطبيعي هو الذي دفع حماسته بسرعة؛ ولكن النتيجة كانت الشيء نفسه؛ ومنذ ذلك الحين أصبح همه انتصار الإسلام، ناذراً نفسه للحرب المقدسة.

وكانت مكانة الوزير الجديدة متأرجحة ما بين أن يكون مرة رئيساً لوزراء الخليفة الشيعي المنشق، ومرة القائد للملك المستقيم (السني). ومع هذا التناقض فإن الدعاء للإسمين كان يتردد في كل يوم جمعة في الجامع. ومثل هذا التناقض كان يجب أن يزول تدريجاً. أما التغيرات القسرية فيمكن أن تكون قاتلة ما دام شعب مصر متعاطفاً مع العقائد الشيعية لأن حكم الفاطميين لمدة قرنين عزز بالطبيعة تلك العقائد. وعلاقة صلاح الدين بنور الدين كانت أيضاً شفافة وبارك له قيادته للجيش السوري في مصر. ومن الواضح أنه كان يريد إبقاءه في مكانه. وكانت رسائله من دمشق تحمل هذا العنوان: "إلى الأمير صلاح الدين القائد العام والأمراء الآخرين". والواقع أنه كان **Primus inter pares** جديراً بهذا اللقب ومؤهلاً لاستعادته أو تنزيل رتبته حسب رغبة سيده. ولتعزيز مركزه كان عليه أن يكتسب ثقة شعب مصر ويتجنب إثارة غيرة نور الدين. تلك هي السياسة المثلى التي كان يتبعها صلاح الدين.

كانت خطوته الأولى هي أن يحيط نفسه بأسرته. مثل يوسف **Joseph** وزير مصر، ولكن تحت سلطة فرعون بدلاً من خليفة، فأرسل لإحضار أبيه وإخوته من سورية وجعلهم يشاركونه فخاره. كما أنه عرض تسليم والده [١٤] مركزه السامي. ولكن أيوب رفض ذلك الشرف قائلاً: "يا ولدي إن الله لم يخترني لمثل هذا المنصب العظيم لو لم تكن أهلاً له؛ إنه من غير المستحسن أن يلعب الإنسان بحظه". وأيوب على أي حال أخذ على عاتقه واجبات أمين الصندوق وأولاده الآخرون ساندوا أخاهم بإخلاص في وضعه الصعب. حيث نالوا مكافأتهم وأعطاهم صلاح الدين مقاطعات المصريين المشاكسين حيث نفاهم إلى الأماكن التي لا يستطيعون فيها القيام بأي أذى. وخطته كانت

لإضعاف حزب الخليفة ولم يهمه كم كان عدد الذين يكرهونه من رجال الحاشية والضباط ما دام هو قد حصل على ثقة الناس به. وهذا ما جعله يربح بجد، وقد تحدث كاتب سيرته العربي عنه بأن أفراد الشعب جاءوا من جميع أنحاء مصر لكي يروه، ونادراً ما كانوا يذهبون خالين الأيدي. وكان شديد الإصغاء للملتمسين، لا يرد أحداً منهم خائباً.

كان يحتاج إلى هذه الشعبية بين الناس؛ لأن القصر والعديد من جنوده والمعتمدين عليه كانوا معادين له بوضوح. واكتشف الخليفة أنه كان مخطئاً في وصف أخلاق صلاح الدين، وذلك أنه بقي سيداً وليس عبداً؛ والمكايد كانت مستمرة لتقضي على الوزير الجديد. ونجاح **Nejah** الرئيس الأسود الخصي وكبير الخدم ترأس مؤامرة مع المساندين للسلالة الفاطمية. فقد خططوا مجالاً للتفاهم مع الافرنج الذين كانوا يريدون غزو مصر وإبعاد صلاح الدين عن القاهرة، بينما كان المتآمرون يبيتون له الغدر ليهاجموه هو والتركمان التابعين له وإبادتهم. وقد حصلت حادثة كشفت لصلاح الدين تلك المؤامرة، ووضع من يراقب الرئيس الخصي الذي استطاع بعد فترة طويلة أن يقبض عليه في بيته، خارج حماية القصر، وقد قطع رأس الأسود السيء الحظ بسرعة (تموزسنة ١١٦٩م.) هذا الإعدام السريع لابن بلدهم وقائدهم أثار غضب جنود الخليفة (كما هو في مصر الحديثة) الذي يتألف بشكل واسع من السودانيين، وخمسين ألفاً كما ذكر من هؤلاء السود، نهضوا ليثأروا له. فالصراع الدموي دار في الشكل المربع الذي يقسم القصور (بين القصرين) وأشعلت النيران في العديد من البيوت والشوارع، ولكن في النهاية انهزم السود واحترقت المنصورية الحي الخاص بهم، وأصبحوا مرغمين على التماس الرحمة. وأرسلوا عبر النيل إلى البحيرة ومن ثم لمصر العليا حيث استمرت الثورة لبضع سنوات. وفي الشتاء ما بين سنة ١١٧١-١١٧٢م كان ثوران شاه أكبر إخوان صلاح الدين قد أرغمهم على الخضوع المؤقت، ولكن في الشتاء الذي أعقبه كان عليه أن يحاربهم ثانية ويطاردهم حتى النوبة **Nubia** ، حيث أخذ مدينة إبريم **Ibrim** **(Primis)** بالقرب من كوروسكو **Korosko** حيث نهبت كنيسة المذهب المؤمن بأن المسيح له طبيعة واحدة، وعذبوا المطران

وذبحوا سبعمئة من الخنازير التي وجدت هناك بكثرة حيث أدى إلى غثيان المسلمين الأتقياء. وفي سنة ١١٧٤م كان هناك هياج ضخم من السود في أسوان بقيادة كنز الدولة **Kenz-ed-daula** وكان القتال حاداً بحيث قتل القائد في أيلول على يد سيف الدين (العادل) **Seyf-ed-din (el-Adil)** أخ آخر لصلاح الدين. وحصل عصيان آخر في كوبتوس **Koptos**، قمعه القائد نفسه في ١١٧٦م. وبعد ذلك لم نعرف عن ظهور أي عصيان بين السود ولكن المؤرخ العربي يستنتج بتقوى أن "الله هو الذي أنهى الشرور." ومن الواضح بأن الصراع كان مستعصياً وكانت مضر العليا لفترة ست سنوات في حالة عصيان متقطع؛ ويشك في أن السود الثائرين باستمرار كان يحرضهم العبيد السودانيون الهاربون والمتعاضدون مع الفاطميين. وما كاد صلاح الدين يطرد المتمردين السود من القاهرة حتى ظهر خطر مستعجل. أما الصليبيون فلم يتأخروا عن استغلال هذا التغير السياسي في مصر، فتملك القائد نور الدين للنيل جعل مملكة القدس المتصدعة يحاصرها من كلا الجهتين بالجيوش المسيطرة من القوة نفسها، فموانئ دمياط **Damietta** والاسكندرية منحت المسلمين قوة أسطول ومكنتهم من قطع اتصالات الصليبيين مع أوربا وإيقاف سفن الحج السنوي والاستيلاء على ذخائرهم. وبذلت كل الجهود لخرق هذه السلسلة المترابطة التي تهدد وجود القوة اللاتينية في فلسطين. وبموجبه كان أكبر هجوم تلقاه صلاح الدين في مصر منظماً في الغالب بالتعاون مع المتآمرين في القاهرة. وقد شارك أمالرك بمساعدة الإمبراطور الشرقي والأسطول اليوناني بأسطول مكون من ٢٢٠ شراع الذي أبحر بالتعاون مع القوة البرية القوية للصليبيين في حصار دمياط. ومن حسن حظ المدافعين أن الرياح المعاكسة أخرت الأسطول للسير في طريقه من القرن الذهبي **Golden Horn**، وصلاح الدين نفسه استفاد من هذا التأخر لتعزيز موقعه العسكري والاستعداد لصد الهجوم. وفي الوقت نفسه أرسل رسلاً إلى نور الدين للتقرير عن حالة الأوضاع وبصورة خاصة الإشارة لمبعوثيه بخطر ترك العمل العدواني خلفه في القاهرة في حين ذهب هو نفسه لمساعدة دمياط. واستجابة لذلك فإن ملك سورية زود مصر بالجيوش كتيبة بعد أخرى وبدأ يجلب انتباه العدو للتظاهر بحملة ضد فلسطين.

إن حصار دمياط بدأ في تشرين الثاني ١١٦٩م، وأمالرك أخذ موقعاً ما بين البحر والمدينة بانتظار مجيء الأسطول اليوناني. وخلال ثلاثة أيام ظهر الأسطول اليوناني ولكن سلسلة حديدية محمية بالبرج الحصين حالت دون دخوله إلى الميناء، وكان غير قادر على تقديم المساعدة المتوقعة. **Nocuit differreparatis** وكانت فرص النجاح ضئيلة بسبب التأجيل وأخيراً عندما قادهم ملك الافرنج الشجاع شخصياً هاجموا بكل آلياتهم الحربية المنظمة والمجانيق والأبراج المحاربة، والحامية التي كانت أشد منعة في صدهم وقد خرجوا للهجوم وأشعلوا النيران في جزء من الأسطول. فإن صلاح الدين في أثناء ذلك قد جلب جيوشه مع العديد من ذخائر الحرب ومليون قطعة ذهب في صندوقه وباستمرار أرهق المحاصرين. والحامية العسكرية كان من السهل إبقاؤها مجهزة ما دامت جيوش القاهرة تحمي ذراع النيل وتبقيه مفتوحاً. ولكن الافرنج شحت لديهم كمية الخبز وكانت التغذية على الفواكه حيث لم تعتد معدهم ذلك. كما وانتشر بينهم المرض والجوع مما أضعف صفوفهم. وقد ذاق اليونانيون المجاعة على السفن ولم يقدم اللاتينيون الذين على السواحل لهم شيئاً.

وكانت هناك عناصر طبيعية تآمرت مع عدم حيطتهم على إتمام هزيمتهم. فالمطر الشديد جعل النيل يفيض على السهل وملأ المعسكر. والعاصفة قلبت الخيم ومنصات الحصار، واتخذت الحامية فرصة سوء حالتهم فرشقتهم بحجارة المجانيق القوية. وظهر الهمس في صفوف القوات والجنود البؤساء الذين كان نصفهم جائعاً والنصف الآخر غارقاً، فطالبوا بالعودة إلى بيوتهم؛ وبعد مرور خمسين يوماً من الجهود غير المثمرة، أرغم أمالرك على التخلي عن الحصار. أبرم السلام وفتح رجال الأعمال والتجار الاسكندريون الكرماء أبواب محلاتهم للفاتحين الجياع حيث قدموا لهم الطعام الجيد وكان قد أصابهم الاكتئاب من رجوعهم إلى فلسطين في ١٩كانون الأول. ولتتوج المصيبة فإن عاصفة حطمت تقريباً كل الأسطول وكانت جثث الأموات اليونانيين تلقى على الشاطئ الذي جاءوا لاقتحامه. وكالمثل القائل: "إن النعامة ذهبت تبحث لها عن قرنين فعادت بلا أذنين". وبعد ذلك بدلاً من التقدم للهجوم فإن

المملكة اللاتينية كانت في حالة الدفاع.

وقد تشجع صلاح الدين بسقوط الافرنج في دمياط ونزل إلى الساحة في السنة التي تلتها سنة تذكر حين الزلزال الذي خرب سورية وانهارت العديد من مدنها القديمة وبدأت سلسلة هجمات استمرت حتى معاهدته مع ريتشارد ملك انجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة. وهجمته الأولى كانت ضد غزة مدينة الحدود للمملكة اللاتينية. وبطريقة حاصر القلعة الصغيرة داروم **Darum**، الثغر الجنوبي للمسيحيين التي حصنها موخراً أمالرك والتي حكمها الفرسان الهيكليون **Templars**. وكان دفاع قائدهم انسل دي باس **Ansel de Pass** قوياً بحيث منح فرصة لـ أمالرك أن يتقدم مع ٢٥٠ فارساً من السلاحين المنتظمين وألفين من الجنود المشاة الذين جعلوا العرب يرتحلون من أماكنهم. ولم ينتظر صلاح الدين معركة بطيئة لكنه تسلل في ظلمة الليل وعندما استيقظ أهل غزة وجدوا مدينتهم قد احتلت. أما المعقل الحصين الذي بناه بالدوين الثاني فقد ثبت أمام العدو، وأجبر حارسها ميلودي بلانشي **Milo de Planci** أن يرفض بقوة هروب المواطنين الذين أجبروا على الوقوف خارج الأبواب للدفاع حتى الموت. ولم يفكر صلاح الدين بالحصار فترة طويلة بعد أن سلب المدينة ترك القلعة وعاد إلى مصر مع الغنائم. وبطريقه اقترب من أمالرك وكان رجاله مستعدين تحت السلاح، ولكن صلاح الدين استراح عندما رآه قد ترك المكان دون القيام بمعركة. وانتهت السنة بالفوز في كانون الأول ١١٧٠م مع أخذ إيلا **Eyla** على رأس خليج العقبة أي إيلات نفسها **Elath** حيث أبحر أسطول سليمان إلى أوفير **Ophir** مفتاح طريق البحر الأحمر للحج إلى مكة. ولكي ينقذ صلاح الدين هذا الموقع المهم من الصليبيين فقد بنى السفن أجزاءً في القاهرة ونقل هذه الأجزاء على الجمال إلى البحر الأحمر وجمّعها واستولى على الحصن بمهاجمة مشتركة من البحر والبر.

هذه النجاحات ضد المسيحيين جلبت الشهرة لصلاح الدين بين المصريين، حيث كانوا مستعدين لنسيان حسدهم والفروق الدينية عندما تقدمت الحملة وأصبحت الغنيمة واضحة للعيان. وبما أنه كان البطل مقابل العدو المشترك، فإن السنة والشيعة والمصريين

والتركمان تبعوا أعلام القائد الشاب بشغف الذين لم يتوانوا عن التآمر عليه عندما لم تكن هناك حرب دينية في خطر.

إن شجاعة صلاح الدين وقيادته الحكيمة أقنعت جيشه بأن من حقه أن يكون الآمر، وكذلك جماهير الناس الذين أدركوا واعترفوا بأنه حام قوي. وهنا كانت سلطته حازمة بحيث استطاع المغامرة في خطوة آنية خطيرة. فالوضع الشاذ للوزير السني الذي يعمل تحت قيادة الخليفة الفاطمي كان غير مرغوب فيه بالنسبة لوجهات نظر صلاح الدين المستقيمة. مع أنه في وقت ما أجبر ملك سورية والخليفة العباسي في بغداد صلاح الدين على إنهاء عدم الإستقرار السياسي والديني وذلك بذكر اسم الخليفة الحقيقي بدلاً من الخليفة الزائف في خطبة صلاة الجمعة، التي هي نوع من الولاء المعترف به. وحتى اليوم فإن صلاح الدين بالرغم من عقيدته الدينية فقد حارب هذا الاقتراح على أساس أن التغير يسبب ثورة في مصر. والسبب الآخر الذي لم يأت على ذكره هو شهرته بين المصريين الهراطقة يجب أن تبرهن على أهمية دعمه عند قطع العلاقات مع نور الدين.

وعلى أي حال فإن مكانته في سنة ١١٧١م أصبحت أكثر قوة، حيث تمكن من القيام بمخاطرة. والخليفة الفاطمي لم يعد شخصياً عاملاً مؤثراً في السياسة. ومنذ مقتل الحاجب الأسود، أصبح هو وقصره تحت سيطرة الحذر واليقظ الخصي الأبيض قراقوش **Karakush** الذي كان الساعد الأيمن لصلاح الدين، الذي كان اسمه بدلاً من أن يرتبط بأعماله المخلصة والقاسية أصبح لقبه في الامبراطورية التركية كلعبة هزلية أو قركوز (**Punch**). إن عزلة وضعف الخليفة أضعفت تأثير مبدأ الشيعة في القاهرة، وأمد صلاح الدين بالتعليمات الدينية القويمة حسب قوانين السنة الذين أوجدوا كليات [١٥] ومدرسين متخصصين في استقامة الرأي في العاصمة وفي المدن الأخرى الرئيسية.

وهكذا أعد الأساس وانتهزت الفرصة السانحة للاستفادة من مرض وضعف الأسير، الذي كان مازال يلقب نفسه بالإمام أو القائد الموجه من الله، ليقوم بالعمل المقرر من قبل بتغيير الخلافة. وفي

الجمعة الأولى من شهر محرم المقدس الشهر الأول من السنة الهجرية ٥٧٦ (الموافق ١١٧١/٩/١٠م)، قام رجل شجاع متدين من الموصل وقبل وصول الواعظ الاعتيادي إلى المسجد الرئيسي بإقامة فروض الصلاة لحفظ وازدهار الخليفة المستقيم في بغداد قائلاً: "يا إلهي، ساعده وساعد جيوشه؛ يا رب الإيمان ورب العالم الحاضر والعالم القادم، يا إله جميع الكائنات في جميع الأرض. ربي ساعد قوى المسلمين وجيوشهم الذين يعبدونك وحدك. إلهي : إحبط عزائم الكفرة والمشركين، أعدائك وأعداء الإيمان."

هذه الثورة الدينية حصلت دون أن يبدو أي اعتراض كما يقول المثل العربي لم تنتطح فيه عنزان، كما يقول المؤرخ. ولم يك شيء أسوأ من المفاجأة التي حصلت من التجمع الجماهيري. والخليفة في بغداد كان مبتهجاً كثيراً، وأضاء عاصمته، وأرسل جلابيب الشرف لنور الدين وصلاح الدين والأعلام السود الشهيرة التي حملتها الجيوش العباسية. أما بالنسبة لنور الدين فقد أرسل بسيفين، أحدهما للسلطة السورية والآخر إلى مصر، ونادى به سلطاناً. وفي هذه الأثناء كان الشخص الأكثر تأثراً مطروحاً في قصره المنيف في القاهرة يصارع الموت.

العاضد آخر خلفاء الفاطميين الذي لم يسمع عن حذف اسمه في الصلاة العامة، وصلاح الدين منع خدمه من إخباره قائلاً: "إذا شفي سوف يدرك الحقيقة سريعاً ولكن إذا مات فليمت بسلام". ومات بعد ذلك بثلاثة أيام ولم يك قد جاوز الحادية والعشرين من العمر. وعلى فراش موته طلب رؤية صلاح الدين. ولكن الوزير توقع مؤامرة ما. واعتذر عن ذلك. ولكنه لاحقاً وجد أن الطلب كان مخلصاً فندم على إهماله ومدح الخليفة الشاب لعدة فضائل، لأخلاقه الحسنة وسجاياه الحميدة وصداقته الحميمة.

وهكذا انتهت بضعف وإهمال السلالة الفاطمية، التي كانت من القوى الإسلامية العظيمة على سواحل البحر المتوسط لما يقارب ثلاثة قرون. وعاشت العائلة لجيلين ولكنهم لم يستطيعوا إجراء أي شيء أمام السلطة الأكيدة لصلاح الدين. وترك العاضد أحد عشر ولداً

وأربع أخوات وأربع زوجات وأقارب آخرين بلغ عددهم جميعاً مائة واثنين وخمسين شخصاً؛ ولكن قراقوش كبير الخدم وضعهم تحت حراسة مشددة. الرجال في مكان والنساء في مكان آخر مقدماً لهم وسائل الترف والاحترام التي تعودوها. فقصر الفاطميين العظيم امتلكه سيدٌ جديدٌ.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

الفصل الثامن
صلاح الدين في القاهرة
١١٧١م - ١١٧٣م.

إن الذين يزورون القاهرة الحديثة لا يرون الكثير من بقايا عاصمة صلاح الدين. فإلى جانب الأبواب القديمة الثلاثة، هنالك ثلاثة جوامع متهدمة وجزء من الأسوار القديمة ولم يبق شيئ في المدينة التي اجتازها عندما خرج لأول مرة من القصر الفاطمي على رأس حرسه. من أهم المظاهر الموجودة في القاهرة الحديثة القلعة أما مآذنها التركية الدقيقة وتحصيناتها المسيطرة فلم يعد لها هناك وجود؛ فهناك فقط النتوء المستدير لجبل المقطم المقترح إنشاء قلعة عليه. ومعظم الساحات الواسعة التي هي الآن مغطاة ببيوت أوربية في حي الإسماعيلية بين الأزبكية والنهر حيث كانت تغمرها المياه؛ ففي زمن صلاح الدين كان النيل يجري باتجاه الشرق أكثر حيث يغطي سور المدينة في الجزء الذي يقع فيه نهر المقص **el-Maks** . أما بولاق وجزيرته فلم يكونا قد ظهرا على سطح الماء بعد، ولم تكن هناك ضاحية العباسية في الشمال. وكانت الشوارع والبيوت ممتدة حينذاك كما هي الآن بعد بوابة زويلة القديمة باتجاه الجنوب وحتى محراب سيدتنا نفيسة. وكان هناك العديد من الأبنية والخرائب كبقايا للسكان السابقين حيث لا نرى سوى تلال من أكوام القاذورات الممزوجة بالرمل - إن الذكرى محزنة لما كان يوماً مدينة رائعة محفوفة بحدائق الفسطاط القديمة، وحتى مدينة بابل القديمة.

هذه الضواحي وهذا الدمار لم يكونا جزءاً من القاهرة، والقاهرة الحقيقية هي مدينة الخلفاء الفاطميين التي لم تكن سوى القلعة الملكية الواسعة التي كانت تسمى (المنتصرة) **el-Kahira** التي قهرت وليم حاكم صور وحولها الإيطاليون تشويهاً إلى ما يسمى في الوقت الحاضر - القاهرة - **Cairo** وكانت تعرف أيضاً باسم المدينة **el-Medina "The City"** تأسست سنة ٩٦٩م لسكنى الخليفة وحرمه وخدمه، وأحياء محيطة بالقصر للفرق المختلفة في جيشه، وللوزير والموظفين في الدولة ولدوائر الحكومة. وكانت ساحة القلعة المطلقة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

محروسة بجدران ضخمة وبما يشبه البوابات النورمانية Norman، ويمنع الناس من دخولها إلا لكبار الموظفين في الدولة. حتى سفراء الدول الأجنبية كان يطلب إليهم الترجل في الخارج، ويقادون إلى حضرة الخليفة بأياديهم على نمط البلاط البيزنطي القديم والعثماني في القرون الوسطى.

وكانت الأبنية الرئيسية هي (القصر الشرقي العظيم) وهو السكن الشخصي للخليفة حيث يحتفظ بنسائه، وأطفاله، وعبيده، والخصيان والخدم، وكان عددهم يقدر بين ١٨-٣٠ ألف (والقصر الغربي الأصغر) أو بيت المتعة، الذي كان مفتوحاً على حديقة كافور Kafur الواسعة حيث الميدان أو (ساحة السباق) Meydan التي تؤمن التمارين للبلاط، وتفصل القسمين ساحة تسمى بين القصرين (Beyn-el-Kasreyn) حيث كان بإمكان الجيوش المؤلفة من عشرة آلاف أن تستعرض فيها. وهذا الاسم مازال محافظاً عليه في جزء يسمى سوق النحاسين. ويوجد ممر تحت الأرض يربط بين القصرين إذ كان بإمكان الخليفة أن يمر دون أن يتخلى عن وحدته الغريبة التي كانت جزءًا من أخلاقه المقدسة. قريباً كان الضريح الذي يضم رفاة أجداده الفاطميين التي جلبت من القيروان البعيدة وجامع الأزهر (el-Azher) حيث كان الخليفة يؤم صلاة الجمعة أميراً وقائداً للمؤمنين؛ وبالقرب من هذا حيثما أشار المؤرخ العربي كانت الملامح المعمارية العادية، «البئر التي يرمي فيها الخليفة المذبوحين». واعتقد الناس أن هنالك شيئاً ذا قيمة أكبر يختفي في تلك الأعماق المعتمة أكثر من مجرد جثث الخلفاء المقتولين والعبيد والتابعين لهم والمغضوب عليهم. ولكنهم عندما بحثوا عن الذهب والأحجار الكريمة فقد تمت بشكل فوق العادة. ولما لم يكن هناك من يقبل بسلام وجود الجن (The Jinn) فقد طمرت البئر حتى لا يحدث الأسوأ.

أما عن حجم وفخامة القصر المنيف فيروي المؤرخون عنه بنَفَس متحفظ. فإننا نقرأ بأن عدد الغرف كانت أربعة آلاف وعن البوابة الذهبية التي تنفتح على القاعة الذهبية، ثم السرادق الرائع حيث يجلس الخليفة على عرشه الذهبي محاطاً بوزرائه والسادة

بانتظاره (عموماً من اليونانيين والسودانيين) الذين يراقبون من خلف ستارة من الذهب المزركش خلال احتفالات المسلمين. ثم القاعة الزمردية وأعمدتها المرمرية الجميلة والديوان الفخم حيث يجلس الخليفة على كرسي العرش أيام الإثنين والخميس من كل أسبوع تحت نافذة تعلوها قبة هي التي لربما وقف تحتها ضرغام متضرعاً عند سقوطه. ثم السقيفة أو الرواق الذي يجلس فيه الخليفة كل مساء وتصل إلى مسامعه استغاثة وصراخ المظلومين والمضطهدين منادين عالياً بعقيدة الشيعة، وعندما يستمع إلى أحزانهم كان يأمر بإنصافهم. ولم يتحدث المؤرخون كثيراً عن عظمة القصر وربما تكونت الفكرة عن كنوزه التي لاحظها هيوحاكم قيصريه Hugh of Caesarea وكذلك من خلال الثروة الهائلة من المجوهرات والأحجار الكريمة التي وجدها صلاح الدين عند وفاة العاضد حيث كانت عبارة عن أربعة أحجار من الزمرد بحجم الإصبع، والياقوت المسمى بالجبل Mountain الذي يزن ٢٤٠٠ قيراط (وقد قال ابن الأثير بأنه رآها بنفسه ووزنها). إن ثروة الفاطميين من المجوهرات والأشياء الفنية الثمينة المصنوعة من الذهب كانت مميزة جداً. والمخزونات في خزانة أحد أولئك الخلفاء. كما قرأنا عنها كانت كميات هائلة من الزمرد واللؤلؤ ومزهريات الكريستال المزخرفة وصحون الذهب المطعمة والصناديق المرصعة بنقوش من الذهب والأثاث والأدوات وخشب الصندل والأبنوس والعاج المزينة بالأحجار الكريمة والأباريق والأقداح من البورسلان الرقيق المملوء بالمسك والكافور. والمرايا المعدنية ذات الأطر الفضية والذهبية المرصعة بالزمرد والعقيق الأحمر، والطاولات من الجزع العقيقي. وعدد لا يحصى من الأواني البرونزية المطعمة بالذهب والفضة، والسجاد والحرير والقماش المقصب بوزنه المثقل بتطريز الذهب والمزين بصور الملوك.

ولكن بين تلك الكنوز التي عثر عليها صلاح الدين لم يبق لنفسه شيئاً. فقد وزع بعضاً منها على أتباعه وجزءاً قدمه إلى نورالدين. أما المكتبة الفخمة التي تحوي ١٢٠,٠٠ [١٦] من المخطوطات فقد قدمها لوزيره القاضي الفاضل Kady el-Fadil . والبقية من الكنز بيع لأجل مصلحة الصندوق العام. ولم تسمح له نفسه

المترفعة ونمط حياته بأن يسكن قصر رئاسة الخليفة الأخير. ولم يعر اهتمامه للمقاعد الحريرية ولا لسرادق اللؤلؤ وإنما بقي في بيت الوزير وترك القصر المنيف لضباطه في الجيش وأعطى بيت المتعة الغربي لأخيه العادل **el-Adil**. ولم تستمر البيوت الملكية وبيوت الفاطميين الجميلة طويلاً حتى انهارت. وكان الشاعر اليماني عُمارة **Omara** يقول: "يا مستهجن حبي لأولاد فاطمة، شاركوني دموعي على القاعات المهجورة بين القصرين التوأمين!". وأشار أحد البوابين بأنه لم يلاحظ لفترة طويلة إدخال الخشب لإشعال النار أو رمي القاذورات منه وعندما كانت تستعمل قطع من الخشب للوقود وتترك أكواماً من الرماد بحيث لم تعد نهاية المبنى بعيدة. وهكذا فلم يبق أثر من تلك القصور الفخمة التي كانت مثار إعجاب وحسد الأمراء.

أما خارج "المدينة" وقلعة القاهرة فقد كان هناك عدد هائل من السكان في الجنوب الغربي وعندما ذهب صلاح الدين لزيارة القبر المقدس للإمام الشافعي في الصحراء، مر بثلاثة عواصم سابقة، خارجاً من باب زويلة مجتازاً أولاً الأحياء الحديثة نسبياً التي أنشئت منذ بناء "المدينة" الملكية الرسمية؛ وكان يعبر بخرابات المنصورية التي حرق فيها الثوار السود وكانت كعش الدبابير. وأبعد من ذلك "بحيرة الفيل" التي جفت منذ زمن، كانت على الجانب الأيمن منه، بينما على الجانب الأيسر حواجز من صخور منطقة المقطم التي حددت مبنى القلعة التي بدئ ببنائها فيما بعد. وطوال طريقه كان يمر من الضواحي المزدحمة بالسكان، الذين غطت بيوتهم الموقع الذي كانت تقوم عليه المدينة الشهيرة الكاتاي **The wards (el-Katai)** حيث قبل ثلاثة قرون احتفظ ابن طولون بدولته الملكية فيها. "الكاتاي" كانت تشبه مدينة القاهرة وهي في الأساس العاصمة الرسمية يسكنها غالباً الملك وبلاطه، وجنوده ومتعهدو المؤن، وكانت كل طبقة في حي منفصل. وكانت العاصمة الثالثة التي بنيت منذ احتلال العرب لمصر، ومع كل عظمتها الهائلة لم يبق من آثارها غير جامع ابن طولون المهدم، حيث عظمته وحسن تصميمه يدلان على شيء مما فقد. وغير ذلك أيضاً في الجنوب الغربي كان يقع المعسكر **el-Askar** وهو مركز رسمي آخر حيث

يسكن الحكام الذين أرسلوا من بغداد لحكم مصر في أيام الخليفة العباسي الذي ثبت حكمه من حدود الهند إلى المحيط الأطلسي. وإلى أبعد الجنوب ما بين البحيرة الحبشية والنيل تقع بقايا أقدم عاصمة إسلامية مصرية، التي كانت المركز الرسمي والمدينة التجارية التي تسمى بالفسطاط el-Fustat (الخيمة) في ذكرى خيمة الفاتح العربي (عمروبن العاص). وعلى الرغم من التدميرات والخراب بسبب الحريق الهائل في سنة ١١٦٨م، فإن السكان بدأوا يعودون إلى بيوتهم المدمرة يحاولون إعادة الحركة للشوارع المهجورة. ولكن الفسطاط لم تستطع استعادة ازدهارها الضائع حيث كانت أسواقها مشهورة بالثراء والتجارة وبيوتها المؤلفة من ستة أدوار والجنائن المملوءة بالفواكه والأزهار المنتشرة حولها. ولكن لم يبق غير جامع عمر Amer القديم الذي رمم وتغير بحيث لم يعد يعرفه صانعه، والقلعة الرومانية البابلية وقلعة المنارة Beacon العربية التي أصبحت خلية للكنائس القبطية التي يقوم على خدمتها الرجال الأقباط التي كانت مرة الحارس للمدينة المسيحية المزدحمة والقديمة والشهيرة "ببابل مصر".[١٧] والضاحية الحقيرة من القاهرة القديمة أو مصر العتيقة Masr el-Atika وهي ليست آثار الفسطاط لأنها تقع على أرض كانت تغمرها مياه النيل في الأيام التي كانت فيها الفسطاط مدينة.

تاريخ عاصمة مصر تحت سيطرة الحكام المسلمين كان عبارة عن مجموعة من التنقلات من الجنوب إلى الشمال الشرقي. أولاً: الفسطاط (الخيمة) التي أوجدها عمر والفاتح في عام ٦٤١م. ثانياً: العسكر (Camp) الذي بني كمركز حكومي على موقع المعسكر العباسي في عام ٧٥٠م. ثالثاً: الكاتاي (الحراس) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي في عام ٨٦٩م التي بناها أحمد بن طولون عاصمة لسلالته. وأخيراً في عام ٩٦٩م جوهر Johar القائد للخليفة الفاطمي في القيروان بعد إخضاع مصر، أوجد القاهرة "المنتصرون" كسكن محصن لسيده. ونقل صلاح الدين تقاليد البناء حيث أن كل حاكم شرقي عظيم كان له فخره؛ ولكن بدلاً من دفع العاصمة إلى الشمال الشرقي فقد سعى لاتحاد المواقع للعواصم الأربع وبناء القلعة المشهورة "بقلعة الجبل" على الحافة الغربية البعيدة من (جبل المقطم)

لكي تصبح مركزاً للحكومة وتكون معقلاً عسكرياً قادراً على السيطرة على كل المدينة ومقاومة الهجوم من الخارج. وكانت خطته لربط القلعة بسور محصن مع التحصينات القديمة للمدينة الفاطمية وتوسيعها بشكل يحتوي موقع الفسطاط وكاتاي وهكذا يدور حول النهر؛ ولكن الخطة لم تكتمل والقلعة لم تنته لفترة طويلة بعد وفاته. وكان توسيع صلاح الدين لمنطقة المدينة مصاحباً لتدمير كل الضواحي بين المدينة القديمة وضريح نفيسة. وقد استبدلت بالضواحي الجنائن الجميلة وأصبح باب الزويلة الطويل يمكن مشاهدته من باب جامع ابن طولون. وقد رأى جيهان ثينو **Jehan Thenaud** الذي رافق المبعوث من لويس الثاني عشر إلى القاهرة في وقت متأخر، إن تلك الجنائن كانت ظاهرة متألقة في المدينة وآثار هذه المتنزهات الجميلة بالإمكان رؤيتها الآن من الاستحكامات الموجودة في القلعة.

كان من المفترض أن يكون صلاح الدين قد صمم قلعة القاهرة لحمايته من العصيان المسلح من الموالين للسلالة الحاكمة الأخيرة. وقد وجد تفسيراً وافياً في مشاركاته الأولى؛ فلكل مدينة سورية قلعة أو حصن، وقد دلت التجربة على أن الاستيلاء على المدينة يمكن احتلالها بسهولة حيث تبقى القلعة ثابتة ويأوي إليها الناس وواسطة لإعادة الاستعداد. لذلك فإن القاهرة يجب أن تكون لها قلعة أيضاً، ومن الممكن الاحتياج إليها كبرج دفاع ضد سيده الاقطاعي نور الدين نفسه. وكان صلاح الدين يسترضي ملك سورية بإهدائه له هدايا من خزائن القصر الفاطمي. وكان الناس يقيمون الدعاء للسلطان في كل يوم جمعة في المساجد وأكثر من ذلك في جامع الحكيم الكبير الذي حل محله الآن الأزهر كالجامع الرئيسي في المدينة؛ وظهر اسمه في النقود التي صكها صلاح الدين في القاهرة. ولكن على الرغم من هذا الخضوع الاسمي وغياب وجود الرموز لشخصيته الاستقلالية فقد كان صلاح الدين سيد نفسه. وكان يسانده الجيش القوي الذي يترأسه إخوته وأولاد إخوته، حيث كان في الحقيقة هو ملك مصر.

كان نورالدين يعرف هذا جيداً، ولكن مشكلاته مع الافرنج

والسلطان السلجوقي في رم Rum ومع الحكام الكثيري الخصام في وادي الرافدين حيث لم تبق له فرصة ليقص جناحي تابعه في مصر. ولم يستطع أن يحصل على تعاون صلاح الدين في الحرب المقدسة، وسواء أكان ذلك صواباً أم خطأ فإنه من الصعب البت بذلك. وكان صلاح الدين مقتنعاً أنه لو سيطر عليه سيده مرةً، فإن ذلك سيكون نهاية لقوته، ولا شيء يقنعه بإمكان المغامرة بوجوده قرب نورالدين. وليس هذا فقط، لكن يبدو أنه ظل تحت تأثير هذا الخوف بحيث كان يفضل وجود الافرنج على حدوده عائقاً يمنع تقدم نورالدين.

وقد وقعت حادثة مباشرة بعد وفاة الخليفة المصري. فقد كان أمالرك غائباً في القسطنطينية لإجراء تخطيط أوسع ضد العرب مع عم زوجته الامبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus؛ وصلاح الدين ولربما وفق أوامر من دمشق انتهز الفرصة للهجوم على الشوبك Mont Real وهي قلعة صغيرة مزعجة بناها بالدوين الأول في عام ١١١٥م. وكانت استحكاماتها البيض اللامعة تتوج تلة مغطاة بأشجار الزيتون وبساتين المشمش من تحتها تشكل واحة جميلة في تلك الصحراء جنوبي البحر الميت. ولكنها كانت كالحارس لحدود سورية ومصر والمسيطرة على طريق القوافل بين البلدين التي تعتبر الإزعاج الدائم لتجارتهم. فالسيطرة عليها أو تدميرها كان الشيء المهم الذي استمر لسنوات بالنسبة إلى صلاح الدين، ولكنها كانت دائماً تفلت من قبضته. وفي هذه المحاولة الأولى حيث شرع في ١١٧١/٩/٢١م بإنشاء معسكر حول الجدران البيض بدون مقاومة تقريباً. وبعد دفاع قليل طلبت الحامية هدنة لمدة عشرة أيام استعداداً لإجراء اتفاق التسليم والإحتمال الأكبر هو للحصول على فترة من الوقت لوصول الامداد. وخلال هذه الفترة ترك نورالدين نفسه دمشق ليشترك مع نائبه في مصر؛ في حين أن صلاح الدين حل معسكره وعاد راجعاً إلى القاهرة. وكتب إلى مولاه: هنالك إشاعة ملائمة عن مؤامرة لمصلحة السلالة الأخيرة كعذر لتقهقره المفاجئ. كانت الحجة صحيحة ولكنها غير كافية. أما إخوته فكانوا مؤهلين تماماً للتعامل مع ثورة السود في مصر العليا. ونور الدين لم يخدع لأنه كان يريد غزو مصر وإنهاء مثل هذا التعنت.

وقد بلغت القاهرة إشاعة بأن هنالك هجوماً جديداً عليها. واجتمع المجلس المترقب لإسرة أيوب مع قادة ضباط الجيش إذ أخبرهم صلاح الدين بالأنباء. وحدث هدوءمطبق. ثم ظهر شاب متحمس هو ابن شقيق صلاح الدين اسمه تقي الدين عمر الذي تحدث قائلاً: "إذا جاء نورالدين فسوف نحاربه ونخرجه من الأرض". ولكن أيوب الحذر والحصيف كما كان دائماً وبخ بشدة حماسة الشاب المتقدة والتفت إلى صلاح الدين قائلاً:

"أنا الأب وهذا شهاب الدين أخو والدتي: فكر، هل هناك في هذا المجلس من يحبكم ويرغب في سعادتكم مثلنا؟" .. "لا والله". رد صلاح الدين: "إذاً اعرفوا ذلك" قال أيوب: "إذا شاء أن نلتقي أنا وخالك بنورا لدين، فلن يوقفنا شيء عن الترجل وتقبيل الأرض أمام قدميه. وحتى لو شاء أن يقطع رأسك بالسيف فعلينا أن نعمل ذلك. كل هؤلاء الذين هنا، وكل الجيوش يجب أن تقدم الطاعة لنورالدين إذا حضر إلى هنا. فهذه الأرض له، فإذا شاء أن ينحيك فيجب أن تطيع حالاً. هذا هو رأي الناصح: "اكتب إليه وقل: بأن الأخبار وصلت بنيتك أن تقود حملة على هذه البلاد. فما لزوم لذلك؟ دع سيدي يرسل إلي ساعياً على جمل سريع ويقودني مع عمامة حول عنقي، فلن تجد أحداً يمكنه أن يقاوم هنا."

ثم فض الاجتماع: "استريحوا واتركونا، نحن مماليك نورالدين وعبيده وبإمكانه أن يعمل ما يختاره بنا".

كل ما قيل كان لغاية، لأن أيوب يعرف أن هناك أمراء يغارون وسوف يكتبون بالتأكيد كل هذه الإجراءات إلى دمشق. وعندما اختلى مع ابنه وحدهما، أعلمه برغبته في عدم ترك ضباطه يرون طموحه السري، وأعاد تكرار اقتناعه بأنه لا يوجد رجل في الجيش يجرؤ أن يرفع سلاحه ضد ملك سورية. وأن الرأي الحكيم الوحيد هو المصالحة، وأعاد أقواله التي اقترحها سابقاً ثم أضاف: "عندما يقرأ هذا سوف يتخلى عن مشروعه. في حين أن الوقت إلى جانبنا وفي كل دقيقة يفعل الله شيئاً ما". ثم انفجر المحارب القديم قائلاً: "والله! إذا حاول نورالدين أن يأخذ منا قصبة سكر فإنني سوف أحاربه حتى الموت!". واتبع صلاح الدين نصيحة والده، وكما تنبأ أيوب، فإن

الملك رأى أنه من الحكمة قبول رسالة الإذعان دون المجازفة للقيام بتجربة الجمل السريع.

حقيقة طاعة صلاح الدين وضعت في الحال للاختبار. ففي أيار أو حزيران ١١٧٣م، شرع وفق تعليمات نور الدين بحصار الكرك. هذه القلعة الشهيرة شمالي الشوبك وأقصى جنوبي البحر الميت، كانت أيضاً على طريق القوافل والمفتاح الأساسي لسورية وشوكة دائمة في جنب العرب. وكانت القلعة وما زالت على طرف كيرمؤاب الكرك **Kir Moab** ، حيث كانت في أيام ميشع **Mesha** الذي صد هجوم يهوشوفات **Jehoshaphat** ملك يهودا **Judah** ؛ التي حافظت بنبل على تقاليدها. وقلعة "الغراب" كما سماها العرب، التي أعاد بناءها على الأساسات الرومانية من قبل باين **Payen** حامل كأس الملك فالك **Fulk** . التي تقع على تل مرتفع على سلسلة جبل سير **Mount Seir** نحو ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر وتشرف على وادٍ خصب محمي بالينابيع الحارة حيث تنمو الفواكه بكثرة. وموقع ومتانة التحصينات والأبراج المنحوتة بأشكال الأسود جعل الاعتداء عليها غير ممكن؛ تشاهد الآن خندقاً مائياً عميقاً فصلها عن المدينة من الأسفل، إذ كانت أيضاً محصنة، حيث كان الدخول إلى القلعة يتم بنفقين ضيقين ومنحدرين ومحفورين في الصخر الصلب. أما الجرف المنحدر فيحمي الجهة الشرقية. وفي تركيبتها العامة كانت قلعة صليبية قتالية؛ وكانت مجهزة بالماء والمؤن، حيث قاومت حصاراً بعد حصار.

لم يكن مقدراً لصلاح الدين أن يحتلها بعد، وعندما بدأ بإجراء مناوشات مع قواعد العدو المتقدمة، وصلت الأخبار بأن نور الدين كما قد أعد من قبل، كان يتقدم مع جيشه السوري، عندها استعد صلاح الدين لمقابلة سيده الاقطاعي ولكن في اللحظة الأخيرة خانه قلبه. فقد خاف من الفخ وبسرعة تراجع إلى مصر.[١٨] وكان عذره صحيحاً كفاية – مرض والده، الذي تركه في مركز القيادة في القاهرة وبوفاته يمكن أن تحصل الثورة. ونور الدين أخذ القرار بعقل منفتح قائلاً: "إن الإبقاء على مصر هدفنا الأعلى". وهكذا فإن صلاح الدين عاد متأخراً لرؤية والده حياً. وكان أيوب قد سقط عن حصانه

خارج بوابة النصر، عندما كان يركب يومياً لتدريب قواته، ومات في التاسع من آب قبل وصول ابنه. فخسارة حصافة أيوب السياسية لا يمكن تعويضها بسهولة.

* كان صلاح الدين يقظاً جدا على الرغم من كلمات نور الدين المعسولة. فما زالت مشاعره غير أخوية نحوه. وكان يهدف إلى لجوء آمن في حالة الغزو المهدد. فاستمر في تقوية التحصينات في القاهرة وزيادة جيشه وتكثيف المخازن والأسلحة. ولكنه لم يكن واثقاً تماماً من قدرته على مقاومة الهجوم من سورية، فتحول فكره لإعداد مكان للتقهقر في حالة إرغامه على ترك مصر. وكان قد دمر مقاطعات في ساحل إفريقيا، برقة وطرابلس، وكذلك قابس **Kabis** في حملة يقودها قراقوش آخر (ليس الذي بنى قلعة القاهرة) في الفترة من ١١٧٢-١١٧٣م؛ ولكن هذا الشريط من المنطقة كان مفتوحاً للغزو من البحر والبر ليكون ملجأً آمناً. وكانت الحملة مرتبة أساساً لجعل جيوشه العديدة منهمكة، ولتجهيزهم بالغنائم الجديدة والجوائز المالية للأسباب نفسها، ولإزاحة الضباط المتآمرين إلى مسافة أسلم، وكذلك معاقبة الرجال السود الذين مازالوا ثائرين، وبدون شك شجعت لحد ما الحملة التي أرسلها إلى السودان في بداية عام ١١٧٣م؛ لكن هذا كله كان لخطة أعمق. فإذا أثبتت مصر استحالة الاستيلاء عليها، فالسودان أو ربما جنوب العرب يصلح مكاناً للتراجع، حيث أن نورالدين على الأكثر لن يتبعهم. وقد أثبتت السودان أنها كل شيء ماعدا الملاذ المنشود. وكان توران شاه **Turan Shah** الأخ الأكبر لصلاح الدين والجندي الشجاع والمتهور وغير المستقر كالماء نجح في إرغام السود على الخضوع، واحتل إبريم **Ibrim** كما ذكر. ولكي يعيش في قطر لا ينتج غير الذرة حيث السبب الوحيد للاحتلال هو الحرب واستعباد السكان غير المسالمين تحت الشمس الحارقة لم يتطرق لعقله أبداً، لذا عاد إلى القاهرة مع قافلة العبيد وقدم تقريراً بأن السودان لا تفي بغرض صلاح الدين.

بقي هنالك المصدر العربي. الشاعر والمؤرخ اليمني عماره **Omara** الذي كان يعيش في القاهرة وأنهك جمال اللغة في التعبير عن تمجيده لجمال وخصوبة وطنه الأصلي والمعروف منذ القدم

باليمن السعيدة **Arabia Felix** . وكان كذلك يعتقد أن حماسته نابعة جزئياً من رغبته في إزالة قائد قاس ومحارب مثل توران شاه **Turan Shah** قبل التآمر الذي كان سينفجر يوماً. تصورات الشاعر كانت عن إيمان حقيقي بأن توران شاه قد نظم حملة قوية وترك مصر في الخامس من شباط ١١٧٤م إلى مكة متقدماً إلى اليمن. وهناك التحق برئيس عربي قوي وكلاهما قضيا بسرعة على مقاومة اليمانيين في زبيد **Zebid** وجنيد **Jened** وعدن **Aden** وصنعاء **Sana**، وغيرها من المدن اليمانية المحصنة التي سقطت الواحدة تلو الأخرى من أيار إلى آب، وأقام ثوران شاه له مركزاً للحكومة في تعز وحكم اليمن السعيد حتى رجوعه لأخيه في أوائل ١١٧٦م. وبقيت المقاطعة تحت سلطة السلالة الأيوبية لخمس وخمسين سنة، ولكن لم تفِ بحاجتها المرغوب فيها كملجأ يقي من ثأر نورالدين.

وفي هذه الأثناء كان التمرد والمؤامرات قد عكرت صفاء مصر. وكانت المؤامرة في مراحلها الأخيرة حيث اعتُقِد أن الشاعر عماره هو المحرض، وكان العديد من المصريين والسودانيين وحتى بعض الضباط التركمان والجيوش قد شاركوا في المؤامرة؛ ملوك صقلية والقدس كانوا مستعدين للمساعدة بوعود تزويد الثوار بالذهب والمناطق. وكانت الاستعدادات على قدم وساق لتهيئة هجوم مشترك من البر والبحر، وذلك لإيقاع صلاح الدين في الشرك. ومن حسن الحظ أن المؤامرة كلها قد نقلها للضحية المنتظرة أحد المخلصين حيث أفضى له المتآمرون - بغير حكمة - بسرهم. وانتظر صلاح الدين حتى تأكد من صحة المعلومات كاملة، ثم انقض على المتآمرين وحاصر القادة وفيهم الشاعر السياستي أيضاً، وصلبهم جميعاً في السادس من نيسان ١١٧٤م. أما الثوار المصريون والعبيد فقد نفاهم إلى مصر العليا.

إن الهجوم البحري الذي كان يجب أن يدعم مؤامرة القاهرة لم يتم حتى أواخر الصيف. أما الافرنج بفلسطين فلم يتحركوا عندما سمعوا بفشل المؤامرة؛ ولكن ملك صقلية لم يكن يعرف الوضع تماماً فأرسل أسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٢٨٢ سفينة [١٩] التي وصلت إلى الاسكندرية في ٢٨تموز. وكان السكان في القاعدة العسكرية الهزيلة

قد بغتوا ولكنهم حاولوا مقاومة الإنزال الذي حصل بالقرب من المنارة. أما الراجمات والمجانيق التي جلبها الصقليون فقد لعبت دوراً في تدمير سور المدينة، والمدافعون أرغموا على الحرب بشكل مستميت طوال اليوم الأول حتى حلول المساء لمقاومة العناصر المهاجمة. وفي اليوم الثاني تقدم المسيحيون بآلاتهم بالقرب من الجدران، ولكن وردت تعزيزات للحامية العسكرية من القرى المجاورة، ومرة أخرى أخفق الهجوم. وفي اليوم الثالث كانت هنالك تشكيلة قوية أحرقت الآلات والعدو خسر خسائر جسيمة، وعادت الحامية مكللة بالنصر. ولم يمض وقت على دخولهم البوابات حتى وصلت مساعدات مستعجلة من صلاح الدين للذين كانوا قد طلبوا مساعدته. وكان أحد رجال الحاشية قد أسرع من القاهرة في اليوم نفسه مع تغيير عدد من الخيل ووصل إلى الاسكندرية ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر، ونادى بأعلى صوته عن قرب وصول جيش صلاح الدين. وقد أنعشت الأنباء قلوب المدافعين، وهرعوا مرة ثانية للتجمع في الظلام وهجموا على معسكر الصقليين وقادوا البعض إلى السفن والبعض الآخر ألقوا بهم في البحر. وخبر قدوم صلاح الدين أنهى الخيبة: فسحب الصقليون مراسيهم وهربوا بالسرعة نفسها التي جاءوا بها.

هنا انتهى خطر الافرنج ولكنه كان خطيراً. فذلك الغزو الصقلي، والمؤامرة في القاهرة، والعصيان في أعالي النيل، لم يعد لها أهمية في التوازن تجاه الأخبار المهمة التي وردت من سورية. فالأخطار المهمة أصبحت في الماضي ولم يعد أعظم الخصوم لا يقهر؛ لأن سلطان سورية توفي في الخامس عشر من أيار.

الجزء الثالث

الامبراطورية

١١٧٤م - ١١٨٦م

الفصل التاسع
غزو سورية
١١٧٤م - ١١٧٦م.

أخبار وفاة نور الدين وقعت كالصاعقة على العرب لأنها لم تكن متوقعة. في السادس من أيار سنة ١١٧٤م كان راكباً مع أحد أفراد حاشيته يتحدث بأسلوب فلسفي حول غموض الحياة الإنسانية. وفي الخامس عشر نقل وهو ابن السادسة والخمسين من العمر بوضع مزر من التهاب في حلقه. ولم يكن أحد قديراً مثله منذ عهد ملك شاه. كان بالنسبة إلى قومه نموذجاً للفضائل وتجسيداً للتقوى الإسلامية، يعد "عمربن عبد العزيز الثاني" وديّناً وعادلاً وملكاً رحيماً.. حتى الصليبيون كانوا يستشهدون بأخلاقه العالية وأقر بذلك وليام حاكم صور بأنه على الرغم من اختلاف العرق والعقيدة. نورا دينوس **Noradinus** كما دعوه باللاتينية كان أميراً عادلاً حكيماً ديّناً مع أنه كان المضطهد الأكبر للمسلمين. فالعدالة التي كان يقدرها بعد، لا بل كجزء من التقوى. وكان يظهر شخصياً في محكمة القاضي ليجيب عن مظلمة مواطن مصراً على عدم قبول أية هدية في صفوفه. فقد رفض كل الضرائب والأعشار التي دفعت له في مقاطعاته، وعاش بسيطاً ومدبراً على دخله الخاص دون أن يمس الدخل العام. وعندما كانت زوجته تشكو من الفقر، كان يترفع عما يقدم له من محلاته الثلاث في حمص التابعة لمقاطعته وكانت تقدر بنحو عشرين قطعة من الذهب سنوياً، حيث كان يجيبها "أنا لا أملك شيئاً أكثر لأن كل الباقي هو عهدة عندي للشعب". ونتيجة الاستمرار في مثل هذه الثقة فقد بنى الحصون للدفاع عنهم، وأوجد عدة كليات ومعابد ومستشفيات وخانات، لمصلحتهم الجسدية والنفسية. وكان أكثر ما يسعده هو محادثات المتعلمين والتقاة. كما لم يوجد من هو أكثر منه اجتهاداً في ملاحظة أدق القوانين في دينه. كان هنالك صمت مقدس في القبر ولكن عينيه المهذبتين خففتا كثافة حاجبيه وأنارتا وجهه الداكن غير الملتحي. كان له كرامة وصفاء الرجل الشرقي الصميم. وفي حضوره يسود الصمت والسكينة.

عظمة نور الدين كانت ناجمة من عدالته وقدرته في الإدارة أكثر من انتصاراته في حملاته. مع ذلك كان شجاعاً ومحارباً جريئاً وفارساً قديراً يتقدم قبل الجميع في كل معركة. وكان ينظم جباية الضرائب الإقطاعات بحذر شديد. وجعل إقطاعات الجنود وراثية وحفظ أسماءهم في سجل منظم للرجال والأسلحة بحيث كان على أتباعه تلبية أوامره. ولكن سلطته في الغزو كانت محددة منذ البداية بتقسيم ممتلكات زنكي، ولغيرة أخيه الكبير في الموصل. كان يريد إنشاء مملكة وحمايتها من الهجوم من جهة الشرق ومن جهة الغرب قبل استطاعته المحاولة لوضع برامج أكبر. ولهذا كانت القدس مدينة له لحمايتها المؤقتة.

أما حروبه الأولى مع الصليبيين فلم تكن أكثر من غزوات، وبعد أن استولى على دمشق في سنة ١١٥٤م، وأخضع ما بقي داخل سورية، أصبح انتباهه متوجهاً نحو احتلال مصر؛ وكقاعدة فقد كان يتناوش مع الافرنج فقط ليبقيهم على بعد معقول حيث أصبحت المناوشات بينه وبين الافرنج كقاعدة مستمرة. وكان قد استولى على بانياس وهارنيك **Harenc** ، وفي الشمال بسط نفوذه حتى مرعش **Marash**. وحتى قبل وفاته كان مستعداً لبذل جهود كبرى. واجتاح وادي الرافدين عند وفاة أخيه في سنة ١١٧٠م. ومع أنه ترك السلطة لابن أخيه في الموصل فالجزيرة كلها وديار بكر كانت في الحقيقة تحت هيمنة دمشق. تخلص من التهديد الصادر عن هذه المنطقة، وعزز قواته بسبب توسع منطقة حكمه ليعبئ جيشه، وكان يجمع قواته العسكرية لغرض تحديد سلطة صلاح الدين أكثر عندما أوقفت يد الموت خطط‍ه. ولو أنه نجح في خلع صلاح الدين لأدى ذلك إلى اتحاد المصريين والسوريين ضد الافرنج وطردهم من الأرض المقدسة، هذه مجرد أسئلة نظرية. ولكن المسيحيين على ما نعتقد كانوا أقل تخوفاً من سياسة نور الدين الحذرة من الحماسة لخلفه العظيم.

عند وفاة نور الدين أصبح صلاح الدين أقوى حاكم بين بغداد وقرطاجنة **Carthage** فالصالح إسماعيل ووارث الملك السابق كان طفلاً في الحادية عشرة، قليل الحظ متأرجحاً ما بين خصومه والقائمين على وصايته. أما المقاطعات التي ورثت عن زنكي في

وادي الرافدين فكانت ممزقة بين الافرقاء الغُيُر. وقد قرع جرس المملكة اللاتينية في تموز عندما خسر الافرنج أمالريك **Amalric** وأصبح ريمون **Raymond** ولياً للعهد على بالدوين **Baldwin** الوارث الحزين ابن الثالثة عشر المصاب بالجذام. ولدان مع مجموعة من المستشارين الحاسدين لم يكونوا عقبات هائلة في تقدم الحاكم المصمم والمسنود بجيش قوي مخضرم. ومجرد الطموح الشخصي يجعل معظم الرجال في مكانة صلاح الدين يستفيدون من ضعف جيرانهم، ولكن أن ننسب أي دافع مقصود له يعني عدم فهم أخلاقه. فإذا لم يكن مقتنعاً بأن تدخله هو لمصلحة العرب العامة وخصوصاً للدين الإسلامي، فإنه يتردد في توسيع قوته على حساب شخص هو زوج أخته الذي كان والده في وقت ما سيده والمحسن إليه. ووضع سورية لم يترك له خياراً إلا إذا كان ينظر بارتياح بينما كانت المملكة التي بناها زنكي وولده قد سقطت قطعاً بأيدي الأمراء المنافسين أو حتى بأيدي المسيحيين. التفكك والفوضى سيطرا، وتراجع ابن عم الملك الشاب في الموصل عن ولائه وأخضع الرها ومحميات أخرى في سورية: فالأمير المسؤول عن حلب كان على عداء مع من أحاطوا بالسلطان الشاب في دمشق. والعديد من الأتباع استقلوا ولم يكن للإسلام في سورية قائد، ولو أن الافرنج لم يكونوا في الوضع المنحل نفسه لكان باستطاعتهم أن يقوموا بما يحلو لهم بتمزيق مملكة زنكي.

في مثل هذه الشدائد كان صلاح الدين هو الرئيس بين أتباع الملك السابق فقد جاء ليقدم النصيحة ويعرض المساعدة التي بالإمكان أن تفسر بأنها أوامر على الرغم من الصياغة المحترمة التي عرضت بها. فقد أرسل سفيراً إلى الملك الشاب للتأكيد على ولائه وأوصى باسم الصالح ابن نورالدين بأن يذكر في الصلاة وينقش اسمه على نقود مصر.[٢٠] وقد كتب إلى الرؤساء في دمشق يوبخهم بشدة على تحاسدهم قائلاً:

"إذا كان نورالدين يعتقد بأن هنالك من هو قادر على أن يحل محلي موثوق به مثلي فبإمكانه أن يعينه حاكماً لمصر التي هي من أهم ممتلكاته. فلو لم يداهمه الموت لكان قد أورثني أنا فقط رعاية وتنشئة ابنه. وأنا أدرك هذا المس من إدعائكم رعاية سيدي وابن

سيدي. أنا لا شك سوف أقدم له الطاعة اعترافاً بإحسان والده إلي بتقديم خدمات له لن تنسى للأبد. وسأتعامل مع كل واحد منكم حسب عمله (وخاصة) تخليكم عن الدفاع عن ممتلكات الملك".

ولم يكن مجلس دمشق وحده منعقداً بألفة وود في حين أن أمير وادي الرافدين كان يسرق المدن. بل كانوا يشترون ود الافرنج بالذهب مما أغضب صلاح الدين كثيراً. وكانوا في الحقيقة يخافون من جيرانهم على الجهتين، سيف الدين في الموصل وصلاح الدين في القاهرة. ولأجل حماية أنفسهم من الاثنين اتفقوا مع المسيحيين كما فعل سلفهم أنار **Anar** في أيام زنكي.

لكن في آب عندما انتقل الملك الشاب إلى حلب أصبح الخطر أكثر تهديداً. والقائد العسكري القوي لجنود نور الدين الذي حكم حلب أصبح الوصي على الملك الذي كان قادراً على سحق كل الخصوم، ومن المؤكد أنه سيبدأ في دمشق. وفي حالة الطوارئ هذه التجأوا إلى ملك الموصل طلباً للمساعدة، فلما رفض دعوا صلاح الدين. ولم ينتظر الأوامر للمرة الثانية لكنه صحب سبعمئة من الفرسان الذين عبروا مباشرة صحراء دمشق معتمدين على الأمل بعودته سالماً من حدود الافرنج. وعبر الأراضي المتروكة ودخل المدينة القديمة وسط التهاليل العامة، واستراح في بيت والده القديم حتى فتحت القلعة أبوابها له في السابع والعشرين من تشرين الثاني..[٢١] ثم عين نفسه في القلعة وتقدم له المواطنون بالطاعة والترحيب فحصلوا على الكثير من توزيعات الخزينة الملكية للصالح **es-Salih** . كل هذا لأنه كان وكيلاً للملك الشاب، الذي كان "مملوكه" المعترف به نفسه، والملكية قد أكدت له بذكره في الخطبة وبنقش اسمه على النقود.

وأبقى أخاه توغتجين **Tughtigin** الملقب بسيف الإسلام حاكماً لدمشق، وصلاح الدين تقدم حالاً لاحتلال المدن الأخرى التي تعود إلى مملكة نور الدين لكنها عملياً كانت مستقلة. وكان الشتاء شديد البرد والثلج قاسياً جداً على الأراضي المرتفعة ولكن عمله لم يتأخر وعبر البقاع **Bikaa** الجميلة والوادي المشجَّر لنهر الليطاني في التاسع من كانون الأول حيث دخل منتصراً إلى مدينة حمص الزاهرة

حيث قدم أورليان Aurelian مرة ضحيته للآلهة بعد انتصاره على زنوبيا Zenubia و من ثم تحاشى قلعتها الحصينة التي كانت قوية يصعب احتلالها وانحدر نحو وادي العاصي الخصب إلى الأرض ذات الحقول المزدهرة والنواعير وإلى حماة نفس إبيفانيا Epiphania حيث كانت البطلة ملكة تدمر Palmyra قد فقدت عرشها وحريتها. وفتحت المدينة أبوابها واستسلمت القلعة بناءاً على قسم صلاح الدين بأنه جاءها نائباً وخادماً للصالح. ثم مر إلى حلب، إلى (القلعة الرمادية) الشهيرة التي تقع على تل يطل على السهل "كالعروس الجميلة" التي احتوت بين جدرانها القوية مليكه الاسمي. فالحاكم أو الوزير جموشتيجين Gumushtigin لم يفكر بالتنازل عن سلطته لزائر خطير كهذا فأغلق الأبواب في وجهه بحذر. وبدأ صلاح الدين الحصار في ٣٠ كانون الأول بحجة أنه جاء لإنقاذ سيده من المستشارين الأشرار. ولكن الصالح الذي كان يخاف كثيراً من محرره كما أنه لا يثق بحاكمه، خرج من القصر راكباً يطوف بالناس ملقياً نفسه تحت رحمتهم. وناشد الطفل الناس متضرعاً والدموع تنهمر على خديه أن لا يسلموه للغازي القوي الذي اختلس ميراثه، وخفقت قلوبهم له فضاعفوا جهودهم ونشاطهم وكرروا غاراتهم بحيث أرغموا الغازي على التريث.

إن قوة الدفاع جاءت مرتبطة بخطر شديد مزعج جعل صلاح الدين يفك الحصار. ولم يترك الوزير جوموشتيجين وسيلة لم يقم بها خوفاً من الوقوع بأيدي المصريين، وطلب المساعدة من الشيخ سنان الذي يسمى "رجل الجبل الكبير" الرئيس الأكبر للحشاشين Assassins في سورية. هذه الجمعية السرية الرهيبة المتدينة جزئياً على الأكثر لكنها سياسية انتشرت حول العالم من مهدها في قلعة الأموت Alamut في الجبال في جنوب بحر قزوين Caspian Sea ، وكان فيلق الفدائيين والمبعوثين الذين يتدربون على الاغتيال وكأنه فن من الفنون الجميلة حيث استخدموا خناجرهم لأغراض الحرب التي عانت منها سورية وحصلت الجمعية على المكافأة عن طريق الاكتساب التدريجي لتسع قلاع بين جبال الأنصارية التي تتألف منها سلسلة قلاع ڤاليني Valine (أخذت في ١١٢٥م) على الساحل حتى المصياف Masyaf في الداخل. هؤلاء الحشاشون ومدخنو الحشيشة (وأسماؤهم

بين السفلة) وكان الأولى أن يدعوا الإسماعيليين أو الباطنيين Batinis أو Estoterics قد ثبتوا قاعدة متينة في سورية في أثناء غزو صلاح الدين، كانوا رهبة للبلاد. أما نور الدين فقد حاول عبثاً إخضاعهم ولم يحصل على شيء من خلال مسعاه ماعدا اكتشافه للتهديد المغروز في وسادته بخنجرٍ مسموم. في مصر ساندوا القضية المخفقة للفاطميين الذين ينتمون إلى مذهبهم وربما كان لهم دور في تحريض عُمارة على مؤامرته. ولكن الرئيس كان يرغب في مساعدة وزير حلب بإرسال المتطرفين من رجاله لاغتيال صلاح الدين في معسكره. وتمكنوا من الدخول بلا أية صعوبة ولكنهم اكتشفوا في الوقت المناسب. وأحد البؤساء منهم قضى عليه طغريل Tughril سيد الخدم عند خيمة صلاح الدين والبقية جاهدوا بيأس للدفاع عن أنفسهم قبل التمكن منهم وذبحهم.

هذا المهرب الضيق منعه من القيام بمخاطرات أخرى. وكانت الجهات الأخرى تهدده؛ وأكثر من ذلك فإن ملك الموصل جهز جيوشه للدفاع عن ابن عمه في حلب. والافرنج سبق وأن قطعوا الطريق على قاعدة صلاح الدين في دمشق. وكان ريموند كونت طرابلس أسيراً لعدة سنوات لدى نور الدين في حلب، وبعد إطلاق سراحه مقابل الفدية (التي لم تدفع) أصبح ولياً لعهد المملكة اللاتينية في أثناء وصاية بولدوين الرابع. ووزير حلب الذي ضغط عليه صلاح الدين بشدة وتضرع للكونت لمساعدته ووجد ريموند الفوائد السياسية المميزة في مساعدة وإنقاذ المدينة المنكوبة من المعتدي الجديد. لذلك غير إتجاهه وتقدم نحو حمص التي كانت ما تزال محاصرة ومحاطة بقسم من جيش صلاح الدين. وكان الحاكم يقوم ببعض التفاوضات مع ريموند التي كالعادة تتضمن مالاً. فالترحيب بهذا الأمل الذهبي فتح أمام المسيحيين باب الهجوم في الأول من شباط ١١٧٥م مع رضاهم بالنجاح في هدفهم الرئيس، وهو فك الحصار عن حلب. وصلت الأخبار إلى صلاح الدين في اليوم الثاني. وكان قد وصل إلى حماة واتخذ مقراً مهماً بالقرب من الجسر الحجري الكبير على نهر العاصي حيث تقع قرية الرستن Arethusa (er-Rasten). وترك الافرنج مباشرة المدينة الشهيرة التي ولدت فيها جوليا دومنا Julia Domna وعلمت الطفل إيلاقابالوس Elagabalus الطقوس السورية

التي جلبها فيما بعد إلى روما يوم أضحى إمبراطوراً. ودخل صلاح الدين حمص وأخضع القلعة بعد مقاومة عنيفة في أواسط آذار. وفي نهاية الشهر احتل بعلبك. وأصبح عندها سيداً على كل مملكة نورالدين في سورية ماعدا المقاطعات التي تعتمد مباشرة على حلب.

وأخيراً أبرزهذا النجاح سيف الدين غازي الثاني، أتابك الموصل الذي كان على رأس سلالة جده زنكي، واعتبر سورية ووادي الرافدين جزءً من مقاطعة الأسرة. ولكونه أحد أفرادها فلم يشعر بحرج في الإستفادة من شباب ابن عمه وضم ممتلكاته في وادي الرافدين؛ ولكن الأمر اختلف عندما ظهر فجأة ناشيء ليست به نقطة من دم زنكي، غامر في اغتصاب حقوق الأسرة. وعليه أعد سيف الدين جيشاً ضخماً وأرسله إلى حلب حيث كان وصوله متوقعاً بلهفة. وسارت القوات المتحدة ضد العدو المشترك والتقوه قرب حماة. مع أنه كان حديثاً قد عزز قواته بوصول فرقة من مصر، كان صلاح الدين غير متفوق عدداً؛ لذا أجرى اقتراحات لتسوية الخلافات حتى أنه اقترح إلغاء كل فتوحاته شمالي مقاطعة دمشق. ولكن العدو لم يستمع لأي رأي وبصراحة أخبره بوجوب التراجع إلى مصر. ولما قيد لحكم السلاح اتخذ موقعاً في وادٍ ضيق على نهر العاصي وعلى التلال التي تسمى قرون حماة **Horns of Hamah** حيث أن الموقع الأعلى ساوى من تفاوت الأعداد. وفي الثالث عشر من نيسان سنة ١١٧٥م تقدمت جيوش الموصل وحلب للهجوم واثقين بقوتهم، ولكنهم لم يستفيدوا وأمسك بهم في شق شديد بين جنود دمشق والقاهرة المحنكين الذين مزقوهم تمزيقاً وانتهت المعركة بهزيمة مخزية. ولاحق صلاح الدين الهاربين حتى أبواب حلب وكان مستشارو الصالح مرغمين على الهدنة حيث كل جهة حافظت على إقليمها الذي تمتلكه. وحسب هذا الاتفاق فقد حافظ صلاح الدين على مركز السيادة الذي لا ينازع ليس فقط لمقاطعات دمشق وحمص وحماة ولكن حتى مدن كفر طاب **Kafar Tab** وبارين **Barin** ومعارة **Maara** التي لم تبعد عن حلب نفسها.

والآن ولأول مرة أكد صلاح الدين استقلاله وتنصيب نفسه ملكاً

وألغى اسم الصالح في الصلاة والعملة.[٢٢] وفي هذه السنة دعي له في جميع جوامع سورية ومصر، سلطاناً أعلى وأصدر في القاهرة عملات ذهبية صغيرة باسمه "الملك الناصر[٢٣] يوسف بن أيوب" لتظل الراية مرتفعة. وقد أثبت من كلماته أنه عمل جاهداً لإقناع الملك الشاب في حلب بأنه كان على استعداد لخدمته بإخلاص مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقرب للعرش. والصالح اعتبر هذه الخدمة المعينة بأنها حقيقة السيادة ولا علاقة له بها. وبرفضه الإيجابي في كل محاولة للمصالحة. أشعر صلاح الدين نفسه أنه بحل من هذا الولاء. وفي هذه الظروف لم يجد مبرراً لعدم اعتباره نفسه ملكاً.[٢٤] خاصة بعد أن لقي ذلك موافقة حسنة من الخليفة في بغداد، الذي أرسل له الشهادة المعتادة والألبسة التقليدية باعتباره ملكاً على مصر وسورية ووصل إليه هذا الخبر في حماة عندما كان ينظم ممتلكاته الجديدة في أيار ١١٧٥م.

الواجبات الإدارية وتدريب الجنود كانت الشغل الشاغل لبقية السنة، ولم يحدث أي جديد حتى الربيع الذي يليه. ولكن الخلاف بين بيوت زنكي وأيوب لم تنته بانتصار صلاح الدين في قرون حماة. وكلا الجانبين كان يجمع قواته بنشاط لتجديد الصراع. وسيف الدين كان يجند الجيوش في المقاطعات الصغيرة من ديار بكر والجزيرة حيث في ربيع ١١٧٦م، تمكن من عبور الفرات في البيره **Bera**. وكانت جيوشه تبلغ نحو ستة آلاف رجل وعظمت قوتها عندما انضمت إليها فرقة الصالح في حلب. وصلاح الدين الذي كان قد ترك القاهرة مع سبعمئة من الفرسان جلب قواته من مصر للإنضمام لجيوشه في دمشق.

وعندما عبر نهر العاصي في الحادي عشر من نيسان ١١٧٦م، لمواجهة العاصفة القادمة، كسفت الشمس وكانت الأرض مظلمة والنجوم ساطعة في كبد السماء. على الرغم من هذا التشاؤم السيء فقد استمر في تقدمه لكنه لم يبتعد كثيراً عن حدود حماة عندما انكشف ذلك الكسوف المشؤوم حيث هرب بصعوبة من كارثة محققة، ووصل سيف الدين بشكل غير متوقع عندما كان رجال صلاح الدين منتشرين في أبيار التركمان **(Jibal el-Turkman)** يسقون

خيولهم. ولو أنه هاجمهم فوراً لكانت النتيجة هي النصر، لكنه تردد، وعندما ذهب إلى الميدان في صباح اليوم التالي الخميس ٢٢ نيسان وجد سيف الدين أن صلاح الدين كان جاهزاً لمحاربته بالقرب من الخان الصغير Little Caravanserai على رابية السلطان على بعد خمسة عشر ميلاً من حلب. واستعر قتال دموي بالأيدي وتغلب حاكم أربيل على الجناح الأيسر لصلاح الدين وساقه أمامه عندما هجم الملك بنفسه على رئاسة الحرس وقلب سعد ذلك النهار. وواجه العدو هلع مفاجئ وهرب كل لإنقاذ حياته. وقتل معظم ضباط الأتابيك وأخذوا الأسرى وهرب سيف الدين من الميدان بصعوبة. فالمعسكر والخيول والأمتعة والخيام والمخازن سقطت كلها بأيدي الفاتح.

أظهر صلاح الدين نفسه مستحقاً للنصر. وكان يعامل أسراه بكرم، وأطلق سراحهم وقدم لهم بعض الهدايا. أما الجرحى فكانوا مدينين له بالعناية بهم، وبعضهم كان متلهفاً لخدمته. وقد أعطى كل غنيمة العدو الدسمة للجيش، ولم يبق له شيئاً البتة. وبهذا أبرز النظرة الحقيقية للطبيعة السخية وبصيرة الرجل الحاكم. وعليه فإنه ربط جيوشه بجيوش العدو بروابط عرفان الجميل والولاء الشخصي له. والأسرى الذين أطلقهم كان من بينهم أصحاب مراكز وتأثير حيث عادوا إلى أماكنهم عبر النهر العظيم وقلوبهم مليئة بإطرائه ومدح رأفته وعظمته وعلى استعداد لأن يكونوا من رعاياه. ورجاله كانوا فرحين بالنصر وأثرياء بما وهب لهم من غنائم جعلتهم على استعداد لأن يتبعوه إلى أي مكان.

بعد بضعة أيام توقف عند أسوار قلعة حلب التي كانت أبوابها ما تزال مغلقة وقاد جيشه بينما كانت دماء أفراده تغلي حماسة. وبمسيرة يوم وصلوا إلى بزع Buzaa التي احتلوها. وفي اليوم الثاني اقتحموا منبج Manbij ثم اتجهوا نحو الغرب إلى القلعة الحصينة عزاز Azaz التي كلفتهم حصار ٣٨ يوماً وخسارات فادحة وتقريباً كادوا يخسرون حياة صلاح الدين. وبدأ الحصار من ١٥ أيار. وفي ٢٢ منه كان صلاح الدين يرتاح في مخيم أحد ضباطه عندما تقدم متطرف نحوه وطعنه بخنجر في رأسه. وقد حماه الغطاء الذي كان يلبسه تحت طربوشه فأمسك بيدي القاتل وأجلسه إلى جنبه ولكن

ذلك لم يمنع القاتل من الإستمرار في طعنه في رقبته. وجاءت ضربة الخنجر في ياقة ثوبه[٢٥] لأن حلقات الدرع حفظت رقبته من الطعن. كل هذا جرى في لحظة. وفي اللحظة الأخرى قبض بازكوش **Bazkush** على الخنجر الذي جرح أصابعه حتى تم قتل المجرم والخنجر ما زال في يده. وقاطع رقاب آخر تبعه وسقط ميتاً، وكذلك ثالث، وعندها انتبه الحرس. وركب صلاح الدين متوجهاً إلى مركز القيادة. وهو مرتعب غير مصدق بأنه مازال حياً. لكن هجوم القاتل الشرير المفاجئ أخافه خوفاً لم يكن قد شعر بمثله في أرض المعركة. والمحاولة الثانية لعملاء "شيخ الجبل" أفقدته أعصابه. وقد لوحظ أن هؤلاء القتلة الثلاثة كانوا ملتحقين في قسم الحراسة نفسها. فصلاح الدين أسرع في تغيير ذلك وبحث في القوات عن الوجوه المشتبه بها، ولكن مبعوثي سنان كان لهم فن في كيفية التنكر والتملص من المحاذير حيث لا يوجد إحساس بالأمان مالم يسحقوا الرئيس أو يسترضوه.

وقد إقتنع صلاح الدين بأن جوموشتجين كان وراء هذه المحاولة الجبانة وضاعف صلاح الدين هجومه ضد عزاز وأخيراً في ٢١ حزيران استسلمت القلعة. ثم أسرع إلى حلب لمعاقبة المتآمر وفي ٢٥ حزيران بدأ حصاره الثالث للقلعة الرمادية **Gray Castle** ولاقى هجومه مقاومة كالسابق، ولكنه قبل المغامرة ليتركهم جوعى. اقتنعت الحامية أن تكف عن الهجوم وحصل اتفاق عام في ٢٩ تموز بين ملك حلب الشاب وأورتوكيد أمير قيافا وماردين (الذين ساندوه دائماً). وصلاح الدين الذي اعترف به في النهاية على كل المقاطعات التي غزاها ووقع الأربعة اتفاقاً مشترك.

وعندما أقرت المعاهدة جاءت فتاة إلى صلاح الدين وهي الأخت الصغرى للصالح فاستقبلها بكل ترحيب وسألها: ماذا ترغبين؟ أجابت: قلعة عزاز. فأعاد القلعة إلى أصحابها محملاً الأميرة بالهدايا ورافقها رئيس أركان الحرب حتى بوابة حلب. وكان الكونستابل همفري حاكم طولون العظيم فخوراً بفارسه.

الفصل العاشر
الهدنات والمعاهدات
١١٧٦م - ١١٨١م.

لقد استمر السلم بين صلاح الدين وأسرة زنكي لمدة ست سنوات. وبقي الصالح في حلب متمتعاً بما تبقى له من مملكة أبيه. أما أتابيك الموصل فلم يكرر كوارث قرون حماة وهضبة السلطان. وكانت هنالك أيضاً هدنة اسمية مع ملك القدس عقدها صلاح الدين في صيف ١١٧٥م، عن طريق الهدايا الثمينة ووساطة همفري حاكم تورون **Humphrey of Toron** حيث كانت له معه علاقات ودية لربما منذ زمن فروسيته. وكان غرضه أن يحمي مؤخرة قواته عندما كان منهمكاً في الشمال. أما المعاهدات مع جنود الصليب فكانت أسوأ من العدم حيث تمكنت العقيدة من النصرانية أنه لا حاجة للتمسك بالصدق مع المسلمين. وحال ما كانت بينهم معاهدة ودية حتى بدأوا بنهب وادي الليطاني الجميل وحرقوا الذرة المزروعة وأشعلوا النيران في القرى وعادوا منتصرين ومحملين بالغنائم يقودون عدداً كبيراً من قطعان الأغنام والمواشي المسروقة.

أما غارات الافرنج فلم تكن جدية، أو سببت أية خسارة في الاقاليم، لأن صلاح الدين لم يعرهم اهتمامه. وكانت هناك قوة أخرى مستقلة عن الافرنج والزنكيين حيث كان مرغماً على الاهتمام بها. كان من المستحيل أن يستمر في حياته تحت طلب شيخ الحشاشين. فعزم صلاح الدين على أن يدخل بلادهم ويدمرهم أصولاً وفروعاً. وحالما عقد الاتفاق السلمي في حلب وسرح جيوشه المصرية لتعزيز قواتهم في موطنهم، توجه هو مع بقية جيشه إلى الممرات الصخرية في سلسلة السماق **Summak** أو جبال الأنصارية حيث توجد قلاع المتزمتين. ذهب إلى منطقته المظلمة في آب وخرج منها في آب أيضاً؛ ولكن الرجل الكبير ظل يحكم في جبله ولم يغلب الحشاشين. ما حدث يتلى بعدة طرق. ومن المتفق عليه أن صلاح الدين ترك معظم البلاد خراباً وحاصر مصياف **Masyaf** الرئيسية بين القلاع التسع في المجتمع - عش النسر الحقيقي الذي يقع في القمة التي

يصعب الوصول إليها تطل على الوادي العميق المهجور، ومثله فمن المؤكد أن حصاره المدفعي وفرقه الهجومية لم يؤثرا في القلعة الصخرية. ويظهر الاختلاف عندما يفسر سبب التراجع المفاجئ. فالمؤرخون المسلمون يضعون بالطبع أزهى صورة لهذا، ويؤكدون أن سنان حصل على السلام من خلال وساطته مع عم صلاح الدين! حتى أولئك المعتذرون لتواضع عرض السيد الذي ضعف كثيراً بسبب تهديده بقتل جماعي لعائلة أيوب في حال رفضه. وقد روى القصة المادح لسنان وهي أكثر احتمالاً عندما تجرد من الأساطير الحمقاء. هذه هي القصة كما وردت.

عندما حاصر صلاح الدين مصياف، كان سنان غائباً ووصلت إليه طلبات الملك بالإستسلام في قرية بالقرب من قدموس **Kadamus** ، وقد أبلغ المبعوث بأنه يجب أن يقابل صلاح الدين شخصياً؛ ولما لم توجد وسيلة للوصول إلى مصياف المغلقة بسبب المعسكر الحربي، استقر مع اثنين من مرافقيه في أعلى قمة الجبل المجاور، حيث نظر إلى الأسفل على الحصار وانتظر النتيجة. اعتقد صلاح الدين أن زعيمه الأكبر تحت قوته، فأرسل مجموعة من الجنود ليحاصروه ولكن الجنود المعادين وكذلك الرسل المسالمين أوقفوا بقوة غامضة جمدت أطرافهم. كانت هذه القوة الخارقة للرئيس المقدس الذي تعلم أتباعه الاعتراف بالتجسيد الحقيقي للمنطق المقدس. فالتقارير المروعة عن حيرة وإرباك مبعوثيه أثارت على مخاوف صلاح الدين. تذكر المحاولتين السابقتين اللتين تعرضت حياته لهما، وبدأ يشك في أي إمكانية بشرية تستطيع إنقاذه من العوامل التي تفوق الطبيعة لهذا الشيطان أو القديس. وقد وضع الشيد والرماد حول خيمته ليتحرى وقع أقدام سرية؛ وكان حراسه مجهزين بمصابيح ضوئية وكان حراس الليل يستريحون دوماً. ولكن المخاوف الغريبة أحاطت به وأزعجت نومه. في أحدى الليالي شاهد مراقبو الاستحكامات في مصياف شعلة مثل حشرة سراج الليل تنزلق ببطء من فوق التلة حيث يجلس السيد. وتختفي بين خيام العرب. وحالاً استيقظ صلاح الدين من أحلامه المزعجة ليرى شخصاً ينحدر على باب الخيمة ونظر حوله فوجد المصابيح قد تغيرت مواقعها وإلى جوار فراشه كعكات ساخنة وشكلها خاص بالحشاشين، وفي أعلاها

ورقة مغروزة بخنجر مسموم، وعلى الورقة مقاطع شعرية:

"بجلالة المملكة ! سوف تخسر كل ما تملكه ولكن النصر سيبقى لنا، على الرغم من كل ذلك: نعرّفك بأننا نسيطر عليك، ونمهلك حتى تدفع حسابك."

صرخ صلاح الدين صرخة كبيرة ومخيفة، فهرع الحراس والضباط إليه. اطلعهم على الكعك والخنجر والشعر. وكان الرئيس الخائف في مخدعه ولم تكن إلا معجزة، حيث لم يسمع أحدٌ بالخطوات أو رأى إنساناً حياً؛ وكانت آثار الأقدام على الرماد ولكنها جميعها تشير إلى الخارج. وهنا قال صلاح الدين: "لقد رأيته فهو يختلف تماماً عن السماع عنه. اذهبوا إلى هذا الرجل واطلبوا منه الأمان وتوسلوا إليه ألا يعاقبني على أخطائي السابقة". وذهب رسول يبحث عن سنان في الجبل ولكن الرئيس أجاب بأنه لا يمكن ضمان حياة الملك مادام الحصار قائماً. وبناء على ذلك غادر صلاح الدين بسرعة كبيرة بحيث ترك خلفه سلاح مدفعيته، ولكن عند جسر ابن منقذ **Ibn Munkidh** تسلم رسالة الأمان من رئيس الحشاشين.

هذه رواية موالٍ وصاحب خيال، ولكن من الممكن أن تكون مستندة على حقيقة. فلربما تلمس أو رشى سنان طريقه لخيمة صلاح الدين، وأقنعه شخصياً بأن الحيطة والحذر لا تنفعان أمام خناجر الجمعية السرية. وأن الرعب من القتل المصحوب بطريقة غير عملية لطبيعة تلك المنطقة وقوته في سرعته، لربما دعت الملك إلى ترك عزمه على قلع جذور الطائفة الكريهة. فإذا لم يستطع تدميرهم تماماً فالحل الوحيد هو كسب صداقتهم. وكإجراء سياسي أكثر من ذلك فإن ربط الرئيس بعلاقات تسامح متبادلة كانت ضربة معلم. فقد قطعت من الشيعة في مصر الذين مازالوا متأثرين لعلمهم بالدعم الشرير لسنان، وجردت الصليبيين من سلاح سري.

بعد أن ترك صلاح الدين الجبال توجه إلى دمشق في ٢٥ آب جعل جماعته السوريين يذهبون إلى بيوتهم، ترك أخاه توران شاه فاتح اليمن آمراً في سورية وأخذ معه فقط أتباعه الخاصين به إلى القاهرة في (٢٢ أيلول). كان قد غاب مدة سنتين حيث كان أمامه الكثير الذي يجب تنظيمه والإشراف عليه. وكان باستطاعته أن يقف

طاقاته لتعزيز وإعادة بناء المدينة التي سبق أن خطط لها. فأعيد تصليح الجدران ووضعت زياداتها وابتدأ بناء القلعة. فالرحالة المغربي ابن جبير شاهد في عام ١١٨٣م الأسرى المسيحيين ينشرون الحجر ويحفرون خندقاً مائياً أسفل الأسوار السميكة للقلعة. وقد بقي محفوظاً لابن أخيه بعد ثلاثين سنة لتكملة التحصينات التي خططها عمه، وفي الوقت الحاضر، أعاد السلاطين المماليك مرات عديدة تصميم القلعة، كان آخرها على يد محمد علي، لذا من الصعب التعرف بدقة على أي جزء منها هو الجزء الأصلي في الدفاعات.

إن اسم المؤسس المنقوش فوق البوابة القديمة باب المدرج **Bab-el-Mudarraj** مازال يقرأ للآن، وهي بوابة غامضة مظلمة في الوجه الغربي من الحامل الأصلي. وهذا يسجل كيفية بناء الحصن العظيم في القاهرة المحروسة. أما الشرفة فزيادة على استعمالها تضفي جمالاً، وتزيد المساحة متانةً، لأولئك الذين يبحثون عن حماية قوة ضرورية يترأسها سيدنا الملك القوي في المساعدة، شرف العالم والإيمان **(Salah-ed-dunya Wa-ddin)** و **(el-Malik en-Nasir)**. والد الفاتح يوسف بن أيوب الذي أعاد امبراطورية الخليفة مع توجيه أخيه ووارث الملك العادل **(el-Adil)** سيف الدين أبوبكر محمد، صديق القائد المؤمن وتحت إدارة أمير مملكته وسند إمبراطوريته قراقوش **Karakush** ابن عبدالله، عبد الملك الناصر في عام ٥٧٩هـ أو (١١٨٣-١١٨٤الميلادية). إن بئر السلالم الملتفة المشهورة بـ **Well of the Winding Stairs** بعمق ٢٨٠ قدماً، مازالت تسمى ببئر يوسف التي اكتشفها قراقوش في حفريات الصخر الصلب بأمر من صلاح الدين ولكن الأبنية الأخرى التي وجدت مؤخراً في القلعة وسميت باسمه تعود حقاً لعصور أقدم. فالناس في مصر كانوا معتادين على تسمية الأعمال العامة باسم السلطان المشهور. فإن ذكراه وليست أعماله هي التي تبقى محفوظة. القنال الطويل للقاهرة وحتى القنال العظيم في مصر العليا يعرف حتى اليوم بنهر يوسف **River of Joseph** مع أن تاريخه يعود للفراعنة. والعمل الرئيسي العام الذي أنجزه بعد القاهرة نفسها هو الجسر العظيم أو جدار الجيزة الذي بني كالقلعة بحجارة من الأهرامات في ١١٨٣-١١٨٤م، وفي ذلك حمل أربعين قوساً إلى حدود الصحراء

سبعة أميال من القاهرة، لإجراء تحصينات للدفاع ضد هجوم المغاربة الذي لم يحصل أبداً.

بقي صلاح الدين في القاهرة منهمكاً بهذه الإصلاحات والتحسينات وبناء الكليات مثل مدرسة صناعة السيوف Medresa of Sword Makers وآمراً للإدارة الداخلية لمقاطعته الرئيسية لمدة سنة كاملة حتى تشرين الثاني سنة ١١٧٧م، عندما قام بالإغارة على فلسطين. فقد نهب الافرنج مؤخراً بلاد الشام ولم يعد التظاهر بالهدنة أمراً يستحق الإحتفاظ به. والمسيحيون أرسلوا قسماً كبيراً من قواتهم إلى الشمال لحصار حريم Harim القلعة التابعة لملك حلب، وكان جنوب فلسطين خالياً نسبياً من المدافعين. الفرصة كانت مواتية وتقدم صلاح الدين بسرور نحو عسقلان Ascalon (عروس سورية). وتحدث وليام حاكم صور William of Tyre بأنه سمع من مصدر موثوق به أن عدد الرجال المحاربين من العرب كان نحو ٢٦ ألف رجل منهم ثمانية آلاف خصي من الطواشات Toassin [٢٦] أو الصفوة، وفيهم الحراس الذين كانوا نحو ألف مملوك بألبسة الشرطة الصفر اللون المفضل لصلاح الدين و ١٨ ألف من Caragholam أي العبيد السود من الطبقة الدنيا، وهم بلا شك من المصريين القدامى المشاة المسلحين جيداً من السودان. ولما لم يلاقوا أية مقاومة أخذوا يغزون البلاد بكل ثقة، وسحقوا وأحرقوا الرملة Ramla واللد Lydda ، وانتشروا في الأرض حتى أبواب القدس في مراسم وطقوس مبتهجين بالسلب والنهب الذي حصل.

وقد ظلوا محميين بالنظر لقوتهم وعاملوا العدو بكل احتقار وازدراء، وسمحوا للملك بالدوين بدخول عسقلان، وكذلك فعل فرسان غزة للالتحاق به، دون استخدام أية احتياطات ضد هجوم مفاجئ. في الحقيقة كان لملك القدس ٣٧٥ فارساً يسندونه، لكن صلاح الدين كان يجب أن يعرف أن هذا العدد من الضباط لا يستهان به خاصة وأنهم بقيادة هؤلاء المحاربين مثل باليان Balian وريغنالد حاكم صيدا Regnald of Sidon وأودو Odo سيد المعبد وجوسلين حاكم سينيشال Joscelin the Seneschal الذين تشجعوا بعودة الصليب الحقيقي (True Cross) الذي كان يحمله أسقف بيت لحم. ما

حدث فهو غير واضح لكن من المؤكد أنه في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١١٧٧م عندما لم يكن الجزء الأكبر من جيشه موجوداً أثار استغراب رجال صلاح الدين في تل جزر **Tell Jezer** بالقرب من الرملة. وقبل أن يستطيعوا تنظيم أنفسهم أسقطهم الفرسان. في البداية انسحب السلطان من المحاربة وحاول أن ينظم رجاله ويعدهم للمعركة؛ ولكن حراسه الشخصيين قد تفرقوا من حوله ولم يبق إلا أن يؤسر. وعندما رأى أنه خسر ذلك اليوم استدار أخيراً وامتطى هجيناً سريعاً لينجو بنفسه. وهرب معه بعض بقايا من جيشه تاركين أسلحتهم ودروعهم. تاركين الجرحى لمصيرهم هاربين تحت جنح الظلام بلا نظام إلى مصر، ووصلوا بعد معاناة وعوز كبيرين. ومن بقية الجيش الذي زحف بفرح لنهب الأراضي المقدسة نجا القليل من المجاعة والبرد، والأمطار الغزيرة التي كانت تتمة لما صنعته سيوف الأعداء. فلم يلق صلاح الدين كارثة كهذه أبداً.

لم يسمح صلاح الدين للإحباط أن يستولي عليه، ولهذا فالقائد العظيم، الذي فقد مرة جيشاً، أسرع لتكوين جيش آخر. وقد كتب إلى أخيه توران شاه في دمشق، مقراً بالحالة البائسة للمعركة، ولكن بالمقابل استشهد على الموضوع شعراً "فكرت بك"، كتب قائلاً : (وابن الأثير رأى الرسالة نفسها)–

"فكرت فيك، وهم يهاجموننا ورماحهم وسيوفهم البنية المستقيمة رويت من دمائنا"–

وفوق هذا كنا على شفا التدمير؛ حتى الله جلا جلاله لم ينقذنا إلا لواجب (في المستقبل)". وفي غضون ثلاثة أشهر كان مستعداً للقاء الافرنج مرة أخرى، وفي ربيع ١١٧٨م وجد معسكراً تحت أسوار حمص. حدثت مناوشات بين قواده (والذين كانوا من بلدته) والافرنج. قوات حماة انتصرت على الأعداء، وأحضرت الغنائم مع كثير من الرؤوس والمساجين لصلاح الدين الذي أمر بقطع رؤوس الأسرى. لقد كان الصليبيون ينهبون ويخربون أرض المؤمنين. وقضوا بقية السنة في سورية دون أي إجراء معين من كلا الطرفين. قضى صلاح الدين شتاءه في دمشق، وفي الربيع استعد ليحبط

المناورة الأخيرة لبالدوين.

تابع ملك القدس انتصاره في الرملة بالتقدم نحو بلاد العرب مندفعاً إلى الأمام ووضع نقطة مراقبة متقدمة في الطريق إلى دمشق. كان هناك طريق عبر الأردن يدعى (حوض يعقوب) Jacob's Ford حيث كان قد صارع يعقوب الملاك(٢٧)، وكذلك كان يعرف بـ (حوض الأحزان)؛ وهنا كان الملك قد رمم القلعة التي لم تحم الممر إلى النهر فحسب، لكنها كانت تسيطر على الطريق إلى سهل بانياس. وهي مورِّد غذاء دمشق حيث حقول القمح والرز والقطن وبيارات أشجار الليمون الكثيفة تقع على سفح جبل الثلج Mount of Snow (جبل الشيخ) . وحتى اليوم فإن السهل الخصب انقسم بصورة ودية ما بين الافرنج والمسلمين وشجرة السنديان القديمة التي وصلت الحدود بين الشعبين حيث ترعى قطعانهما جنباً إلى جنب. وقد أعطى صلاح الدين عبثاً في البداية ٦٠ ألف قطعة من الذهب ثم ١٠٠ ألف قطعة أخرى ليقنع الملك على إلغاء مشروع مستغرب وهجومي على العرب. وهنا قرر تدمير القلعة من أساسها. أما ابن أخيه فروخ شاه Feroukh Shah فقد سبق أن حقق نجاحاً على الافرنج بنصب كمين في نيسان سنة ١١٧٩م؛ وأسر الملك بالدوين مع رفقة قليلة عند وادٍ ضيق صخري بالقرب من بلفورت Belfort (كوكب الهوى) ، وكانت بشجاعة الشهم كونستابل همفري قائد ثورون Constable Humphrey of Toron الذي أنقذ ملكه الفتي من الأسر، مضحياً بحياته. لقد كانت خسارة هذا الفارس الشهم ضربة قاسية للافرنج. وقد قال أحد المؤرخين العرب "أنه لا يوجد كلمات لوصف همفري، إن اسمه كان مثل للشجاعة والمهارة في الحرب. وكان حقاً منطلقاً من عند الله لإصلاح المسلمين."

لاحقاً لهذه الفائدة فإن صلاح الدين الذي لم ينقل مركز قيادته إلى بانياس، إذ تقدم إلى الأمام، وفي حزيران اصطدم مرة أخرى بملك القدس. لأن بالدوين عندما سمع عن نهب العرب باتجاه صيدا تقدم للإنقاذ متحمساً لمحو عاره الأخير. تقدم نحو الشمال باتجاه صفد وتورون Toron، تسلق مرتفعات جبال قرية مصياف (المحطة)، عندما سيطر على رؤية واسعة، ولاحظ مخيم صلاح الدين الذي كان

تحت قدميه، ممتداً إلى "مرج العيون" مرجعيون. وعندما أسرع للهجوم كانت جيوشه قد انحلت وتأخر المشاة متراجعين وتوجه الجيش إلي المعركة شيئاً فشيئاً. في البداية كان حسب طريقتهم مما جعل قسماً من العدو يهرب؛ ولكن أودو Odo كان على رأس الفرسان الهيكليين، أسرعوا لمطاردة الهاربين لمسافات بعيدة، وفرقوا أكثر القوات المسيحية المبعثرة أصلاً. واستفاد صلاح الدين من هذا، وجمع جيوشه المتفرقة، وشجعهم على القيام بجهود كبيرة، وقام بإحدى هجماته العنيفة. فالعدو الذي اعتقد أنه منتصر في ذلك اليوم، أخذ بغفلة، مثقلاً بغنائم مذبوحيه، لم يكن لديه الوقت ليعيد تنظيمه. فقد تم قتل العديد منهم أو اعتقالهم والبقية هربت عبر نهر الليطاني حيث التجأت إلى القلعة الحصينة المجاورة كوكب وقسم منهم لم يتوقف حتى صيدا. فالنصر كان ملاحظاً بصورة خاصة حيث أن العديد من المساجين كانوا من الطبقة العليا أمثال رؤساء المستشفى والمعبد ريموند حاكم طرابلس **Raymond of Tripolis** وباليان حاكم عبلين **Balian of Ibelin** وبالدوين حاكم الرملة **Baldwin of Ramla** وهيو حاكم طبرية **Hugh of Tiberias** كانوا في عداد سبعين فارساً كما أحصاهم أمين السر عماد الدين عندما كانوا واقفين في خيمة صلاح الدين. وقد نجا بالدوين بدفع فدية قدرها ١٥٠ ألف قطعة ذهبية من صور وأطلق سراح ألف من السجناء العرب؛ ولكن عندما تقدم صلاح الدين باقتراح لتبادل أودو **Odo** بدلاً من أمير كان قد أسره الافرنج، السيد "المتعجرف، الرجل العنيد، ونَفَسُ الغضب يخرج من أنفه، الذي لا يخاف الله ولا يحترم أحداً"، حيث كانت حربه المسعورة قد أثارت الغرابة وأفسدت عليهم يومهم. أجاب بفخر: "إن الفارس الهيكلي لا يستطيع أن يقدم لقاء فديته سوى حزامه وخنجره". ومات أودو في الأسر. وقال عنه أبو شامة: "أنه ذهب من السجن إلى جهنم".

كانت الطريق ممهدة أمام حماقة الملك بالدوين باحتلال قلعة الأحزان عند مخاضة يعقوب. وفي ٢٥ آب تقدم صلاح الدين نحوها وحالما جمع أتباعه عدداً من أغصان شعب الكرمة لإقامة ستائر للجنود الذين يحفرون الخنادق، وعند أول مهاجمة قفز رجل من بين الجمهور إلى الحصن الأمامي وهو في ثياب رثة وبدأ يجابه العدو عند

الستارة، وتبعه الآخرون وهكذا احتل الحصن الأمامي. وعلى أي حال فالافرنج استمروا يدافعون عن الأسوار بكل عزم وثقة على أمل أن يتمكنوا من إنقاذ رفاقهم. وفي الصباح التالي لغم العرب السور وحفروا حفرة عميقة ملأوها بالخشب المشتعل، وانتظروا سقوط السور. ولكنهم انتظروا لمدة يومين، واستمر الحريق طوال الوقت وظل الجدار قائماً بصلابة، لأن عمقه كان تسع أذرع، ولم تك تلك الأذرع عادية بل كانت أذرع نجارين، فكل ذراع كانت تساوي ذراعاً ونصف ذراع؛ وقد بلغ اللغم إلى ثلث الجدار فقط. وعندما وجد صلاح الدين أنه لا نتيجة من ذلك أمر بالماء وقال: "كل رجل يأتي لي بقربة من الماء له دينار من الذهب". وجيئ بالماء بحماسة بحيث غمر الأعمال. وعندها عاد جنود الحفر وزادوا من عمق اللغم ونفذوا في السور وأشعلوا النار مرة أخرى أخيراً انهار في يوم الخميس المصادف ٣٠ آب سنة ١١٧٩م. دخل العرب من خلال الفجوة واحتلوا القلعة بشكل عاصف وسجنوا المدافعين بحيث بلغ العدد سبعمئة، وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين؛ أما الافرنج فقد قتل صلاح الدين العديد منهم ورماهم في بئر القلعة، وأرسل الباقين ليسجنوا في دمشق. وبقي في الموقع حتى أصبحت قلعة الأحزان بمستوى الأرض ولم يبق منها شيء حتى أن علياً في دمشق صانع الساعة صار يغني: "كيف لنا أن نترك بيت البطريرك أولئك الذين حنثوا بأيمانهم بعد أن أقسموا؟ أنا أحذركم بإخلاص. الإخلاص جزء من الدين، اتركوا بيت يعقوب لأن يوسف قادم".

وعندما وصل ملك القدس أخيراً لرفع الحصار عن قلعته المفضلة لم يجد غير أكوام الحجارة التي احترقت بالنار. ولم يحاول الصليبيون مرة أخرى مع صلاح الدين في تلك السنة أية محاولة. وقد زاد مرض ملكهم وكان هناك ترقب على الخلافة والرغبة في الهدنة. وحصلت استراحة في ذلك الشتاء حيث كان صلاح الدين يتهيأ لتجهيز أسطول قوي ليساعده في الحملة القادمة. وقد قام أسطوله المكون من سبعين سفينة في خريف سنة ١١٧٩م بأعمال جليلة. فتجول على الساحل وجلب معه ألفاً من السجناء المسيحيين. وقد شجعه هذا على محاولة الهجوم المزدوج من البحر والبر. وفي ربيع عام ١١٨٠م عاد مرة أخرى إلى مناطق حولّ صفد **Safed** ،

منتظراً قدوم أسطوله إلى الساحل قبل أن يبدأ بحملة شديدة. واغتنم بالدوين بحكمة الأسلوب المتعقل وأرسل مبعوثيه مقترحاً السلم. ولم يأسف صلاح الدين على الموافقة لأن محاصيله السيئة كانت قد أثرت على تموين جيشه. وفي الصيف وافق على الهدنة لمدة سنتين سواء بالبحر أم بالبر، للمواطنين والقادمين الجدد على حد سواء، وتم ذلك بأداء اليمين. بالنسبة للافرنج كان عبارة عن تنازل مخزٍ؛ ولم يسبق لهم أن صادقوا على توقيع معاهدة ما تتساوى فيها مصلحة الطرفين دون أن يجنوا منها أية فائدة. وليس من الغرابة بمكان أن تتقد كرامتهم. أما كونت طرابلس فلم يكن صديقاً للملك ولم يرحب بهذا الاتفاق؛ ولكن إسراع العرب لشن غارة على إقليمه في شهر أيار، وظهور أسطول صلاح الدين مقابل طرطوس أعاد لريمون حكمته، فتوقفت الحرب المقدسة لفترة ما.

وكانت هناك جهات أخرى تشترك في السلم الذي سيطر على الجهة الشرقية. وكان السبب المباشر لاتساع هذه الرغبة بالسلام فتاة مغنية. نور الدين أمير قيافا **Keyafa** اتخذ زوجة له سيدة عظيمة ابنة كيليج أرسلان **Kilij Arslan** السلطان السلجوقي لقونيا **Konie** . وللأسف لم يعاملها معاملة جيدة ووهب عواطفه لفتاة مغنية لا أسرة لها بتاتاً. احتجت الزوجة التي أُهمِلت لوالدها: فأعلن أرسلان الحرب. ورضي صلاح الدين وفق معاهدة حلب أن يقف إلى جانب حلفائه حيث كان أمير قيافا من ضمنهم. وأكثر من هذا كان هو نفسه على خلاف مع سلطان قونيا بخصوص قلعة رعبان **Raaban** على المستنقعات الشمالية وأريقت الدماء. وبناء عليه لم يك راضياً بسماع حملة التأديب ضد حليفه. وقال للمبعوث السلجوقي "باسم الله أخبر سيدك: إنني أقسمت بأني سوف أتقدم في خلال يومين مع رجالي إلى عاصمته وأستولي على كل أراضيه." لذا فهو في غيظه تقدم إلى الشمال حتى رعبان، حيث التقى هذه المرة السفير وكانت المناقشات سلمية. وعندما اطلع صلاح الدين على الوضع ضغط على حليفه المغرم وكان النزاع مرتكزاً على الطرد الفوري للفتاة المغنية. هذه النتيجة السعيدة أعقبتها حملة على سيليسيان **Cilician** وارمينيا الصغرى وحتى ما بين النهرين، لإجبار ملكها رهوبن **Rhupen** المحافظة على الاتفاق مع التركمان الذين يرعون في

مقاطعته وتحت حمايته. وبعد تدمير قلعة المناقير el-Menakir خضع رهوپن.

وهنا شُعر بامتداد قوة صلاح الدين إلى آسيا الصغرى؛ ومن المسلم به أنه كان سيداً على حكام العرب من الفرات إلى النيل، وقد دعاه أمراء آخرون ليكون وسيطاً لحل نزاعاتهم. هذا المنصب الرفيع استخدمه لأجل أغراض نبيلة مهما كانت دوافعه. هو الذي أوجد السلم العام بين الناس الذين قدر أن يؤثر فيهم.
. "Nexuque Pio Longinqua revinxit"

وفي الثاني من تشرين الأول سنة ١١٨٠م ترأس الاجتماع المهم الذي لا ينسى الذي جرى على ضفاف نهر سنجا Senja بالقرب من سوميسات Sumeysat بحيث تم توقيع أمراء ما بين النهرين والموصل والجزيرة وأربيل وقيافا وماردين وسلطان قونيا وملك أرمينيا على الميثاق الجدي بحيث تعاهدوا بِقَسَمٍ أن يحافظوا على السلام بينهم لفترة سنتين. وخلال تلك الفتْرة لَم تعرف حدودهم الحرب، وإنما المعاهدة المقدسة سيطرت على تلك الأرض. وكان مبدءاً عظيماً؛ ولكن كيف نفذت فسيتضح كما سنرى.

الفصل الحادي عشر
فتح بلاد الرافدين
١١٨١م - ١١٨٣م.

لقد تمت الهدنة الكبرى وكان صلاح الدين حراً في العودة إلى مصر. وترك ابن أخيه فروخ شاه مسؤولاً في سورية، ووصل إلى القاهرة في بداية سنة ١١٨١م. فالسنة التي مضت أدت إلى تغيرات في العديد من العروش. فقد مات لويس الصغير **Louis le Jeunne** في فرنسا، وجاء من بعده فيليب أغسطس **Philip Augustus**؛ البابا لوشيوس **Lucuis** كان خلفاً للاسكندر والكسيوس الثاني **Alexius II** جلس على عرش الامبراطور مانويل كومنينوس **Manuel Comnenus** . وفي آسيا كان هنالك تعاقب في الخلافة. المستعضد قد توفي، والناصر الأكثر نشاطاً وقدرة في حقبة العباسيين الأخيرة، كان الأكبر في بغداد. سيف الدين أتابيك الموصل انضم إلى آبائه، وقد حكم بدلاً منه أخوه عزالدين. وفي آخر عام ١١٨١م حدثت حادثة أكبر أهمية لصلاح الدين. وفي الرابع من كانون الأول انتهت الحياة المسالمة للصالح إسماعيل الذي كان وارثاً لنور الدين بحادثة المغص القولوني ولكن بشك بأن سبب الوفاة كان بعملية تسمم. وعندما عرف بقرب نهايته أرسل إلى رؤساء ضباطه وجعلهم يؤدون القسم بولائهم لابن عمه في الموصل، وهو الأمير القوي الوحيد في أسرة زنكي حيث كانت له القوة الكامنة لمبارزة منافسه العظيم بالسيف. هذا الشاب المحتضر لم يغفر خطيئة صلاح الدين نحو حقوق السلطنة لتلك السلالة الحاكمة.

أتابيك الموصل أسرع في الاستيلاء على حلب حيث لاقى ترحيباً من أتباع ابن عمه. أما المدن السورية الأخرى فقد قررت العودة إلى ولائها القديم، كما صرحت حماة عن تعاطفها. ومع ذلك فإن الأتابيك بقي محافظاً على المعاهدة التي أقسم عليها ورفض جميع الإغراءات لدحر ممتلكات صلاح الدين. وكان سلوكه الأخير قد أوضح أن تخوفه من هذا له حصة في اعتداله. لأنه لم يخاطر مرة في محاولة لقاء منافسه في الساحة. حتى أن ممتلكات حلب كانت عبئاً ثقيلاً على

قوته بحيث جعلته يدرك أنه لا يستطيع أن يدافع مرة واحدة عن عواصمه في سورية وما بين النهرين. فخضع لأخيه عماد الدين حاكم سنجار ووافق على تبادل المدن معه. ودخل عماد الدين حلب في التاسع عشر من أيار سنة ١١٨٢م.

ولم تحصل أية معارضة من صلاح الدين لهذه الإجراءات. وكان ملتزماً بمعاهدته في احترام حليفه في الموصل بحيث لم يخالف مرة أية معاهدة في حياته. وفي الوقت نفسه كان يراقب الحوادث التي تجري على حدوده الشمالية عن كثب. وكان قد أدرك مسبقاً بأن موت الصالح يجب أن يكون مؤشراً لتقدمه نحو حلب. لكن امتلاك الحاكم الطموح وغير الورع مثل عماد الدين لحلب كان عائقاً غير ظاهر لخطته. ولكن لم يكن ليحدث أي شيء مادام السلم مسيطراً ولن ينسى حتى التاسع من أيلول سنة ١١٨٢م. وفي الحقيقة لكن مشاركة الفرقاء الآخرين في المعاهدة يمكن أن تبرر له تمزيقها. فالافرنج مرة أخرى حنثوا بأيمانهم. وريجنالد ملك شاتيون **Reginald of Chatillon** الذي أطلق سراحه من أسره في حلب، كان متعطشاً للأخذ بالثأر، وأصبح الآن سيداً على حصون البحر الميت بسبب اقترانه من ستيفانيا أرملة همفري ملك ثورون الثالث وارثة عرش الكرك. وقد استغل منصبه بدون حرج، واستولى مؤخراً على قافلة آمنة من التجار في وقت الهدنة. وبالمقابل فإن صلاح الدين احتجز سفينة حجاج كانت قد رست على شاطئ دمياط.[٢٨]

وعندما استعد لمعاودة دخول سورية لحماية مواطنيه، أدرك أن أمراء الزنكيين تناسوا شرفهم ودينهم وعقدوا معاهدة رسمية مع المسيحيين حتى مع رئيس الحشاشين لأجل الاشتراك في المعارضة للعدو المشترك نفسه. وحتى هذا لم يغره بالتراجع عن كلمته. وتقدم إلى سورية ليكون على حذر ولكنه لم يتخذ إجراءات ضد حلفائه المخادعين حتى انتهت المعاهدة.

وفي الحادي عشر من أيار سنة ١١٨٢م، غادر صلاح الدين القاهرة. وتجمع الضباط الكبار ونبلاء مجلسه في البحيرة لوداعه. وتقدموا واحداً بعد الآخر نحو ركابه واستأذنوا من سيدهم الذي

عرفوه في السنوات الأربع عشرة من مجده في الخارج والعدالة في الوطن فكرموه وأعجبوا به. ألقى الشعر وخطابات نثرية، وبغتة صدر صوت منفر عكر صفو الكلمات المنسقة اللطيفة وصاح قائلاً: "تمتعوا كما قيل في شعر العرب القديم ما يقابله:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فهذه العبارة الناشزة هزت صلاح الدين، ولكونه حساساً ككل الشرقيين اعتراه التشاؤم، فخرج راكباً من مصر والحسرة تعصر قلبه. والشعر المتنبئ لم يخطئ فلم يعد له عرار في مصر؛ ولم ير القاهرة مرة أخرى أبداً.

ولعلمه أن المسيحيين تجمعوا على الحدود لاعتراضه، سار صلاح الدين طريق الصحراء عبر شبه جزيرة سيناء إلى إيلات على رأس خليج العقبة، ومن هناك زحف شمالاً على السهول الجرداء والصخرية بالقرب من جبال الشراة **The Shera range** ، مستطلعاً للبحث عن العدو. وعندما لم يلق أية معارضة نهب البلاد بالقرب من الشوبك بينما كان جيش بالدوين يراقبه من خنادقه القريبة من الكرك، من غير أن يحرك اصبعاً ليحاربوه أو يبعدوه عن الآبار. فزحف مستغلاً خمولهم، بدون مقاومة من مؤاب إلى دمشق في أواسط حزيران. فوجد ابن أخته الفارس فروخ شاه قد اغتنم فرصة غياب بالدوين في الجنوب فعبر نهرالأردن، وخرب أرض الجليل، واحتل دبوريه **Deburiya** بين أشجار البلوط والنباتات المعطرة في السفوح الغربية المملوءة بالأشجار لجبل طابور**Tabor** ، ولتأمين امتلاك القلعة الصخرية حابس جيلدك **Habis Jeldek** حيث كان الافرنج يعلقون عليها أهمية كبرى. وقد غنم المغيرون عشرين ألف رأس من الماشية وألف أسير.

اتبع صلاح الدين هذه الفائدة التي جناها في حزيران وأرسل فروخ شاه مرة مرة أخرى إلى فلسطين. فذهب عن طريق رأس العين وعبر الأردن نحو بيسان **Bethsan** قديماً إلى سكيتوبوليس **Scythopolis** ، ثالث مدينة في فلسطين الآن ولكنها كانت مدينة صغيرة تقع في مكان خصب تحت قمة جبل جلبوع **Gilboa** العاري

القمم. وفي أثناء ذلك قام الفرنسيون بتسريح معسكرهم في ينابيع صفورية Suffuriya وأسرعوا إلى الجنوب ليحموا كوكب Belvoir القلعة الجديدة القريبة من بيسان حيث كانت لهم مخازن عديدة من التجهيزات. وساروا متبعين مجرى نهر الأردن وعسكروا أسفل تل (النجمة) The star حيث كانت هناك متاريس قلعة كوكب.

كان صلاح الدين نفسه بالقرب من طبرية ول ـه أرسل اثنين من ضباطه اللامعين تقي الدين وفروخ شاه على رأس مجموعة كبيرة من الفرسان رماة الأسهم للهجوم على الموقع، وكان العرب حسبما يذكر أعداؤهم أنه كان لهم عشرون ألفاً من الجند في المعركة بالنسبة لعدد فرسانهم السبعمئة رجل مع أتباعهم، وقد اعتقد وليام حاكم صور أن الفضل هو لشجاعة الأخوين باليان وبالدوين حاكم الرملة وبقية المحاربين الشجعان، حيث كانت المناوشة لمصلحة المسيحيين على الرغم من فرار "العديد من الذين لن نذكر أسماءهم بسبب العار". المسلمون، من ناحية أخرى، بينما اعترفوا بالخسارات الفادحة ادعوا النصر. ولجأ الطرفان للإستراحة بعد المعركة. الافرنج إلى فوربلت (أفرابيلا Forbelet (Afrabela وصلاح الدين إلى دمشق.

ولم يبدُ على العرب أنهم فقدوا العزم لأن صلاح الدين قاد جيوشه في آب إلى البقاع. وكان هدفه احتلال بيروت التي كان يأمل بمباغتتها ويهجم بمساعدة أسطوله المصري حيث كان أخوه العادل يغزو ساحل فلسطين. قصفت السفن بيروت؛ لما كان صلاح الدين منحدراً من التلال، حيث كانت كشافته تشير إلى الأسطول موجهة هجوماً عاماً إلى تلك الديار. وكانت السهام الموجهة إلى السلطان غزيرة بحيث "لم يستطع أحد رفع أصبعه". ولكن المدينة كانت محصنة جيداً وبها حامية أبدت مقاومة شديدة. وكان العرب يتوقعون أن يستولوا عليها فلم يحضروا المجانيق لحصار عادي. وأكثر من ذلك، فالملك بالدوين كان قد جهز بسرعة السفن في عكا وصور لإغاثة الميناء، حيث كان الجيش المسيحي يقترب. فشلت المباغتة، لأن لصلاح الدين شؤوناً أهم في الشمال فقد ترك فرقه التي فازت بنجاح ضئيل.

وقد تغيرت خطته لأنه في الحقيقة تسلم دعوة من كوكبري Kukbury أمير حران للدخول واحتلال الجزيرة. أي سبب كان ملائماً جداً لصلاح الدين الذي كان يعد الساعات لكي يصفي حسابه مع أسرة زنكي. أخيراً بلغت الهدنة نهايتها.

وكان بعض الحلفاء قد نفد صبرهم لاستقباله على النهر العظيم؛ وفي اللحظة التي كان يستطيع التقدم بها بشرف جمع معدات الحصار وبدأ بالسير. وبعد هجوم ضعيف على حلب التي مكث حولها ثلاثة أيام من ١٩-٢١ أيلول عبر نهر الفرات عند بيره Bira. وكان أنصاره متلهفين على لقائه. أولاً لأن كوكبري خوفه من الموصل قاده لدعوة الغزو؛ وثانياً لأن نور الدين في قيافا جلب قواته المحاربة تحت رايته. وقد سقطت أمامهم مدن الجزيرة الواحدة بعد الأخرى. الرها، سروج، الرقة، كاركيسيا Karkisiya ونصيبين، والواحدة كالجميع انحنوا كأفراد في تقدم ملكي. ووسط هذا النصر وصلت الأخبار أن الافرنج سوف يغزون دمشق. وقال صلاح الدين: "دعهم يفعلون ذلك، فبينما هم يسقطون القرى نحن نستولي على المدن. وعندما نعود سوف يكون لنا قوة عظمى لمحاربتهم".

وتقدم إلى الموصل العاصمة الوحيدة لخصمه المسلم. ومرة أخرى برهنت الأسوار القوية على مهارات جنود الحفر. الكرك أولاً ثم بيروت والآن الموصل قاومت كل الهجمات. وكانت حماسة المدافعين هي التي آزرت المتاريس المزدوجة، بحيث لم يكن هنالك جانب ضعيف للتسليح. فالمكان كان مكتظاً بالمخازن والمؤن والعتاد وآلات الحرب المعدة بحكمة لمثل هذا الطارئ. وبالرغم من هذا فقد كان عزالدين يرحب بتخفيف قسوة الحصار على مدينته لو حصل أي ترتيب مشرف؛ ولكن طلب صلاح الدين اللحوح كان التخلي عن حلب، وعزالدين لم تكن له الرغبة ولا حتى القوة لإجبار أخيه على التنازل. أما الحكام الأرمن والفرس المجاورون فقد ذهبت مساعيهم سدى عندما توسطوا؛ وكان لصلاح الدين جواب واحد (إما حلب وإما الموصل).

ولذلك بدأ باستثمار الفرصة في العاشر من تشرين الثاني سنة ١١٨٢م، واتخذ صلاح الدين وجهته ضد بوابة كيندا **Kinda** وأخوه بري **Burry** تاج الملوك قاد الهجوم على بوابة العمادية في حين أن نور الدين حاكم قيافا اتخذ مسؤولية بوابة الجسر.

جميع هذه المجهودات لم تؤثر في متانة البناء الحجري، وبعد شهر من المساعي غير المجدية سحب صلاح الدين جيشه وسار لمسافة ثلاثة أيام نحو سنجار وفي اعتقاده أنه يحطم نفسية الموصليين بإخضاع البلاد المحيطة بهم التي يعتمدون عليها بالإمدادات.

أما سنجار فقد قاومت روحياً ولمدة خمسة عشر يوماً بقي صلاح الدين أمام الأسوار في المكان الذي خاض فيه قسطنطين معركته الكبرى مع سابور **Sapor** ؛ ولكن في الثلاثين من كانون الأول تم الهجوم على المدينة القديمة ونهبها الجنود المنزعجين الذين خرقوا كل المبادئ باندفاعهم الجشع للنهب. وقد نجح صلاح الدين فقط بحماية الحاكم وضباطه وأرسلهم إلى الموصل بكل علامات الشرف. وبعد إقامة الحامية العسكرية في سنجار، استعد لمجابهة تحالف مع أتابيك الموصل وملك ارمينيا وذلك بمساعدة التابعين لأمير ماردين وقوات من حلب. وفي نهاية شباط سنة ١١٨٣م، تجمع جيشٌ ضخمٌ على سهل حارزم **Harzim** تحت ماردين؛ وعند سماعهم بتقدم صلاح الدين أرسلوا في الحال مبعوثين للتفاوض على السلام. وقال يجب أن تكون إجابتهم في سهل حارزم. وكان مثل هذا الترحيب كافياً. وكان جميع الحلفاء قد هربوا بذعر كل منهم إلى مدينته، وعندما وصل صلاح الدين للموعد لم يجد هنالك عدواً. وقال الوزير الأول: "تقدموا كالرجال ولكنهم اختفوا كالنساء". فقد تراجع الأتابيك مرة خلف أسوار الموصل، ولكن صلاح الدين لم يطارده، وأبطل كل المحاولات نحو المدينة في الوقت الحاضر، وعندما أكمل تنظيم فتوحاته في وادي الرافدين حسب أنظمة إقطاعياته العسكرية المعتادة تقدم نحو الشمال، وبعد حصار ثمانية أيام في السادس من أيار سنة ١١٨٣م، استولى على مدينة عميد على الرغم من متانة أسوارها المزدوجة المبنية من الحجر البركاني الأسود والأبواب الحديدية والخندق المائي الطبيعي المكون بشكل انحناءة هلال في دجلة. وكان المكان

مملوءاً بالأسلحة وأدوات الحرب والمخازن والكنوز. أما المكتبة الشهيرة ذات "المليون مجلد" فقد نقلت للقاضي الفاضل الوزير الأول العلاّمة الذي أخذ مجموعة مختارة من الكتب على سبعين جمل. فقد وهب صلاح الدين هذه القلعة لحليفه المخلص والشجاع أمير قيافا. وفي تلك اللحظة أخبروه أن عماد الدين في حلب قد عقد تفاهماً مع الافرنج وأنه سيضرم النار والسيف في أراضي السلطان في سورية. لذا فقد توجه صلاح الدين مسرعاً نحو الفرات في بيره محتلاً عنتاب **Ayn Tab** في طريقه وعسكر في ٢١من شهر أيار مرة أخرى في الميدان الأخضر أمام حلب. ولم يبد عماد الدين مقاومة كبيرة لأنه لم يكن شعبياً مع أتباعه الجدد. ورغب العودة إلى أحيائه القديمة في سنجار. ومن جهته فإن صلاح الدين كان متحمساً لتوحيد وتعزيز امبراطوريته وذلك بالحصول على عاصمة سوريةالشمالية. وتم تفاوض للتبادل وبمقابل احتلال حلب، فإن ولاية سنجار مع مدنها المعتمدة مثل نصيبين وسروج والرقة أعيدت لعماد الدين الذي كان سيأخذها على أنه من أتباع صلاح الدين بشرط الخدمة العسكرية.

وفي الثاني عشر من حزيران كانت المدينة قد أصبحت رسمياً بحيازة صلاح الدين. وتم استعراض الحامية العسكرية في الميدان الأخضر وقدمت له عهد الولاء، وأقيمت مأدبة فاخرة احتفالاً بهذه المناسبة؛ وعمت الابتهاجات العامة. ولم يبد الناس أي تعاطف مع أميرهم لكن تحسروا على الأيام الرائعة لحكم نور الدين وتأملوا إحياء تلك الأيام على يد ملك قوي وكريم مثل صلاح الدين كما وعد أن يكون. وأصبح عماد الدين محط احتقار الجماهير الذين سخروا من "الحمار الذي يقايض بالحليب الطازج" (وباللغة العربية حلب تعني **Aleppo**) بسنجار الحمضة. حتى أنها استعرضت أمامه حتى حوض الغسيل قائلة: "أنت لم تكن معني أن تصبح ملكاً... حاول أن تكون غسالاً!". وكان سعيداً بهربه من وابل الانتقادات واستأذن من صلاح الدين في السابع عشر من حزيران ليرحل إلى سنجار حيث كان مجهزاً بأحصنة مختارة وعباءات الشرف التي قدمها خصمه الكريم. وفي اليوم الثاني دخل صلاح الدين حلب. وهتفت له الجماهير، ومدحه الشعراء واستضافه الحاكم بجلال في القلعة واستمرت المدينة كلها

مبتهجة بفرح بالغ. أليس صلاح الدين ملكهم ؟ وهل يوجد على الأرض غيره قوي وعادل وكريم ؟.

الحصول على حلب جعل من صلاح الدين أقوى حاكم في الإسلام، ومن دجلة إلى النيل وعلى طول الساحل الإفريقي وحتى طرابلس العديد من المدن الكبرى ومختلف الشعوب أصبحت تحت هيمنته. وقد مُدح اسمه في المساجد من مكة إلى ما بين النهرين. وعندما كتب إلى البابا[٢٩] استخدم "ملك ملوك الشرق جميعاً" **(Rex Omnium regum Orientatium)** ولجميع أمراء الشرق الذين كانوا ضمن سيطرته كان بلا شك ملكهم. ويجب عليه أن يتخذ خطوة أخرى لفرض السيطرة بشكل حتمي على هذه المملكة الواسعة. فهو لم يخف من الشرق والشمال. فالموصل أُرعِبت وسلجوق قونيا كان على علاقة ودية به، وبقي ذلك الممر الضيق الممتد خلف الجبال على طول الساحل السوري من انطاكية إلى عسقلان. والمدن التي خلف نهر العاصي ونهر الأردن وحاجز مرتفعات لبنان فوق كل ذلك القدس نفسها المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين على السواء. هذا المضيق من الإقليم العدائي الذي حجز مملكته من جهة البحر العظيم؛ تلك الحصون والمدن والأماكن المقدسة ما زالت بأيدي أعدائه الحديدية. أما وادي الأردن السعيد حيث أجراس المسيحيين الخشبية التي تدق بخشونة بدلاً من الصوت الجميل المهيب للمؤذن. هذه كلها كانت عبارة عن صخرة عداء "لسلطان الإسلام والمسلمين". وحتى تكون المدينة المقدسة مرة أخرى بحيازة المؤمنين، وحتى يضعف حكم الافرنج، فلن تكون له الراحة.

الفصل الثاني عشر
دمشق
١١٨٣م - ١١٨٦م.

بقي صلاح الدين شهرين في حلب، لينظم أمور الحكومة ويمنح المكافآت للدوائر والمقاطعات وينظم مختلف المدن المستقلة والحصون. وفي الرابع عشر من آب سنة ١١٨٣م غادر إلى دمشق التي أصبحت عاصمته ومركز قيادته حتى آخر حياته. وقع الكثير من الأحداث خلال غيابه الطويل في الشمال. فقد توفي فروخ شاه نائبه الشجاع كما أنها زادت شجاعة الافرنج. فقد نهبوا بصرى والزوراء (Zora) وجميع البلاد حتى داريا Darayya على بعد أميال قليلة من دمشق، مدمرين الحقول والمزارع تاركين كل شيء خراباً. واستعادوا سوهيت (Suhite) المعقل الصخري الذي كان يفتخر به العرب، وكان ريجنالد حاكم شاتيلون يعد مشروعاً لاحتلال شبه الجزيرة العربية وتدمير قبر النبي (صلعم) في المدينة، والكعبة في مكة. ونقل سفنه قطعاً من عسقلان إلى خليج العقبة وأرسل الأسطول لنهب ميناء عيذاب Aydhab على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ومع مركبين حاصر العقبة.

وسرعان ما كان الأسطول المصري في ملاحقة حامية وأمير البحر لولو Lulu الذي أنهى حصار العقبة بسهولة وجاء مع مجموعة رئيسية من الحملة بالقرب من الحوراء el-Haura وهو ميناء صغير على البحر الأحمر حيث كان في نيته الزحف نحو المدينة. وأن منظر السرية المصرية ساقهم بسرعة نحو الشاطئ ثم إلى الجبال. وجعل لولو بحارته يركبون خيول البدو ويأسرون العدو في مدخل حصن رابوغ Rabugh ويبددونه تبديداً.

هرب ريجنالد لكن معظم رجاله قتلوا؛ لم يكن هنالك هوادة عدا بعض السجناء الذين أرسلوا إلى مكة لكي يذبحوا كالشياه في وادي منى Mina كما يحصل في الضحايا السنوية للحجاج حيث يجب أن يكفروا عن نيتهم في انتهاك حرمة المقدسات.

وكان ابن جبير العربي الاسباني في الاسكندرية في أيار سنة ١١٨٣م عندما أخذ بعض السجناء من حملة ريجنالد حاكم شاتيليون وأركبهم الجمال ووجوههم للأذناب وسط دقات الطبول وصراخ الجماهير. ولم يحدث أن صادف مثل هذا الهلع عندما وصلت أخبار الغارة إلى مصر. وأخبر الناس بعضهم بعضاً وهم يرتجفون كيف أن سيد الكرك اللعين رشى البدو لحمل سفنه عبر الصحراء إلى البحر الأحمر. وكيف حرق ستة عشر مركباً للعرب وحاصر سفينة الحج على بعد من جدة رست في عيذاب وأسر القافلة التي كانت تسير من كوس Kos على النيل حيث تم ذبح كل من عليها؛ وكيف بعد أن جعل جوائز من سفينتين من اليمن محملتين بالمؤن للمدن المقدسة، إلى الجزيرة العربية ليحتل المدينة. ومع إخفاق خطته لاحتلال المدينة المنورة وتدمير قبر النبي المقدس، لم يسبق أن سمع بمثل هذه الأخبار المرعبة من قبل. نشكر الله: قال لولو قائد الأسطول الذي قبض على السفلة بسرعة سفنه التي يقودها المغاربة Moors من المغرب فتجنبوا الكارثة.

وأول شيء قام به صلاح الدين عند عودته إلى سورية هو معاقبة الافرنج على تهورهم. فاستدعى جيوشه التي سمح لها بالعودة إلى الديار في أثناء استراحته في حلب وتقدم نحو الجنوب عبر طريق الصحراء إلى الفوار el-Fawar وعبر الأردن في التاسع والعشرين من أيلول ناهبين أرض الغور الخصبة ووجد بيسان قد هجرها أهلها فنهبت وأحرقت. وتقدم إلى وادي جرزيل وعسكر عند بئر عين جالوت Goliath على سفح جلبوع Gilboa . وحينذاك كان كشافته المتمرسون الذين هم من جيوش نورالدين قد نهبوا البلاد وما حولها حتى طابور Tabor والتلال في أعالي الناصرة. وأسروا فوربيليه Forbelet وواجهوا مجموعة من الافرنج سائرين من الكرك ليلتحقوا بالجيش الرئيسي عند ينابيع صفورية وتغلبوا عليهم في ٣٠ أيلول بخسارة رجل واحد منهم فقط. أما جاي حاكم لوسجنان Guy of Lusignan الذي كان الآمر خلال مرض الملك بالدوين، فقد سرّح المعسكر مباشرة وعبر تلال الناصرة إلى سهل اسدرايلون Esdraelon ، وتقدم نحو قلعة الفولة Bean ، عفولة el-Fula (حيث كان الافرنج يسمونها Faba أو Lafeve) حيث دخل صلاح الدين

المعركة.

"قال الرجال المسنون: إن فلسطين لم تر قط مثل هذا التنظيم من الصليبيين، حيث كانوا ألف وثلثمئة من الفرسان ونحو خمسة عشر ألفاً من المشاة المسلحين جيداً؛ وبينهم العديد من النبلاء الأوروبيين أمثال هنري **Henry**، ودوق لوفان **Duke of Louvain**، ورالف دي مالين **Ralf de Maleine** من اكوتين **Aquitaine** وجمع من لوردات الأراضي وغي دي لوسيفنان **Guy de Lusighnan** وريغنالد دي شتاليون **Reginald of Chatillon** وبالدوين **Baldwin** وباليان حاكم عبلين **Balian of Ibelin** ويجنالد حاكم صيدا **Reginald of Sidon** ووالتر حاكم قيصريه **Walter of Caesarea** وجوسلين حاكم كورتينيه **Joscelin de Courtenay**".

وبالرغم من هذا فإن المعركة لم تكن حاسمة، فالقتال كان يداً بيد وحيث العين بالعين. وكانت طلائع صلاح الدين المؤلفة من خمسمئة فارس حيث تم كثير من التنفيذ، ولكن لم يستطيعوا اختراق الصفوف المتراصة بحراب العدو؛ وبالنتيجة عسكر كلا الجيشين متقابلين في طوبانيا **Tubania** وبئر جوليات **Goliath** على بعد ميل واحد بينهما. وحصل تأخير غير اعتيادي وخلال خمسة أيام بقي الجيش المسيحي لا يتحرك في حين كان الخصام بين قادتهم مستمراً وما كانوا يتحدون إلا لغرض تحدي سلطة لوسنيان. وفي أثناء ذلك كان صلاح الدين قد احتل المرتفعات ووجد الصليبيون أنفسهم مطوقين وقد انقطعت عنهم الإمدادات. وكانت صفوفهم ملأى بجماهير من التجار الإيطاليين وأهالي بيزا ولومبارديا وڤينيسيا وجنوى، الذين تركوا سفنهم وأسرعوا للالتحاق بجيش الصليب من غير أن يفكروا في الطعام، مع أنهم لم يعتادوا حمل الأسلحة وتحمل المشقات والحرمان. وكان هؤلاء أول من شعر بالتعب والجوع، ولما لم تتمكن الإمدادات من اختراق الحلقة المقفلة من العرب المتنبهين، حلت مجاعة خطيرة في المعسكر. كان ذلك في منتصف تشرين الأول حيث سيحل الموسم الماطر قريباً. ويبدو أن صلاح الدين حاول بكل طريقة أن يجرهم لنقطة القتال. ولكن لم يجدِ ذلك نفعاً: وقد أفلحوا أخيراً بالهرب، ملاحقين بسهامه، وعادوا بخزي إلى صفورية بعدما كانوا

قد خرجوا في صفوف مهيبة قبل أسبوع.

وفي شهر تشرين الأول نفسه ترك السلطان دمشق لتصفية حسابه مع ريجنالد حاكم شاتيلون في الكرك. وقد أخفقت كل المحاولات لأسر ذلك الطليق المحترف أو إمكان الدخول إلى قلعته مع أن الجيش المصري بقيادة "العادل" آزروه في الحصار، ومجانيقهم السبعة ضربت بلا فائدة الأسوار القوية. وعندما علم صلاح الدين بالقوى الملكية القادمة لمساعدتهم سحب جيشه في الرابع من كانون الأول عائداً إلى دمشق. وفي الصيف الذي تلاه في الثالث عشر من آب ١١٨٤م، بذل جهداً آخر لاحتلال القلعة لأنه لا يمكن أن يحل السلم مادام ريغنالد مستولياً عليها؛ ولكن الحصار - الخامس الذي بدأه صلاح الدين - انتهى كالبقية. وكان النجاح في بادئ الأمر محققاً النجاح سيتوج مثابرة العرب. والمدينة لم تكن في حالة تؤهلها للقتال؛ حيث كانت مملوءة بالفنانين من الراقصين والموسيقيين مبتهجين بعرس شقيقة الملك إيزابيلا همفري الرابع حاكم تورون. ومباهج العرس كانت على وشك أن تتحول إلى طقوس جنائزية. فصلاح الدين ومماليكه شقوا طريقهم بقوة في المدينة وانسحب ريغنالد فوق خندق إلى القلعة. ومع ذلك كان من الصعب هربه ولكن بسبب بسالة فارس وحيد أمسك بالجسر مثل هوراشيوس **Horatius** قديماً في حين رمت به الحامية العسكرية إلى الوراء. ومن المؤكد أن الحصن سقط بأيدي العرب. وبشرح غريب لآداب الفروسية وتقاليدها في ذلك العهد فقد أرسل ريغنالد لصلاح الدين بلحم ونبيذ كأنها قطعة من حلوى العرس للمشاركة في الاحتفال؛ وبالمقابل فإن السلطان أمر الجيش بأن برج الزفاف للعروسين يجب أن يحترمه رماة السهام ورجال مدفعيته.

صلاح الدين وجد نفسه مالكاً المدينة والضواحي وسيداً لكل أشكال المهرجانات الفاخرة والأعراس. ولكن السيطرة على القلعة كانت بعيدة المنال. فبدأ بملء الخندق ووضع آلاته، وحليفه المخلص نورالدين حاكم قيافا عرض نفسه بجدارة في القتال مع الحامية العسكرية. فقذف المجانيق التسعة لفتح البوابة التي انفجرت منفتحة ولكن العدو تمسك بالخندق. فالخندق كان ممتلئاً بحيث كان

السجين يستطيع أن يقفز من المتاريس لكي يهرب. ولكن العمل تبدد كله والصخرة تحدت الهجوم. وفي أثناء ذلك نقل الرسل الخبر إلى بالدوين، وفي أيلول وصلت قوة إنقاذ في الوالة el-Wala دون المجازفة بأية معركة، وإنما لتزويد القلعة بالغذاء وأنهكوا المحاصرين. وكان صلاح الدين يمقت لعبة الانتظار وأخفق في إقصاء المسيحيين عن خنادقهم وحالاً رحل بمخيمه من موقعه إلى حسبان Heshbon وماعين Main ، وذهب ليخرب السامرة Samaria ونهب وأحرق نابلس (Shechem) المشهورة بحقول الزيتون والبطيخ. وبعدها عاد إلى دمشق في السادس عشر من أيلول ١١٨٤م.

وبعد ذلك حصل سلام بين العرب والمسيحيين لوقت ما. وانتهى بؤس الملك بالدوين في شتاء ١١٨٤ و ١١٨٥م. والآن استقر التاج على رأس طفل وتقلد غي لوسيغيان وريموند حاكم طرابلس ولاية عهد للطفل بالدوين الخامس وترأسا فرقاً متخاصمة. ولم يك الوقت ملائماً لحرب مقدسة. هذا ما قالته بيوتات الصليبيين القدامى؛ ومن الأفضل عقد هدنة، وعلى الأقل الانتظار لحين الفرصة المناسبة. هكذا اعتقد أمير انطاكية وكونتات طرابلس وصيدا والاخوان البواسل في ابيلين. ولم يظنوا أن اثنين من المحاربين العظماء من تنظيمات المعبد والمستشفى؛ ولا القادمين الجدد مثل غي حاكم لوسينغان وحملته الوحيدة كانت مهزلة مخزية وأقل بكثير كان ريغنالد حاكم شاتيلون الذي كان مازال يشعر بقوة في حصنه المنيع في الكرك، وحديد سلاسله غير المنسية تنخر في روحه، المتعطشة لأخذ الثأر. وفي الوقت الحاضر سادت السياسة الحصيفة وبتحرك من ولي العهد أبرمت معاهدة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات، وبالنسبة لريموند نفسه كانت أكثر من هدنة. لقد كانت تحالفاً هجومياً دفاعياً. وكان صلاح الدين يسعى لدعمه في مخططاته بالنسبة للتاج، وبالمقابل أطلق ريموند العرب الأسرى الموجودين في طرابلس، إلى حد أنهم جهزوا دمشق بمؤن وافرة خلال فترة المجاعة لعام ١١٨٥م. وبالرغم من هذا ومهما كانت صلة الصداقة بين صلاح الدين وريموند فإن الهدنة كانت مثل الجندي المضطرب في نومه، الذي يمكن قطعه في لحظة بالنداء لحمل السلاح.

ولم يكن هنالك سلام حقيقي عندما طاف البطريرك هراكليوس **Heraclius** أوربا لجمع المجندين بينما كان الفرسان الانكليز من شيڤيوتس **Cheviots** إلى جبال البيرنيه **Pyrenees** قد حملوا الصليب، في حين أن اثنين من النظاميين العسكريين الكبار كانوا يتحفزون من أجل ضرب الإيمان. الحرب المقدسة كانت نائمة ولكنها ستستيقظ حتماً.

وكان صلاح الدين حينذاك يقضي وقت فراغه في تنظيم شؤون مملكته. فمرة أخرى أصبحت دمشق مركزاً للسلطة. وكان صلاح الدين قد اعتاد أن يقول أن سورية هي الجذور والأساس للامبراطورية؛ بينما جوليان **Julian** سمى دمشق عين الشرق. وقبل بداية التاريخ كانت دمشق مدينة. ومنذ الزمن الذي اتخذ فيه إبراهيم خادمه اليعازر **Eliezar** من بين المواطنين كانت عاصمة سورية القديمة معروفة. وفي أيام حزقيال **Ezekial** كانت التجارة عندهم مشهورة ولميناء صور كتب: "أن دمشق كانت تاجرك للعديد من السلع من صنعها لكثير من الأغنياء". وفي جميع الامبراطوريات القديمة في الشرق، لعبت دمشق دوراً وكأنها العاصمة الطبيعية لتلك المنطقة التي هي المقر الرئيسي لاجتماع الناس. ومن خلال أسواقها المزدحمة بتجارة بابل وفارس والهند البعيدة وحملت من الأيام المنسية بالقوافل القادمة من الفرات عن طريق تدمر **Palmyra** أو حلب تحمل البضائع الثمينة إلى موانئ البحر المتوسط أو تتجه جنوباً نحو مصر وشبه الجزيرة العربية. وجاء إلى دمشق البدو الرحالة في قبائلهم المتعددة الذين كانوا يرعون قطعانهم في الربيع والشتاء على الأعشاب الشحيحة في الصحراء ويتجولون كل سنة ما بين الجزيرة العربية والنهر العظيم حول السلسلة المألوفة من الآبار. وكان هنالك سباق بين المتعاملين بالماشية وقائدي الجمال، حاملين ثروة الناس ويبيعون منتجاتهم الرعوية بالمقايضة ببضائع التجار.

غنية ومكتظة بالسكان كانت دمشق مدينة بكل هذا لموقعها الوسط وفوائدها الطبيعية. واليونانيون سموها "الأكثر جمالاً" والعرب سموها "عروس الأرض وجنة الدنيا". وبالنظر إلى المدينة

القديمة من قبة النصر التي تتوج المنطقة القريبة من سلسلة جبال لبنان الغربية Antilibanus نستطيع أن تدرك مدى افتخار الدمشقيين بجنتهم الأرضية. فالسهل المستوي المشهور بالغوطة Ghutaغني بخصوبته وهو الذي يكون الجزء الأعلى من الهضبة السورية التي ترتفع لألفي قدم فوق سطح البحر وهو في جماله يضاهي الصحراء البنية اللون والتلال الصخرية، حيث سمى اليونانيون بردى "بالذهب الجاري". ويتوزع النهر إلى سبعة جداول تحيط بذلك السهل وتملؤه بالحياة الغنية. فالحقل الأخضر الواسع يمتد إلى أميال من الجبال إلى الصحراء، وفي وسطه سلسلة من الجنائن الزمردية اللون وحقول البرتقال والليمون والياسمين.

ومع بلبلة روافد بردى، ترتفع الأسوار القديمة الرومانية والبحر الأصفر من بيوتها الطينية، وغابة من المنائر، والقبة العظيمة لجامع أمية، الذي كان سابقاً كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وقبل ذلك ربما كان بيت ريموند Rimmon التي قيل فيها: مع أنكِ قديمة كالتاريخ نفسه، فأنت منشرحة كنفس الربيع، متفتحة كبراعم ورودك، وعبيرك مثل عبير زهر الليمون، آه يا دمشق لؤلؤة الشرق!".

لقد تركت كل مرحلة من تاريخها المختلف آثاراً في دمشق؛ البوابات الرومانية من الحجر الرملي الأحمر المصقول والأبواب المصفحة بالحديد الثقيل؛ والجدران القديمة بسماكة خمسة عشر قدماً وارتفاع عشرين قدماً، بنيت على أسس قديمة من البناء الهائل، وقلاع مربعة بارزة حيث رماة السهام في القرون الوسطى دحروا للخلف الفرق المهاجمة بنيرانها الجانبية. فالـ Via Recta الشارع الذي يسمى بالمستقيم Straight مازال يؤدي إلى البوابة الشرقية كما كان في عهد القديس بولص الذي كان حينذاك يدعى شاؤل الترسوسي Saul of Tarsus . وعلى جدران الجامع العربي؛ فالحاج إلى قبر صلاح الدين مازال بإمكانه أن يقرأ الكلام المنقوش على العتبة العليا لباب الكنيسة القديمة حيث حكم الإسلام لثلاثة عشر قرناً لم تمحى آثارها.

"هذه المملكة، يا مسيح مملكة أبدية وسيطرتك ستبقى عبر كل الأجيال".

والمدينة في زمن صلاح الدين لا بد أنها شاهدت الخليط نفسه من الألوان والأجناس كما هي الآن. أما الملابس والعادات الإسلامية فقد كان تغيرها بطيئاً، والناس كانوا متمسكين بطريقتهم نفسها لعدة أجيال. وكانت أسواقهم تعج بالناس ويسكنون في غرف مصنوعة ومدهونة بشكل متقن حول ساحات بيوتهم. فالمدينة كما هي الآن كانت مقسمة إلى عدد كبير من الأحياء المسورة تغلق ليلاً ببوابات ثقيلة يقيم فيها أناس من عشائر مختلفة. وكما هو حالياً فالماء النقي يجري في الجدول الذهبي خلال شبكة منظمة بأقنية حيث تورد الماء لكل شارع حتى لبيوت الفقراء. ولكن الغزو والنار وتخريب التاتار وإهمال العثمانيين محى رونق وجمال الجوامع والقصور؛ وحتى الآن فإن الجامع الأموي المهيب حيث كان الخلفاء العظماء في القرن السابع يعظون قادة المؤمنين وحيث وقف معاوية أمام جماعة المصلين المرتعشين حاملاً بقميص عثمان المدمى والأصابع المقطوعة لنائلة بنت الفرافصة (زوجة عثمان) المثبتة بمنبر الجامع الذي كان يصلي فيه صلاح الدين لله في المعارك حيث دمرته النيران الشديدة. وكانت الفسيفساء انتصاراً للفنانين من بلاد فارس والهند وبيزنطية التي أرهقت دخل سورية لمدة سبع سنوات، بجانب حمل ثمانية عشر من السفن من ذهب وفضة من قبرس.

إن الرحالة العربي الاسباني، ابن جبير، الذي زار دمشق في سنة ١١٨٤م حينما كان صلاح الدين يسكن هناك، ترك لنا وصفاً دقيقاً لعجائب ذلك الجامع الرائع، حيث تجد تلك الساعة بعقاربها التي هي صقور تشير إلى الوقت، والبوابة النحاسية التي تغلق عند مضي كل ساعة، أما في الليل فتشير المصابيح الحمراء إلى الوقت الذي يقاس بانخفاض الماء. وذكر عشرين كلية ومارستانين للمجانين والعديد من الاديرة.

وقد زاد بأن لدمشق قلعة حيث يقطن السلطان وهي منعزلة عن الحي الحديث من المدينة، وفيها يقع جامع السلطان. وبالقرب من

القلعة وخارج المدينة إلى الغرب يوجد ميدانان شبها بقطع من الحرير المطرز بالقصب لاخضرارهما وحسنهما. وكان النهر يجري بين الميدانين وبستان من أشجار الصفصاف الجميلة جداً والممتدة بجانبها، وكان السلطان يرغب في أن يخرج ليلعب لعبة المضرب أو الصولجان وليسابق خيوله؛ حيث لا يوجد أجمل من ذلك مشهداً. وفي كل مساء يذهب أولاد السلطان ليطلقوا بالقوس ويتسابقون ويلعبون بالمضرب.(٣٠)

إن هذا الرحالة الاسباني قدم لنا لمحة عن السلطان العظيم، يلعب البولو على المرج الحريري في الميدان، ولم يخبرنا المؤرخون وكتاب السير لصلاح الدين شيئاً أكثر من ذلك. ونسمع في الحقيقة عن الليالي التي قضيت بالمناقشات الأدبية وعن علاقة السلطان الودية بالشاعر المحارب القديم أسامة، يستمع لقراءة الشعر واللعب المتكرر للشطرنج الذي كان السلطان مغرماً به بإخلاص. ولكن صدى مثل هذه الأصوات هو خافت حقاً.

ولنعرف الصورة عن حياة الحاكم المسلم ومشاغله في زمن الصليبيين يجب أن نتجه إلى مؤرخي السلاطين المماليك لنرى كيف كان بيبرس **Beybars** سلطان سورية ومصر يحكم دولته في القرن الثالث عشر. كان مملوكاً لعائلة صلاح الدين، وقد كون بلاطه على النسق نفسه الذي وضعه سلفه العظيم. فالسلطان في ذلك الزمان لم يتمتع بمنصبه. وكان يعمل بجد كأوضع واحد من رعاياه. وكان يجلس في قاعة العدل ليومين في الأسبوع يستمع إلى الشكاوي ويصحح أخطاء رعاياه. ومراسلاته كانت هائلة، وبينما كان لصلاح الدين مستشارون لا يتعبون وكتاب أسرار مثل القاضي الفاضل وعماد الدين وبهاء الدين الذي كان له أثر كبير في المراسلات.

وفي عهد بيبرس كان البريد منظماً جداً يرتبط كل جزء من مملكته الواسعة في العاصمة. وكانت الخيول المناوبة مستعدة في كل بيت بريدي. ومرتان في الأسبوع يتسلم السلطان ويجاوب التقارير من جميع أنحاء المملكة. وإضافة للبريد العادي كان يوجد

أيضاً بريد الحمام الزاجل الذي لا يقل في التنظيم عن غيره، فالحمام كان يحفظ في أقفاص على مختلف المراحل، ويتم تدريب الطيرللوقوف عند أول قفص بريدي حيث تربط رسالته بطير آخر للمرحلة القادمة.

ولحسن الحظ فإننا نعرف بعض الشيء عن رئيس كتبة أسرار صلاح الدين الذي يدير مراسلاته العديدة. وكما كان "الجواد" للمحارب زنكي كان القاضي الفاضل والقاضي العالم لصلاح الدين لإدارة القضايا الإدارية الواسعة لامبراطوريته. والفاضل لم يكن تركياً ولا فارسياً كما كان عليه رجال الدولة حينذاك، ولكنه العربي النقي اللخمي الذي ولد في عسقلان من أسرة قضاة. وكان وزميله في المجلس ألوه **Aluh** يثني على أسلوبه الرائع الذي يعتبر صفة رئيسة لكاتم أسرار الدولة وبطريقته العظيمة.

سيد القلم واضح الفكر وبليغ الأسلوب، عبقريته متألقة، حصافته رائعة، وأسلوبه الجديد كان رائعاً... كان كقانون محمد (صلعم) الذي ألغى ما سبقه وصار أصولاً للمعرفة كلها. وهو الذي قاد الامبراطورية بحكمته، إلى الأمام لألمعيته فقدم أجمل الورود. وأغنى الحديث بأسلوبه المتلألئ.

وعلى الرغم من الكتابة الرفيعة والأناقة اللفظية المتناهية فإن القاضي كان موظف حكومة رائعاً، وكثيراً ما أسند إليه صلاح الدين المسؤولية العليا للحكومة في مصر خلال غيابه في حملاته في سورية، مصر في الواقع كانت البلاد التي تبناها صلاح الدين، حيث وجد نفسه في مكتب رئاسة الحكومة، ولم يكن مسروراً أبداً لبعده عن محبوبه النيل. فكان يقول في أشعاره: "أحمل رسالتي إلى النيل". هذه الأشعار التي كان يكتبها في أثناء حملاته ما بين النهرين ويقول: "أخبره بأن الفرات لا يمكن أن يروي ظمأي".

وكان الحكاري **el-Hakkary** الفقيه العربي الذي يستمع لنصيحة صلاح الدين، وكان يعامل سيده بعدم الكلفة المتواضعة بحيث لم يجرؤ أحد غيره على ذلك. وكان شكله الجذاب بعمامة القانوني

المهيبة التي تتوج بدلة الجندي كلما تغيب عن مجالس السلطان. كما كان الساعد الأيمن لصلاح الدين في سورية القاضي الفاضل كان نظيره في مصر، عماد الدين من أصفهان كاتم أسرار الدولة المعروف باسم الوه Aluh "النسر" كان شاعراً وسيداً للاسلوب وهو العالم الواسع الاطلاع بالقانون والمتعمق في غرائب علم التنجيم ومجادلاً لا يغلب في المجادلات الفكرية.

وقد أصبح رئيساً لمجلس الدولة والمستشار في المملكة السورية بعد أن كان أستاذاً في الكلية في دمشق التي منحها اسمه (العمادية). وكانت مهارته الممتازة في تنفيذ المراسلات الدبلوماسية بالفارسية والعربية وأسلوبه الفخم الرنان الذي كان يعجب به الشرقيون، بالإضافة إلى علمه وسداد رأيه كل ذلك جعله ذا قيمة عظمى لدى السلطان الذي أخيراً أولاه كل ثقته.

بجانب الأعمال الضرورية كانت الاحتفالات الرسمية تثقل كاهل السلطان. أما بلاط المسلمين في العصور الوسطى فقد كان منظماً جداً. وكان شغله الشاغل اختيار موظفيه لملء الوظائف العديدة في البيت والتخفيف من تنافسهم، وهذا يحتاج إلى كثير من الوقت والتفكير لمكافأة خدماتهم بأنواط الشرف والألقاب والاقطاعيات. فكل واحد منهم ابتداءً من القائد الآمر وانتهاءً بحامل الكؤوس الذوّاقة ورئيس لعبة البولو، كلهم يبغون شيئاً أو يحسدون شخصاً آخر، كل هذا وجب أن يحاط بعناية ولو على عجل، من أجل المصلحة العامة والإخلاص في العمل.

استعراضات الجيوش وتطورات الدولة كانت قضايا تحتاج إلى الكثير من الإحتفالات. والسلطان نفسه في زمن (بيبرس على الأقل) ظهر راكباً في وسط الموكب لابساً الجبة السوداء الحريرية ذات الأكمام الفضفاضة والعمامة تحيط بالقبعة الحديدية والدرع تحت جبته والسيف العربي الطويل إلى وسطه. وفي المقدمة كان بعض كبار النبلاء يستعرضون السروج الملكية الموشاة بالأحجار الثمينة والمطرزة بالذهب. وعلي رأس السلطان مظلة من الحرير الأصفر الموشى بالذهب متوج بنسر ذهبي يحمله أمير قريب بينما نبيل

آخر يحمل راية الامبراطورية. والحصان الملكي كان مكسواً بالحرير الأصفر وأطلس الساتان الأحمر، وملابس الحرس العسكرية من حرير القاهرة الأصفر المطرزة بشعار زعيمهم.

وقبل أن يركب السلطان يقوم فارسان على الخيول البيضاء بسروجها المزينة جيداً وعدتها الحريرية الصفراء وحواشيها الموشحة بالذهب وكذلك الكوفيات. وكان من واجبهم أن يكشفوا صلاح الطريق. وكان أمامهم عازف الناي ويتبعه المنشد ينشد الأشعار عن الأعمال البطولية للملوك السابقين، ومعهم الطبل؛ والشعراء ينشدون أشعاراً مرنمة تصحبهم الكمنجة **Kemenga** والموزل **Mosil** والفرسان يلبسون ألبسة فوق دروعهم ويحملون الرماح أمام وخلفه السلطان، وخناجر الدولة كان يحملها رئيس البولو موضوعة في أقربتها على اليسار في حين أن خنجراً آخر مع ترس يحمل على يمين الملك. وبالقرب منه يركب حامل الصولجان الذهبي عالياً ولا يحول عينيه عن محيا سيده. يتبعه كبار رجالات البلاط بمثل العظمة نفسها.

وعندما يتطلب طول الرحلة التوقف في أثناء الليل كان حملة المصابيح يتقدمون السلطان، وفي تقدمه نحو الخيمة التي سبق ونصبت قبل وصوله يستقبله الخدم حاملي الشموع على مناور مطعمة بالذهب؛ ومن حوله الحجاب وحاملو الرماح، والجنود ينشدون معاً وكلهم رجلانين ماعدا السلطان الذي يبقى ممتطياً حصانه حتى مدخل الخيمة عندها يترجل ويدخل السرادق المستدير الضخم خلفه. الذي ينفتح على غرفة صغيرة من الخشب أكثر دفئاً من الخيمة، بحمام له أدوات تسخين في متناول اليد. كل هذا محاط بحاجز يحرسه المماليك دوماً حيث يشرف عليهم المسؤولون عن الحراسة باستمرار مرتين كل الليل.

ولا ندري كم كان عدد الاحتفالات الرسمية التي راقبها صلاح الدين، ومهما كان ذوقه بسيطاً، فإن أي حاكم شرقي لا يمكنه أن يهمل البهارج الخارجية التي تضفي دوماً انطباعاً جيداً على الخيال الشعبي خاصة في الشرق حيث أن الرمزية قد درست بشكل مميز.

وبينما صلاح الدين كان يلبس ببساطة من القطن أو الصوف فإنه بلا شك أبقى على الطقوس العادية للملوك الإسلاميين. وكان حذراً في مراعاة احتفالات البلاط عندما يستقبل السفارات من الأمراء الأجانب. وفي إحدى هذه المناسبات عندما التقى بها لأول مرة بهاء الدين الذي أصبح فيما بعد كاتماً لأسراره وكاتباً لسيرة حياته. وكان بهاء الدين يسكن في الموصل عندما غزا صلاح الدين ما بين النهرين واستخدمه الأتابيك لكي يتقدم باستغاثة لمساعدة الخليفة في بغداد. وعندما استقر صلاح الدين في دمشق أرسل بهاء الدين مرة أخرى في بعثة دبلوماسية. وقد فوض بقوة من سيده أتابيك الموصل، مع موافقة الخليفة لترتيب شروط ودية متبادلة مع صلاح الدين. ووصل إلى دمشق في يوم ٢٥ شباط سنة ١١٨٤م مصطحباً بدرالدين "شيخ الشيوخ" واستقبله السلطان بكل حفاوة الضيافة. ومع أنه لم يستطع أن يقوم بأي ترتيب معين، إلا أنه كان له تأثير حسن في نفس صلاح الدين حتى أنه عرض عليه مركزاً لخدمته الخاصة. إلا أن بهاء الدين باعتباره سفيراً لأمير منافس، لم يستطع قبول هذا الشرف، وغادرت البعثة في طريقها إلى الموصل في الثاني والعشرين من آذار.(٣١)

وتوالت السفارات من ابن شقيق الأتابيك، سنجار شاه **Sinjar - Shah** حاكم الجزيرة، ومن حاكم اربل **Arabela** الذين قدموا الطاعة اتباعاً للسلطان. مما أثار استياء أمير الموصل لنقض العهود واستعد لمعاقبة حاكم اربل، حيث أن استغاثته آلت لإعادة صلاح الدين مرة أخرى إلى الميدان. وعبر الفرات عند البيرة كالعادة في الخامس عشر من نيسان سنة ١١٨٥م والتحق به كوكبري **Kukbury** وفي رأس العين علم أن هناك اتحاداً عاماً بين الأمراء الشرقيين للدفاع عن أتابيك الموصل. وأهمل تهديداتهم وتقدم نحو دونيسير **Duneysir** على سفح تل ماريدين، حيث انضمت له جيوشها، ووصل إلى الموصل في حزيران سنة ١١٨٥م. وعبثاً أرسل الأتابيك أمه والسيدات المسنات الأخريات للالتماس والتوسل والدعوة للسلام. حيث استقبلن بكل احترام، لكنهن لم ينلن وعداً، فقد كان صلاح الدين متصلباً.

استعد الموصليون لما هو أسوأ وبذلوا الجهود مع اليأس الشديد ولكن الحصار لم يثمر شيئاً كما حدث في السابق. خلاف في ارمينيا ظهر غدراً لسحب الجيش المنهك إلى جو أكثر برودة في ديار بكر. واحتل صلاح الدين (ميافاركين) **Mayyafarikin** في نهاية آب ثم عاد لحصار الموصل. ولكن بعد ذلك جاء الموسم الماطر الذي تبع حرارة الصيف المحرقة ولم يستطع القائد ولا الجيوش احتمال هذا المناخ غير الصحي. ومرض صلاح الدين مرضاً شديداً وأرغم على أن ينتقل إلى حرّان **Harran** لتغيير الجو، ولما استطاع بصعوبة أن يمتطي حصانه وصل شبه ميت إلى قلعة صاحبه كوكبري. وجاء أخوه العادل من حلب على عجل مع أطباء البلاط ولكن صلاح الدين بقي لفترة طويلة ما بين الموت والحياة وفي وقت ما انتشرت إشاعة أن نهايته قد قربت والعديد من أقاربه وازنوا إمكان وجود فرصة لهم لخلافته. حتى صلاح الدين نفسه قطع الأمل، وجمع ضباطه وجعلهم يقسمون الولاء المستقبل لأبنائه.

أخيراً بدأ تدريجياً يتعافى، وفي نهاية شباط ١١٨٦م استطاع أن يقابل سفارة من الموصل على رأسها بهاء الدين الذي جاء يفاوض للسلم. وكان من الضعف بحيث لم يكن يحلم بالقيام بحملة، ولربما تأثر بمعاناته وبالخطر المحدق به، وافق صلاح الدين على معاهدة في الثالث من آذار حيث أخذ كل البلاد حول شهرزور **Shahrzur** بعد نهر الزاب، وترك الأتابيك عزالدين ممتلكات الاقليم الذي يحكمه بين النهرين العظيمين، شرط أن يعترف بسيادة السلطان الكاملة ويذكره في الصلاة وينقش اسمه على المسكوكات. ووفق هذه المعاهدة انضم شمال ما بين النهرين كاملاً وجزء من كردستان إلى إمبراطورية صلاح الدين، وأتابيك الموصل زاد حشد أتباعه.[٣٢]

وعاد ببطء من حرّان إلى دمشق وتوقف صلاح الدين في حمص برهة، المدينة التي كان قد أقطعها إلى ابن عمه ناصر الدين ابن شيركوه حيث كانت قرابته قد توثقت بواسطة زواجه من بنت صلاح الدين. إئتمر ناصر الدين على عرش سورية خلال مرض ابن عمه. وتبع ذلك العقاب بسرعة، وارتاح مثقلاً بالنبيذ والمرح في عيد الأضحى(٤ آذار سنة ١١٨٦م). وقد وجد المطالب بالعرش في فراشه

ميتاً في صباح اليوم التالي[٣٣]، وفي طريقه إلى المدينة قابل الصبي، ابن الثانية عشرة، الذي عينه على إقطاعية والده، لكنه خصص للدولة جزءاً كبيراً من كنز والده. وعامل صلاح الدين الصبي بلطف واهتم بدراسته. ولما سأله عن قراءاته وإلى أين وصل في القرآن الكريم، أجاب الصبي: "عند القول: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً» صدق الله العظيم". وأعجب السلطان بسرعة بديهة الصبي ولم يوبخه على تطاوله. فتركه يتملك حمص وذهب هو إلى حلب ثم إلى دمشق في نيسان حيث استقبل بحفاوة وفرح، وكأن اليعازر Lazarus آخر عاد من القبر.

الجزء الرابع

الحرب المقدسة

١١٨٧م - ١١٩١م

الفصل الثالث عشر
معركة حطين
١١٨٧م.

الأزمة الكبرى كانت قريبة. صلاح الدين أخيراً كان في موقف يسمح له بمهاجمة الافرنج. وقد تحقق الغرض من حملاته على دجلة والفرات. ولديه الآن حلفاء بدل الأعداء على الجناح الشمالي. وقبل ذلك لم يكن بإمكانه اقتحام الاقليم المسيحي بأمان مالم يكن هناك جيش يقيه من هجوم الأعداء من الشمال؛ ولكن الآن باستطاعته التقدم بثقة. وكان له عدد كبير من الجيوش في المؤخرة، ولم يكن فقط باستطاعته أن يأمر كل القوى السورية والمصرية المجندة، لكنه كان يعتمد أيضاً على فرق عديدة من مقاطعات ما بين النهرين. وسوف نرى كيف أن حصار عكا جعل الحكام الكبار لهذه الديار تهب لتقوية الجيش الإسلامي وكيف أن أمراء سلالة زنكي وحكام الموصل وسنجار والجزيرة واربل وحران والأكراد وراء الفرات ضخمت الحشود العامة من خدمهم وأتباعهم. وهذه في الواقع نتيجة مهمة جداً لحملاته التي وقعت في الشمال. وقد فتح مجالات جديدة للتجنيد؛ وبدون هذه الزيادة في القوة لم يكن باستطاعته مواجهة ومقاومة القوى الجديدة التي قدمت من أوربا في الحملة الصليبية الثالثة لمواجهته.

إن الحرب المقدسة كانت لفترة طويلة الهدف المقرر لصلاح الدين، ولكن حصل الاستفزاز المباشر كالعادة من ريجنالد حاكم شاتليليون. فحاكم الكرك نال لقباً لا يحسد عليه كخارق للمعاهدات. وكانت سعادته هي في التعرض لقوافل التجار الآمنة والحجاج في طريقهم من سورية إلى مصر أو مكة. فقد فعل هذا في سنة ١١٧٩م في زمن الهدنة. وخيمت القافلة بكل ثقة تحت قلعته، فأخذ كل رجل وامرأة وحيوان، وأمتعة تقدر قيمتها بمئتي ألف من القطع الذهبية. وعندما احتج الملك بالدوين وأرسل هيئة سفارة لإعادة الغنائم المنهوبة والأسرى، استهان بالمبعوثين الملكيين. وفي سنة ١١٨٢م كرر هذه الجريمة كذلك في زمن الهدنة.[٣٤] حتى أنه تجرأ على دفع جيوشه داخل الجزيرة العربية بزحف يوم واحد نحو المدينة

المقدسة حيث ترقد عظام النبي(صلعم). وفي سنة ١١٨٦م كان هنالك جريمة أخرى وقعت في زمن السلام. وسارت القوافل بحرية ما بين مصر وسوريةدون أي تفكير في الخطر من قلعة البحر الميت. هجم ريجنالد فجأة على جماعة من التجار واستولى على غنائم جزيلة منهم. ودارت هناك إشاعة أن إحدى أخوات السلطان سافرت في هودج تابع لقافلة التجار وبالنظر لاحتجاجهم فإن حاكم الكرك سخر من صدى تعيير رؤساء الكهنة في كالڤري **Calvary** وقال "بما أنهم يؤمنون بمحمد فليأت محمد لينقذهم". وبعد مرور سنة كان هناك سبب شديد المرارة ليندم على تهكماته. وعند سماع صلاح الدين بهذا الاعتداء أقسم قسماً عظيماً بأنه سيقتل بيده كل من ينقض الهدنة؛ وقد نفذ هذا القسم.

"الاستيلاء على تلك القافلة كان تدميراً للقدس." صلاح الدين باستمرار حاول احتلال الكرك والقبض على حاكمها، لكنه كان يخفق دائماً. وقرر الآن بإصرار أن لا يجرب أنصاف الحلول وإنما السعي لإشعال حرب إبادة للمملكة المسيحية كلها. وكان يجب أن يمر فصل الشتاء حيث أن العمليات تعذ مستحيلة؛ ولكنه في آذار ١١٨٧م أعلن النفير للجهاد. أسرع رسله لأمراء ما بين النهرين وأتباعه وخدمه ونواب الملك والحكام في مدن الجزيرة وديار بكر وسورية ومصر يطلب منهم إعداد قواتهم للحرب المقدسة. فأسرعت جيوش تعقبها جيوش أخرى إلى دمشق. وتمركز كل فيلق منها عند وصوله على الحدود لمواجهة الافرنج. فالسلطان نفسه سار نحو الكرك في نيسان لحماية قافلة الحجاج العائدين من مكة. وبعد أن مروا بسلام، دمر إقليم عدوه اللدود، ورفع رايته في عشتارة **Ashtara** في الثامن والعشرين من أيار ونظم سراياه العسكرية استعداداً للحملة الكبرى.

وكان الافرنج في وضع لا يسمح لهم بالمقاومة الموحدة حيث كانت التحاسد سائداً بين قادتهم. ومات الملك بالدوين الرابع الطفل في أيلول السابق، وترأست زمرة هم: جرارد دي رايديفورد **Gerard de Rideford** سيد الهيكليين **Master of Templars** وجوسلين حاكم كورتناي **Joscelin of Cortenay** وريجنالد حاكم شاتيليون**Reginald**

of Chatillon ونصبوا سبيلا Sibylla على العرش، وهي البنت الكبرى لأمالرك؛ وبدورها توجت زوجها جاي حاكم لوزغنان ملكاً. ولكن الكونت ريموند حاكم طرابلس Raymond of Tripolis الوصي على الملك السابق، أصبح على هذا التتويج غير الاعتيادي منافساً للملك همفري حاكم تورون Humphrey of Toron زوج ابنة أمالرك الصغرى ايزابيلا. والحقيقة أن همفري تشكك في الشرف الغير مرحب به، لتقديم الطاعة إلى سبيلا وجاي؛ ولكن ريموند وبالدوين حكام الرملة بالرغم من هذا لم يعترفا بالملك الجديد. ريموند هو الذي عقد المعاهدة مع صلاح الدين في سنة ١١٨٤م وأصبحت العلاقات بين الاثنين ودية جداً لأن الكونت اعتزل تقريباً عن أصحابه النبلاء، وزار ريموند صلاح الدين واستقبل بكل ترحيب. حتى أنه أشيع أن الكونت كاد يعتنق الاسلام لولا خوفه من غضب الأوروبيين. فعندما استعد جاي للهجوم على مقاطعة الكونت ودحره وجعله يذعن بالسلاح، كان وعد صلاح الدين بالمساعدة هو الذي اعتمد عليه ريموند.(٣٥) وقد تأجل الهجوم بالتوسط الحكيم، وداری الكونت استياءه في طبرية خلال فترة الشتاء من ١١٨٦-١١٨٧م.

وفي الربيع حصلت محاولات جديدة لاستمرار الوفاق وأرسل باليان حاكم عبلين Balian of Ibelin إلى طبرية مع رئيسي الطريقتين لاسترضاء أخيل Achilles العبوس. وإيرنول Ernoul الذي رافق باليان مرافقاً شخصياً أبقى مخطوطة مكتوبة عن الحملة في وقائعه المؤرخة. وتحدث كيف أن باليان احتجز في نابلس، بينما تقدم الآخرون بسرعة إلى فابا Faba ؛ وكيف توقف مرة أخرى في سابات Sàbat لزيارة المطران وحضور القداس؛ وكيف وجد أبواب القلعة مفتوحة على مصراعيها وخيام رفقائه مهجورة. عندما وصل إلى فابا أرسل إيرنول إلى القلعة المهجورة ومرافقه الخاص ذهب إلى ا لطابق العلوي والسفلي وفي الممرات منادياً وصائحاً ولكن لم يجبه أحد. أخيراً وجد رجلين مريضين في غرفة ولكنهما لم يستطيعا إخباره بشئ عما حدث. فركب عائداً باتجاه الناصرة، وفي الطريق لقي أخاً من المعبد حياه. وعندما وصل إليه باليان سأله: ما الأخبار ؟ فأجابه رجل المعبد: سيئة. وأخبره أن رئيس المستشفى قد قطع رأسه وكذلك قتلوا جميع رجال المعبد عدا

الرئيس مع اثنين آخرين، وأن أربعين فارساً من فرسان الملك كانوا مساجين بيد العرب. يبدو أن صلاح الدين قد أرسل ابنه الأكبر الأفضل el-Afdal إلى طبرية. حيث كان صديقه الكونت ريموند ما يزال معارضاً بصراحة ملك القدس كحليف طلب السماح له بعبور الأردن للذهاب إلى مقاطعة ريموند. ماذا كان هدفه فلم يذكر[٣٦]، ولربما كان في حاجة إلى العشب أو الطعام أو الرغبة في الصيد ليوم واحد. حيث كان كل أمير في الأرض في ذلك الزمان رياضياً؛ لكن الأمر يبدو أكثر للاستطلاع بقوة. ريموند لم يستطع رفض طلبه بدون أن يخسر صداقة صلاح الدين التي كانت أحسن حماية له ضد الملك جاي. ولكي يخفف من خطورة تلك الرحلة، اشترط بأن يعبر العرب ويعودوا في يوم واحد، قبل غياب الشمس، بشرط ألا يضايقوا مدينة أو منزلاً في طريقهم. وافقوا على هذا الشرط. فأرسل الكونت مبعوثيه ليعلنوا عن الرحلة ويحذروا كل مسيحي بأن يبقى داخل الأسوار.

وسار كل شيء سيراً جيداً لولا الوصول غير المناسب لسيدي فابا. ولسوء الحظ حدث أن مبعوثي ريموند جاءا، في اللحظة التي كان العرب يستريحون فيها. وجاءت الأنباء إلى القلعة ولامتلائهم بالغضب الحق جمعوا من الفرسان بقدر ما يتمكنون حيث وصل عددهم إلى ١٣٠ وما بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ من المشاة واندفعوا فجأة إلى الأمام لمهاجمة الجوالة العرب. ولم يكن في وسعهم أن يعقدوا أي اتفاق مع المسلمين. ولحقوا بهم في نبع كريسون Cresson[٣٧] وجماعته بينما سبق وأن كانوا في طريق عودتهم من قانا الجليل Cana of Galilee إلى بلادهم. لم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة التي أدت حماسة الجنود الرهبان ذوي الرؤوس الحامية إلى دمارهم. وهاجم الفرسان بسرعة دون انتظار المشاة وقد قطعوا تقطيعاً كلياً. وتابع العرب بكل هدوء تقدمهم إلى الأردن وعندما مروا بالقرب من طبرية استطاع ريموند أن يميز رؤوس المسيحيين محمولة على رماحهم. فقد كانوا ملتزمين وحافظوا على كلمتهم. ولم يقوموا بأي أذى لمدينة أو لبيت أو لقلعة، وعادوا قبل غروب الشمس حسبما اتفق عليه. كان هذا يوم الجمعة الموافق الأول من أيار عيد القديس فيليب والقديس جيمس.

ونظراً لهذه الكارثة التي كان ريموند مسؤولاً عنها فقد وافق على

التخلي عن غضبه وعلى إجراء سلام خارجي مع الملك جاي. وتعانقا بحضور جمع مبتهج في هوة يوسف Joseph's Pit ، واتفقا على معايير الوفاق للدفاع. وكانت قد صدرت الأوامر بأن حشود الجند العامة للقوات المسيحية يجب أن تتمركز في ينابيع صفورية، نحو ثلاثة أميال شمالي الناصرة، لمقاومة هجوم العرب. وسيد الهيكل وراعي الكنيسة أعطى جاي الأموال التي أرسلها له هنري ملك بريطانيا للتكفير عن استشهاد بيكيت Becket ؛ فالرجال الذين كان يدفع لهم من هذا المال يضعون شعار بريطانيا على دروعهم. فحشد الجنود الكلي بلغ نحو ١٢٠٠ فارس، وأكثر من ١٨ ألف[٣٨] من المشاة وعدد كبير من الفرسان تيركوبولس Turcopoles المسلحين حسب طريقة العرب.

وفي أثناء ذلك كان صلاح الدين كما شوهد قد عاد من منطقة البحر الميت، فحشد جنوده في عشترة Ashtara في حوران، ومع جيش حلب والفرق من الموصل وماردين أضيفت لقوته الأساسية، وجد نفسه على رأس ١٢ ألف من الخيالة. وكلهم يملكون الاقطاعيات والمرتبات إلى جانب المتطوعين الكثيرين "لوجه الله". استعرض الجيوش في تيسيل Tesil ، وقاد جيشه بالطريقة المنظمة للمعركة، مع وسط وأجنحة يمنى ويسرى، وفرقة استكشاف أمامية وحماة من الخلف؛ قاد تقي الدين وكوك بيري Kukbury الجناحين، بينما قاد السلطان نفسه الوسط. بهذا التنظيم بدأ مسيرته في السادس والعشرين من حزيران سنة ١١٨٧م. وكان يوم جمعة، في ساعة الصلاة العامة؛ وكان ذلك اليوم وتلك الساعة التي فضلها على كل وقت للحرب، وابتهالات الشعب وصلاة الرجال التقاة لربما تشفع له عند عرش الله. وعسكر جيش العرب في الليلة الأولى في الاخوانا el-Ukhuwana في النهاية الجنوبية لبحيرة الجليل. هنا انتظر صلاح الدين بينما كان كشافته يجمعون المعلومات عن مواقع العدو. وجاءوا بخبر الحشود من جنود الافرنج في صفورية ومعنوياتهم العالية. وانعقد مجلس حربي في المعسكر الإسلامي وكان القرار هو التقدم للمعركة. والخطوة التالية كانت لعبور الأردن إلى الصنيبرة es-Sinnebra حيث حرك صلاح الدين رجاله إلى تلال كفر سبت Kafar Sebt على بعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من طبرية

وتسيطر على الطريق في يوم الأربعاء الأول من تموز. بينما كان ينتظر تقدم الافرنج استخدم جيوشه في نهب وحرق مدينة طبرية. التي لم تعد منزلاً لحليف. فالقلعة نفسها ثبتت تحت قيادة زوجة الكونت ريموند اسكيفا Eschiva ابنة حاكم القدس هيو التابع للقديس أومير Hugh of St. Omer. فالتماسها للمساعدة وصل إلى الملك جاي في صفورية مساء يوم الخميس عند ظهور نجمة المساء الزُّهَرَة مما أدى إلى التقدم المباشر للافرنج. وجلبت القوات الأمامية لصلاح الدين أخبار تقدمهم في الصباح الثاني تاركاً قوة صغيرة لحماية القلعة، أسرع إلى الجيش الأساسي على التلال مستعداً للمعركة.

البلاد التي وقعت فيها معركة حطين الشهيرة التي لا يتسنى وصفها تصويراً ضابط [٣٩] يعرف كل شبر من أرضها. كتب يقول صفورية كانت مدينة بدون أسوار وعلى منحدر التلال الشمالية الغربية للناصرة. وكنيسة القديسة حنّة St. Anne كانت تقع في الوسط والبرج المتين على التل يطل على حقول الذرة البنية اللون التي تمتد باتجاه سلسلة الجبال الوعرة في الجليل الأعلى، وللشرق حتى السهول المطلة على طبرية والهضبة المفتوحة الجافة. وينبوع صفورية يقع على بعد ميلين باتجاه الجنوب في الوادي المفتوح المملوء بالجنائن والجدول الذي يدير ثمان طواحين، وبذلك كان كافياً لذلك الجيش الكبير الذي تجمع حول الملك جاي. والأراضي المحيطة أيضاً كانت مليئة بالقرى التي كانت تقدم مؤناً كثيرة.

وكان معسكر صلاح الدين يبعد عشرة أميال نحو الشرق على هضبة قرب (أو بالأحرى ممتدة كثيراً إلى الجنوب من) قرية حطين Hittin الصغيرة. وكان المكان محاطاً بأشجار الزيتون والفواكه والينبوع الغزير العذب تدفق إلى الشمال الغربي إلى شق وادي حمام Hammam. وكانت هناك مياه وافرة في الوديان إلى أسفل، بالقرب من طبرية، حيث كانت زوجة ريموند حاكم طرابلس في القلعة على حدود البحيرة المقدسة. وإلى الجنوب من حطين ترتفع الرابية الصخرية الداكنة التي كانت مشهورة في التاريخ "بقرن حطين" "Horn of Hittin" ستمئة قدم فوق القرية المنخفضة تشرف على

السهل الغربي نحو مائة قدم إلى الأسفل. والطريق من عكا الذي يؤدي إلى أعلى السهل حيث لا يوجد أي جدول ماء أو ينبوع ما بين المعسكرات. وكان أكثر المواسم حرارة في السنة ومسيرة طويلة للمشاة فصلت جنود المسيحيين والإسلام.

ومن أعلى قمة حطين نظر المراقب نحو الغرب على السهل الذي أحرقته الشمس وسلسلة الجبال الرمادية الطويلة مع شجيرات إلى الشمال والجنوب. وخلفه تقع بحيرة الجليل التي تنخفض ١٧٠٠ قدم للأسفل، مغلفة بمنخفضات تسطع كالمرائي في مياهها اللامعة مع جبل الشيخ **Hrmon** الذي يقع شمالاً بثلوجه المخططة على الوادي الأعلى لنهر الأردن. وبعيداً في الشرق كانت مرتفعات الجولان تقف مقابل السهول الممتدة إلى دمشق. أما أبراج صفد فكانت مرتفعة أعلى السواحل الشمالية للبحيرة، وإلى الجنوب كانت الأسوار السوداء وخنادق كوكب الهوى متجهة فوق الهضبة الممتدة. فالفشل في مثل هذا الموقع يعني كارثة بالنسبة إلى قوات المسلمين، إذا انطلقت منحدرة إلى السفوح مساقة إلى البحيرة؛ ولكي تهجم كان على الجيش المسيحي أن يعبر السهل القاحل الخالي من المياه، وبعد مسيرة طويلة وجدوا أن العدو قد سيطر على جميع الينابيع والجدوال التي تصب في البحيرة.

"وعندما نتذكر أن الافرنج يملكون مخفرين متقدمين وقويين في فولا **Fula** وكوكب، لذا فالتقدم من وادي جزريل **Jezreel** حتى بيسان لم يكن صعباً عمله لتوفر المياه؛ كذلك كان وضع صلاح الدين أيضاً خطيراً جداً، لكونه على زاوية من خطوط تراجعه. فقد بدا الأمر غريباً على الجندي أن قسماً، على الأقل من الجيش المسيحي لم يرسل للهجوم على جسور الأردن ولقطع تقهقر المسلمين الذي كان يتم بواسطة الجسر الشمالي الذي كانت تحرسه قلعة القصر التاسع[٤٠] **Chateau Neuf** . فقائد مثل جودفري **Godfrey** ما كان يخفق بأخذ مثل هذا الإحتياط، ولكن الافرنج ربما كانوا يخافون من حرارة الصيف في غور الأردن".

وكان الافرنج يخافون مما هو أسوأ من حرارة الصيف: أعني

حشود الجيش الضخمة التي وردت في الإشاعة بأنها تتبع راية صلاح الدين، وخافوا من انفصال أي جزء من قواتهم، لأن كل رجل يمكن الاحتياج إليه في المعركة الكبرى أمامهم. ولا يوجد أي دليل بأن صلاح الدين قد ترك حراسة كافية لحماية جسور الأردن؛ لأن من عادته وضع فيالق من الجيش لمراقبة النقاط الخطرة. وعند إرسال أي جزء كبير من القوة المسيحية لوقف تراجع صلاح الدين لربما يكشف الجيش الرئيسي ويعرضه للانهزام، وتصبح فلسطين مكشوفة كلها أمام الفاتحين. وخطأ الافرنج الأكبر أنهم نسوا أنه كان من واجبهم الدفاع وليس الهجوم. ولو أنهم اختاروا موقع دفاع قوي وانتظروا هجوم صلاح الدين، فالأمر ربما يكون مختلفاً؛ لأن العرب رجل مقابل رجل لم يكونوا نداً أمام التسلح الجيد والحماسة العالية لفرسان الصليب الذين كانت كتيبة من المشاة الثابتين تحميهم. وقد ألقوا بتفوقهم بالرغم من تحذير الكونت ريموند، عندما خضع الملك لتشدد سيد الهيكل، الذي أمر بالهجوم القاتل فوق السهل الخالي من المياه. وقال ريموند: "من الأفضل أن تسقط مدينتي طبرية وكذلك زوجتي والجميع يصبحون ملك العرب ولا تفقد جميع الأرض". كانت نصيحة جندي، ولكن السيد أعطاها لون الخيانة.

وفي يوم الجمعة الثالث من تموز فك الجيش المسيحي المعسكر في صفورية وبدأ التقدم المأساوي نحو طبرية. فما بدأوا بالسير حتى بدأت مناوشات العرب. وكان الرئيس سيد أرنول، باليان حاكم عبلين، كان في المقدمة مع الكونت ريموند قائدا لهم وقد فقد العديد من فرسانه. وخلال النهار كله كان الحصان العربي الخفيف يغير على القوات بينما هم يجاهدون بالسير في الطريق المكشوف الجيري اللامع، بينما الشمس تضرب بشدة على دروع وخوذ الجنود، ولا توجد قطرة من الماء للشرب. وكان الهيكليون والتركوبولس سبب الضغط عليهم، من الخلف لم يستطيعوا مجاراة معركة الملك في الوسط، وكانوا في خطر محدق من فصلهم عن البقية. وعندما رأى الملك جاي محنتهم أمر بالتوقف بينما كانت نصف المسافة إلى طبرية قد قطعت. وقرر أن يعسكر تحت السلاح لهذه الليلة. وعبثاً حاول الكونت ريموند الذي كان قائداً لمقدمة الجيش الحث على أهمية دفعهم نحو الماء. فالجيوش المتعبة لم تستطع مواجهة العرب الذين منعوا

الطريق من التلال في الأمام. ومؤخرة الجيش كانت تعاني من الصعوبات، والجيش كله قد انهار نفسياً. وفي حالة اليأس أمر الملك جاي بنصب الخيام في ماريس كالسيا **Marescalcia** وركب ريموند من الأمام وهو في يأس صائحاً: "آه يا رب لقد انتهت الحرب ونحن رجال أموات وقد انتهت المملكة!".

وكانت ليلة لا يمكن أن تنسى. وخلال ساعاتها الطويلة الصيحة الوحيدة التي كانت تسمع هي طلب الماء. العطش القاتل استهلك الرجال والخيل. وكانت أصوات العرب مسموعة عندما كانت دورياتهم تحرس دائرة المضيف المخلص ويصيحون منتصرين (الله أكبر) الله أعظم، لا إله إلا هو. وأشعل العدو النار في الزور والدخان والنار زادتا من عذاب المسيحيين. "فالله حقاً يطعمهم الخبز الممزوج بالدموع ويشربون كأس الندم بلا حساب".

وجاء الغد أخيراً - عيد ترجمة القديس مارتن يوم السبت[٤١] الرابع من تموز. فركب الفرسان مبكرين، ولكن المشاة كانوا مرهقين وفتحوا أفواههم من العطش. فالعرب الذين كانت بأيديهم الآبار كانوا نشيطين وواثقين. وركز صلاح الدين رجاله في الليل ووزعوا سهامهم بكل دقة. وكل جراب فارس كان مليئاً بالسهام. وكان هناك سبعون جملاً محملة بالسهام لتزويد الفرسان بها. وكذلك كان يوجد أربعمئة حمل من الذخيرة الاحتياطية. فالجميع كانوا مستعدين والمسلمون في قلق لشعورهم بخطر موقعهم حيث كانوا يقولون: "الله العلي وحده الذي يستطيع أن يحميهم". ثم تحول إلى الابتهاج عندما تحققوا من وضع الافرنج. والتقى الجيشان بالقرب من قرية لوبيا **Lubia** بضعة أميال إلى الجنوب الغربي من حطين. وقد طرد العرب الملك جاي عن طريق طبرية بواسطة قوة العرب الذين يتحكمون بتل كفار سبت **Kafar Sebt** ، ثم أصبحوا يتصارعون باتجاه آبار وادي حمام **Hammam** إلى الشمال. وتوقف المسلمون لفترة من الزمن حتى تظهر الشمس عالياً وتقوم بعملها المميت للمسيحيين المتعبين الذين توجهوا قليلاً نحو الوسط (الرافض) والأجنحة بقيت في الأمام. وبدأت المعركة بغيوم من سهام الرماة العرب التي كانت "بكثافة أسراب الجراد" والتي جعلت العديد

من العدوان يترجلوا عن خيولهم. وثم بصيحة واحدة هجم المسلمون وكأنهم رجل واحد وبدأت المعركة يداً بيد. وكان صلاح الدين متحمساً ومشجعاً ومسانداً رجاله في كل جزء من المعركة مستخدمين فن التعذيب العربي وهو التراجع قبل الهجوم يتبعه السعي المستمر للفرسان المتراجعين. وبالرغم من تعبهم الشديد فقد حارب الفرسان المسيحيون حرب الأبطال.

"ولكن[٤٢] قبضة الخوف أخذت تمسك بحلوق الجماهير التي سيقت كالحيوانات متثاقلة واضحة. وقد اعتبرت نكبة حقيقية وخيبة، وعرفوا بعدها أنهم من الذين سوف يزورون القبور في اليوم التالي: ولكن موجة القتال لم تخف، وكل فارس كان يقاتل خصمه مواجهة حتى تحقق النصر (للمؤمنين) وحصل الدمار لغير المؤمنين".

المشاة الافرنج أصيبوا بالجنون لشدة العطش واصطلوا بالشمس الحارقة وعموا من دخان الحريق في الغابة الذي أضرمه المسلمون، بحيث فقدوا صفوفهم وتضامنهم مع الفرسان الذين كانوا الأمل الوحيد للنصر. وكانوا يحاولون بهمجية التوجه نحو طريق البحيرة متعطشين للماء؛ لكن صلاح الدين أغلق الطريق. فوجدوا أنفسهم متجمعين على شكل كومة على قمة التل. وبالنسبة للملك أعاد الرجاء بأن ينزلوا من أعلى التل ويقوموا بواجبهم نحو الصليب والعرش. فبعثوا بكلمتهم بأنهم سوف يموتون عطشاً ولن يستطيعوا أن يحاربوا. ومنذ ذلك الحين لم يكن دور للمشاة في المعركة؛ ونتيجة لذلك هجم عليهم العرب ورموا بعضهم في الوادي السحيق وقتلوا وأسروا الباقين منهم. والعديد منهم رموا أسلحتهم واستسلموا وجاءوا إلى العرب وهم يلهثون وألسنتهم تشبه ألسنة الكلاب العطشى. وذهب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين وهم يائسون قائلين له: "سيدي لم هذا التأخير؟ انزل بهم فهم ليسوا قادرين على مساعدة أنفسهم فإنهم كلهم موتى".

وفي الحقيقة، لم يكن المشاة فقط، وكذلك فرسان الهيكل والهوسبتاليون (**Hospitallers**) في مؤخرة المعركة، والملك في

الوسط، كانوا في وضع حرج وارتباك وفوضى، ولوجود العديد من العرب يندفعون بينهم، وعندما وجد الملك جاي بأن قضية الهجوم عليهم بدون مشاة لا أمل منها حاول تكوين نوع خفيف من الخيام حول الصليب. وكانت هناك فرصة واحدة بل وأمل واحد حيث نادى الملك ريموند لتصبح المعركة بيديه وكذلك قوانين الفروسية ويكون له الشرف. وقاد الكونت فرسانه كآخر محاولة يائسة ولكن ابن أخي صلاح الدين كان أسرع منه؛ وأطلق تقي الدين قواته وبدأت جماعة ريموند بالانسحاب وعندما تفرق المسيحيون تم حصار الملك من كل الجهات. وآخر وقفة كانت في قرن حطين. وتجمع الملك مع ١٥٠ من فرسانه النبلاء الشجعان على الرابية حول الخيمة الملكية الحمراء والصليب المقدس. "وتجمع المسلمون يدورون حولهم كما يدور العالم حول قطبه". وحاول الافرنج المساكين عبثاً خرق هذا النطاق.

ابن صلاح الدين الذي يبلغ السادسة عشرة من العمر تحدث عن هذه القصة المأساوية: "قال الفاضل: كانت معركتي الأولى وكنت إلى جانب والدي. وعندما ذهب ملك الافرنج إلى التل قام فرسانه بعمل شجاع بصد المسلمين نحو والدي. وكنت أراقب أبي ورأيته قلقاً وقد تغير لونه وشد على لحيته وأسرع للأمام منادياً: "اعطوا للشيطان الكمين!" فهجم المسلمون على العدو الذين تراجعوا للتل. وعندما رأيت الافرنج يهربون والمسلمون يتقدمون ناديت من فرحي قائلاً: "لقد هزمناهم". ولكن الافرنج حاولوا مرة أخرى وطردوا رجالنا ثانية حيث كان والدي. ومرة أخرى حثهم للأمام وطردوا العدو إلى التل. وناديت مرة أخرى "لقد هزمناهم". ولكن والدي التفت إليّ وقال: "تمالك نفسك! فنحن لم نغلبهم مادامت تلك الخيمة قائمة هناك". وفي تلك اللحظة انقلبت الخيمة الملكية، وترجل السلطان وانحنى إلى الأرض شاكراً الله بدموع من الفرح".

وكانت تلك هي النهاية. وفقد الافرنج ما تبقى لهم من قوة محاولين اختراق الخطوط إلى الآبار. و"خشب الصليب الحقيقي" الذي كان بمثابة رايتهم خلال السير المتعب والمعركة التي لا أمل فيها، سقط في أيدي المسلمين؛ وذبح أسقف عكا الذي حمل الراية عالياً، ويبدو أن الله قد خذلهم. وعذبوا من العطش واكتووا بالحرارة

والتعب وتركوا خيولهم ورموا أنفسهم على العشب الهشيم في حالة يأس. ونزل بهم العرب في الحال فلم تبق لهم محاولة للدفاع. فالفرسان كانوا ضعفاء جداً لكي يبيعوا حياتهم الغالية ورموا بسيوفهم وذهب عصر ازدهار الفروسية. وكان الملك وأخوه ريجنالد حاكم شاتيليون، جوسلين حاكم كورتناي، همفري حاكم تورون، أسياد الهيكل والمستشفى، وكثيرون آخرون من النبلاء كانوا ضمن الأسرى. أما الكونت ريموند بعد أن اخترق العرب ورأى الملك أسيراً لم يتوقف حتى وجد نفسه آمناً في صور- فقط ليموت في الحزن والعار. والخرافة لم ترحم ذكراه. وأصبح يهوذا خائن المسيحية لعدة قرون. وأخبرنا القساوسة كيف أن ريموند تآمر ضد الملك جاي وباع الصليب الأصلي ليصبح بأيدي المسلمين. وباليان حاكم عبلين كان من الحراس في المقدمة هرب أيضاً مع أمير صيدا. وبقية فرسان فلسطين كانوا تحت سلطة الحرس المسلمين. وكل الذين ظلوا على قيد الحياة كانوا من السجناء. وقد شوهد شخص واحد من العرب وقد أسر ثلاثين مسيحياً بمفرده وربطهم بحبل خيمته. أما الأموات فكانوا أكواماً كالحجارة بعضهم فوق بعض وفوق الصلبان المكسرة والأقدام والأيدي المقطوعة بينما الرؤوس مطروحة على الأرض كنتاج وافر من البطيخ الأحمر.

وصلاح الدين عسكر في حقل المعركة. وعندما نصبت خيمته أمر بأن يجلب له السجناء أمامه. فاستقبل ملك القدس وريغنالد حاكم شاتيليون في خيمته؛ وجعل الملك يجلس إلى جانبه، وعندما رأى عطشه، أعطاه قدحاً من الماء المبرد بالثلج. وشرب جاي ثم أعطى القدح لحاكم الكرك؛ ولكن صلاح الدين غضب بوضوح وقال لمترجمه: "قل للملك بأنه هو وليس أنا الذي قدم الماء للرجل" وأن الخبز والملح لن يجعله يحيد عن الأخذ بالثأر. ثم نهض وواجه ريغنالد الذي كان مايزال واقفاً "لقد أقسمت مرتين بقتله، مرة عندما سعى ليهجم على المدن المقدسة. والمرة الأخرى عندما أخذ القافلة خيانة، وسوف آخذ ثأر محمد منك". وأخذ سيفه بيده وقطعه أرضاً كما أقسم. ثم قضى عليه الحارس ورمى بجسده خارج الخيمة "والله أسرع بروحه إلى جهنم". وكان الملك يرتعش من ذلك المنظر واعتقد بأن دوره قادم لا محالة، ولكن صلاح الدين أكد له: "أنه ليس من عادة الملوك ذبح

الملوك. ولكن ذلك الرجل انتهك كل الحدود وما حدث[٤٣] قد حدث".
واثنان من النظاميين العسكريين عوقبوا بصرامة لجسارتهم وحماستهم للإيمان. وجميع فرسان الهوسبتاليون والهيكل الذين كانوا سجناء قد أعدموا وكان عددهم يبلغ نحو مئتين، ولكن الملك وبعض الرؤساء من النبلاء استقبلوا جيداً وأرسلوا إلى دمشق. وبقي المكان يحمل لفترة طويلة آثار الحرب الدموية حيث يقال بأن ٣٠ ألف من المسيحيين سقطوا قتلى. وبعد سنة كان بالإمكان أن تشاهد أكوام العظام البائخة اللون من مسافة بعيدة وقد غطت التلال والوديان رفاتاً متآكلة للحيوانات المتوحشة.

الفصل الرابع عشر
استعادة القدس
١١٨٧م.

قضى العرب ليلة المعركة (حطين) فرحين يرددون عبارات التكبير. وكانت أصوات آلاف المنتصرين تنادي: "الله أكبر"، "لا إله إلا الله". وتردد صدى الدعاء حتى الفجر، حق للمسلمين الفرح لأن نصر طبرية وضع كل فلسطين تحت رحمتهم. فقد اقتربت نهاية مملكة القدس. حيث أصبح ملكها ومعظم النبلاء سجناء، ولم يبق أي من القادة ممن يستطيع لملمة أشلاء الصليبيين. فمنذ دخولهم الأرض المقدسة قبل تسعين عاماً لم يواجهوا مثل هذه الكارثة. كانت الضربة قاضية على ممتلكاتهم ولتاريخه لم يتمكنوا من استعادة ما خسروه في ذكرى عيد القديس مارتن. وخلال شهرين تم الفتح من بيروت في الشمال إلى غزة في الجنوب، وأصبحت فلسطين عدا بعض الحصون العسكرية المنعزلة في يد صلاح الدين. وبقيت صور والقدس فقط الشاهد على وجود مملكة مسيحية. وسرعان ما عانت المدينة المقدسة المصير نفسه.

كانت الخطوة الأولى لصلاح الدين في الاستيلاء على قلعة طبرية. تحرك في يوم الأحد الموافق الخامس من تموز، وكانت النبيلة اسكيفا **Eschiva** التي هجرها زوجها قد فقدت الأمل في النجاة وهي الوحيدة التي استسلمت، لكن السلطان سمح لها بالرحيل بأمان مع أولادها وأتباعها. وبعد يوم من الاستراحة انتشر العرب كالموج العارم في أنحاء فلسطين. لم يك بذلك الفتح الهائل ولكنه في الحقيقة تقدم ونصر. كانت المقاومة ضعيفة مما سهل تقدم المسلمين إلى المدن مثل أريحا التي سقطت أسوارها واستسلمت حاميتها العسكرية. تم حصار بعض القلاع الحصينة حيث أكثرها قوة لم تصمد أكثر من أسبوع. وأصبح قادة الافرنج بين موتى أوأسرى. وقتل جيشهم وأسر وشرد ولم يبق لديهم ذخائرأو أمل في المقاومة ولا أحد ينظم تلك المقاومة. كان الفلاحون والتجار من المسلمين إلى جانب الفاتحين قد وثقوا بدين صلاح الدين الذي

أعجبوا بشجاعته ونجاحه، وتأكدوا من رحمته وعدالته. كان ألوف المسلمين عبيداً في المدن فدخل السرور قلوبهم ليتحرروا من عبوديتهم على يديه. حتى بعض المذاهب المسيحية المتفرقة كانت أكثر اطمئناناً وطمعاً بكرم السلطان من طغيان رؤسائهم المسيحيين الذين يكرهونهم كما يكرهون الإسلام نفسه. كان الناس يساندون السلطان ولا يعترضه سوى بعض الحاميات العسكرية، المخفقة هنا وهناك لذلك لم يكن تقدم صلاح الدين في فلسطين تقدماً رائعاً فحسب بل كان زحفاً نحو النصر.

ولم يمنح صلاح الدين وقتاً كافياً للافرنج ليحشدوا جيوشهم. ففي يوم الأربعاء الثامن من تموز سنة ١١٨٧م. أي بعد أربعة أيام من معركة حطين، كان وراء أسوار عكا القوية، وفي يوم الجمعة أمّ جمهور المصلين في المسجد الذي كان كنيسة لثلاثة أجيال خلت – في أول صلاة على ساحل فلسطين منذ مجيء الصليبيين الأوائل. في عكا وحدها حرر أربعة آلاف من المسلمين الأسرى. كل الكنوز ومخازن المركز التجاري وسوق تجارة البحر المتوسط التي هي عصب الأدوات الحربية قدمت له رمزاً لمكافأته وتعزيز جيشه. فأرسل جيوشه للمساعدة في إخضاع فلسطين. بعض من فرق الجيش احتل الناصرة وصفورية والعفولة والداخل، والباقون دخلوا حيفا وقيصرية على الساحل؛ وغيرهم احتل نابلس وسبسطية، وزحف العادل من القاهرة واحتل قلعتي ميرابيل ويافا. وحاصر صلاح الدين نفسه طورون **Toron** . وبعد ستة أيام أي في ٢٦ تموز تم احتلالها. بعدها عاد إلى الساحل وحقق ثانية احتلال صرفند وصيدا وبيروت وجبيل في أول أسبوع من آب؛ بيروت كانت الوحيدة التي قاومت لمدة ثمانية أيام. وفي كل الأحوال أعطى شروط مشرفة للحاميات العسكرية والناس الذين تعلموا أن يثقوا بكلام هذا المسلم.(٤٤)

خضعت مملكة القدس، باستثناء قلاع قليلة، مثل كوكب **Belvoir** وصفد حيث الهيكليون، حنين **Hunin** والشقيف **Belfort** حيث يعسكر فرسان المستشفى (الهوسبتاليون)؛ والمدينتين صور وعسقلان؛ والمدينة المقدسة نفسها. تحاشى صلاح الدين اختبار تحمل

جيشه لحصار طويل تتطلبه هذه المدينة الحصينة. فضل توفير شجاعة رجاله لفتوحات أسهل. ولو أنه هاجم صور فوراً بعد سقوط عكا، لكانت استسلمت، لأن الكونت ريموند كان قد انسحب إلى طرابلس حيث مات بسرعة من الحزن والعار؛ وأمير انطاكية الذي حكم كونتية طرابلس، لم يدعم حامية صور[٤٥] الصغيرة. حتى عندما تجرأ صلاح الدين وجلس أمام أسوارها بعد احتلاله بيروت، فالمدافعون عنها استماتوا بالمقاومة. ريجنالد حاكم صيدا ورؤساء قواته رأوا أن جميع الفرسان كانوا غائبين، ولم يكن هنالك سوى القليل من الرجال والطعام، فأرسلوا لصلاح الدين أن ينسحب ليسلموه صور. المهمة ذهبت إلى أبعد من ذلك حتى أن صلاح الدين أرسل اثنتين من راياته لترفع فوق القلعة في اليوم التالي؛ عندما وقعت حادثة غير متوقعة خلصت المدينة وتغيّر مستقبل الساحل السوري.

فكونارد، الحاكم الصغير لمونتيفيرات **Montferrat**، الذي كسب شهرة في الحروب الايطالية والبيزنطية، وجد نفسه متورطاً في منازعة دموية في القسطنطينية (استنبول)، فهرب في سفينة تحمل بعض أتباعه بحجة الحج إلى القبر المقدس في القدس. أخبار انتصارات صلاح الدين لم تصل بعد للقرن الذهبي، وعندما وصل كونارد قبالة شاطئ عكا، استغرب عدم سماعه أجراس الميناء[٤٦]، وكذلك لم تكن هنالك قوارب ذاهبة لاستقباله. ولظنه بأن هناك خطأ ما لم يجرؤ على إلقاء المرساة، وانتظر ما سيحدث. ولما ذهب ضابط عربي في أحد قوارب الميناء يسأل عن هوية الزوار. أخبره المركيز أنهم "تجار". عندها قال الضابط "لماذا لا تتوجهون إلى الميناء وتنزلون على اليابسة؟" أجابه كونارد بأنه لا يعلم من يملك عكا. أكد له العربي إمكانية الرسو بأمان وثقة حيث المدينة الآن بيد صلاح الدين، الذي أخذ ملك القدس وباروناته وسجنهم في دمشق وفتح جميع البلدان ماعدا القدس ومدينة صور التي مازالت تحت الحصار. لم يستطع الافرنج كبت حزنهم لدى سماعهم القصة المحزنة، أما العربي فقد سارع إلى الميناء ليسلح سفناً للحاق بهم. لكن كونارد سبقه ووصل سالماً إلى صور. وكان فرحه بلا حدود لوجود المكان مازال بأيدي المسيحيين. استقبله السكان بحفاوة، تمركز مع فرسانه في القلعة وسلِّمَ القيادة العليا. لأن حاكم القلعة وريجنالد حاكم صيدا كانا

مستعدين لتسليم القلعة في الغد إلى صلاح الدين، وبحذر شديد سافروا على متن سفينة تحت جنح الليل وهربوا إلى طرابلس. ولكن جبنهم كشف بسرعة عند ظهور بيارق صلاح الدين فوق القلعة، التي رمى بها المركيز في الخندق. لأن "مشيئة الله هي قدر ثابت" وقد قدر لصور أن تحفظ للمسيحيين على يد هذا "الرجل من الافرنج على شاطئ البحر المتوسط، يدعى المركيز- لعنة الله عليه!" يتساءل المؤرخ المسلم المؤمن، "لأنه رجل شيطان بحذره وترقبه وشجاعته خارقة حقاً".

نتائج حيوية كونارد ظهرت ببساطة ودحضدت كل فكرة للاستسلام. الحامية التي بعثت للحياة بقوة جديدة، بدأت بتقوية التحصينات تستعد لمقاومة عنيدة. أدرك صلاح الدين أن الفرصة قد ضاعت؛ حاول مناورة واحدة ولكنها لم تجد نفعاً، فقد أحضر والد كونارد المركيز الكبير مونت فيرات من سجنه في دمشق وقايض حياته بتسليم المدينة. ولكن كونارد أظهر عدم اكتراث وقسوة قلب، وقال أن والده قد عاش طويلاً بما يكفي ويمكن لصلاح الدين قتله إذا أراد؛ ولكنه لن يسلم ولو حجراً صغيراً من صور لإنقاذه.

لكن الرجل الكبير لم يضح به، وأجبر صلاح الدين على فك الحصار ، وذهب إلى عسقلان - الميناء الآخر بفلسطين الذي مازال يعرض الصليب. كاتب سيرة صلاح الدين يدعي أن هناك سبباً آخراً قد يكون له وزنه بأن السلطان فك الحصار "لأن رجاله كانوا متفرقين على طول الشاطئ كل ينهب لحسابه، الجيش متعب من القتال والحرب بلا نهاية". كذلك كان من الأهمية بمكان احتلال عسقلان والقدس لأنهما تقطعان الطريق الموصلة بين مقاطعتيه الكبيرتين مصر وسورية. ولذلك أسرع للجبهة الجنوبية، احتل الرملة وعبلين وداروم، وصل أمام عسقلان في ٢٣ آب. التحق به العادل مع جيش من مصر، والاخوان معاً ضغطا بالحصار ووجها المجانيق، بينما قواتهما المتقدمة احتلت غزة وبيت جبرين والنطرون. مكرراً محاولة صور نفسها، أحضر جاي وسيد الهيكليين من دمشق ووعدهم بالحرية إذا أمكنهم إقناع الحامية بالتسليم. لكن عسقلان في بادئ الأمر رفضت التجربة كما

رفضتها صور. ثبتت الحامية لمدة أسبوعين، لكن بالنهاية فوضت الملك ليعاهد عنها. سمح لهم بالمغادرة بسلام، واحتل العرب عسقلان في الرابع من أيلول. هناك شك بالمدى الذي كان لمساهمة جاي بهذه النتيجة، ولكن صلاح الدين بر بوعده، فبعد احتجاز آخر في نابلس، حيث سمح له "بمقابلة حزينة" مع ملكته، أطلق سراح الملك، مع أخيه والنبلاء الآخرين، في الصيف الذي تلاه.

وفي اليوم الذي احتل به العرب عسقلان احتجبت الشمس وصار ضوء النهار تقريباً كالليل. الكسوف دائماً فأل سيء عند الشرقيين، ولا بد أنه كان له نذير شؤم خاص لأهالي القدس الذين حضروا بناءً على طلب صلاح الدين للمفاوضة على السلام. كان السلطان يحرص على توفير المدينة المقدسة عناء الحصار – قال لهم: "أنا أعتقد أن القدس هي مدينة الله، كما تعتقدون، ولن أحاصر برضاي مدينة الله وأعرضها للهجوم". وليفوز بها "بالسلام والود" عرض على السكان تقوية المدينة وتزويدهم بكميات كبيرة من المال والغذاء، حتى عيد العنصرة القادم (الأحد السابع بعد عيد الفصح عند المسيحيين) بشرط إذا حل العيد واستطاعوا أن يثبتوا بحينه، احتفظوا بالمدينة المقدسة؛ لكن إذا قطعوا كل أمل بالنجدة، فعندها يجب تسليم القدس، وهو يتعهد بترحيلهم مع ممتلكاتهم المنقولة إلى أرض مسيحية بأمان.

العرض كان فروسياً (حتى دون كيشوتي) عندما نتذكر سوء تمسك الصليبيين بالعهود، وعدم وجود أي ضمانة على وفائهم بالوعد. لكن مندوبي القدس رفضوها بدون تردد. إذا شاء الله لن يسلموا المدينة التي مات بها المخلص (المسيح) من أجلهم. سرّ إخلاصهم صلاح الدين وعاهدهم بشرفه أنه لن يأخذها إلا بطريقة شريفة، بالسيف. كان فرسان السلطان الأكثر أهمية حيث أن القدس أظهرت مؤخراً إشارة مثل الايمان السيء. بعد هروب باليان حاكم عبلين من مسرح حطين بعث لصلاح الدين متوسلاً أن يذهب بأمان ليحضر زوجته وأولاده إلى صور. وسمح لهم فوراً، على شرط أن يبقى باليان ليلة واحدة في المدينة وأن لا يحمل السلاح مرة ثانية ضد السلطان. عندما وصل إلى القدس استقبل بفرح باعتباره

منقذاً، لأنه لم يكن هنالك فرسان ذوو أهمية ورسم قائداً وحامياً للمدينة بالإجماع. وبدون فائدة احتج بأنه أقسم لصلاح الدين ولن يتمكن من البقاء بشرف أو يساعد في الدفاع. "أنا أحِلُّكَ" قال البطريرك "من جميع خطاياك ومن قسمك لأن الخطيئة في حفظه أكبر من الخطيئة من الحنث به، فمن العار الأبدي عليك ترك القدس في هذه الحالة، ولن يكون لك شرف أينما ذهبت". لذلك بقي باليان. ولوجود فارسين اثنين فقط في المكان وهما اللذان هربا من حطين، أعلن فروسية ثلاثين مواطناً. فتح له البطريرك الخزينة وذهبت الحامية لشراء اللوازم الضرورية للحصار. جاء المشردون من جميع الأنحاء وكان هناك نحو ستين ألف رجل في المدينة مع النساء والأطفال.

لم ينفذ صبر صلاح الدين حتى بعد هذه الإهانة. ربما اعتقد أن باليان لم يستطع أن يساعد نفسه، بدلاً من أن يبدي الحقد فقد منحه برهاناً جديداً على ثقته. فباليان طلبه مرة أخرى في عسقلان للمرور الآمن لزوجته وأطفاله إلى طرابلس؛ مفسراً أنه أجبر على الحنث بوعده. وبدلاً من التأنيب فقد أرسل صلاح الدين خمسين خيالاً لتنفيذ رغبته.

نهار الأحد، ٢٠ أيلول سنة ١١٨٧م. ظهر العرب أمام أسوار المدينة المقدسة. فخلال خمسة وسبعين يوماً أغاروا وأخضعوا مملكة القدس؛ والآن يجب أن يملكوا العاصمة نفسها، الهدف والدافع للصليبيين، والأماكن المقدسة للمسيحيين والمسلمين على السواء. تركز صلاح الدين قبالة الحائط الغربي، مواجهاً أبواب داود والقديس استيفان. عجب لرؤيته الاستحكامات مليئة بالمدافعين الذين لا عدّاد لهم والذين لا يكادون يجدون مكاناً لهم فوق المنازل والكنائس. بسرعة اكتشف أنه أخطأ باختيار الموقع، لأن قلاع تنكريد **Tancred** وداود العظيمة (أو قصر بيسانس **Pisans** كما كانت تدعى حينذاك) سيطرت على آلياته والصليات المتقطعة من المسيحيين ردت مهندسيه وعارضت نصب المجانيق. زيادة على ذلك فالشمس لمعت في عيون المسلمين، فحجبت الرؤية للقتال حتى بعد الظهر لهذا غير مواقع قواته إلى أجزاء أخرى من المدينة، وبعد

خمسة أيام نقل قواته إلى الشرق، مشرفاً على وادي قدرون Kidron، حيث الأسوار أقل متانة. تحرك في ليلة الخامس والعشرين من أيلول، ولما رآه السكان مغادراً ظنوه فك الحصار، وركضوا إلى الكنائس ليقدموا شكرهم ومن ثم ينغمسوا في المسرات. ولكن في الغد تبع البكاء الضحك، فرايات المسلمين كانت ترفرف فوق جبل الزيتون؛ وبالواقع أصبحت المجانيق في مواقعها والمهندسون الذين سهروا طوال الليل بدأوا في لغم الأبراج الأمامية. عشرة آلاف مسلم من الخيالة غطوا أبواب القديس استفان وجوزافات Josaphat، ومنعوا هجوم المتقدمين بينما كان حافرو الخنادق تحت الأسوار يعملون بجهد بحماية حائط من التروس الموجهة بسهام رامي الأقواس والحجارة والنار الاغريقية منطلقة من الآليات. كان من المستحيل الوقوف على مواقف الدفاع تحت وابل من الحجارة والسهام، لأن "السهام عملت عمل نكاشات الأسنان للاستحكامات"[٤٧]؛ تم وضع الألغام بفرح، حتى أنه في خلال يومين أو ثلاثة على مدى ثلاثين أو أربعين خطوة من سور القلاع المتقدمة كانت قد اخترقت! الألغام كانت محشوة بالخشب وأشعلت محدثةً حريقاً كبيراً. حاول الفرسان تنظيم أنفسهم دون جدوى لقطع خط رجعة المهندسين المسلمين. ففرسان صلاح الدين ردوهم إلى الداخل. العويل والأسى هيمن على المدينة. أسرعت الجماهير إلى الكنائس للصلاة والاعتراف؛ يقرعون صدورهم بالحجارة والنيران طالبين بخضوع رحمة الله. النساء جززن شعور بناتهن وغطسوهن في الماء البارد آملات أن يرددن عنهن العار. القساوسة والرهبان ساروا في المدينة بمسيرة صامتة حاملين القربان المقدس كوربوس دوميني Corpus Domini والصليب، مرتلين نشيدالميسيرري Miserere. "ولكن لعنة وحقارة المدينة زكمت أنف "السيد" وصلوات الخطاة لم ترتفع إلى كرسي الرحمة".

أخيراً لم يستطع أحد أن يحرس الخرق ولو لليلة واحدة حتى مقابل مئة قطعة ذهبية، وكان الرأي العام مع الاستسلام. اجتمع القادة في المجلس وقرروا أن يتقدموا معاً إلى الموت. ولكن المطران هيراكليوس Heraclius أفهمهم أنهم بهذا يعرضون النساء والأطفال للعبودية – ولأسبابه الخاصة أقنعهم بالتفاوض على الشروط. وصل

باليان إلى خيمة صلاح الدين، ليجد أن المسلمين قد اخترقوا المدينة وأعلامهم ترفرف على البرج. فبادره السلطان قائلاً "أهكذا تمنح الشروط لمدينة محتلة؟" إضافة إلى قسمه باحتلال القدس بحد السيف ويجب أن يحافظ على عهده. ولكن المدينة لم يكن قد تم احتلالها بعد؛ فالحامية التقطت شجاعتها مرة أخرى وأبعدت المهاجمين للخلف. رغب صلاح الدين في الإبقاء على السكان المقدسيين وطلب نصح مخلصيه فيما إذا كان هناك طريقة أخرى لحفظ قسمه. فزيارة باليان ملأته رعباً، لأن البارون أبلغه ببساطة عن قرار الحامية المستميت.

"أيها السلطان"، قال باليان، "اعلم أننا جنود هذه المدينة يعلم الله عددهم، الذين يؤجلون القتال بأمل رحمتك، معتقدين أنك ستهبها لهم كما وهبت مدناً أخرى غيرها، لأنهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة. أما بالنسبة لنا فالموت لا بد منه، فوالله سنذبح أولادنا ونساءنا، سنحرق ثروتنا وأملاكنا ولا نترك لك سكوين **Sequin (U.S. $ 2.25)** أو ستايفر **Stiver(U.S. cent 1.5)** لتنهبوه ولا امرأةً أو رجلاً لتستعبدوه؛ وعندما ننتهي من ذلك سنهدم الصخرة والمسجد الأقصى، وجميع الأماكن المقدسة، سنذبح الأسرى المسلمين عندنا -هناك خمسة آلاف منهم- سنذبح كل حيوان أو مطية لدينا، وبعد سنجتمع كجسم واحد نواجهكم ونقاتلكم من أجل حياتنا؛ لن يسقط رجل منا إلا وقد ذبح منكم مثله؛ هكذا نموت بفخار أو نغلب بكرامة".

تهديدات باليان اليائسة، ومناقشات مجلسه جعلت صلاح الدين أخيراً يعدل عن قسمه. أعلن أنه سيبقي على ما يكفي من قسمه إذا استسلمت القدس باجتهاد وكأنها أخذت بالحرب. في هذه الحالة سيمارس رحمته ويكون السكان رهائن كأسرى الحرب. على كل رجل أن يدفع عشرة قطع ذهبية لحريته، وكل امرأتين أو عشرة أطفال يتساوون برجل. أما الفقراء فسيطلق سراحهم الذين يبلغ عددهم سبعة آلاف مقابل ثلاثين ألف من العملة البيزنطية بيزانتس **Besants**، تدفع من كنوز الملك هنري التي مازالت بقاياها محفوظة في دار الهوسبتاليين. أربعون يوماً كانت المهلة لدفع القدية، بعدها

كل من يبقى يصبح عبداً. بنود الاتفاقية وقعت يوم الجمعة في الثاني من تشرين الأول، سنة ١١٨٧م، عيد القديس ليجر St. Leger. وباتفاق غريب كان ذلك يوم ٢٧ رجب، ليلة المعراج الشريف حيث عرج النبي (صلعم) إلى السماء من القدس الشريف، التي استرجعها أتباعه بعد تسعين عاماً من الاحتلال المسيحي.

عاد باليان إلى المدينة وأعلن الشروط التي قوبلت بالشكر والحزن، بكى الناس وانتحبوا واستحالت تهدئتهم؛ قبلوا الجدران المقدسة التي قدر أن لا يروها ثانية، احنوا رؤوسهم إلى الأرض أمام القبر المقدس للسيد المسيح وبللوها بالدموع. فترك القدس كان لهم كانتزاع قلوبهم. ولكن لم يكن هنالك مخرج، فالرايات الإسلامية رفرفت فوق رؤوسهم والمفاتيح أصبحت بأيدي المسلمين، حيث يجب تسليم المدينة خلال أربعين يوماً. ظهرت عظمة صلاح الدين أكبر من أي وقت مضى. كان حرسه برئاسة مسؤلين حفظوا النظام في كل شارع، منعوا القيام بأية أعمال عنف أو إهانة، حتى أنه لم يسمح بأية إهانة للمسيحيين. كل مخرج كان تحت سيطرته، وتمركز سيد موثوق به عند بوابة داود ليتسلم الفدية من كل مواطن يغادر.

ثم بدأ مشهد محزن. أحضر باليان أولاً ثلاثين القطعة الذهبية والسبعة آلاف المعدم الذين أعتقهم ملك الانكليز وسمح لهم بالسير ببطء إلى الخارج، تبعهم المواطنون الواحد تلو الآخر، العملة في أيديهم ومع أسرهم وفي بعض الأحيان مع من يعتمدون عليهم ممن لا يستطيعون دفع فديتهم. ملأ الجنود المدينة، والتجار الذين قايضوا حاجيات المواطنين ليتمكن كل منهم أن يدفع ثمن حريته. كوكبري دفع فدية ألف من الأرمن من الرها وأرسلهم إلى بيوتهم؛ وغيره لم يكن أقل شهامة.

كان هنالك طبعاً غش وخداع، بعض أمراء المسلمين ادعوا فقدان خدمهم وقبضوا الفدية عنهم شخصياً، بينما الآخرون هرّبوا الافرنج خارج المدينة متخفين باللباس العربي ونهبوا أموالهم حالما ابتعدوا عن الحراس. البطريرك فاقد المثل العليا والضمير، حمل كنوز الكنائس، أقداحاً ذهبية وكرستالية مطعمة بالذهب، حتى الصحن

الذهبي الخاص بالقبر المقدس، زيادة على كمية كبيرة من حاجاته، التي كان من الأفضل استعمالها لفدية الفقراء الذين بقوا في المدينة. عندما ألح الأمراء العرب على صلاح الدين أن يمنع هذا الوغد الهرم من أن يغادر مع منهوباته، أجاب "كلا، لن أحنث بقسمي معه". سبق البطريرك الآخرين بدفعه عشرة قطع ذهبية. قد أبقي الأمر للملك المسلم ليعلم الكاهن المسيحي عمل الخير.

لمدة أربعين يوماً استمر خروج الحشد الحزين من بوابة داود حتى انتهت المدة المسموح بها. لكن بقي الألوف من الفقراء الذين لم يدفع فديتهم المواطنون البخلاء والبيوت الدينية حيث تركوهم للعبودية. ثم جاء العادل إلى أخيه قائلاً: "سيدي، لقد ساعدتك بنعمة الله على احتلال الأرض وهذه المدينة، لذلك أرجوك أن تعطيني ألفاً ممن في الداخل من العبيد الفقراء". وإجابة لتساؤل صلاح الدين عماسيفعل بهم، أجابه بأنه سيقوم بما يحلو له. فأعطاه السلطان الألف عبد الذين أعتقهم العادل أحراراً كتقدمة لله. ثم جاء البطريرك وباليان والتمسا مثله، فأعطاهم صلاح الدين ألف عبد آخرين ممن أعتقوا. ثم قال صلاح الدين لضباطه: "أخي قدم ضحيته، وكذلك البطريرك وباليان، والآن وبسرور سأقدم ضحيتي". وأمر حراسه ليعلنوا في جميع شوارع القدس أن كل المسنين وكل من لا يستطيع دفع فديته فهو حر للمغادرة. فجاؤوا من البوابة الصغيرة للقديس اليعازر، واستمر خروجهم منذ طلوع الفجر وحتى الليل. "هكذا كانت حسنات صلاح الدين للفقراء لا تحصى".(٤٨)

"عندها سأخبركم"، قال سيد باليان، "عن الاحترام الشديد الذي أظهره صلاح الدين لزوجات وبنات الفرسان اللواتي هربن إلى القدس عندما قتل أسيادهن وأسرن في الحرب. فعندما دفعت فدية هؤلاء السيدات وغادرن القدس، اجتمعن ومثلن أمام صلاح الدين باكيات طالبات الرحمة. وعندما تساءل صلاح الدين عمن يكن أو ماذا يردن، أخبر بأنهن زوجات وبنات الفرسان الذين قتلوا أو أسروا في المعركة. فسألهن مطلبهن فأجبن: "بحق الله أشفق علينا، فبعض أزواجنا في السجن والبعض الآخر توفي وفقدت أراضيهم، وباسم الله استرنا وساعدنا". عندما سمعهن صلاح الدين يبكين رقّ

قلبه وحزن عليهن، فبكى هو نفسه شفقة وطلب من زوجات الأسرى الأحياء إعلامه عن مكان سجنهم تمهيداً لإطلاق سراحهم، وهكذا كان. فقد أطلق سراح الجميع أينما كانوا وأمر من خزينته الخاصة لكل سيدة أو آنسة بمبالغ كبيرة أو قليلة بما يتناسب مع ما كانوا يملكون من الأراضي. وقد أعطاهن الكثير حتى أنهن تضرعن إلى الله وأعلن في الخارج عن حلم وشرف صلاح الدين.

هكذا عامل العرب المدينة المحتلة. ولا ينسى أحد الافتتاح الهمجي للمدينة المقدسة إبّان الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩م، عندما تجول جودفري وتانكريد في شوارع تكتظ بالقتلى ومن هم في حالة نزع، عندما عُذّب المسلمون العزل، أحرقوا وقتلوا بلا رحمة على حصون وسقف الهيكل، عندما كانت الدماء لعنف المذبحة تلوث شرف المسيحية، ولوثت المشهد حيث كان المسيح عليه السلام يبشر بإنجيل المحبة والرحمة. "طوبى للرحماء لأنهم يرحمون". كانت الغبطة منسية عندما دمر المسيحيون المدينة المقدسة. ولحسن حظ غير الرحماء، فلقد نالوا الرحمة على يد السلطان المسلم.

"أعظم عطاء للسماوات هي الرحمة؛
هي تاج العدالة والفخار،
فقد تقتل بالحق وتنجو بالشفقة".

إذا كان احتلال القدس هو الحقيقة الوحيدة المعروفة عن صلاح الدين، فقد كانت كافية لتبرهن على أنه كان أعظم شهمٍ ذا قلب كبير كفاتح في زمانه أو في أي عصر.

الفصل الخامس عشر
الحشد في صور
١١٨٧م - ١١٨٨م

عندما غادر جميع الافرنج، ولم يبق سوى العبيد والأسرى المسلمون المحررون، مع السكان الأصليين من المسيحيين، الذين طلبوا البقاء ودفع الجزية، أمر صلاح الدين بتطهير الأراضي المقدسة وإعادتها لدين الإسلام. الصليب الذهبي نزع من على قبة الصخرة، وجميع الآثار التي زادها الهيكليون أزيلت من الحرم الشريف حيث يقوم مسجد عمر القديم. الحكماء المؤمنون والحجاج أسرعوا من كافة الأنحاء ليشاركوا في التكريم العظيم. أمت الوفود خيمة السلطان خارج المدينة، ترتل آيات القرآن الكريم، منشدة الأشعار، وملقية الخطب في تكريمه.

كاتمو الأسرار جاهدوا لنشر الأخبار الطيبة إلى أطراف مملكة الإسلام؛ عماد الدين نفسه بعث بسبعين رسالة في اليوم الذي استعيدت فيه القدس. وفي يوم الجمعة التاسع من تشرين الأول تجمع جمع غفير للصلاة مع صلاح الدين في الحرم القدسي الأقصى. وقد ألقى قاضي حلب الخطبة.[٤٩] شكراً لله على نصرة الإيمان وتنظيف بيته المقدس؛ وأعلن عن نقاوة الإيمان بالقرآن الكريم، ودعى بصلاته للنبي (صلعم) وللخلفاء، كما هي طريقة المسلمين في أدعية الصلاة.

عندها صاح "يا رجال، افرحوا للأخبار الطيبة! فالله مسرورٌ جداً بما أنجزتم، وهذه قمة رغبة الإنسان؛ فقد ساعدكم هذا على استرجاع الجمل الشارد من الأيدي الخاطئة وإعادته إلى حظيرة الإسلام، حيث أساء استعماله المسيحيون نحو مئة عام. ابتهجوا لتطهير بيته، الذي سمح الله ببنائه وترديد اسمه به، حيث نشر خيمته وأسس قواعد حقوقه المقدسة؛ البيت الذي وضعت أساساته على الإيمان بالله الأحد، أحسن الأسس، والأسوار التي بنيت لتعظيمه، تقف ثابتة على التقوى من قديم الزمان للآن. كان بيت أبيكم إبراهيم، في الموقع الذي وقف فيه نبيكم محمد باركه الله وعرج إلى السماء،

القبلة التي اتجهتم إليها في صلاتكم أيام الإسلام الأولى، مكان إقامة الأنبياء، وملجأ القديسين، وقبور الرسل، المكان الذي نزل فيه وحي الله، حيث ستجتمع البشرية كلها في يوم القيامة والحساب... إنها المدينة التي أرسل إليها الله خادمه ورسوله، "الكلمة" التي حلت في مريم، المسيح، روح الله، الذي شرفها ببعثته وكذلك بهدية النبوة، ولكن دون رفعه فوق صفوف مخلوقاته؛ لأنه تعالى قال، المسيح لن يتوانى عن أن يكون خادماً لله، وكذلك الملائكة الذين يحيطون بوجوده... "ولولا كونكم من خدم الله المختارين، لما شرفكم بهذه النعمة، حيث لا يجاريكم ولا يشارككم أحد في كمالها. مباركون أنتم الذين قاتلتم كما قاتلوا في معركة بدر، الذين ثبتوا كما ثبت أبوبكر، منتصرين كعمر، الذي أستذكر حشود عثمان وحملات علي! ولكنه جدد للإسلام الذكريات الرائعة لمعركة القادسية، واليرموك، وخيبر وخالد سيف الله المسلول. فالعظيم أثابكم، وقبل تقدمتكم من دمائكم التي أريقت في خدمته، ويهب لكم الجنة، مسرورين إلى الأبد...

"اللهم، أطل أمد حكم عبدك، الشديد الاحترام بتواضع، الشاكر لفضلك، الممنون لعطاياك، سيفك الحاد ومشعلك اللامع، بطل إيمانك وحامي أرضك المقدسة، والمقاوم بصرامة، العظيم، الملك المنتصر، ومقوي الدين الحقيقي، وقاهر عبدة الصليب، شرف العالم والإيمان (صلاح الدين)، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر المعبد المقدس، أبو المظفر يوسف ابن أيوب، المحيي امبراطورية قائد المؤمنين، اللهم أعضده، حتى تمتد امبراطوريته حول جميع الأرض، وحتى تحيط الملائكة براياته دائماً؛ احفظه لمصلحة الإسلام، احم عرشه لفائدة الإيمان، وابسط ممتلكاته على مناطق الشرق والغرب ... اللهم خلصه هو وأولاده من بعده، كي يحكموا الأرض حتى نهاية الزمن، حافظ على أيامه، وأولاده وإخوته، قوِّ سلطته بطويل أعمارهم، وهكذا بعنايتك تهب الخير الدائم للإسلام، ليبقى على مرور الأشهر والسنين المتسارعة، امنحه اللهم المملكة التي لا تنتهي في بيوت المباركين، واسمع صلاته التي يدعو لك بها: «ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاهُ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين». صدق الله العظيم.

هذه الخطبة النبيلة وبلاغتها الجميلة ألقيت بتأثير كبير، كما ذكر القاضي الفاضل قائلاً: "السماوات قاربت التصدع، ليس بالغضب، ولكن لتذرف دموع الفرح، والكواكب ركبت أمكنتها، لا لتقذف الشريرين، ولكن لتفرح معاً. فرح المسلمون على استرجاع الحرم الشريف كان بلا حدود. فصلاح الدين أعاده إلى حالته الجميلة وبساطته السابقتين، وأحضر من دمشق منبراً رائعاً للجامع الذي أمر نور الدين بتصميمه في حلب قبل عشرين عاماً. إنه هناك حتى اليوم وعلى محراب المسجد مازال يقرأ النقش التالي:

"باسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإصلاح هذا المحراب وتجديد المسجد الأقصى، بدافع التقوى، خادم ووكيل الله يوسف ابن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما انتصر على يدي الله، في شهر الهجرة من السنة ٥٨٣، ويضرع إلى الله أن يهب له الشكر لهذه المكرمة ويجعله مشاركاً في إسقاط الذنوب، من خلال رحمته وغفرانه".

استعيدت القدس وعسقلان؛ الكرك والشوبك عبر الأردن **"Oultre Jourdain"** وصفد وكوكب قرب طبرية وحدها بقيت قلاع جنوبي صور بها حاميات مسيحية. لكن كل واحدة من هذه القلاع كانت محصنة بقوة كافية، وبقي عامل الوقت فقط حتى تجوع. كانت صور المكان الأهم في فلسطين الذي لم يحتله صلاح الدين حيث كان الأول من تشرين الثاني عام ١١٨٧م بعث لها قواته الفرحة التي لحق بها بعد اثني عشر يوماً ليتولى قيادتها. وجد أن المدينة ملأى بالحاميات التي أرغمها على التسليم في أماكن أخرى. كونارد حاكم مونتيفيرات عمل ليلاً نهاراً يقوي الاستحكامات ويشجع المدافعين و"يوجههم بمقدرة فائقة". فقد عمق ومدد الخنادق حتى أصبحت صور "مثل اليد الممتدة في البحر، متصلة فقط عند المعصم". جزيرة يوصل إليها بممر ضيق الذي تمكن حمايته بسهولة وبقوة قليلة، ومغطى جيداً بعوارض على المراكب المحصنة. كان صلاح الدين مدعماً بأخيه، وأولاده، وابن أخيه مع فرقهم من مصر وحلب وحماة. ولكنه لم يستطع رمي ثقله القوي المتفوق على العدو. وبالرغم من تملكه سبعة عشر آلة تتعامل مع الأسوار ليلاً نهاراً، لم يستطع سوى قلة من رجاله التقدم فوق الممر الضيق حيث لا يجابهون فقط بهجمات

الافرنج المتعددة، تحت إمرة الفارس الشهم في اللباس الأخضر(٥٠)، ولكن لحماية أنفسهم أيضاً من هجوم القوارب على جانبي الممر. أحضرت عشر سفن من عكا، التي أجبرت بسرعة السفن الشراعية الصورية أن تلجأ إلى الميناء. وفي صباح عيد القديس الشهيد توماس من كانتربري (٢٩ كانون أول) ، فوجئ نصف الاسطول الإسلامي واحتله الأعداء، بقيته أرسل بها إلى بيروت لأنهم لم يكونوا بالقوة الكافية لضبط السفن الشراعية. حتى عند ذهابهم لحق بهم الصوريون، وبسبب الفوضى وصلت سفينتان للرسو على الشاطئ حيث تم إحراقهما. الفشل في البحر لحقه انتكاس على الشاطئ، فقد انتهز العرب فرصة التحول في البحر، وتسلقوا البرج الأمامي وسوره وكانوا يحاولون الوصول إلى السور الرئيسي، عندما قام كونارد بقيادة هجوم وهو على رأس رجاله وصدهم بخسائر فادحة.

عندها دعا صلاح الدين لعقد مجلس حربي. بعض الأمراء كانوا مع التراجع وتذرعوا بعدم رحمة الموسم – لأنه كان في أواخر كانون الأول، حيث الشتاء والثلج يحيل السهل إلى بحر من الطين، والرطوبة والبرد تولد المرض في الرجال والخيول؛ تكلموا عن عدد القتلى والجرحى، وقلة المواد والأموال، واقترحوا رفع الحصار والعودة إلى الهجوم في الربيع. مقابل هؤلاء المحبذين المتساهلين، آخرون ألحوا بأنه من الأولويات المهمة احتلال صور. لأنها كانت الأمل الوحيد للافرنج على الساحل، وإذا سقطت فلن يكون هنالك تعزيزات تأتي عبر البحر. ولكن مشورة المتساهلين سادت، وفي اليوم الأول من سنة ١١٨٨م. صرف الفرق المختلفة إلى بيوتها في مصر وسورية وبين النهرين وانسحب مع قواته الخاصة إلى عكا.(٥١)

التراجع من صور كان نقطة تحول في مهمة النصر عند صلاح الدين. كان خطأً قاتلاً لا يمكن إصلاحه. كانت قاعدة ثابتة له لتحاشي الحصارات الطويلة حيث كان ذلك ممكناً، ولم تكن هذه القاعدة خطأً. فقواته مؤلفة في أكثرها من ميليشيات إقطاعية غير منضبطة، من لهجات وأجناس مختلفة، يجمعهم أمل النهب أكثر من إخلاصهم للسلطان. أو حتى تحمسهم للحرب المقدسة. إذا أحسنت قيادتهم

فإنهم يقاتلون بنجاح في ميدان مستوٍ، وعندما تسنح الفرصة لأخذ مدينة أو قلعة بالهجوم، فإن إمكانية النهب ومجرد حبهم للعراك يعزز الفرقة المهاجمة بشجاعة عنيفة. لكن الحصار الطويل أحبط عزيمتهم وفتح المجال للغيرة وعدم الرضى الذي لا يمكن تحاشيه في مثل هذا الخليط من الجيش.

وبدلاً من التحريض على الانتصار السريع والحصول على الجوائز المتكررة، كان هنالك الحفر المتعب تحت الأسوار، والتعرض اليومي للقناصين على الأبراج والهجمات المستميتة من الميناء. في حالات القلاع الصليبية العادية فإن الحامية الجيدة بقيادة قائد قدير تجعل الحظ يحالف المحاصرين بالرغم من مجانيقهم السيئة التي كانت لا تصيب أهدافها بدقة مع أنها تلقي بحجارتها الثقيلة، ولكن يشك بفاعليتها في سور متين من الحجارة وبعمق ٢٠ قدماً. لغم الأسوار كان يتم بطريقة إشعال الأخشاب بدلاً من البارود والديناميت الذي كان أكثر نجاحاً من ضرب المجانيق. ولكنها كانت تتم بمخاطرة كبيرة عندما تكون الحامية مصممة على مشاغلة حفار الخنادق حيث لم تكن بعد الطريقة الحديثة في الاقتراب من الخنادق وبخط متعرج قد عرفت عند المهندسين العرب. أفضل طريقة كانت الحصار القريب لتجويع الحامية؛ ولكن هذا يتطلب إبقاء أعداد كبيرة من الرجال في حالة عدم رضى بسبب قلة النشاط، خصوصاً في أيام الشتاء القاسية، وبدون أسطول فإن الحصار سيكون بلا فائدة ضد مدينة ساحلية يمكن تزويدها عن طريق البحر.

لم يكن حسناً أن صلاح الدين تحاشى الحصار الطويل الذي لم يظهر به القدرة نفسها التي كانت تظهر في المعارك المعدة والحملات السريعة. وعدم حبه لعمليات الحصار قد يكون مثل سماحته الطبيعية، لأن طريقته العادية بقبول استسلام القلاع وترك حاميتها تغادر بسلام، حتى ولو كان هنالك إمكانية احتلالها بالهجوم. ومن الظاهر أنه لم يستوعب فكرة تضخيم جيش العدو بإطلاقه سراح الحاميات المستسلمة، حتى ولو وضع الشروط لإطلاق سراحهم قبل انقضاء مدة سجنهم بسبب حسن سلوكهم، فإنهم كانوا يحنثون بالعهد في أقرب فرصة تتاح لهم للانتقام. ومن الواضح أن

الطريقة الحذرة كانت في الاحتفاظ بهم في سجون دمشق، أو أية مدينة بعيدة أخرى حتى انتهاء الحملة وإحلال السلام. صور كانت ملأى بمثل هذه الحاميات المستسلمة، وكان اللوم يقع على صلاح الدين نفسه بتقوية المدافعين.

وبالرغم من هذا، فمهما كانت صعوبات الحصار **Delenda est Tyrus** فإن عزمه كان ثابتاً. كان عليه أن يبني أسطولاً جديداً، ويفرق السفن الصيداوية الشراعية، ويملأ الخنادق ويفتح ثغرات في الأسوار حتى ولو خسر نصف جيشه في عمل ذلك. والجواب الوحيد على هذا هو أن صلاح الدين كان يعرف رجاله ولا يعتمد على قوة احتمالهم. لكن هذا لا يفسر إهماله حصار المدينة من البحر والبر ليمنع التعزيزات وليجوع سكانها الكثيرين. كيفما نظرنا إلى حصار صور فإن إجراءات صلاح الدين لم تكن لا بالحربية ولا بالسياسة وأصبحت صور نقطة تجمع حيث منها استعاد الصليبيون بعض ما فقدوه من قوة وكرامة على الشواطئ الفلسطينية؛ ولولا ثبات هذه المدينة لكنا تساءلنا إن كانت الحملة الصليبية الثالثة قد استطاعت الوصول إلى عكا.

طبعاً نتائج هذا التدقيق الجدي لم تظهر حالاً. فأوربا أخذت بعض الوقت لتجمع قواتها لاسترجاع الأراضي المقدسة، وخلال ذلك، قام صلاح الدين، متجاهلاً الخطر المحدق من صور، بحملة ناجحة في الشمال. حتى ذلك الحين، كان راضياً عن إخضاع مملكة القدس؛ فامتد بفتوحاته إلى كونتية طرابلس وإمارة انطاكية. بوهموند الثالث **Bohemond III** كان أمير انطاكية وابنه ريمون **Raymond** تولى حكم كونتيه طرابلس بمشيئة سميه، الناجي غير المسرور من معركة حطين. الأب وابنه تركا صور لمصيرها بفرح، ولم يكن الفضل لهما عندما غلب كونارد المهاجمين. أرسل ريمون فعلاً بعض السفن الشراعية نحو المدينة المحاصرة، ولكن عاصفة معاكسة أرغمتهم على العودة إلى طرابلس مع عذر معقول لعدم عمل أي شيء. كان ريمون خائفاً كثيراً من زيادة مسؤولياته حتى أنه أعاد اللاجئين من القدس لئلا تستهلك مخازن الغذاء، وقام في الوقت نفسه بنهب أموالهم ليؤمن احتياجاته. الأمراء الشماليون لفترة طويلة اتبعوا سياسة

التعايش مع صلاح الدين، وهذه الدناءة لربما كانت تعني برهاناً على عدم حسن النية، الذي لم يكن بإمكان السلطان الكريم أن يزكيها. أو على الأقل لم يمنعه من مهاجمة المقاطعات الشمالية.

قضى صلاح الدين الشتاء في عكا حيث بقي في قصر الأفضل el-Afdal الذي كان قد حول إلى قلعة للهيكليين. الكهنة نقلوا إلى مستشفى القديس جون بينما حول قصر المطارنة إلى مستشفى؛ ووهب صلاح الدين للاثنين الكثير من غنائمه. في حين أن قراقوش، الذي حصن القاهرة، أرسل لتقوية دفاعات عكا. تاركاً الساحل في الربيع، وبعد أن تفقد في آذار حصار كوكب، قلعة الهوسبيتاليين جنوبي طبرية، حيث وجد أنها قوية يصعب الهجوم عليها، فزار صلاح الدين دمشق، ثم في ١٤ آيار اتجه شمالاً.(٥٢) السبب الرئيسي كان تحرك الافرنج إلى جبيل، ولكن وجهة سيره كانت تدل على أنه ذاهب إما إلى طرابلس أو انطاكية. خيم عند حمص حيث استكشف المنطقة. ويقول ارنول أن صلاح الدين حاصر طرابلس حقاً ولكنه وجدها حصينةً جداً فانسحب. وليم حاكم صقلية William of Sicily كان أول من قدم للمساعدة من أمراء أوربة، فأرسل خمسمئة فارس وأسطولاً من خمسين سفينة شراعية بقيادة أمير البحر الشجاع مارجاريتوس Margaritus ، الذي دعي "بملك البحر" و "نبتون الثاني" Neptune II بسبب أعماله البطولية؛ وقد أحضر الصقليون مساعدات لا تقدر بثمن لمن تبقى من الصليبيين. كونارد حاكم مونت فيرات أسرع أيضاً لمساعدة جاره الهادئ الطبع. مع كونارد جاء الفارس الأخضر الذي نبّه صلاح الدين إلى قوته. وقد دعاه السلطان لخيمته، فجاء وكان ترحيب صلاح الدين به كبيراً وأهدى له الخيول والمجوهرات وعرض عليه أراضٍ وممتلكات إن هو قبل خدمته. لكن الفارس الأخضر رفض كل شيء؛ وقال أنه لم يأت للأرض المقدسة ليبقى مع العرب، ولكن ليؤذيهم ويبلبلهم، الشيء الذي سوف يقوم به كلما استطاع ذلك. لذلك افترقا باحترام شريف.

عاد صلاح الدين إلى معسكره قرب حصن الأكراد Crac des Chevaliers التابع للهوسبتاليين وهو قلعتهم المحصنة،

تاركاً خططه لاحتلال طرابلس. وقد لحق به أتباعه من بلاد الرافدين بقيادة عماد الدين حاكم سنجار، فجهز جيشه للحرب. وقام بحملته يوم الجمعة، يومه المفضل، في الأول من تموز. لم يكن هناك جيش مسيحي لمقاومته، وكانت الحملة سجلاً مملاً من احتلال أو خضوع مدينة تلو الأخرى وقلعة بعد قلعة. طرطوس **Tortosa (Antartus)** كانت أول من تلقى معظم غضبه، لأن معاملته الخشنة غير المعتادة للمدينة بينت أن سوء حظه في طرابلس أزعجه. وصل في الثالث من تموز ووزع جيشه بشكل هلال حول المكان، من البحر للبحر، وأمر بالهجوم المباشر. الذي نفذ قبل أن يتمكن أتباعه من نصب خيام المسلمين. فنهبوا وحرقوا ودكوها حتى الأرض. ومن القلعتين دمرت واحدة فقط وبقيت الأخرى التابعة للهيكليين التي قاومت جميع الهجمات ووجب تركها، ثابتة لمساعدة المسيحيين. ڤالينيا **Valenia** هجرها سكانها؛ لكن القلعة العظيمة لمارجات تحدت الاحتلال. جبيلا **Jebela** فتحت بواباتها واستسلمت قلعتها يوم الجمعة ١٥ تموز. في يوم الجمعة التالي استسلمت حامية اللاذقية، وفي يوم الجمعة الذي بعده هجم صلاح الدين على معقل الهوسبتاليين العظيم على تلال قلعة صيهون **Saone (Sahyun)**. لكن السلطان أبقى الحامية والسكان لدفع الفدية بالشروط التي وضعت للقدس[٥٣] نفسها. وخلال ثلاثة أيام جمعة متتالية من شهر آب سقطت القلعتان التوأمان على نهر العاصي، بوكاس **Bukas** والشغر **esh-Shughr**، اللتان كانتا حتى ذلك الحين لا تقهران. كذلك سقطت مدينة سارمين **Sarmin** . إن احتلال ستة مواقع قوية في ستة أيام جمعة متتالية أكد للمسلمين أن صلوات المؤمنين في يوم العبادة قد استجيبت، وتذكروا الوعد المقدس بأن العمل الجيد في نهار الجمعة سيكافأ ضعفاً في الجنة.

بارزويا **Barzuya** شرقي العاصي، حصن منيع حتى أن عدم إمكانية اقتحامه أصبحت مضرب المثل، احتل بعد هجوم وقتال عنيفين يوم الثالث والعشرين من آب؛ المدافعون عنه سجنوا، والمسلمون غنموا الكثير. الحاكم وأقاربه فقط، وقد كانوا أقارب أمير انطاكية، أطلق سراحهم وأوصلوا إلى أصدقائهم. من بينهم كان هناك عروسان فرقهما العرب بقسوة. أشفق صلاح الدين لسوء

حظهما فبحث عنهما وأرسلهما مجتمعين آمنين. بوهيموند Bohemond لم يكن لينسى هذا الكرم، فبعد أن احتل المسلمون دار بيساك Darbesak وباغراس Baghras ، القلعتين المهمتين على الحدود والمتحكمتين بممر بيلان Beylan شمالي انطاكية، كانوا في الحقيقة زاحفين نحو العاصمة نفسها، فطالب أميرها بالسلام. كان جيش صلاح الدين متخماً بالمنهوبات وتعباً من الهجوم. حيث قضى ثلاثة أشهر في مسيرة صعبة وبلا شيء من القتال الشديد إذ كان الضباط متلهفين على الذهاب إلى بيوتهم مع غنائمهم، وليريحوا رجالهم ويستجمعوا قواهم. مثل كل الجيوش الإسلامية، كان جيشاً مؤلفاً من رجال متزوجين، وكان أفراد القوات يريدون الرحيل إلى زوجاتهم. عقدت هدنة لثمانية أشهر في الأول من تشرين الأول؛ وأطلق أمير انطاكية جميع الأسرى المسلمين الذين وقعوا في يده، ووافق على تسليم مدينته إذا لم تكن قد خلصت قبل نهاية فترة الهدنة.

في حلب، كانت الفرق من وادي الرافدين بقيادة أمير سنجار الذي كان متشوقاً للمغادرة، فأمر أفرادها بالعودة إلى بيوتهم. وبعد هتاف احتفالي في القلعة الرمادية، حيث كان القائد ابن صلاح الدين الزاهر ez-Zaher، وفي حماة بقيادة ابن أخيه الشجاع تقي الدين Taki - ed-din، رجع السلطان إلى دمشق في ٢٠ تشرين الأول.

لقد وهب لخدمه وأقربائهم الراحة التي يستحقونها عن جدارة، ولكنه لم يسترح في ذلك الشتاء. وكان شهر رمضان قد اقترب، وحتى الصيام المقدس كان يفسح المجال للواجب المستعجل في سبيل القتال من أجل الإيمان. شمالي وجنوبي بحيرة الجليل (طبرية) مدينة صفد ومدينة كوكب ثبتتا لحصار المسلمين الطويل. تاركاً جانباً فكرة الراحة والبيت الذي يرحب به كل مسلم خلال الشهر المقدس، وكارهاً قساوة شتاء سورية، قاد صلاح الدين قوات حرسه مقابل قلعة الهيكليين، حيث حاصر العرب التلال الصخرية لصفد. كان المطر يهطل بغزارة، والأرض كانت كالمستنقع، لكن السلطان بنفسه عين أمكنة منجنيقاته الخمسة، ورفض النوم قبل أن يتم نصبها. وكان

الخدم مشغولين طوال الليل ذهاباً وإياباً لإبلاغ التقارير عن تقدم العمل. ضغط الحصار لمدة شهر، ليلاً نهاراً بلا انقطاع حتى استسلمت الحامية أخيراً (٦ كانون أول). وأرغم أهلها على الذهاب إلى صور مع تكريم الحرب. ثم هوجمت كوكب، وبالسرعة "المركزة بين النجوم، قبل عش الصقر"، مدينة الكلاب التي تعوي باستمرار وحيث قهقعت الدببة". تم الحصار في ظروف عاصفة من المطر والرياح، وبحر من الوحل تحت الأقدام بعد خسارات كبيرة فتحت أخيراً ثغرة، والهوسبتاليون اتبعوا مثل تنظيمهم المنافس وسلموا (٥ كانون ثاني ١١٨٩م). تقريباً في الوقت نفسه وصلت الأنباء أن القلعة التي زعزعت سلام المسلمين لمدة طويلة، التي حاصرها صلاح الدين عدة مرات، أجبرت بعد مدة طويلة من التجويع؛ الكرك استسملت للعادل. لقد أجبرت الحامية على إخراج الأطفال والنساء، وأكل لحوم خيولهم، قبل أن يهجروا أمانتهم، بينما كان المسيحيون قد أهملوهم هم أنفسهم ولم يكن هناك سيد يقودهم. وأنه من الأهمية أن نسجل أن صلاح الدين بحث عن النساء والأطفال وأحضرهم بنفسه، وأعادهم إلى ذويهم وأقاربهم المتماسكين. ثم أرسلهم جميعاً بسلام إلى المنطقة المسيحية.[٥٤]

وهكذا وفي عام ١١٨٨م، بعد عدة انتصارات انتهت بتاج نصر ثلاثي، كوكب، صفد، وفوق الجميع شاتيون التي كانت الوكر المخيف في الكرك، لم تعد خطرة على التجار والحجاج المسالمين على الطريق من مصر إلى الجزيرة العربية، وعلى طول وادي الأردن. ولكن الأحداث أكدت بسرعة ان هذه المكاسب نفسها لم تعادل الخسارة التي ستلحق بإمبراطورية صلاح الدين من جراء التجمع غير المراقب للمسيحيين في صور.

الفصل السادس عشر
معركة عكا
١١٨٩م

عندما علمت أوربا بسقوط القدس دوّت صرخة شاملة من الأسى في كل مجلس ومعسكر وقرية. ورفرفت الأشرعة السود على السفينة التي حملت بطريرك صور، ثيسيوس **Theseus** الماضي، وكأن هذا المنظر الكئيب ينعي من بعيد "خبر الموت".

"إنه لمن الصعب"، يقول العالم الإنكليزي والمرجع في تاريخ الحروب الصليبية، "في هذا البعد من الوقت لاستيعاب حجم الكارثة في عيون العالم الغربي. لم يكن سقوط المدينة المقدسة فحسب، بل إن مشاهد تاريخ التوراة، التي كونت بالتأكيد أدب المسيحية في العصور الوسطى، قد انتقلت إلى أيدي المسلمين. كل هذا وأكثر؛ فمملكة القدس الصغيرة كانت المركز المتقدم الوحيد للكنيسة والثقافة اللاتينية؛ وكانت من صنع الأبطال في الحروب الصليبية الأولى، حيث كانت أعمالهم البطولية مواضيع لأكثر من قصة حب تدور أحداثها على حواف الشرق الغامض، بكل ما فيه من ثروة وذهب وحجارة كريمة وبضائع، التي توجه لها سيف الفارس في القرن الثاني عشر بالغريزة نفسها التي تقدم بها المغامر الإنكليزي أو الاسباني بعد أربعة قرون نحو الغرب.... فلسطين كذلك أوحت بالخيال والمغامرة وإيمان المسيحية في الغرب.

استرجاع ما قد فقد أصبح الرغبة الجامحة لكل فارس تقي، وطموح كل مغامر. أعلن البابا نداء النفير لحملة صليبية جديدة، ستمحو جميع الخطايا وتغفرها. وكان أول من حمل الصليب ريتشارد ملك انكلترا، كونت بواتو **Count of Poitou** في حينه. ملوك بريطانيا وفرنسا أنهوا خلافاتهم وتسلموا الأوسمة المقدسة من رئيس أساقفة صور. بالدوين حاكم كنتربُري **Canterbury** أسموها "ضريبة صلاح الدين" وهي عبارة عن عشر كل ما يملكه إنسان، جمعت في طول الأرض وعرضها. وفصاحة بيرتر حاكم

أورليان Berter of Orleans أشعلت حماسة فرنسا التي تجاوبت مع أناشيده التي سُمِعَ صداها في أهازيجهم.

اتقدت حماسة المسيحيين ولكن سير جيوشهم كان بطيئاً. وليام حاكم صقلية كان قد أغاث طرابلس في الوقت المناسب؛ لكن انكلترا وفرنسا عاودتا صراعهما الدائم وملكاهما لم يبدآن حملتهما الصليبية الترفيهية حتى صيف ١١٩٠م. وحده بين جميع أمراء أوربا، فريدريك بارباروسا Frederick Barbarossa الذي بلغ السبعين من عمره لم تطفئ جذوة نار فروسيته المتأصلة فيه، قاد جيشه العرمرم من ألمانيا عبر الأرض اليونانية في أيار ١١٨٩م، لكن المحارب المسن الشجاع لقي حتفه في المياه السريعة لـساليف Salef وبقايا جيشه وحدها تقدمت ببطء وصراع إلى ميادين القتال في فلسطين.

حينها لم يكن الافرنج في مكان الحرب ساكنين. فالملكة سيبيلا Sibylla طلبت من صلاح الدين الوفاء بوعده الذي قطعه في عسقلان؛ وأحضر زوجها جاي مع عشرة من زملائه المسجونين في دمشق إلى صلاح الدين في طرطوس سنة ١١٨٨م حيث تعهدوا بشرفهم فرساناً أن لا يحملوا سلاحاً ضده أبداً، فأطلق سراحهم. ماركيز مونتفرات أرسل إلى ابنه في صور؛ همفري حاكم تورون أعيد إلى والدته، أرملة ريجنالد حاكم شاتيلون؛ الملك جاي وأخوه مع سيد الهيكل انضموا إلى سيبيلا ودبروا معاً خططاً للانتقام في طرابلس وانطاكية. وكانوا جميعهم قد أعفوا من قسمهم(٥٥)، ولم يضيعوا وقتاً لمكافأة طيبة وإيمان صلاح الدين وكرمه بطريقتهم المعتادة.

عدد من الفرسان تطوعوا حول لواء جاي، وكان على رأسهم الملك والملكة وتقدموا إلى صور. ولكن كونراد حاكم مونتفرات رفض بشدة الاعتراف بسلطتهم أو السماح لهم بدخول المدينة، التي قال أن الله قد سلمه قيادتها. أجبر الملك والملكة على نصب معسكرهم خارجها، وبعد بعض المناوشات الناجحة مع العرب في مواقعهم المتقدمة، أمام قلعة الشقيف على بعد ١٥ ميلاً. أمر جاي الاسطول الصقلي باللحاق به وهو يتقدم على الشاطئ، وهاجم بجسارة عكا في آب عام ١١٨٩م.

قوة الملك كانت متدنية جداً بالنسبة إلى ما يمكن لصلاح الدين أن يجمع ضده. تقديرات المؤرخين تختلف، وأي من هذه التقديرات يمكن أن تأخذ على أنها أكثر من تخمين تقريبي، ولكن ما جاء في اليوميات "Itinerary " كان جيداً مثل الآخرين. جيش جاي مع جنود بيزا Pisans الايطاليين الذين حضروا جميعاً مع الملك، قدروا بـ ٩٠٠٠ رجل من جميع الأمم، منهم ٧٠٠ فارس؛ ولكن بعد بضعة أيام "زارتهم نجمة الصباح من الأعالي؛ ورأوا خمسين سفينة من النوع الشراعي الذي يدعى كوغز Coggs (أي ذو الأسنان) وعلى متنها ١٢٠٠٠ رجل". هؤلاء كانوا من الدنماركيين والفريزيين "رجال بنية ضخمة، وتصميم لا يقهر، وإيمان حميم". وبذلك يصبح المجموع ٢١٠٠٠ رجل. بهاء الدين قدر جيش الافرنج بـ ٢٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠٠ من المشاة، ويزيد بأنه لم يسمع بأن أحداً قدرهم برقم أقل، وان "التعزيزات كانت باستمرار تصل إليهم عن طريق البحر". كان حقيقة أن جيمس حاكم اڤيسنيز James of Avesnes انضم إلى المحاصرين لعكا، الذي دعي نصطور Nestor في النصح، وأخيل Achilles بالفروسية، وريقيولاس Regulus في الشرف والوفاء بالوعد. كذلك فعل مطران بوڤيه Beauvais "الذي كان مصيباً هو تربين Turpin إذا استطاع أن يجد شارلي Charles". مع آخرين قدر المسيحيون جيش صلاح الدين بعدد أكثر من عددهم، لكن لم يحاول أي جانب إعطاء أرقاماً مؤكدة.

حان الوقت للسؤال عما كان يفعله صلاح الدين ليسمح بتجميع قوات الملك ويسمح له بالتقدم نحو عكا. بعد سقوط كوكب في كانون الثاني ١١٨٩م، فقد زار هو وأخوه العادل القدس حيث قضى أيام عيد الأضحى هناك؛ تم تفقد عسقلان وبقي في عكا حتى آذار. وقد ترك ضابطه الكبير قراقوش، باني قلعة القاهرة، قائداً للحامية من الرجال المصريين المجربين، وقد أمر بإصلاح أسوار القلعة العظيمة على شاطئ البحر، لتكون عاصمة لفلسطين، عاد إلى دمشق. في نيسان، وفي لحظة مشؤومة، تقدم لاحتلال قلعة الشقيف التي يحميها الهيكليون، شرقي صور، وهي كل ما تبقى للمسيحيين في الداخل ماعدا قلعة حصن الأكراد الواقعة على صخرة مسننة مطلة على جبال لبنان، التي تحدت المسلمين حتى عام ١٢٨٥م.

ولو أن صلاح الدين استشار حظه لأدرك أنه قد خانه في هذه المناسبة وقاده إلى الاتجاه الخاطئ. وكان بالإمكان الهجوم على الشقيف بقوة معتدلة في حين أن السلطان يخصص قوته للعمل المهم في سحق قوة الملك القليلة من جيشه قبل أن تقوى كثيراً. لكن الذي حدث أنه أضاع أربعة أشهر ثمينة أمام الشقيف، بينما ذكرى حطين، بعد مرور سنتين عليها، بهتت من أذهان المسيحيين، وتجاسر العدو بغضبه يوماً عن يوم.

ريجنالد حاكم صيدا، أحد القلائل الذين نجوا في حطين، قاد الشقيف، وقدم خدمة لا يمكن تقدير قيمتها للقصد النبيل. فقد رأى أن أحسن شيء هو كسب الوقت، ولكونه دبلوماسياً قديراً، فقد بدأ بعمل "نثر الغبار" في عيني السلطان الحادتين. كان يتكلم العربية، ودرس تاريخ وآداب الإسلام. ذكاؤه لم يساوه إلا أخلاقه المذهلة. وباستعمال هذه الميزات، ذهب لخيمة صلاح الدين، وأقر بأنه هو نفسه خادمه المخلص، ووعد باستسلام القلعة دون أية ضربة، إذا سمح له بثلاثة أشهر ليحضر عائلته والمعتمدين عليه من صور، لأنه كان يخاف من تأثر مركيزها. وبعد الاستسلام، لم يكن هنالك شيء يريده أفضل من العيش في دمشق، في قصر السلطان الزاهر وبمخصصات مناسبة. حتماً من خلال محادثاته العديدة مع صلاح الدين، اكتشف الوغد الذكي نقاط الضعف لدى صلاح الدين؛ بدأ بالبحث بمسائل دينية جدية، وتجادل معه صلاح الدين بعقلانية، وبما لا شك فيه أنه رحب بالأمل العزيز لدى المبشر العادي بأن يعتنق الدين الإسلامي بتحوله للإيمان الحقيقي.

لكن "دائرة المخابرات" لدى السلطان كانت غير مؤهلة إطلاقاً لكي تنذره بأن حاكم الشقيف كان صديقاً مهماً وحليفاً لمركيز مونتفيرات، ولم يكن من الممكن إطلاقاً أن يتآمر ضده. بدأت الشكوك أخيراً تزعج تفكير صلاح الدين بضيفه المدهش، ولكنه كان مرتبطاً بوعد ثلاثة الأشهر من الهدنة ولم يستطع عمل شيء حينها. عندها اكتشف أن ريجنالد كان يراوغه طوال الوقت، فبينما كان الحاكم المحترم منفتحاً للحوار الديني كانت حاميته تقوي الدفاعات؛ وكانت القلعة أبعد ما تكون عن التسليم. بالرغم من كآبة خيبة الأمل

إلا أن صلاح الدين أظهر كرماً غير عادي بالإبقاء على حياة الدبلوماسي ولكنه ربطه بالسلاسل. في نهاية نيسان إلى آب، حيث كان الملك جاي مستعداً للتقدم نحو عكا.

كان هناك الوقت الكافي لملاحظة الهجوم. تحركات الملك حول صور لم تكن سرية، وكان لصلاح الدين قواعد متقدمة هناك، حتى أنه في أوائل تموز جرت أكثر من مناوشة مع قواته على الجسر فوق نهر الليطاني. كان من عادة صلاح الدين أن يركب يومياً ليستكشف، كون معسكره في مرج عيون قريباً من الشاطئ ومن قلعة الشقيف، وهو نفسه شاهد إحدى هذه المناوشات التي كان للافرنج الغلبة فيها. حتى أنه قام بجولة سريعة إلى عكا في تموز، ليأمر بزيادة الاستحكامات ويراقب عن كثب عمل حاميتها. ومع أن شعوره كان واضحاً بخطر هجوم المسيحيين. إلا أنه أبقى جيشه أمام قلعة الشقيف حتى اكتشف مكر حاكمها، ولم يكن ذلك حتى حلول ٢٧ آب، وبعد سماعه بأن الافرنج كانوا حقاً في طريقهم، حين أصدر أوامره للجيش بالتحرك نحو عكا. ترك فرقة كافية لتحاصر الشقيف، التي استسلمت بعد سبعة أشهر، وبدون شك كان باستطاعته احتلالها بالطريقة نفسها وقبل ثلاثة أشهر، ومن ثم يذهب ليلاقي العدو[٥٦] مرة ثانية.

أخيراً سار المسلمون على الطريق ليلاً نهاراً. اتخذوا الطريق السهل بالقرب من طبرية ومن ثم توجهوا عبر الطريق الكبير الغربي مروراً بكفر كنا إلى الخروبة[٥٧] حيث لحقت بهم فرقة قادمة من جبال تورون **Toron** لمراقبة الأعداء. فأرسلت كتيبة من جيشه، والمعدات والرجال وضعت في القلعة المهددة؛ والجيش بكامله عسكر على التلال مقابل عكا بعد ثلاثة أيام من مغادرتهم الشقيف.

كان الملك جاي قد وصل هناك قبل يومين، في ٢٨ آب في عيد القديس أوغستين، ونصب معسكره على جبل تورون **Toron** تلة المصلين، وتدعى الآن تل الفخار مقابل بوابة المدينة. كان هدف صلاح الدين الالتفاف حول جناحي العدو ومحاصرة المحاصرين؛ فقد وضع قواته من نهر بيلوس **Belus** حتى تلة العيادية، واضعاً قيادته على تل

كيسان Tell Keysan . وبعد شهر تقدم أكثر إلى الشمال لكي يتمكن من وضع قواته على امتداد الخطوط إلى فوق شاطئ عكا، ونقل قيادته إلى العيادية el - Ayyadiya .

"إذا كانت طروادة قد اشتهرت بعد حرب دامت عشر سنوات؛ وإذا شرف انتصار المسيحيين انطاكية ؛ فلا شك في أن الشهرة الخالدة تخص عكا، المدينة التي قنع بها جميع العالم". تقع على لسان من الماء يمتد إلى الجنوب حيث يقع خلفه الميناء المحمي من الغرب ومن الشمال. الحي الشمالي المدعو موسارت Musart لم يكن قد بني في زمن صلاح الدين وكانت المدينة تقاس بثلاثة أرباع الميل طولاً وبربع الميل عرضاً. أسوار قوية وقلاع كانت تحمي المدينة براً من الشرق والشمال؛ والبحر يحميها من الجهات الأخرى. من ضمن الدفاعات كانت القلعة الملعونة Turris Maledicta في الزاوية الشمالية الشرقية التي سميت كذلك لأن الخرافة ربطتها برشوة يهوذا Ju-das (يهوذا الاسخريوطي الذي سلم المسيح عليه السلام إلى الجنود الرومانيين مقابل ثلاثين من الفضة). والميناء كان محمياً بسلسلة متينة من الحديد وبقلعة صخرية لا تقهر تدعى بقلعة الذباب Tower of Flies لسبب تافه لأنها كانت في يوم من الأيام مكاناً شيد للتضحية. التحصينات الأمامية للمدينة كانت تشرف على السهل الكبير لعكا، عشرون ميلاً من الشمال إلى الجنوب يُرويها فرعان عظيمان من نهر بيلوس، وينابيع كثيرة أخرى. يحدها من الجنوب نهر كيشون Kishon الذي يجري موازياً للحاجز العظيم لجبل الكرمل Mount Carmel ويصب في البحر قرب حيفا على أقصى الخليج. تلال منعزلة وليست بعالية شكلت مراكز عسكرية على بعد خمسة أميال من الشاطئ، وبعد بضعة أميال خلفها الامتداد الجنوبي لجبال لبنان ألّف الحد الشرقي للسهل، وخدم صلاح الدين حينها ملاذاً من مرض الملاريا في الأراضي المنخفضة في الشتاء، والتراجع من قوات تفوقه قوة، وكموقع مناسب للمراقبة.

لم يكن الافرنج بتلك القوة التي تسمح لهم بمحاصرة المدينة تماماً، والجناح الأيمن للعرب تحت قيادة الشجاع دائماً تقي الدين، اخترقوا بسهولة طريقهم في (١٥-١٦ أيلول). وصلاح الدين نفسه دخل

عكا وفحص مواقع العدو من الاستحكامات. كما وزارها أيضاً بهاء الدين حيث قال: "تسلقت إلى أعلى السور كما فعل الجميع ثم قذفت العدو بأ ول شيء وصلت إليه يدي". كان المكان محمياً بقوة ومجهزاً جيداً، ولم يكن هناك خوف حالي من احتلاله أو تجويعه. المناوشات الدائمة كانت دائماً قائمة بين الجيشين، وقد اعتاد الجنود تلك الحالة حتى أنهم كانوا يتوقفون في أثناء القتال لتبادل الأحاديث. وعندما يتعبون من المناوشات كانوا يرسلون الصبيان من كل طرف ليناوش بعضهم بعضاً. ولسوء حظهم، بينما الكبار يؤلفون حلقة للمراقبة بروح رياضية. ومن ناحية أخرى نقرأ عن أعمال بربرية قام بها الجانبان، من البدو الشرسين الذين استأجرهم صلاح الدين، الذين كانوا يقطعون رؤوس المسيحيين ويجلبونها له ليكافئهم عليها. كذلك عن النساء المسيحيات اللواتي يقمن بسحب السجناء الترك من شعرهم، مسيئاتٍ لهم بشكل مشين، ثم يقطعن رؤوسهم بالسكاكين.

هذه المناوشات المختلفة قادت إلى اشتباك عام قاد بدوره إلى نهاية الحرب تقريباً. ففي الرابع من تشرين الأول، عند شروق الشمس، كان الافرنج في حركة. وجيوشهم قد امتدت بشكل نصف دائرة حول عكا، على خط طوله ميلان من البحر وحتى نهر بيلوس، ليجابه طول الخط العربي المركز للمعركة. كان رماة السهام، والرماة كالعادة في المقدمة، والفرسان خلفهم. يتقدمون في أربع فرق، الملك قاد الميمنة والانجيل **Gospel** محمول أمامه مغطىً بالحرير، والفرقتان في الوسط كانتا بقيادة كونارد حاكم مونتفرات ولويس لاندجريف حاكم ثورنجيا **Louis, Landgrave of Thuringia**، حينما حشد الهيكليون الميسرة. صلاح الدين نفسه قاد وسط المسلمين وابناه الفاضل والزاهر على يمينه، وعلى يمين الوسط كانت الفرق من الموصل وديار بكر، والجناح الأيمن الممتد حتى البحر تكون من قوات جيدة من شمال سورية بقيادة أفضل قائد عند صلاح الدين، ابن أخيه تقي الدين. إلى اليسار من الوسط كانت العشائر الكردية من دجلة يقودها شيوخها، مع المجندين من سنجار والذين يتبعون كوكبري من حاران؛ بينما الجناح الأيسر مؤلف من قوات مختارة متمرسة من مماليك شيركوه، فاتحي مصر قديماً. وهكذا فإن أكثر

المواقع حساسية، كانت أقصى اليمين وأقصى اليسار، سلمت بأمان إلى زهرة جيوش العرب؛ ولكن الوسط، وبعدم الأخذ بوجود القوات الخاصة لحماية صلاح الدين، اشتملت على عناصر مشكوك فيها من المجندين القليلي الخبرة من وادي الرافدين وكردستان.

معركة عكا بدأت في الساعة الرابعة من شروق الشمس بهجوم الافرنج على الجناح الأيمن العربي. وبدلاً من انتظارهم أمر تقي الدين قواته بالتراجع حسب طريقة الترك، بغاية جرّ قوات العدو إلى الأمام ومن ثم يناور ليضربهم في الجنب. صلاح الدين للأسف ظن أن هذه الحركة هي تراجع، وأرسل قسماً من قواته في الوسط للمؤازرة.

وبتقوية الميسرة استطاعوا دحر الافرنج إلى الداخل. ولكن خلال ذلك لاحظ العدو ضعف الوسط تحت قيادة صلاح الدين، وانتهزوا الفرصة وتقدموا نحوه بقوة، الخيالة والمشاة متماسكين معاً وبقوة. وعندما اقتربوا بمسافة معقولة رمى المشاة بسهامهم وتقدم الفرسان إلى الأمام وقاموا بضربة حديدية كاملة القوة على العرب. معظم ثقل هذا الهجوم الشديد جاء على رجال ديار بكر، الذين تفرقوا بلا انتظام وهربوا من الميدان. ولم يسمع عنهم إلا عند الجسر قرب بحيرة طبرية، في طريقهم إلى دمشق! فالفرسان غير المنضبطين والمنفعلين بحرارة كما لم يحدث من قبل، تبعوا العدو الهارب إلى القيادة فوق التل، عبثوا بالمعسكر ودخلوا خيمة صلاح الدين، حيث تلهى الكونت دي بار **Count de Bar** بالنصر. وعندما نظروا حولهم رأوا أن هجومهم لم يسند، وكانوا قد فصلوا عن أصدقائهم. فكان عليهم الآن الرجوع بأسرع ما يمكن. ميسرة صلاح الدين لم تكن قد أصيبت، وبقيت ثابتة. فجميع من تبقى في الوسط وتمسك بهم حتى مر الافرنج المنتصرون عائدين من معسكره. ثم وبصرخته الشهيرة للحرب "يا الله لأجل الإسلام"، رمى بكل ثقله على مؤخرة جيشهم، داعياً الميمنة والميسرة لقواته للاشتراك في الهجوم العام، بينما حامية عكا كونت تشكيلة مؤقتة جيدة. النتيجة كانت الهزيمة المنكرة للعدو (المسيحي). وعندما شاهدوا زملاءهم يهربون، اعترى الفرق الأخرى الهلع وهربت لمعسكرها على التل، حيث تمكنت من

صد هجوم ملاحقيهم بصعوبة.

في هذا الصخب، أنقذ الملك نفسه منافسه كونارد حاكم مونتفرات من خطر محدق. أندروحاكم بريين **Andrew of Brienne**، زهرة الفروسية، ذبح بينما كان يجمع رفقاه، أمام شقيقه الذي تركه لمصيره. ورأى خيال جيمس حاكم افسنيس يسقط من على حصانه، وبمخاطرة شديدة أعطاه حصانه ليهرب به، حيث قتل الخيال وأنقذ بنبل حياة سيده. ولكن أكبر خسارة في ذلك اليوم كانت مقتل سيد الهيكل، جيرارد حاكم رايدفورد، الذي حرك طموحه وكرهه العداوة بين المسيحيين وجعلتهم يقتلون الكثير من العرب، وبهذا انتهت حياته العاصفة على أرض ميدان عكا.

لقد رفض الهرب، ومات موت الجندي. حتى النساء حاربت كالرجال بجانب اخوتهن في السلاح، ولم يتوفقن إلا بعد أسرهن. كان يوم الأبطال والنساء الجبارات " **Amazons**" . الافرنج اعترفوا بمقتل ١٥٠٠؛ ولكن بهاء الدين، الذي شاهد الجثث تلقى في النهر، قدر عدد موتى الافرنج بـ ٤٠٠٠ قتيل.(٥٨) وعلى الجانب الإسلامي كانت الخسارة بسبب الفرار أكثر ممن ذبحوا. فرقة ديار بكر اضمحلت، ومما تبقى من فلولها سجل مقتل ١٥٠ محارباً غير ذي مكانة مع قائد تركي وأمير آخر. الهلع كان له حساب كبير، والتفاوت في التقديرات كان غير واقعي. فتقديرات المسيحيين بخسارة المسلمين ١٥٠٠ خيال تتطابق أكثر مع حسابات الحرب.

الفصل السابع عشر
حصار عكا
١١٨٩م - ١١٩١م

أخفق صلاح الدين في دفع انتصاره قدماً. إلى حد أنه سمح لأعدائه المذعورين بحفر الاستحكامات ويكمنوا فيها بقدر أكبر من الأمن. في حين أنه سمح لرجاله بالراحة وأعاد النظام في معسكره المنهوب. كما يبدو فإن الجيش لم يكن في وضع مناسب ليتابع انتصاره. كان الجيش منهوكاً ونهب أتباعه المعسكر. حيث لم يتركوا إلا اليسير أو بالأحرى لا شيء للهيكليين الذين لاحقوهم مما أتعب الجند. فعقد مجلساً حربياً بعد ذلك بأسبوع حيث خاطب السلطان قادة فرقه قائلاً:

"بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. اعلموا أن عدو الله هذا، هو عدونا، قد دخل بلادنا ودنس أرض الإسلام. ولكن نجم النصر ظهر (بمشيئة الله) وسطع لنا، لم يبق سوى حفنة من قواتهم علينا أن ندمرها بحق. وهذا والله ما يجب علينا! وأنتم تعلمون أن جيشنا هذا ينتظر التعزيزات أن تصل إليه من الملك العادل، الذي سيأتي حتماً. أما بالنسبة إلى العدو، فإنه إذا استطاع البقاء في موقعه حتى ينفذ إلى البحر، فتصل إليه التعزيزات الكثيرة، واجتهادي أنه يجب علينا مقاتلتهم. وكل منكم يقوم بما يقوى عليه".

كان المجلس منقسماً والنقاش حاداً وأخيراً تقرر انسحاب الجيش إلى التلال، كي يستريح الرجال بعد خمسين يوماً من القتال. وعندما يستعيد الجيش نشاطه وتتم استعادة الفارين منهم عند ذاك يتكرر الهجوم. سمح صلاح الدين للمجلس أن يغلب حكمته الصائبة للمرة الثانية. فقد كانت سيطرتهم أكبر مما أراد الاعتراف به. كانت مهمته حقاً صعبة للابقاء على قوة مختلطة، والتغلب على الغيرة وعدم الرضا بين قادة جيشه المتنافسين. لكن خير تفسير لخضوعه لمثل هذا القرار غير العسكري، أنه كان مريضاً جداً.

كان معرضاً لنوبات حادة لما يسميه المؤرخون العرب "بالمغص"-والأرجح أنه كان مصابا بالحمى السورية الخبيثة- وشارك الأطباء الأمراء بأن نصحوا له بتغيير الجو. تعبه وهمومه المتواصلة في السنتين الماضيتين أثرت فيه كثيراً. وكان قد جاوز الخمسين، ويعمل أكثر من أي من رجاله. مسيراته الطويلة عبر البلاد وتعرضه لأنواع مختلفة من المناخ، ثم المرات التي نفذ فيها الحصار خلال فصل الشتاء البارد، والهجوم المفروض عليه على عكا في شهر آب الشديد الحرارة، وأخيراً المناوشات اليومية مع الافرنج، كان دائماً في حومة القتال حاملاً سلاحاً ثقيلاً، ولمدة أيام لا يفكر في طعام يقوته - كل ذلك كان كافياً لينهك رجلاً أصغر سناً، قد يكون هذا الضعف المرفوض سبباً لإصرار صلاح الدين على إتباع خطته، والنتيجة التي لا شك فيها. بالنسبة إلى الصليبيين، فإن روحهم المعنوية كانت محطمة وقد شلت حركتهم بسبب خسارتهم للآلاف من رجالهم، وباتوا محصورين بين الجيش العربي من جهة وأسوار عكا المسلحة من الجهة الأخرى. فعانوا من (حطين) ثانية لا عافية بعدها. وكان من السهل أن يرمي بهم في البحر. وما حدث من خطأ قاتل أمام صور تكرر أمام عكا. كان الوقت في مصلحة الافرنج للقيام بالتعزيزات في الخنادق والتمسك بالأرض إلى أن تصل التعزيزات. كان من الممكن للحصار أي ينتهي بنتيجة حاسمة في الخامس من تشرين الأول ١١٨٩م. بدلاً من استمراره الطويل المتعب لما يقارب سنتين أخريين، هذا الاستمرار الذي توج في النهاية انتصار الصليبيين.

التراجع إلى تلال الخروبة في ١٦ تشرين الأول كان له معنى أكثر من الراحة المؤقتة. فقد بدأ تساقط الأمطار، ولم يكن مجال للقيام بأي عمل اخر إلى حلول فصل الربيع. قضى الافرنج أشهر الشتاء يعززون مركزهم وذلك بحفر خندق عظيم، وعلى الرغم من توقف الافرنج عن العمل بسبب المناوشات. تابع صلاح الدين جمع المجندين. فانضم إليه العادل برفد من القوات المصرية، أمير البحر لولو **Admiral Lulu** وصل إلى عكا مع خمسين سفينة من الاسكندرية واستولى على بضع غنائم ثمينة وأنزل فرقة بحرية من عشرة آلاف بحار ليهاجموا العدو باستمرار. وقد اضحى القتال مستحيلاً لأن الطين كان من الكثافة بحيث أن الجيشين لم يتمكنا من وصول

أحدهما إلى الآخر. زار السلطان عكا ثانية بهيبة عظيمة واطلع على دفاعاتها ومخازنها، ثم صرف قواته إلى منازلهم وبقي هو في الخروبة مع حراسه إلى فصل الربيع. وفتح الطريق والدروب المؤدية إلى البحر. في أثناء ذلك كان هناك سبب جديد يفضي إلى عدم الارتياح. فقد وصلت أنباء بأن فريدريك بارباروسا **Frederick Barbarossa** قد تحرك عبر آسيا الصغرى (تركيا) حيث وصلت رسالة من الأرمن الكاثوليك - الذين كانوا مثل انبراطور القسطنطينية إلى جانب صلاح الدين - تنادي بالموت للصليبي القديم، وأخبرت السلطان أيضاً أن ابن فريدريك يقود الجيش نحو سورية. ولو علم السلطان بضعف قوة "الضيف" الألماني لما أضعف جيشه الرائع بإرسال فرقة كبيرة منه لقطع الطريق عليهم. وبالاستجابة لطلب السلطان وقدرة أمين سره بهاء الدين الذي زار الخليفة وأمراء وادي الرافدين في الشتاء، وأحضر جميع الرجال للحرب المقدسة، بينما توافدت القوات من حلب، حاران، سنجار، الجزيرة، الموصل، واربل على معسكره (الآن في تل العجول **Tell el Ajjul**) قرب العيادية خلال شهر أيار وشهر حزيران. كذلك خليفة بغداد أرسل رماحاً وسهاماً قاذفة للسهام والرماح الحارقة منها. لكن الكتائب السورية نقلت فوراً إلى الشمال لملاقاة خطر الاحتلال الألماني المرتقب، مهملة الضرورة الأكثر استعجالاً بتحطيم المحاصرين - الذين كانوا في الوقت نفسه يحاصرهم المسلمون - قبل أن تصل إليهم التعزيزات. كانت القوات الصليبيةأكثر قوة مما ذكرها المؤرخون ليثيروا مخاوف العرب. الحق يقال أن القتال لثمانية أيام في پنتي كوست **Pente cost** يظهر أن قوات الفريقين كانت متعادلة.

غلطة صلاح الدين ظهرت مؤلمةً جداً عندما رسا هنري حاكم شمبانيا **Henry of Chamagne** في نهاية تموز برفقة عشرة آلاف رجل، وعدد من الفرسان، والنبلاء، والأساقفة المحاربين. حتى ذلك الوقت بقي الحال كما هو. بينما كانت عكا محاطة جزئياً لم تكن منفصلة عن الاتصال بقوات صلاح الدين التي حاصرت العدو بدورها؛ المناوشات والمهاجمات المباغتة، الهجوم على الخنادق وتخريب آلات الحصار، كانت بمجملها لمصلحة العرب. براعة شاب

من نحاسي دمشق، الذي اكتشف سراً لصنع نوع من النار الاغريقية أحرقت حصار العدو وآلاته، سرّت صلاح الدين ولكن سروره كان أكثر بجواب الشاب عندما عرض عليه مكافأة فرفضها لأن ما فعله إنما هو في سبيل الله. أسطول محارب من الاسكندرية نجح في الوصول إلى الميناء في حزيران وجدد المؤن لمخازن المحاصرين. مباغتة الجناح الأيمن من المعسكر الإسلامي الذي ضعف لمغادرة قواته إلى الشمال، صدها العادل بخسارة كبيرة يوم عيد القديس جيمس St. James في ٢٥ تموز. سقط أربعة آلاف مسيحي على الأقل في ذلك اليوم حسب اعترافهم.(٥٩) لكن الشاهد العربي قدر خسارتهم بأكثر من الضعف. بين القتلى كان هناك نساء حملن السلاح وحاربن بشجاعة مع الفرسان. وقد ذكر عماد الدين بعد مضي فترة طويلة أنه سمع صراخ امرأة تحتضر على أرض المعركة. تأكد لصلاح الدين أنه لا ينوي أن يأمر بهجوم عام على استحكامات الملك؛ ولم يكن بإمكان الفرنجة أن يجربوا ثانية خسارة معركة ساحقة. فبعد يومين من هذا الاشتباك وصل كونت هنري Count Henry وتسلم قيادة الجيش.

هذه التعزيزات الكبيرة والأولى من تعزيزات عديدة تتابعت متوالية فغيرت الموقف. سحب صلاح الدين قواته مرة أخرى إلى التلال (١ آب)، وبذلك أصبحت عكا بعيدة عن الاتصال المباشر الذي أبقى عليه عن طريق الحمام الزاجل، والسباحين الأشداء. والقوارب الصغيرة السريعة في الليل. وقد كان للسلطان بعض مواساة عند تسلمه رسالة ودية من حليفه عادم النفع، الانبراطور اليوناني اسحق Isaac طالباً منه "أن لا يهتم كثيراً لوصول الألمان؛ فخططهم وأهدافهم ستعمل عملها في بلبلتهم"، الفرنسيون على الأقل كانوا قد وصلوا إلى المكان وحاصروا عكا حصاراً شديداً. السفن العربية ما زالت تشق طريقها بقوة لمساعدة الحامية؛ واحدة تسللت متخفية كسفينة فرنسية، لكن على العموم كان عليهم أن يغامروا بالمرور من بين الدروع. إحدى هذه المغامرات حدثت في أيلول. فقد وصلت ثلاث سفن مصرية محملة بالوقت المناسب، لم يكن هنالك طعام في المدينة يكفيها ليوم آخر. السفن الشراعية المسيحية هاجمت السفن القادمة بغتةً بينما كان الشاطئ يعج بجيش المسلمين يضرعون إلى الله بصوت عالٍ أن يحمي السفن. السلطان نفسه وقف هناك

بغضب وتشكك مراقباً المعركة "كالوالد الذي فقد ابنه". اشتدت المعركة ولكن لحسن حظ الحامية هبت رياح مؤاتية فتمكنت السفن الشراعية من الدخول إلى الميناء سليمة بين صيحات العدو الغاضبة، ودعوات المؤمنين الشاكرين لله.

وحالما دخلت السفن الميناء، قامت بحمايتها قلعة الذباب الشهيرة، التي تمركزت على صخرة عند مدخل الميناء، وحمت بجدارة كل سفينة مرت بجانبها. رد الصليبيون بمحاولة جادة لتدمير هذا الدفاع الشرير. أهل بيزا **Pisans** الذين كانوا معهم كانوا حاذقين الملاحة، جهزوا على سفنهم الشراعية أبراجاً عالية بحيث تطال برج قلعة الذباب لتنسفها أو تحرقها، وقد أُرسلت سفينة قاذفة للنيران إلى الميناء لتدمير السفن العربية التي قد تبحر للتدخل. ولكن الخطة أخفقت إخفاقاً فاضحاً. أهل بيزا تمكنوا من الوصول إلى القلعة ونصبوا السلالم عليها يحميها ضرب شديد من حصون سفنهم، ولكن بينما كانوا ينتظرون النجاح، تجمع المدافعون وضربوا مهشمين الفرق المهاجمة على السلالم بالصخور الكبيرة، ورمي نيرانهم الاغريقية التي أحرقت السلالم والحصون بين صيحات المسلمين الساخرة. السفينة الحارقة فقدت قيادتها بسبب رياح عاتية أطفأت نيرانها، مما سهل الاستيلاء عليها.

في أوائل تشرين الأول ظهر الألمان المخيفون؛ فقد وصل فريدريك دوق سوابيا **Frederick Duke of Suabia** عكا مع ألف رجل فقط. وعلى الرغم من عدم أهمية هذه المساعدة، فوجود ابن بربروسا رفع معنويات المحاصرين، وحماسه شحن نشاطاً جديداً للحرب. ولم يكن في بادئ الأمر ليرضى إلا بمحاربة العدو مواجهة؛ ولكن حرس صلاح الدين المتقدم، والذي كان مازال متمركزاً في العيادية **el - Ayyadiya**، وبمساعدة رجال الموصل الذين أمروا بالسير من تل كيسان **Tell Keysan** دحروا الصليبيين ببساطة. بعد هذا الفشل حولوا طاقاتهم ليشددوا الحصار بطريقة أكثر ابتكاراً. فاستعملوا لأول مرة كبش الحصار **battering ram** – ومن الملاحظ أن حامية عكا أصبحت ضعيفة جداً لتسمح لهم بالاقتراب أكثر؛ كانت عارضة خشبية ضخمة بمقدمة من الحديد تزن مائة وزنة **hundred weight**

(١١٢ رطل انكليزي) وقد جهزت بكلفة وجهد كبيرين من قبل رئيس أساقفة بيسانكون Besançon. كبش حصار آخر أو بور bore (الذي يفتح خرقاً مستديراً) ويدعى "القط" "Cat" له رأس محدد مثل سكة المحراث، ومعه سقيفة pent house تغطي الرجال الذين يعملون تحتها، وسفينة جهزت ببرج وجسر سحب ليسقط على برج الذبابة.

شن هجوم واسع في أوائل تشرين الأول، الآلات الحديثة سحبت إلى المدينة، والمهاجمون نزلوا في الخندق الطويل كالقناة ليتسلقوا الأسوار؛ عندما فتحت الحامية نيرانها الكثيفة من السهام الحارقة وكرات النار والحجارة والمسامير الغليظة من الأقواس والمقاليع والأقواس الفولاذية المركبة على أعمدة خشبية. هذا الهجوم اليائس دحر الفرنجة إلى الوراء، ثم وضعوا النفط على الكبش والقط وأشعلوا فيهما النيران، وأخيراً سحبوا الكبش المحترق بانتصار إلى داخل البوابة.

فرح الحامية فتر تقريباً في الحال بوصول تعزيزات كثيرة من أوربا. أخيراً ظهر للعيان أسطول انكليزي. فقد وصل كل من بالدوين رئيس أساقفة كانتربري وهيوبرت والتر وأسقف سالزبري والقاضي رانولف حاكم جلانفيل إلى صور مع الرجال والعتاد والمال في أيلول، انضموا للجيش أمام عكا في ١٢ تشرين الأول، حيث أعلنوا أن ملكي انكلترا وفرنسا كانوا حقاً في طريقهم للأرض المقدسة. أما القس الخاص لرئيس الأساقفة فقد أعطى صورة محزنة لمعسكر الصليبيين:

"وجدنا جيشنا (أقولها بحزن وزفرة) قد استسلم لعادات مشينة، وخضع للسهولة والشهوة بدلاً من تشجيع الفضيلة. السيد غير موجود في المعسكر؛ وليس هناك من يقوم بعمل جيد. الرؤساء يحسد أحدهم الآخر ويسعى للفائدة. أما الشعب الأقل قيمة فهم في عوز ولا يجد من يساعده. ليس في المعسكر عفة أو يقظة، إيمان ولا إحسان - الوضع الذي أدعو الله لمعاينته لم أكن لأصدقه لولا رأيته بعيني. الترك يحاصروننا، ويومياً يتحدوننا ويستمرون بمهاجمتنا، بينما فرساننا يتمددون متوارين في خيامهم بكل أمن

وطمأنينة، مثل الرجال المهزومين يسمحون للعدو باحتقارهم. قوة صلاح الدين تزداد يومياً، بينما جيشنا يضعف يومياً".

وصول الانكليز رد الروح في "الفرسان المتوارين". رجال الكنيسة حركوا حماستهم، إن لم يستطيعوا إصلاح أخلاقهم؛ رئيس الأساقفة الجليل نفسه رفع علم القديس الشهيد سانت ثوماس كانتربري St. Thomas of Canterbury وأمر الجيش بالتقدم إلى الحرب مع بركته؛ بينما أسقف ساليزبوري وقساوسة آخرون وأساقفة اشتركوا في القتال برباطة جأش. بدأ العمل العام قرب رأس النبع Spring Head (مصدر الجدول الغربي لنهر بيلوس) نحو ستة أميال جنوبي عكا، بدأ في ١٢ تشرين الثاني. كان هدف العدو جلب الامدادات من حيفا، لأن مؤنهم قاربت على النفاذ. عند رؤيتهم يتقدمون بقوة قامت النقطة المتقدمة للعرب بمناوشة حادة، انسحبوا من موقعهم المعتاد في تل العيادية إلى تل كيسان، وفي الثالث عشر تشكل الجيش نفسه في موقعين متقابلين تقريباً مطوقاً العدو الذي بالرغم من كل هذا تقدم إلى رأس النبع. الجناح الأيمن لصلاح الدين امتد من البحر إلى نهر بيلوس مواجهاً الشمال الشرقي، في حين أن الجناح الأيمن المتمركز على التلال واجه غربي النهر، قرب جسر داعوق Da'uk. تقدم الوسط بحماية احتياطي صلاح الدين الذي كان مع مركز قيادته على قمة جبل خروبة، بحيث يستطيع مراقبة السهل الأسفل بكامله؛ كذلك سيطر على تلة شفرعام Shafraamm، التي كانت سابقاً مركزاً حصيناً للهيكليين. استمر هذا الحال حتى الرابع عشر عندما عاد الافرنج لدى سماعهم بعدم توافر الطعام في حيفا إلى الشاطئ الشرقي متوجهين نحو جسر داعوق. حيث أطبق عليهم العرب بإحكام وعلى طول مسيرتهم بخيولهم الخفيفة يرمونهم بدبابيس الحرب والسيوف والرماح ساعين لاختراق منظم للصليبيين(٦٠)؛ وكان صلاح الدين يرسل بالإمدادات باستمرار إلى السهل من التل الخلفي؛ لكنهم اقتحموا بجسارة طريقهم إلى الجسر حيث عسكروا ليلاً وتجاوزوه في الصباح التالي. عادوا على الرغم من تعبهم إلى خنادقهم حاملين جرحاهم الكثر هناك حماهم احتياطهم، الذي خرج بقيادة جودفري حاكم لوسغنان وهنري حاكم شمبانيا واستطاعا أن يصدا المسلمين الذين لاحقوهم ويدحروهم،

وقادا بنفسيهما الحملة، ولكن الافرنج خسروا الكثير، وكان من بين قتلاهم فارس لفت انتباه بهاء الدين إذ قال عنه: كان على حصانه الذي ربط حوافره بسلسلة. وكانت الخسارة كبيرة أيضاً على خيرة حرس صلاح الدين.

وعلى الرغم من أن المعركة لم تكن فاصلة، إلا أنها شجعت العرب الذين رغبوا في متابعتها فوراً. فقد كانت اختباراً حساساً كما يظهر، ولكن ذي ريب، لأن صلاح الدين أرسل بأمتعته إلى الخلف لينجو نحو الناصرة. والحقيقة أنه كان للمرة الثانية مريضاً بالمغص والحمى، زاد انفعاله لعدم قدرته على الاشتراك في المعركة ومع ذلك فقد احتفظ بروحه التي لا تقهر؛ وعندما تحدث أحدهم عن المعاناة والموت بين المسلمين بسبب سوء الأحوال الصحية في السهل، استشهد صلاح الدين بالمثل العربي، "اقتلني ومالكاً؛ واقتل مالكاً معي"، وأشار عرضاً إلى معركة شهيرة حيث طلب البطل من زملائه أن يقتل خصمه متصارعاً معه على الأرض، حتى ولو كان في ذلك قتله هو. صلاح الدين كان على استعداد للموت مع كل قواته، إذا كان في ذلك موت الفرنجة أيضاً. ولكن عندما أسر بعض الصليبيين ذوي الرتب العالية في هجوم مباغت، استقبلهم صلاح الدين بعد فترة وجيزة بحفاوة كبيرة، وألبسهم أعبئة الشرف، وأعطاهم الفراء لاتقاء البرد القارس، وسمح لهم بالكتابة إلى معسكرهم لطلب ما يريدون وأرسلهم بروح مرحة وعالية إلى دمشق. من الأفضل أن تكون "ضيف" صلاح الدين من أن ترتعش من البرد أو تجوع في خيمة مسيحية. شتاء ٩١-١١٩٠م، أوقف جميع العمليات النشطة.

كان بؤساً شديداً على الصليبيين. فالكثير من رؤسائهم قد ماتوا، وخسروا ملكتهم سيبيلا؛ كذلك رانولف دي جلانفيل، ايرل فيريرز **Ferrers**، والايرل اخوكلير **Clare**، ولم يبق أحد من الانكليز. أما رئيس أساقفة كانتربري الهرم فقد توفي في تشرين الثاني حزيناً حتى الموت لاستباحة الحرمات من حوله. كونارد حاكم مونتفرات كان هو الوحيد الذي فاز بأولى خطوات طموحه بعدم تحرجه من الزواج بإيزابيلا، التي أصبحت الآن الوارثة لتاج القدس، بعد أن نجح بتخطيط طلاقها من همفري حاكم تورون، بعد ذلك انسحب إلى صور

ليغذي مشاريع الملكية، تاركاً الجيش أمام عكا لمواجهة قدره. "اليوميات" الانكليزية ملأى باللعنات على المركيز بسبب غَلاظة قلبه وعدم اهتمامه بالناس الذين يموتون والذين كان بالإمكان العمل على خلاصهم لأن المجاعة والمرض جلبا الدمار خلف الاستحكامات. كانت الذرة تباع بمئة قطعة ذهبية للكيس الواحد وبيضة واحدة ثمنها ست قطع من العملة الافرنسية القديمة (**deniers**). التجار الجشعون أبقوا على ارتفاع الأسعار مما أدى إلى جوع المعسكر. أحصنة الدماء **Blood Horses** ذبحت لتؤكل حتى أن الناس الجوعى أكلوا أحشاء الحيوانات التي نفقت لكبر السن والمرض. أكلوا الحشيش مثل الماشية، تقاتلوا عند فرن الخباز، قضموا العظام المجردة التي تركتها الكلاب. حتى النبلاء صاروا (لصوصاً). وتروى قصة محزنة كيف أن اثنين من الأصدقاء، لم يتبق معهم سوى آخر قطعة من العملة صرفوها في شراء ثلاثة عشر حبة من الفاصولياء، وعندما وجدا إحداها غير صالحة عادا مسافة بعيدة وأصرا على البائع أن يستبدل بها واحدة أخرى جيدة. حتى أن بعضهم طلب الرحمة بالتحول إلى الإسلام. القساوسة وبعض النبلاء الطيبين قدموا التبرعات للفقراء، ولكن كان هناك القليل الذي يستطيعون عمله. هذه الحالة من البؤس ضخمت من جراء الأمراض وحمى الرعدة التي تتولد من استمرار هطلان الأمطار التي استمرت حتى الصوم الكبير **Lent** سنة ١١٩١م. وعندما صار ركوب البحر أخيراً صالحاً للبحارة المذعورين في تلك الأيام، أنقذت سفينة ملأى بالذرة المعسكر من المجاعة. في هذه الأثناء قام صلاح الدين بإرسال معظم أفراد جيشه إلى بيوتهم وبقي وحده مع حرسه الخاص. كان أمراء وادي الرافدين أول من غادر في تشرين الثاني؛ وقد ظلوا حتى هذا الوقت بعد إقناعهم بصعوبة. لم يكن منتظراً من أحفاد زنكي المقهورين إظهار أية حماسة في خدمة من حل محلهم؛ ولكن بعيداً عن هذه الغيرة الطبيعية فإن أفراد القوات الشرقية لم يحتملوا فراق زوجاتهم وبيوتهم لفترات طويلة. تزويد عكا بالمؤن كان الشغل الشاغل لصلاح الدين خلال الشتاء. السفن الشراعية المسيحية رافقت كونارد حاكم صور بمناسبة زواجه، وصارت المدينة مفتوحة على البحر. أخفق رتل من السفن المصرية بالدخول في كانون الأول، لكن العادل المتمركز في حيفا نجح في إرسال

المخزونات، وقدم صلاح الدين في شباط حامية نشطة بإمرة قائد جديد. هذه الحامية الجديدة كانت أقل من القديمة. والذين غادروا كانوا أكثر من الذين أتوا؛ كذلك لم يكن القادمون الجدد متمرسين بالحصار، وقد اتهم صلاح الدين بعدم التروي والاهمال لاعتماده على مرؤوسين غير أكفاء أو مهتمين. وقد يعود ذلك لأسباب مرضه. تخليص عكا لم يتم دون الهجوم من جانب الافرنج، بؤسهم لم يحل دون إنقاذ عزيمتهم فالمجاعة لم تكن قد وصلت حدها السيء بعد، أما على الجانب الآخر فقد صدت الحامية هجماتهم وأسر صلاح الدين بعض السفن التائهة، بمساعدة الفارين من معسكر العدو.

هكذا كان الحال خلال أشهر الشتاء القاسي. في الربيع وجدت قوات الفرقاء المتخاصمين في الموقع نفسه؛ المدينة محمية جيداً وحتى ذاك الوقت كانت مزودة بما يكفي؛ صلاح الدين على التلال ينتظر عودة قواته؛ والمسيحيون بين الاثنين ضعفاء فاقدون الحماسة ومعطلو الإرادة، لكنهم متمسكون بمخيمهم الخندقي دون معارضة، سوى بضع هجمات متقطعة من الحامية أو مناوشات من المراكز المتقدمة لصلاح الدين، جاء الصيف بانقلاب كامل في العلاقات بين القوتين، ووجد العرب أنهم لم يعودوا المُحاصِرين بل المُهاجَمين. الحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد **Richard Coeur de Lion** كانت قريبة.

الجزء الخامس

ريتشارد وصلاح الدين

١١٩١م - ١١٩٢م

الفصل الثامن عشر
خسارة عكا
١١٩١م

أصبح ريتشارد ملك انكلترا Richard of England وفيليب ملك فرنسا Philip of France يقتربان من الأراضي المقدسة بعد أن أبحرا في صيف ١١٩٠م حيث كان تقدمهما بانشراح وكأنهما في رحلة استجمام على يخوت بحرية. التأخر الكبير في ميسينا Messina وقبرس Cyprus، وإخضاع الأولى وقهر الثانية، وزواج بيرينجاريا Berengaria، معروف في التاريخ، ولكنه كاد يسمح بتدمير الجيش مقابل عكا. وكان قضاء شهر عسل في قبرس طريقة غريبة في إنقاذ معسكر في مجاعة. وصل ملك فرنسا أولاً حيث استقبل في عيد الفصح بالأغاني والأهازيج وفيض من الدموع كأنه ملاك من عند الله. قام فوراً بنصب معدات حصاره، وفي أيار انهالت على المدينة قوة متجددة. أمين سر صلاح الدين (القاضي الفاضل) سجل في رسالة كيف أن الافرنج هاجموا بقلاع من الخشب، مقالع حجارة، أكباش وأدوات أخرى؛ وكيف أنهم جاهدوا في النهار ليحطموا الأسوار، وفي الليل عملوا في الخنادق وملأوها، أقاموا السلالم، ولم يتوقفوا ليلاً أو نهاراً. ثم بدأوا ببناء حاجز أرضي كالسور، وعليه قلاع مستديرة وأعلوه بالخشب والحجارة. بدأوا من معسكرهم وكلما تقدموا حفروا التراب من خلفه ووضعوه في الوجه الأمامي، وهكذا دفعوه للأمام على بعد مضرب نصف مسافة سهم من الاستحكامات. لا الحجارة ولا النيران أثرت فيه. بينما كان يشدد الحصار بحماسة، كان الملك فيليب ينتظر وصول ريتشارد بتكريم قبل أن يبدأ الهجوم العام.

كيف أبحر ريتشارد أخيراً من قبرس إلى عكا، وكيف أن توج الحصار بنجاح، فمن الأفضل قراءة "يوميات ريتشارد" المعاصرة. بالرغم من انحيازها لبطل انكلترا، فإنها تعطينا أدق التفصيلات والسرد القصصي الممتع عن الحصار العظيم مما لدينا.

"هكذا، بعد أن أتم هذه المسائل، بدأ ريتشارد رأساً باهتمامه

ا... ر الذي يقطعه (إلى الأرض المقدسة)؛ وعندما نظم متاعه أبحر برياح مواتية... ولكن للأسف! وصل الآن للخارج تقرير عن قرب احتلال عكا، وعندما سمع الملك هذا وبتنهدة طويلة صلى للمولى أن لا تسقط المدينة قبل وصوله، قائلاً: "بعد هذا الحصار الطويل يجب أن يكون انتصارنا بمشيئة الله، فخاراً غير اعتيادي". من ثم صعد إلى ظهر إحدى أحسن وأكبر سفنه الشراعية بسرعة عظيمة في فماغوستا **Famagusta** في قبرس؛ ولما كان لا يصبر على التأخير، كما كان دائماً، بقي في المقدمة بينما سفن أخرى أفضل من السفن الشراعية تبعته من جميع الجهات. وهكذا، بينما كانوا يمخرون عباب البحر بكل سرعة، رأوا أول لمحة للأرض المقدسة أعني القدس تبعتها قلعة مارجات التي كانت أول ما شاهدت أعينهم بوضوح؛ ثم طرطوس على شاطئ البحر، وطرابلس، نيفين **Nephyn**، بترون **Botron**، وليس بعيداً بعد ذلك القلعة العظيمة قبيليت **Gibeleth**. أخيراً شاهدوا جانباً من صيدا بالقرب من بيروت، ومن بعد شاسع سفينة ملأى بخيرة محاربي صلاح الدين المنتخبين، من جميع أنحاء البلاد متوجهين لمد يد العون لعكا المحاصرة. وعندما شاهدوا صعوبة توجههم رأساً إلى عكا نظراً لقرب المسيحيين إليها، تراجع العرب إلى الخلف في البحر قليلاً وانتظروا وقتاً للقيام بسرعة مفاجئة ودخلوا الميناء. فعندما لاحظ ريتشارد السفينة، نادى أحد رجال سفنه بيتر ديس باريس **Peter des Barres**، وطلب إليه التجديف بسرعة والسؤال عمن يقودها. عاد الخبر بأنها تابعة لملك فرنسا؛ ولكن لما تقدم ريتشارد بشوق نحوها، لم يستطع سماع أية كلمة فرنسية ويرى علماً أو راية مسيحية وعندما اقتربت بدأ يتعجب من حجمها، وقوة وصلابة بنائها. لأنها كانت مزودة بثلاثة أشرعة عظيمة الارتفاع وجانباها المصنوعان بدقة كانا محليين هنا وهناك بجلود خضر وصفر.[٦١] فوق ذلك فقد كانت مجهزة بكل الأدوات اللازمة وممونة جيداً من جميع الأنواع حيث لا تترك مجالاً أو أسلوباً للتحسين...

"بأمر من الملك بدأت إحدى سفنه بمتابعة السفينة الغريبة بأقصى سرعة. وعندما رأوا هذا بدأوا يطلقون السهام والسهام الصغيرة على بحارة السفينة الشراعية عندما سارت بجانبهم دون تقديم أية تحية. ملاحظاً ذلك أمر ريتشارد بهجوم فوري. على

الجانبين كانت المقذوفات تصل مثل المطر والسفينة الغريبة سارت ببطء لأن المجذفين كان عليهم أن يخففوا من سرعتهم ولم يكن هناك كثير من الرياح. مع ذلك، وبالرغم من دوران سفننا الكثير حول العدو، فإنهم لم يستطيعوا إيجاد الفرصة المناسبة للهجوم؛ حيث كانت السفينة قوية البناء وملأى جيداً بالمحاربين الذين استمروا برماية السهام الصغيرة بشدة وبدون انقطاع... ظهر التعب والتراخي على جنودنا، متعجبين من الشجاعة المنقطعة النظير. الملك ريتشارد الذي لم يغلب أبداً كان سيقرر أحسن طريق يسلكها في هذه الظروف. لكنه نادى بجسارة على رجاله هكذا: "ماذا! هل ستتركون هذه السفينة تذهب سليمة غير مصابة؟ العار عليكم! بعد كل هذه الانتصارات هل ستتركون البلادة تسيطر عليكم الآن وتستسلمون كالجبناء؟

أبداً، مادام أي عدو باقٍ،
حتى تطلبوا الراحة.

هل تعلمون جيداً، وجميعكم، أنكم تستحقون التعليق على المشانق لتموتوا إذا تركتم هؤلاء الأعداء يهربون".

عند سماع هذه الكلمات قام رجال الأشرعة، صانعين الفضيلة من الضرورة، يقابلها بالعربية: للضرورة أحكام، غطسوا بشوق إلى البحر تحت سفينة العدو وربطوا ذراع الدفة بالحبال حتى يميلوا السفينة على أحد جانبيها ويعيقوا تقدمها. وآخرون، دفعوا جانبيها بقدرة كبيرة وتصميم، أمسكوا بالحبال وقفزوا على سطحها. كان الترك مستعدين لهم وذبحوهم فوراً، قاطعين ذراع رجل، ويد رجل آخر أو رأسه، قاذفين بجثث الأموات إلى البحر. هذا المشهد أثار حمية المسيحيين الآخرين وحفزهم بشجاعة عظمى... حين تهافتوا على سطح السفينة ملقين بأنفسهم على الترك غير راحمين من قاوم منهم. "ولكن الترك الذين انقطع أملهم تشجعوا واستعملوا كل الوسائل لدحر رجال الأشرعة، ونجحوا في قطع رجل هنا، أو يد أو رأس هناك؛ بينما أعداؤهم، سيطروا على أعصابهم وساقوا الترك إلى الخلف حتى مقدمة السفينة. عند هذا صعد الترك الباقون

بسرعة من مخازن السفينة وتجمعوا كجسم واحد مع زملائهم، وقاوموا بشدة عظيمة، حيث كانوا مصممين على الموت بشجاعة أو دحر محاربيهم كالرجال. لأنهم كانوا زهرة شباب الترك - فرقة متمرسة في الحملات الحربية جيداً. وهكذا استمر القتال وسقط في كل مكان ومن كل جانب حتى أخيراً قام الترك بضغط أكبر وشجاعة، مرغمين رجالنا على التقهقر وأجبروهم على ترك السفينة. وقام رجالنا بموجب هذا بالرجوع إلى أشرعتهم وعاودوا مرة ثانية الدوران حول السفينة، يبحثون عن مكان مناسب للهجوم.

خلال ذلك، لاحظ الملك الخطر المحيق برجاله، ورأى أنه ليس سهلاً الاستيلاء على السفينة التركية وجميع أسلحتها ومخازنها سالمة. أصدر أوامره لجميع سفنه الشراعية أن يثقبوا السفينة بمقدمات سفنهم (أو مناقيرها). وبناء على ذلك، قامت الأشرعة بعد أن ابتعدت قليلاً للوراء، بالتقدم إلى الأمام مرة أخرى تحت قوة المجاذيف العديدة لخرق جانب سفينة العدو. بهذه الطريقة خرقت السفينة فوراً[٦٢]، وبإيجاد فجوة للمياه بدأت تغرق؛ بينما الترك لتحاشي الغرق بسفينتهم قذفوا بأنفسهم إلى البحر حيث إما ذبحوا أو غرقوا. وقد أبقى الملك على حياة ٣٥ منهم ليكونوا شهادة لدى الأمراء والخبراء وليستفيدوا منهم بعمل الآلات الحربية. الجميع غيرهم هلكوا، والمعدات الحربية فقدت، والجنود (الأفاعي) مزقوا أو كانت تتقاذفهم الأمواج هنا وهناك.

لو وصلت تلك السفينة إلى عكا لما استطاع المسيحيون الاستيلاء على المدينة وهكذا كتب الله الهزيمة على المسلمين، وهكذا فاز المسيحيون على يدي الملك ريتشارد ومحاولاته الحربية التي انتعشت دون انقطاع...

بعد أن أغرق السفينة، أسرع الملك ريتشارد ومن برفقته فرحين ناشطين نحو عكا، حيث كانت هذه رغبته وأمنيته منذ زمن بعيد. وشكراً للرياح المواتية في الليلة التالية كان أسطوله يلقي مراسيه خارج صور. صباح اليوم التالي قام مبكراً وأسرع مبحراً مرة أخرى، ولم يبتعد كثيراً حتى شاهد منظر المكان الذي ذكرناه سابقاً-

سكانداليون Scandalion؛ ومن ثم مرب كاسال امبرت Casal Imbert وبعدها شاهد القلعة الشاهقة لعكا من بعيد، ثم بعد ذلك بالتتالي التحصينات الأخرى للمدينة.

"وهكذا أُحدق بعكا من جميع الجهات بعدد غير محدود من البشر من كل بلد مسيحي تحت السموات - المحاربون المختارون من جميع أرض المسيحية، رجال كاملو التسليح ليخوضوا في مخاطر الحرب... وبعدهم يصطف جيوش لا عدد لها من الترك منتشرين في الجبال والوديان والتلال والسهول، وخيامهم منصوبة في كل مكان زاهية من جميع الألوان والأشكال. ويستطيع رجالنا رؤية زوجي الأسود الخاصة بصلاح الدين وغيرهما لأخويه صفا الدين[٦٣] Saphadin وتقي الدين بطل الإسلام. بقي صلاح الدين يراقب شواطئ البحر والموانئ من غير أن يتوقف عن حث الهمم للهجوم المتكرر القاسي على المسيحيين. ونظر الملك ريتشارد أيضاً ليقدر عدد قوات أعدائه؛ ولما وصل إلى الميناء لقيه ملك فرنسا مع قادة الجيوش، جميع اللوردات والرجال الأقوياء رحبوا به بفرح وابتهاج؛ لأنهم كانوا منتظرين قدومه بلهفة منذ زمن . وفي الثامن من حزيران، ١١٩١م. الموافق نهار السبت قبل عيد القديس الرسول بارناباس Barnabas، وفي أسبوع عيد العنصرة (سابع أحد بعد عيد الفصح) وصل الملك ريتشارد إلى عكا. جميع الأرض اهتزت بفرح عظيم من قبل المسيحيين. لأن جميع الشعب كان في زهوة يهنئون بعضهم ونافخين في الأبواق. أنزل إلى الشاطئ بصيحات الفرح؛ وكان هنالك فرح عظيم لأن المرغوب فيه لدى جميع الأمم قد حصل..."

منذ افتتاح الموسم اتخذ صلاح الدين مراكزه على تلال العيادية (٥ حزيران)، ومن هنا قام بعدة هجمات على خنادق العدو. وكانت الحامية مضغوطة بشكل كبير؛ فكان هناك مشقة في تنظيف الخندق الطويل يومياً من جثث الخيل والرجال التي ملأها الافرنج. زاد في الصراع الدائم لصد الهجمات القوية وتدمير آلاتهم، كل هذا أتعبهم. وكان هدف صلاح الدين الرئيس هو لفت انتباه الأعداء للوراء باستمرار مناوشاته لخنادق المعسكر، ليلاً نهاراً، حتى يخفف

الضغط عن حامية عكا. لم يكن قد استعاد كل قوته بعد بالرغم من وصول قوات شمالي سورية التي انضمت إليه مبكراً؛ ولكن في أواخر حزيران وصلت إليه تعزيزات كبيرة من مصر ومن وادي الرافدين. لم يتعب في تعبئة المجندين وجميع مراسلاته ملأى بالتوبيخات لبطء مساندة الأمراء المسلمين للحرب المقدسة. حتى أنه أرسل سفارة إلى المهدي **Almohade** خليفة المغرب داعياً لمساعدته. وبعد وصوله بقليل، مرض ريتشارد بحمى البلاد التي يدعوها الافرنج بـ أرنولديا **"Arnoldia"**: ولكن "بالرغم من هذا وطول مرضه استمر ببناء مقاليع الحجارة والمجانيق وتشييد قلعة أمام بوابة المدينة" مثل الـ ميت جريفون **"Mate Griffon"** أو كيل جريك **"Kill Greak"** القلاع التي بناها بنجاح ضد مسينا **Messina** وأحضرها الآن إلى عكا. فيليب مرض أيضاً بالطريقة نفسها لكنه شفي قبله.

"عندما شفي ملك فرنسا من مرضه تفرغ للآلات ونصب مقاليع الحجارة في أماكن مناسبة، حيث جعلها تعمل ليلاً نهاراً. كان لديه آلة جيدة تدعى "الجار السيء" **"The Bad Neighbour"** وداخل المدينة كان لدى الترك آلة أخرى دعوها "القريب السيء" **"The Bad Kinsman"**، التي بمساعدتها استطاعوا عدة مرات تدمير الجار السيء. استمر ملك فرنسا من ناحيته في إعادة بناء آليته حتى أنه بضرباته المستمرة هدم قسماً من السور الرئيس للمدينة وضرب القلعة الملعونة **Accursed**. وفي جانب عمل مقلاع ديوك بيرقندي **Burgundy** حيث أفلح بتأثير عظيم؛ وفي الجانب الآخر أوقع الهيكليون ضرراً كبيراً بالترك، في حين أن الهوسبتاليين - كانوا خائفين أيضاً من الترك - استمروا يضربون دائماً. زيادة على كل هؤلاء كان هنالك مقلاع حجارة، بني من الصندوق العام، الذي دعوه "بمقلاع حجارة الله"، **"God's stone Sling"** وبجانبه قسيس، رجل عظيم النزاهة، يبشر وفي الوقت نفسه يستجدي المال من أجل إعادة بنائه أو ليدفع لجامعي الحجارة التي يقذفها. وقد تزعزع السور من ضرباته قرب القلعة الملعونة بطول ١١ ياردة **(two perches)**. وكان للكونت حاكم فلاندرز **Flanders** مقلاع حجارة جيد أيضاً زيادة على واحد أصغر منه. وقد تسلم الملك ريتشارد المقلاع الكبير بعد موت الكونت. وبقي المقلاعان يعملان بضرب القلعة قرب إحدى البوابات

التي يؤمها الترك كثيراً، حتى حطمت نصفها. زيادة على ذلك نصب الملك ريتشارد مقلاعي حجارة آخرين بمواد ومصنعية مشهودة، وكانا يصيبان أهدافهما من المسافة البعيدة غير المعقولة. وبنى أيضاً آلة متينة من العوارض. كان لها درج ملصق بها للصعود عليها، وكانت معروفة باسم الجرسية "belfry". هذه الآلة كانت مغطاة بالجلود المتقاربة جداً، مع حبال وألواح من الخشب، حتى لا تتكسر من ضربات مقاليع الحجارة أو من النار الاغريقية. (ريتشارد) أحضر أيضاً منجنيقين - أحدهما قوي جداً حتى أنه يستطيع رمي قذيفته في وسط سوق المدينة.

كانت مقاليع حجارة الملك ريتشارد تعمل ليلاً نهاراً، وهي حقيقة معروفة بأن حجراً واحداً تضربه أياً من مقاليع الملك كانت تقتل اثني عشر رجلاً. أرسل هذا الحجر إلى صلاح الدين ليشاهده. والمرسال الذي حمله قال أن الشيطان ملك انكلترا أحضره من المدينة المحتلة مسينا "مخزناً" من هذه الحجارة الصوانية اللماعة جداً لتعمل عملها في العرب. لا شيء كما قال، يمكن أن يقاوم ضربات هذه الحجارة من غير أن يتحطم أو يطحن ويصبح ذرات. في حين أن الملك الذي اشتدت عليه الحمى ساءت حالته، كان ملقى على فراشه، وترتفع حرارته عندما يرى الترك يتحدون رجالنا، ومرضه يمنعه عن مهاجمتهم. وكانت هجمات الترك المتكررة تجلب له لوعة حادة أكثر من أشد الهجمات النارية من مرضه.

كانت عكا مدينة يصعب الاستيلاء عليها، ليس فقط لمتانة موقعها الطبيعي لكن أيضاً لأن قوات الترك تدافع عنها بخيرة القوات التركية. كان عمل الافرنسيين بلا فائدة لأن كل ما كانوا يبذلونه من جهد في بناء الآليات الحربية والأدوات ليسقطوا الأسوار، كانت وابل من النار الاغريقية المفاجئة تحطم كل ما عمله الأعداء، مهما يكن ثمن ذلك، تلتهمه النيران. والآن ومن ضمن الآلات التي صنعها ملك الافرنسيين واحدة بناها بكل عناية. كانت غايتها تسلق الأسوار، ولهذا دعيت بالقط "The Cat" لكونها تزحف صاعدة كالقط وتمسك بأعلى السور، وتلصق به سريعاً. كذلك أنهى تدبير آخر من الحواجز مربوطة جيداً بأغصان وكان الناس يدعونها سيركليا

"Circleia". تحت هذا الحاجز الصغير المغطى بالجلود اللدنة كان يجلس الملك على كرسيه ملقياً الأسهم من قوسه بشغف مراقباً الفرصة لضرب تركي غير حذر من على استحكامات المدينة.

هذه الآلات ضربت دفاعات عكا؛ بدأت الأسوار بالتساقط، والحامية تعبئ من الصليات التي لا تنقطع، أرسلت برسائل يائسة إلى صلاح الدين عن وضعهم الخطيرجداً. رداً على ذلك لم يفقد أية فرصة ليهاجم معسكر الأعداء صارفاً انتباههم عن المدينة. كانت الحامية تقرع الطبول لتعلن أنها مهاجمة؛ وكانت طبول صلاح الدين تجاوب فوراً وقواته كانت لذلك تهجم على خنادق الافرنج. قرأنا عن هذه الهجمات في ١٤ و ١٧ حزيران؛ فالعرب اقتحموا الأعمال الترابية ونهبوا جزءاً من المعسكر؛ هرع العدو راجعاً من أمام أسوار المدينة. والاشتباك استمر حتى الليل حين رجع كل جانب إلى مراكزه. لكن أعظم محاولة غضبى على المعسكر كانت في ٢ و ٣ تموز، حين كانت الحامية تهدد بالاستسلام إذا لم يقم صلاح الدين بإنقاذهم. وهذا وصفها "باليوميات":

"حدث في أحد الأيام، حيث كان الافرنسيون يقتربون جداً من الأسوار لرغبتهم في رفع "القط" عندما رمى الترك بالخشب فوق "القط". ثم بدون أي تأخير أطلقوا كمية من النار الاغريقية على سيركليا التي كانت قد جهزت بعناية فائقة، بعد ذلك جهزوا مقلاع حجارة، وهدفهم المكان نفسه، حيث -يا للخسارة-! فجأة كان كل شيء في لهيب أو حطمه مقلاع الحجارة. عندها غضب ملك فرنسا بجنون وبدأ يلعن مقسماً أغلظ الايمان كل من كان تحت إمرته ويوبخهم بعبارات نابية لعدم أخذهم الثأر من العرب الذين آذوه. وفي فورة غضبه وعند حلول المساء، أعلن الهجوم صباح اليوم التالي على صوت النفير.

"باكراً في اليوم التالي، خيرة الحراس تمركزوا على الخنادق ليقاوموا هجمات العرب المفاجئة (من الخارج). لأن صلاح الدين تبجح بأنه في اليوم نفسه سوف يقطع الخنادق بقوة كاملة ويظهر شجاعته لتحطيم المسيحيين. ولكنه لم ينفذ وعده، لأنه لم يذهب بنفسه[٦٤]

ولكن جيشه القوي والمصمم، تحت قيادة قهادين **Kahadin** تقي الدين (**Taki - ed - din**)، تحركت بجموع غفيرة ضد الخنادق، التي عارضها الافرنسيون بشجاعة. لم يكن هنالك قتل قليل من كلا الجانبين. الترك ترجلوا وتقدموا مشاة. استمر القتال عن قرب بالسيوف المسلولة والخناجر والبلطات ذوات الرأسين، عدا الهراوات التي تلمع بأسنان حادة. الترك شددوا الهجوم؛ ولكن الشجعان المسيحيين ردوهم إلى أعقابهم؛ وكل جانب احتدم بغضب ثنائي؛ لأنه كان وقت حرارة الصيف.

"ذلك الجزء من الجيش المقدر له احتلال المدينة استمر يرمي السهام الصغيرة، مضعفين الأسوار، يضربون بالآلات أو يزحفون لتسلق الأسوار. خاف الترك من شجاعة هؤلاء المهاجمين، وبعثوا بإشارة إلى جماعتهم في الخارج برفع راية صلاح الدين عالياً آملين من (أصدقائهم) أن يأتوا لمساعدتهم أو يرجعوا العدو بهجوم (من الخلف). عندما شاهدوا هذا قام تقي الدين والترك بالضغط بشجاعة، عبأوا الخندق، ولكنهم صدوا وأرجعهم رجالنا إلى الوراء، والشكر لله، وقفوا كحائط لا يخترق. حين ذلك كان حفارو ملك فرنسا يحفرون بالتدريج ممرات تحت الأرض وصلت إلى أساسات الأسوار، وملأوا الحفر التي صنعوها بالخشب الذي أشعلوه. وبعد ذلك، عندما أتت النار على العوارض المساندة للأسوار، جزء عظيم منها تهدم، منحدراً إلى الأسفل بدرجات، ولكن لم يسقط جميعه. مسيحيون كثيرون ركضوا نحو هذه النقطة آملين أن يدخلوا، في حين أن الترك حضروا لدحرهم.

آه! كم من علم تركي، وآلات من جميع الأشكال، دون ذكرشجاعة الترك عندما يقذفون بالنار الاغريقية على رجالنا. هنا أحضر الافرنسيون السلالم وحاولوا تسلق السور الذي لم يكن مستوياً تماماً؛ والترك من الناحية الأخرى استعملوا السلالم ليحموا الفجوة..."

خلال هذا الهجوم، قام العادل بقيادة فريقين شجاعين ولكن بلا فائدة، وقام صلاح الدين بجولة من كتيبة إلى أخرى، صائحاً صيحته

الحربية حاثاً رجاله. ونظر باتجاه المدينة حيث رأى الأزمة المخيفة والخطر الذي يواجه الحامية المجاهدة، فامتلأت عيناه بالدموع حين كان يهاجم مرة بعد مرة. كل ذلك النهار لم يتناول الطعام ولا شيء مر من خلال شفتيه سوى الدواء الذي وصفه له الطبيب الذي كان مجبراً على تناوله. خلال ذلك كان القتال يشتد ضراوة على ضراوة.

"الملك ريتشارد... كان له الغطاء الذي دعي سيركليا، صنع وأحضر إلى حفرة خارج سور المدينة. تحت حمايته وضع أفضل ضاربي القوس؛ ولكي يقوي قلوب رجاله للهجوم ويحبط عزائم العرب بوجوده، جعل نفسه يحمل على مساند من الحرير. من هذا المركز عمل على قوسه الذي يجيد استعماله جيداً وذبح العديد من الأعداء بالمسامير الغليظة و (quarrels) التي أطلقها. رجال الألغام تقدموا نحو القلعة حيث رماة الحجارة كانوا يعملون بواسطة ممر تحت الأرض صنع من عوارض الخشب التي سوف يوقدونها بالنيران مسببة سقوط الأسوار التي كانت قد اهتزت من قبل رماة الحجارة، محدثةً دوياً مفاجئاً...

وأخيراً عندما سقطت القلعة متراخية أمام ضربات رماة حجارتنا بدأ رجال الملك ريتشارد بوقف الحفر، ورجالنا تحت السلاح ، في طمعهم للشهرة والنصر، بدأوا يصطحبون أسلحتهم. من ضمن هؤلاء الأعلام كان ايرلايكستر **Leicster**، اندرودي شافقني **Andrew de Chavigny** وهيو براون **Hugh Brown**. مطران سالزبري قدم أيضاً مهيأ في أنبل زي، وآخرون كثيرون. كانت الساعة نحو الثالثة، أي وقت الافطار، عندما قام هؤلاء رجال السلاح الشجعان ببدء عملهم ليذهبوا ويهجموا على القلعة التي تسلقوها فوراً. عندما رآهم الحارس التركي رفع صوته، وعندها أصبحت جميع المدينة في حالة هياج. المحاربون الترك أخذوا سلاحهم بسرعة، جاؤوا مجتمعين ورموا بأنفسهم على المهاجمين. حاول الرجال تحت السلاح من الدخول، ولكن الترك حاولوا صدهم. واشتبك الفريقان في فوضى وتحاربوا عن قرب يداً بيد وسيفاً مقابل سيف. هنا ضرب الرجال، هنالك يسقطون. رجالنا تحت السلاح كانوا قليلين أما

الترك فكانت أعدادهم في تزايد. كذلك رمى الترك بالنار الاغريقية على أعدائهم، وهذا جعل رجالنا مرغمين على ترك القلعة، حيث بعضهم ذبحوا بالسلاح والآخرون احترقوا بالنار المميتة. أخيراً أهل بيزا، متشوقون للشهرة والأخذ بالثأر، تسلقوا القلعة نفسها بقوة كبيرة، ولكن مثلما تجمعوا هم أنفسهم بشجاعة، كان عليهم أيضاً التراجع أمام هجوم الترك، الذين هجموا كالمجانين. ولم يكن يوجد أبداً مثل هؤلاء الناس الترك في القوة بالحرب.

"بالرغم من سقوط بعض أجزاء السور واهتزاز أجزاء أخرى، وعلى الرغم من أن قسماً كبيراً من السكان قد ذبح أو ضعف من الجروح، بقي هنالك ستة آلاف من الترك. مع هؤلاء كان القادة مستوك **Mestoc (el-Meshtub)** وقراقوش **(Karakush) Carcois** الذي قطع الأمل من تسلُّم المساعدة... لذلك وبالموافقة العامة بعد التداول، توسل المحاصرون للهدنة بينما أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين عن معاناتهم. مؤملين أنه سوف يؤمن سلامتهم بأسلوبه المعروف - كما يجب أن يفعل - بإرساله العون السريع لهم أو الحصول على السماح لهم بالخروج من المدينة بلا إذلال. ليحصلوا على هذه المنحة تقدم نبيلان عربيان، أشهر محاربي الإسلام، مستوك وقراقوش، إلى ملوكنا واعدين بتسليم المدينة إذا لم يرسل لهم صلاح الدين الامدادات بسرعة. ولكنهم اشترطوا أنه يحق لجميع الترك الذهاب حيث يشاؤون مع أسلحتهم ومتاعهم. ملك فرنسا وجميع الفرنسيين تقريباً وافقوا على هذا، ولكن الملك ريتشارد رفض بشدة السماع بأنه يدخل مدينة مهجورة بعد حصار طويل ومتعب. ولهذا، استوعبا ما يجول بخاطر الملك ريتشارد ورجعا إلى عكا دون أن يبرما الاتفاق. صلاح الدين، في هذه الأثناء كان قد استقبل رسلاً من المحاصرين، وطلب منهم الثبات بقوة مؤكداً أنه سيرسل لهم قريباً المساعدة الكافية. أعلن أن لديه أخبار مؤكدة عن قرب وصول فرقة عظيمة من المحاربين من بابيلون **Babylon** (أي القاهرة) في سفن وسفن شراعية.

النجدة وصلت. واستقبل صلاح الدين تعزيزات متعددة في أواخر حزيران وأوائل تموز. في ٢٥ حزيران وصلت الامدادات من

سنجار؛ ثم قوة كبيرة من مصر؛ وفي اليوم التالي وصل لورد الموصل مع فرقته؛ وفي ٢٨ قوات أخرى من مصر؛ وفي ٩ تموز وصل أمير شيزر مع عربه، وفي ١٠ وصل دولدريم **Dolderim** مع فرقة كبيرة من التركمان الذين يدفع لهم صلاح الدين رواتبهم؛ وفي ١١ وصل أمير حماة الشاب، وبالرغم من هذا وجميع هذه الامدادات للعرب حولها، سلمت عكا في ١٢ تموز، بعد دفاع مجيد لمدة عامين. الحامية وضعت أسلحتها أرضاً على مشهد من جيش عظيم غير مقهور ومرتاح! أبداً فأرواح الأبطال الذين قتلوا تظهر لا معنى لها للمساعدة الغامضة للمدينة المنكوبة. صوت عظيم، مثل سير الجنود المسلحين، سمع في الليل ضمن الأسوار. هبت المراكز الأمامية للمسيحيين وحملت السلاح، ومتعجبين شاهدوا كأن فرقة تدخل البوابات، يرتدي أفرادها العبي الخضر؛ لأن هذا هو مظهر شهداء الإسلام الذين يعيشون في الجنة. حتى أرواح المؤمنين لا تستطيع أن تبقي الإيمان في السكان الخائفين والمضطربين.

قصة هذا الاستسلام، كما هي، ليس صعباً فهمها. فالقوات الكبيرة وأدوات الحصار المحسنة التي أحضرها ملكا انكلترا وفرنسا، أثرت بشدة في المدينة حيث جعلت من الصعب الدفاع عنها؛ وخلاصها كان ممكن من الخارج فقط. قوات صلاح الدين كانت عديدة كفاية لأن تقوم بأي عمل يسند إليها؛ وبالرغم من هذا يظهر أنه لم يكن بإمكانها القتال ضد الأعمال الأرضية. بعض القادة الشجعان يستطيعون فتح طريقهم إلى بعض الخيام، ولكن معسكر العدو لم يحتله العرب أبداً. حتى أن بعض رجال صلاح الدين تمردوا، ورفضوا الهجوم، واتهموه بخراب الإسلام.

مقتنعين بأن صلاح الدين لا يستطيع النفاذ من خلال الحلقة الحديدية التي تحوطهم، فلم تتوقع الحامية إلا المذبحة. الثبات أكثر من ذلك كان مستحيلاً. وثلاثة من الأمراء نجحوا في الهرب بجبن في الليل. سيطر الخوف وبعض الخائفين قذفوا بأنفسهم من فوق الاستحكامات؛ آخرون هربوا إلى معسكر العدو طالبين أن يعمَّدوا. قراقوش حاكم المدينة والمشطوب **el-Meshtub (LeBalafre)** قائد الحامية قررا عمل اتفاق. فذهبا إلى معسكر المسيحيين في ٤ تموز،

ولكنهما رفضا الاستسلام صلحاً. لم يكن صلاح الدين طرفاً في هذا؛ فقد حث على المقاومة ووعد بالإغاثة. في اليوم التالي ٥ تموز، كانت قواته جاهزة للعمل، ولكن الحامية أخفقت في عمل المطلوب منها. في ٧ تموز جاء سباح برسالة يائسة: "لقد أقسمنا على الموت معاً، سنقاتل حتى نذبح، ولن نسلم المدينة مادمنا أحياء. حاولوا إشغال العدو عنا وامنعوه من مهاجمتنا.... دورنا قد انتهى". كان التماساً أخيراً. وبالرغم من هذا فلم تأت الإغاثة. وفي الثاني عشر، وبالرغم من قرارهم اليائس، جاء السباح نفسه بخبر استسلام المدينة صلحاً. وعندما كان صلاح الدين يتهيأ بتحضير جواب يشجب[٦٥] بنود الاتفاقية، علت أعلام الفرنجة وصلبانه تلمع فجأة فوق أسوار المدينة وقلاعها. العمل قد انتهى، وعكا سلمت دون موافقة ملكها.

"وهكذا في يوم الجمعة بعيد تحويل القديس بنديكت **Benedict** (١٢ تموز) الأمراء النبلاء الأغنياء عرضوا أنفسهم طائعين وقبلوا الرهائن، حيث منحت مدة شهر لإرجاع الصليب المقدس ومجموعة الأسرى المسيحيين. عندما عرفت أخبار هذا الاستسلام، الجماهير غير المفكرة تحركت بغضب، ولكن الناس العقلاء سروا كثيراً بالحصول بسرعة ودون أي خطر الشيء الذي لم يستطيعوا الحصول عليه سابقاً منذ وقت طويل. ثم قام المنادون بالإعلان عن منع أي كان من إهانة الترك بالقول أو العمل. لا يسمح بإطلاق القذائف على الأسوار أو على الترك إذا اتفق وظهروا فوق الاستحكامات. في ذلك اليوم عندما قام الترك المشاهير، بالمشي فوق أسوار المدينة في لباسهم الرائع، وقبيل مغادرتهم، نظر (رجالنا) إليهم بكل استغراب. كانوا قد أعجبوا بشدة لرؤية وجوههم المرحة بالرغم من أنهم سوف يتركون المدينة مفلسين الذين لولا حاجتهم القصوى ما كانوا ليطلبوا الرحمة؛ رجال تقبلوا خسارتهم ولم يظهر على وجوههم أي خجل وبالأكثر بانت عليهم مظاهر الانتصار...

"أخيراً، عندما رحل جميع الترك عن عكا[٦٦]، دخل المسيحيون إلى المدينة بفرح وغبطة، معظمين الله بصوت عالٍ مقدمين له الشكر على منحهم رحمته الكبيرة وإنعامه بالخلاص لشعبه. وهكذا وضع الملوك أعلامهم وشعاراتهم المختلفة على الأسوار والقلاع؛ في حين أن كل ما

كانت تحتويه المدينة من أغذية وأسلحة، قسمت بالتساوي عليهم. كذلك الأسرى أخذوا بعين الاعتبار وقسموا نصفين. ملك فرنسا حصل على النبيل قراقوش وجمع كبير من الناس الآخرين؛ وللملك ريتشارد مستوك وغيره كثيرون. زيادة على ذلك، حصل ملك فرنسا على قصر الهيكليين الفخم مع جميع ملحقاته، بينما حصل ريتشارد على القصر الملكي، حيث أسكن الملكتين مع وصيفاتهما وخدمهما. هكذا حصل كل ملك على حصته من المدينة بسلام، بينما انتشر الجيش في جميع أرجائها يتمتعون براحة لطيفة بعد حصار طويل ومتتابع".

اصل غلاف الكتاب الامامي من

Picturesque Palestine Sinai And Egypt By Colonel Wilson (1873 c.)

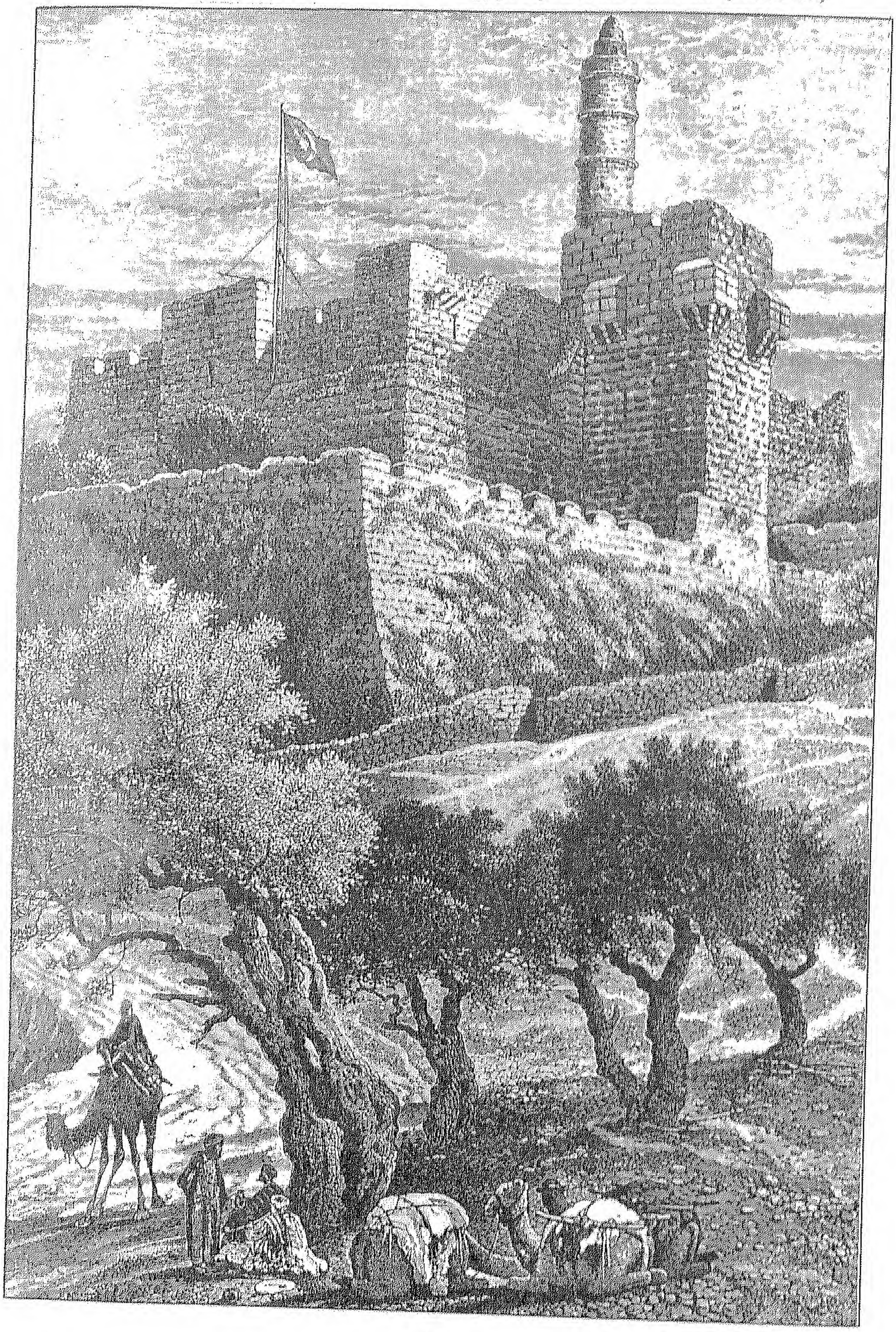

اصل غلاف الكتاب الخلفي من

Picturesque Palestine Sinai And Egypt By Colonel Wilson (1873 c.)

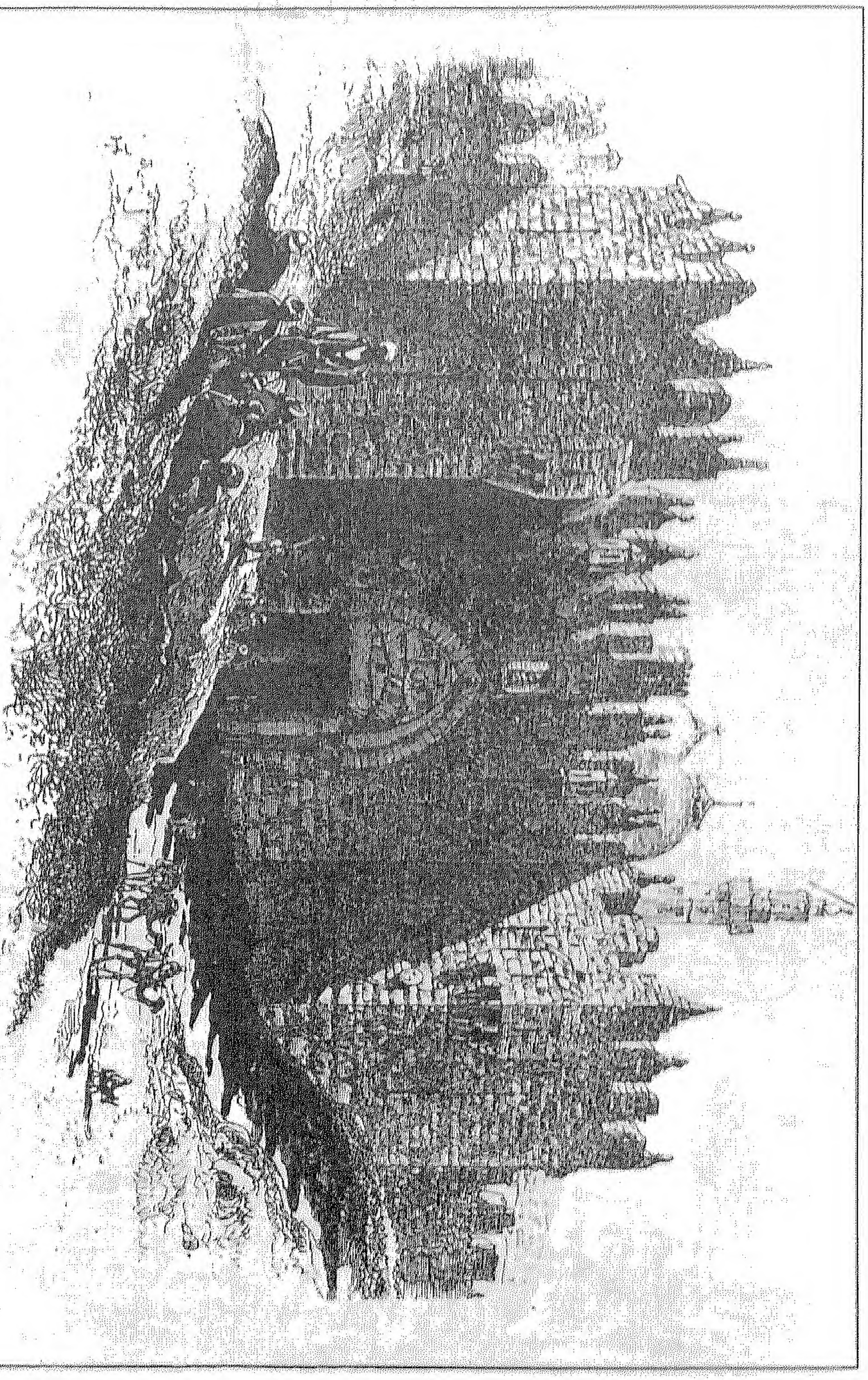

THE DAMASCUS GATE—BAB EL AMUD (GATE OF THE COLUMN).
The northern entrance to Jerusalem.

الفصل التاسع عشر
التقدم على الشاطئ
آب - أيلول ١١٩١م

أخذ صلاح الدين بالمفاجأة لسقوط عكا، ولكن غضبه ثار أكثر بسبب الشروط التي تُوصّل إليها خفية عنه وسقوط عكا نفسها. يظهر أنه تحقق له أنه لا يستطيع أن يثبت مدة أطول، وأن جيشه لن يستطيع اختراق خنادق عدوه المحصنة، أو جرّ عدوه إلى حرب هجومية. وبما أنه كان متفقاً مع جاي حاكم لوزجنان والافرنج بفلسطين فلم يعد يفكر أبداً بهدنة؛ لكن وصول الملكين غيَّر الموقف فاستعد للمفاوضة. أول عرض جاء من الملك ريتشارد. إذ أرسل ملك انكلترا حال رسوه طالباً مقابلة شخصية. كانت هذه الخطوة تمثل أخلاقه العسكرية الصريحة لرغبته في أن يواجه شخصياً الرجل الشجاع الكبير القلب الذي سمع الثناء عليه حتى في معسكر المسيحيين. لكن صلاح الدين رفض المقابلة؛ لم يكن من اللائق لملوك متحاربين أن يتقابلوا ودياً حتى يكون هنالك مشروع سلام.(٦٧) من الممكن أنه خاف من أن يسيطر عليه الرجل الفارس البطل الذي سمع كثيراً عن فتوحاته؛ فكان جوابه بمثابة جس نبض لإبرام السلام.

حضر مبعوثون من المعسكر المسيحي خلال مرض الملك. رُتِّب اجتماع بين ريتشارد والعادل؛ وحدِّد مكانه في وسط السهل بين المعسكرين، لكن مرض الملك أجّل المقابلة. وقد تبادل السفير مع شقيق السلطان عبارات ذكية عن هدية من الصقور التي يرغب ريتشارد في تقديمها لصلاح الدين، وعن الطيور البرية التي يطلبها بالمقابل، وكل منهما حاول اكتشاف ما يرمي إليه الآخر. في الأول من تموز استقبل صلاح الدين المبعوث مع مترجمه المغربي. قال بهاء الدين: "كانت غاية كل هذه المقابلات اكتشاف وضعنا الفكري، قوتنا وضعفنا". بلا شك ولتقدم المحادثات قام الافرنج بإيقاف القصف لمدة ثلاثة أيام. عاد السفراء مرة أخرى في الرابع من تموز طالبين الفواكه والثلج. كما أنه أعلن عن قدوم سيد فرسان سانت جون نفسه بالغد ليفاوض من أجل السلام. بدلاً عنه حضر ثلاثة مبعوثين

وتباحثوا مع العادل لمدة ساعة من الزمن لكن لم يرتب شيء. كان هناك بحث آخر في السادس من تموز، لكن شروط المسيحيين كانت شديدة. أبقى صلاح الدين جيشه في حالة استعداد يهدد الافرنج إلى حد ما لكي يرغمهم على تخفيف شروطهم. ولكن حتى الحادي عشر:-

"كانوا ثابتي العزم على عدم السلام أو أية تنازلات للمواطنين، حتى يطلق سراح جميع الأسرى في سجون المسلمين، وإعادة المدن الساحلية إليهم. وقد اقترح (من جانبنا) تسليم المدينة بكل ما تحتويه، ماعدا المدافعين عنها فقط، ولكنهم رفضوا؛ وقد عرضنا تسليم خشبة الصليب ولكنهم لم يوافقوا".

في اليوم التالي جاءت الأخبار أن الحامية قد سلمت بموجب الشروط التالية:

(١) تستسلم عكا بجميع محتوياتها من السفن والمخازن وأدوات الحرب، (٢) تدفع ٢٠٠,٠٠٠ قطعة ذهب للافرنج، (٣) وتسليم ١٥٠٠ سجين علاوة على ١٠٠ سجين من ذوي المراكز، (٤) إعادة الصليب الحقيقي لهم، (٥) دفع ٤٠٠٠ قطعة ذهب إلى ماركيز مونتيفيرات. بموجب هذه الشروط يستطيع السكان أن يذهبوا أحراراً، بدون تعرض للسوء، آخذين معهم عائلاتهم وما يستطيعون حمله من أمتعتهم الخاصة.

كانت مثل هذه الشروط كريهة طبعاً إلى السلطان، الذي مازال على رأس جيش قوي لم يخسر ولا معركة منذ هزيمة الرملة قبل أربعة عشر عاماً. الشروط وضعها ضباط صلاح الدين وهو لم يرفضها لكنها كانت أعظم نكسة واجهها، وحزنه كان واضحاً. ولما لم تكن له حاجة بعد كحراسة المدينة، حرك جيشه فوراً إلى شفراعام Shafraamm وانتظر المندوبين الذين سيوقعون المعاهدة المهينة. تحرك المندوبون بين المعسكرين وزاروا دمشق، يكتبون القوائم الكاملة بأسماء السجناء ممهدين الطريق لمعاهدة سلام دائمة. استمر هذا شهراً وخلاله قامت النقاط المتقدمة للفريقين بمواجهات غير ودية، حتى أنهم في إحدى المرات اشتركوا بمناوشة منتظمة حيث انسحب

الافرنج إلى خنادقهم. هذا بينما كان الخلاف الخفي بين فيليب وريتشارد قد ظهر علناً مرة أخرى. كان ملك فرنسا مريضاً بالحمى، كالتي أصابت الكونت حاكم فالندرز Count of Flanders، وجعل ذلك حجة لهجر الصليبيين والعودة إلى وطنه، ليحرك هناك "البلبلة في نورماندي".

وكما قال قلب الأسد Coeur de Lion، فإن فيليب "حنث في قسمه من غير أن يشعر بالخزي نحو مشيئة الله والعار الأبدي لمملكته"، ولكنه على الأقل أبقى الجزء الكبير من جيشه تحت قيادة الدوق حاكم بيرجاندي Duke of Burgundey ليتابع الحملة الصليبية. لكن للأسف كان الافرنسيون سبباً للضعف بدل القوة لأنهم عارضوا ملك انكلترا في كل خطواته، وكان كونارد حاكم مونتفيرات يشجعهم على هذا كله، عندما انسحب إلى صور في أول آب، لما علم أن مخططاته للحصول على تاج القدس لم تلق استحساناً من ريتشارد.

"بينما كان ملك فرنسا في طريقه إلى بلاده كان ريتشارد منهمكاً في إصلاح الأسوار، يبنيها أعلى وأقوى من السابق. كان هو نفسه دائم الجولات يشجع العمال والبنائين، حتى لكأن هدفه الأوحد كان استعادة تراث الله. كان ما يزال بانتظار الوقت المحدد بينه وبين الترك، مشغلاً نفسه في هذا الوقت بجمع مجانيقه وأمتعته مستعداً لحملها بعيداً، بعدما مرت ثلاثة أسابيع على الوقت المتفق عليه لإعادة الصليب المقدس والأسرى ليرى إذا كان صلاح الدين سيبر بوعده؛ وعندما طلب العرب مهلة أخرى، بدأ المسيحيون بالسؤال متى سيحضر الصليب. أحدهم قال: "لقد حضر الصليب". وآخر قال: "إنه موجود لدى جيش العرب". ولكن كل منهما قد خُدِع، لأنه لم يكن بنية صلاح الدين إرجاعه؛ حتى أنه أهمل قضية الرهائن على أمل أن يحصل على شروط أفضل إذا احتفظ به. وطوال الوقت كان يرسل الهدايا المتعددة والمبعوثين، حيث جعل من أهدافه إضاعة الوقت في كلام كثير وكلمات غامضة".

الصليب المقدس (أو شبيه مقنع) كان حقيقة في معسكر صلاح الدين، لأن بهاء الدين قال أنه عرض على ضباط انكليز، الذين طرحوا

أنفسهم على الأرض بخشوع. إذا كان صلاح الدين يطيل مفاوضاته لمجرد كسب الوقت فهذا لا يمكن تأكيده أو نفيه؛ ولكن سرد أمين سره يبدو حقيقياً ولا يؤكد تزلف الإيمان السيء. وبالسرد نفسه أحضر هؤلاء الضباط الانكليز في الثاني من آب موافقة ريتشارد على اقتراح صلاح الدين لتسليم الأسرى والنقود المقررة في المعاهدة، على ثلاث دفعات منفصلة، بفترة شهر لكل منها. وجب تجهيز الدفعة الأولى بنهاية الشهر الأول. الضباط الذين أرسلهم الأفرنج شهدوا بأن العدد كان صحيحاً ماعدا غياب أسماء بعض المساجين المذكورين بالاسم. في الحادي عشر من آب حضروا لأخذ استحقاقهم كاملاً، وليواجه صلاح الدين المعضلة، قال: "إما أن تعطونا زملاءنا (الأسرى في عكا) وتأخذوا ما اتفق عليه لهذه الدفعة، وسنعطيكم الرهائن لتنفيذ بقية الشروط؛ أو تأخذوا ما نعطيكم الآن، وتعطونا رهائن نحتفظ بها حتى يعود زملاؤنا الذين عندكم". أجابه المندوبون : "لن نفعل ذلك ولكن اعطنا ما يستحق لهذا الفصل، واقبل وعدنا بأن أهلكم سوف يسلمون إليكم". لم يقبل بهذا صلاح الدين، لأنه أصبح يعلم ما فيه قسم المسيحيين من صحة. من الواضح أن أياً من الفريقين لم يثق بالآخر، وأن طلب صلاح الدين لبعض التعهدات كان طبيعياً لتنفيذ شروط الاتفاقية وسيتبعه بالمقابل الافراج عن الأسرى في عكا واعتبر المسيحيون هذا تهرباً. إذا اقتنعنا بقول بهاء الدين فإنه لا يوجد سبب لمثل هذا الشك؛ ولكن صدّق أو لا تصدّق كما تريد، فلم يكن هنالك سبب أو عذر للمجزرة الجبانة التي تبعت المنظر البشع الذي يصفه المؤرخ المعجب:

"صدرت الأوامر بقطع رؤوس الرهائن ماعدا القليلين من نبلاء السجناء، الذين لربما أطلق سراحهم أو أبدلوا بمعتقلين مسيحيين. ولرغبة الملك ريتشارد الدائمة بتدمير الترك، ليقلق قانون محمد (صلعم) ويبرئ ساحة المسيح نهار الجمعة بعد الصعود أمر بأن يقاد ٢٧٠٠ من الرهائن الترك إلى خارج المدينة وتقطع رؤوسهم. لم يكن هنالك أي تأخير. فأتباع الملك نهضوا لتنفيذ الأوامر، شاكرين رحمة القدير الذي سمح لهم بالانتقام للمسيحيين الذين ذبحوا على يد هؤلاء (الأسرى) بالسهام والمسامير الغليظة.

عندما رأى عرب المراكز المتقدمة مقابل عكا مواطنيهم يذبحون بدم بارد أمام أعينهم، هجموا بجنون إلى الأمام لوقف المذبحة؛ لكن مع أنهم حاربوا حتى الليل لم يستطيعوا منعها. "فقد أبقوا على الأقوياء القادرين على العمل". كبار السن والضعفاء، وبهمجية اعملوا السيف بالنساء والأطفال. بالمقارنة مع سماحة وكرم صلاح الدين "الدينكيشوتي"، تبدو همجية ملك انكلترا عجيبةً. لا داعي للقول لدارسي الصليبيين أنه في هذا الصراع كانت فضائل الحضارة، السماحة، التحمل، الفروسية الحق، والثقافة اللطيفة، كلها بجانب العرب.

فوراً بعد المجزرة أعد ريتشارد نفسه للتقدم على الساحل إلى عسقلان، في طريقه إلى المدينة المقدسة حيث علم صلاح الدين درس الرحمة بوضوح. كانت هنالك صعوبة جمة في جعل الصليبيين يتحركون. فقد وجد تحت إمرة الملك لا أقل من ثلاثمائة ألف رجل، لكنهم تركوا المدينة "ببطء ولكن بحذر". والناس الذين تعودوا الخمول والرفاهية، وتعرفوا على أفضل الخمور وأجمل الجميلات. كثيرون ومن خلال معرفتهم الحميمة لهذه المسرات أصبحت حياتهم معقدة، حتى أن المدينة لوثت من رفاهيتهم، لأن شراهتهم وخلاعتهم أخجلت الرجال الحكماء. كانت أوامر ريتشارد بعدم مرافقة أية امرأة للجيش، عدا الغسالات "اللواتي لم يكنَّ مناسبات للخطيئة"، هذا العمل لم يشجع حماسة هؤلاء المحاربين القديرين. لكنه استطاع أن يجمع مئة ألف رجل ويسيرهم يوم عيد القديس بارثالوميو **St. Bartholomew** .

بعد سقوط عكا، قام صلاح الدين بالرجوع فوراً على خطوط انسحابه، وجمع جيشه الرئيسي على التلال التي تسيطر على الطريقين الكبيرين، الأولى تقود إلى طبرية ودمشق، والأخرى في الجنوب الشرقي من الناصرة إلى القدس. تلة شفرعام (شفاعمر) أطلت على الطريقين. لكن ريتشارد لم يشبع رغبة منافسه بمحاولة فتح طريقه في الممرات؛ وجسوراً كما كان، لم يجازف بالتقدم من خلال تلال يحتلها العرب بالكامل. اختار الطريق الأطول لكن الأسلم على الطريق الروماني القديم التي تحاذي الشاطئ؛ حيث لو كان

العدو على التلال يساره، فلديه حماية البحر ومساعدة أسطوله على اليمين. كانت خطته أن ينزل على الشاطئ بعيداً حتى يافا Jaffa وعسقلان، وبعد تحصين قاعدة له، يتقدم باتجاه القدس. المسافة حتى يافا وفي خط مستقيم كانت أكثر بقليل من ٦٠ ميلاً؛ لكن كان هنالك ثمانية أنهر لقطعها، وكانت الطريق صعبة من خلال الهشيم والعشب الطويل، وفصل الحرارة في أوجه من السنة؛ والطريق كلها مسيطر عليها بسلسلة من التلال المغطاة بالأشجار المنخفضة التي وفرت الموقع المناسب للعرب، ولو امتلك صلاح الدين مدفعية ميدان، لكان جعل تقدم الجيش مستحيلاً. وكما كانت، فإن إصرار ريتشارد القوي بالإبقاء على قواته منتظمة بشدة وفاتحاً طريقه بالمواربة، وبدون محاولة اللحاق بالمسلمين إلى التلال، أنقذته من النكبة.

في نهار الجمعة، ٢٢ آب، قطع الافرنج نهر بيلوس وخيموا على الجانب الجنوبي. وفجر يوم الأحد رأى صلاح الدين نيران معسكر العدو، التي عنت أنهم سيسيرون. وللحال حمل متاعه وذهب إلى تلال كيمون Keymun، نتوء في سلسلة الكرمل التي تسيطر على الطريق الرئيسية الجنوبية من عكا إلى حيفا وإلى داخل فلسطين. عادت القطعات التي أرسلها لمناوشة الافرنج تخبره أن العدو قطع نهر قيشون Kishon وخيموا في حيفا. يظهر أنهم لن يسيروا للداخل. تمركز خط من القوات طوال الليل لمراقبة تحركاتهم، وفي اليوم التالي، صلاح الدين نفسه ركب يجتاز التلال باتجاه قيصرية، تاركاً قوة كبيرة بالقرب من العدو بإمرة جورديك Jurdik، أمير يثق به من القادة المصريون القدماء لشيركوه. عند قيصرية تبدأ الغابات على الشاطئ حيث سيعسكر الافرنج إذا ظلوا بمحاذاة الشاطئ. هنا فحص مستوى الأرض ليجد مكاناً لحرب مواجهة. "حضر إلى المعسكر متعباً بعد صلاة المغرب"، وأعلن أن الافرنج مازالوا في حيفا، وأنه لا يمكن عمل شيء حتى تقرر حركتهم. في اليوم التالي تفقد قواته وأفرح قلوبهم بهدايا وتعويضات لأولئك الذين فقدوا متاعهم وخيولهم، في السابع والعشرين ركب ثلاث مرات نحو الشاطئ يبحث عن مكان مناسب لمهاجمة الأعداء، الذين كانوا وببطء يدورون حول كتف الأرض الناشئ عن الصخور في جبل الكرمل؛ وفي اليوم التالي حرك الجيش حتى يغطي قيصرية. أحضر

له الأسرى الذين أخبروه بأن الافرنج ينتظرون الأسطول الذي سيحضر لهم المؤن. جميع الأسرى، باستثناء النساء أُعدموا بقساوة؛ وحشية ملك انكلترا لا يمكن أن تمر دون الثأر لها، حتى من صلاح الدين المعروف بتسامحه. ثمانية عشر من الافرنج قتلوا في يوم واحد.

أخيراً جاءت الأخبار في الثلاثين من الشهر أن العدو قد قرب. كان العرب لا يزالون قرب قيصرية، فرتبهم صلاح الدين على خط التقدم. كان بهاء الدين مع سيده بالقرب من العدو، يصف الاشتباك الأول. ويقول بأن سهام المسلمين فعلت القليل مقابل التسلح الثقيل للافرنج:

"وقف مشاتهم أمام الفرسان مشدودين كالسور، وكان كل من مشاتهم يرتدي رداءً حديدياً ثقيلاً وقوياً، حتى أن سهامنا لم يكن لها أي فعل، بينما سهامهم أردت خيولنا وراكبيها. شاهدت جنوداً تنغرس بهم أسهم حتى العشرة وما زالوا يسيرون".

القوات الأقرب إلى الشاطئ غير المعرضة لهجوم صلاح الدين، ساعدت من جانبها الفرق المحاربة على اليسار، وبقي الفرسان في الوسط يحميهم المشاة، وقد منعوا عن شن الهجوم. وبهذه التشكيلة سار المسيحيون بثبات، يحاربون على اليسار طوال الطريق. "رماة الأقواس المسلمون تحرشوا بهم وحاولوا جاهدين أن يجعلوهم يتركوا صفوفهم، ولكن الرجال سيطروا على أنفسهم جيداً، وساروا من غير استعجال، وسفنهم تتبعهم على الشاطئ".

هذا الاحتكاك كان مثالياً طوال الطريق. كان الافرنج يسيرون موارية وبشدة، بينما المسلمون، "مثل سيل الجبل الجارف، يمطرون من الأعلى للأسفل"، أشغلوهم في كل خطواتهم. جاءوا جماعات صغيرة، محاولين إغراء الصليبيين لكسر تشكيلاتهم التي يصعب اختراقها، ولكن أوامر ريتشارد كانت مشددة. ولكننا نقرأ في "اليوميات" كيف

"أن دوق بيرقندي وقواته الافرنسية الذين كانوا في المؤخرة يتبعونهم بسرعة أقل، وقد كان تأخرهم مشكوراً لأنهم كادوا يتحملون خسارة جسيمة. الجيش كان يسير والبحر على يمينه، بينما من أعالي الجبال على اليسار كان الترك يراقبون جميع تحركاتنا... وصل الجيش الآن إلى ممر ضيق، ومن خلاله يجب أن تمر عربات الامداد. هنا وبسبب ضيق الطريق حدث بعض الاضطراب والفوضى، حيث لاحظها العرب ونزلوا بسرعة يهاجمون خيل الأحمال والعربات، يقتلون الرجال الغافلين والخيل، ناهبين أكثر الأمتعة، يقتحمون ويفرقون الذين أبدوا أية مقاومة، وأرغموهم على الهرب والذبح حتى حافة البحر. هناك تقاتل الجانبان بشجاعة الرجال لإنقاذ حياتهم. بهذه المناسبة قطع تركي اليد اليمنى للمدعو ايڤرارد **Everard**، أحد رجال مطران سالزبوري، فقام دون أن تتغير سيماء وجهه وأمسك السيف بيده اليسرى وحارب الترك وبشدة دافع عن نفسه مقابلهم جميعاً حتى تثلّم سلاحه".

ثم جاء الملك ريتشارد للمساعدة.

قام بهجوم صاعق على الترك، يذبحهم يمنة ويسرة بسيفه. ولم يكن هناك أي تباطؤ، ولكن لليمين واليسار كما قديماً هرب الفلسطينيون من أمام وجه المكابين **Machabee**، كذلك الآن يتفرق الترك ويهربون من أمام وجه الملك ريتشارد حتى وصلوا أعالي الجبال، تاركين عدداً منهم بلا رؤوس في أيدينا".

كان ريتشارد طبعاً في مقدمة الحالات الطارئة "يرعد كالخنزير البري"، ويقطع الرؤوس كما يسلخ الهندي الأحمر فروة الرأس. ولم يكن صلاح الدين يد خلفية، فقد شوهد مراراً راكباً بين الجنود في الصفوف الأمامية والسهام تتطاير حول رأسه يرافقه فقط بضعة من سواس الخيل مع خيول احتياطية. لكن لم تكن من عادته أن يحارب مقابلةً شخصية، ومن المؤكد أنه لم يجابه أبداً ريتشارد في ميدان المعركة. كانت الأيام في هذا الوقت لا تحتمل لحرارتها، وكلا الجانبين عانى بشدة؛ الافرنج غير المعتادين هذا وقعوا في الطريق مغمىً عليهم، وكثيرون ماتوا من ضربة الشمس. لكنهم احتفظوا

بشجاعتهم، وفي كل ليلة حينما كانوا على وشك النوم، يقوم المنادي صائحاً خلال المعسكر "ساعدنا، أيها القبر المقدس!".

عند سماع هذه الكلمات يصيح الجمع الغفر، رافعين أيديهم إلى السماء، وبدموع غزيرة، يدعون الله للمساعدة والرحمة. ثم مرة أخرى يعيد المنادي الكلمات نفسها داعياً كالسابق **Sanctum Sepulchrum Adjuvar** حيث يعيد الجميع هذه الكلمات؛ ومثلها عندما ينادي للمرة الثالثة بصوت عالٍ يقلده الجميع بحزن عظيم في القلب ودموع متفجرة".

خلال ذلك كان صلاح الدين قد اختار أخيراً موقع المعركة القادمة. كانت بالقرب من أرسوف **Arsuf**، حيث التلال تنحدر بلطافة إلى الشاطئ؛ والغابات الكثيفة من شجر البلوط كانت حماية لعدة أميال من الشاطئ، ولكن وجدت المساحة الكافية لتمارين الفرسان. هنا وليس في مكان آخر يمكن عرقلة اصطفاف المسيحيين وإيقاف تقدمهم. أخبار جيش العرب، مضخمة بالإشاعة إلى ثلاثمائة ألف رجل ينتظرون المعركة، يظهر أنها هزت أقدام المحتلين، الذين قدروا عددهم بأكثر تواضعاً بمئة ألف. وفي الخامس من أيلول، طلب ريتشارد المفاوضة. لقد كان تعباً من العراك اليومي وحزيناً على معاناة وخسائر قواته. ذهب العادل لملاقاته ولكن عندما اقترح الملك أن السلام يجب أن يقوم على أساس قيام العرب بإعادة جميع فلسطين والعودة إلى "بلادهم"، قطع أخو صلاح الدين الاجتماع بغضب. لم يبق شيء سوى ترك الموضوع للمعركة. كان الافرنج الآن في روشيتالي **Rochetaillie** نهر الفالق **(Nahr el - Falik)** أو الجدول في شق الصخر، في منتصف الطريق بين قيصرية ويافا. هناك استراحوا ليوم، محمين بتوقف النشاط الكبير في رمضان، وفي السابع من الشهر بدأوا بسير ستة الأميال على الطريق إلى أرسوف. تمركز العرب في المنخفضات إلى اليسار، بين روشيتالي وأرسوف. وقد روت "اليوميات" المعركة جيداً:

"في نهار السبت (٧ أيلول) ليلة مولد سيدتنا مريم عليها السلام، أعد الجميع أنفسهم قبل انبلاج الفجر بحذر كبير وكأن الترك

سيهاجمون في الحال. لأنهم عرفوا أن العدو قد سبقهم على الطريق، وأن وقاحة الترك لن تخف حتى تجري مواجهة شديدة. بالطبع كان الترك يرتبون جنودهم، ودائماً يتقدمون قليلاً نحو الصليبيين. لهذا السبب انتبه رجالنا جيداً لمهماتهم والجنود اصطفوا بحذر شديد. ولكون الملك ريتشارد قدير في المسائل الحربية، فقد رتب السرايا حسب تخطيط خاص، بوضع الأحسن لقيادة الأمام وعيّن من يبقى في الخلف. بهذا القصد عين مراكز اثنتي عشرة كتيبة، ورتب (جميع جيشه) في خمسة فرق، معيناً لكل رجل قدير في الحرب–محاربين لا نظير لهم في الأرض وقلوبهم مؤمنة بالله.

في هذا اليوم قاد الهيكليون المرتبة الأولى؛ تبعهم البرتونز **Bretons** ورجال أنجو **Anjou** بالتتالي. بعدهم سار جاي مع رجال پواتو **Poitou**. وفي المرتبة الرابعة كان النورمان والانكليز وبمسؤوليتهم العلم الملكي. وآخر الكل سار الهوسبتاليون بالتتابع. التشكيلة الأخيرة تكونت من خيرة الفرسان مقسمين إلى سرايا، وسار أفرادها قريبين جداً بعضهم من بعض حتى أنه لا يمكن إلقاء تفاحة إلى الأرض دون أن تلمس الرجال أو خيولهم. جيشنا احتل كل المساحة بين قوات صلاح الدين وشاطئ البحر... الكونت هنري حاكم شمبانيا بقي مع رجاله يحرس جانب الجبال؛ كما عمل المشاة التابعون. وآخر الكل سار رماة الأقواس والسهام يطبقون على المؤخرة. الخيول المحملة وعربات المؤن والأمتعة سارت بين الجيش والبحر لحمايتها من الهجوم، وهكذا تقدم الجيش بخطوات ثابتة حتى حفظاً لتماسكه...

"قربت الآن الساعة الثالثة عندما قام نحو عشرة آلاف من الترك بهجوم سريع على رجالنا ضاربين السهام الصغيرة والسهام مع ضوضاء مخيفة بصيحاتهم المربكة. بعد هؤلاء جاؤوا راكضين كشعب من العفاريت لونهم شديد السواد، ولم يكن من الخطأ تسميتهم سُربة العبيد (negreduli). (ثم حضر أيضاً) هؤلاء العرب الذين يعيشون في الصحراء ويدعون عموماً بالبدو. كانوا خشنين، أشد سواداً من الدخان، رجال مشاة مهلكون بأقواسهم وأهدافهم المستديرة، أناس خفيفو الخطوة متحمسون كثيراً للقتال. وخلف

هؤلاء الذين ذكرناهم، يمكنك أن تشاهد على الأرض السهلة كتلاً متراصة من الترك مجهزة جيداً تتقدم بأعلامها وراياتها وشعاراتها. ويظهر أن عددهم يزيد على العشرين ألف رجل. وعلى خيول أسرع من النسور تقدموا هاجمين علينا حتى أن الغبار الذي ارتفع من جراء عَدْوِهم السريع سوّد الهواء نفسه. تقدم الأمراء رجال ينفخون في الأبواق، غيرهم يضربون الطبول، غيرهم بالشبابة والدف، وأقراص معدنية وصناجات وغيرها من الأدوات الصاخبة...

كانت خسائرنا في ذلك اليوم ومعاناة خيولنا من الطعن المستمر من السهام والسهام الصغيرة، أثبت إصرار العدو على الاستمرار بالهجوم. عندها بالتأكيد وجدنا حاجتنا إلى رماة القوس الأشداء والتابعين القريبين الذين ردوا إلى الخلف هجوم الترك باستمرارهم الرمي بأسلحتهم على قدر ما يستطيعون. لكن بالرغم من كل هذا كرّ العدو عليهم مرة أخرى كالسيل الدافق مجددين ضرباتهم، مما جعل رماة الأقواس من رجالنا المملوئين غضباً يرمون أقواسهم وسهامهم لعدم استطاعتهم الثبات أكثر من ذلك، ولخوفهم من الموت انهزموا أمام الهجوم غير المحتمل من الترك وشقوا طريقهم من خلال صفوف جيشنا الرئيسي المتراصة، حتى لا ينقطعوا عن زملائهم. ولكن رجالنا الأقدر والأشجع الذين منعهم الخزي من التسليم للأمر، قاوموا الترك بشدة وشجاعة. لذلك ساروا إلى الخلف لرغبتهم بحماية أنفسهم من الخطر الذي سيواجهونه لو أنهم تقدموا واثقين بأنفسهم بالطريقة الاعتيادية. واستمروا كل النهار لإيجاد طريق لهم بدلاً من السير ووجوههم متجهة نحو الترك الذين هددوهم من الخلف. نعم! في مثل هذا الضغط والخطر العظيم لذلك اليوم، لم يوجد أحد لم يتمنَّ أن يكون سالماً في بيته، وانتهاء حجه... "ضغط الترك بشدة حتى أنهم كادوا يدمرون خطوط الهوسبيتاليين، الذين أخبروا الملك ريتشارد أنهم لم يعودوا يستطيعون تحمل الوضع إلا إذا سمح لفرسانهم بمهاجمة العدو؛

ولكنه، منعهم طالباً منهم البقاء
بصفوف متراصة، وصبر أعظم.

لذلك، ثبتوا مع كل ما يواجهون من المهالك، لكن مع كثير من الشهقات لأنه لم يكن باستطاعتهم التنفس بحرية. تابعوا طريقهم وحرارة الجو زادت في عذابهم. استطاع الرجال التكهن بالعواقب الوخيمة التي بانتظارهم لكونهم جيشاً قليل العدد يطبق عليه عدو عظيم. الآن قام مهاجمونا بالضرب بشدة خلف رجالنا كأنهم يضربون بالمطارق؛ لم تكن الحالة تسمح باستعمال السهام والسهام الصغيرة من بعد، ولكن بالاختراق بالرماح أو التهشيم بالصوالجة الثقيلة من مسافة قريبة؛ والهجوم يداً ليد بالسيوف بينما ضربات الترك تدوي كأنها طرق سندان. استعرت المعركة بضراوة في المؤخرة حيث الهوسبتاليون الذين لم يكن يسمح لهم برد ضربات العدو، وكان عليهم تحمل عذابهم بصبر، ساكتين بالرغم من ضربهم بالهراوات، ومع ذلك لم يردوا بدورهم. في النهاية لم يستطيعوا التحمل أكثر أمام عدو عظيم، أخذوا ينهزمون والضغط على الكتيبة أمامهم وهربوا من أمام الترك الذين تبعوهم من الخلف بجنون...

"أخيراً قام أكثر من عشرين ألف من الترك بهجوم مفاجئ غير منتظم، يضربون عن قرب بالهراوات والسيوف، مكررين ضرباتهم للهوسبتاليين ضاغطين بكل طريقة، حيث يا للأسف! صاح أحدهم وهو جارنيير دي نابس **Garnier de Napes**، صاح بصوت عالٍ، "يا أيها الفارس الشهير القديس جورج **St. George**، لماذا تجعلنا نقاسي هذا التشويش؟ ستضمحل المسيحية إذا لم نرد على هذا العدو الكريه!" عند ذلك ذهب رئيس المستشفى للملك قائلاً، "سيدي الملك، نحن محاصرون بشدة من كل جانب وسوف ندمغ بلا شك بالعار الأبدي كرجال لم يضربوا في الدفاع عن أنفسهم. كل واحد منا يفقد حصانه بلا داعٍ، ولماذا نتحمل أكثر من هذا؟" أجابه الملك قائلاً: "يا سيدي الطبيب، يجب أن نتحمل، (مشاهداً أنه) ليس كل أحد يستطيع أن يكون في كل مكان". لذلك عاد السيد ليجد أن الترك يضغطون على المؤخرة مخلفين له الموت، حيث لم يبق رئيس أو كونت الذي لم يحمر خجلاً من العار".

أخيراً لم يعد اثنان من الفرسان يتحملان أكثر؛ داعين القديس جورج، تقدما مسرعين ضد العرب؛ ولن نستطيع نكران الباقي،

فكتيبة خلف كتيبة اندفعت للأمام حتى أصبح هنالك هجوم شامل للفرسان من طرف حتى الآخر. شاهد بهاء الدين هذا الهجوم الرائع، الذي تفجر عندما وصل الافرنج لغابات وحدائق أرسوف:-

"أنا بنفسي شاهدت الفرسان يتجمعون في وسط المشاة، أمسكوا برماحهم، وصاحوا صيحتهم للحرب كرجل واحد، واندفعت المشاة إلى الأمام تدافعوا بهجوم شامل وفي جميع الجهات - بعضهم على جناحنا الأيمن، بعضهم على الأيسر، والبعض الآخر على وسطنا، حتى تحطم الجميع".

كان على الهجوم انتظار إشارة الملك ريتشارد، ولكن التحرك لم يكن غير مناسب، فأسرع لتوجيهه.

عندما شاهد الملك ريتشارد عدم انتظام جيشه، حرك مهماز حصانه وركض إلى الموقع ولم يتوقف حتى اخترق صفوف الهوسبتاليين الذي جاء بأتباعه لمساعدتهم. ثم هجم على الترك مرعداً عليهم وجالباً انتباههم بقوة بضرباته التي كان يضربها. لليمين واليسار كانوا يتساقطون أمامه...

عنيف وحده، هاجم الترك يرميهم أرضاً، ولم يسلم منهم من لمسه سيفه، فحيثما ذهب فتح له طريقاً مستعملاً سيفه في كل جانب. عندما حطم هذا الشعب الكريه بضربات سيفه المتتالية، وقد حصدهم وكأنهم حصاد جاهز للمنجل، والباقون خافوا من منظر أصدقائهم المقتولين، بدأوا يفسحون له المجال، لأنه حتى الآن غطت جثث الترك وجه الأرض لمسافة نصف ميل...

"واستمر المسيحيون يضربون بسيوفهم حتى انتاب الترك الهلع من الخوف، لكن حسم الموضوع كان مشكوكاً فيه حتى الآن. أوه! كم من البيارق والأعلام من جميع الأشكال، وعدد لا يحصى من الأعلام المثلثة الشكل يمكن أن تشاهدها تسقط إلى الأرض؛ نعم، ومثلها من السيوف الجيدة متروكة في كل مكان، رماح من قصب وحديد في رؤوسها، والأقواس والهراوات التركية تلمع بأسنان حادة. ويمكن

جمع حمولة عشرين عربة من السهام المنوعة والصغيرة والقاذفات من الميدان. هناك يمكن مشاهدة التركي الملتحي مرمي مشوه ولكنه مستعد للمقاومة بشجاعة اليأس حتى بدأ حضور رجالنا، قام بعض الأعداء بتخليص أنفسهم من خيولهم الكريمة واختبأوا بين الهشيم أو تسلقوا الأشجار، حيث وقعوا ميتين بصيحات مخيفة من تأثير سهام رجالنا. وآخرين تركوا خيولهم وحاولوا التملص بالدوران باتجاه البحر، حيث رموا بأنفسهم من أعلى وعلى رؤوسهم من علو خمسة ياردات ونصف الياردة".

هزيمة العرب النكراء أكدها مؤرخهم. شاهد بهاء الدين الوسط والميسرة والميمنة جميعها تتفرق بلا انتظام ولم يبق سوى سبعة عشر رجلاً يقفون بجانب الراية، حيث ما زالت طبول السلطان تقرع للعمل. سجل ثلاثة هجومات متفرقة، وفي كل واحدة منها دفعت بالمسلمين إلى الروابي. ولكن بعد هرب الجميع تجمع المسلمون. بقي صلاح الدين بلا حراك قرب رايته محاولاً ضبط الهلع وإعادة رجاله إلى المعركة. أخيراً دبر جمع عدد كبير حول الراية. وواضح من ما يلي من فقرات "اليوميات" بأن العرب عادوا أكثر من مرة للهجوم.

اختير النورمان والانكليز لحماية الراية فتقدموا بخطوات حذرة نحو القسم من جيشنا المحارب، ليس بعيداً عن المعركة حتى يستطيع الجميع اللجوء عند الحاجة. بعد إنهاء مذبحتهم توقف رجالنا برهة، ولكن الترك استمروا بهروبهم حتى لاحظوا بطئنا فاستعادوا شجاعتهم وقام حوالي عشرين ألفاً منهم بالهجوم على مؤخرة قواتنا، مهددينهم بالهراوي لإطلاق سراحهم. وبنتيجة حتمية استمروا برمي أسهمهم الصغيرة والكبيرة، محطمين وجارحين الرؤوس والأذرع والأطراف الأخرى لفرساننا حتى أنهم انحنوا ببلادة على أقواس سروجهم. أخيراً استعاد رجالنا شجاعتهم وبقوة اللبؤة التي فقدت أشبالها، هاجموهم بشدة مرة أخرى، فاتحين طريقاً من خلالهم وكأنهم يمزقون شباكاً يمرون منها...

"كان قائد الأعداء الترك أحد الأمراء من أقارب صلاح الدين، ومعه علم عليه علامة رائعة ليعرف بها، ومرتدياً بنطالاً[٦٦] يلبسه الخيالة

وبه ثقب، إشارة يعرفها رجاله جيداً. تقي الدين هذا لاحق المسيحيين بقساوة وحقد واضحين، وكان معه في هذه المعركة سبعمئة من رجال الترك المختارين. كانوا قد اختيروا من أتباع صلاح الدين الخاصين. كل كتيبة من هذه الفرقة حملت علماً أصفر معقوداً فوقها أعلام صغيرة متعددة الألوان. وفي الحال حضروا بأقصى سرعة وبصياح وفخر هجموا على رجالنا الذين بدأوا بالدوران والاتجاه إلى موقع رايتنا...

ثم قام الملك ممتطياً حصانه القبرصي الذي لا مثيل له، ترافقه فرقته المنتخبة اتجه إلى التلال مهاجماً من يلاقيهم من الترك. واصطدمت الخوذ عند سقوط الأعداء أمامه وتطاير الشرر من ضربات سيفه. كان هجومه بتلك القوة في ذلك اليوم حتى أن الترك جميعهم ابتعدوا عن هجومه الذي لا يقاوم وترك ممراً لجيشنا. وهكذا أخيراً بالرغم من جراحهم وصل رجالنا إلى الراية حيث رصت الصفوف مرة أخرى والفرقة تابعت إلى أرسوف عندما نصبت معسكرها خارج المدينة.

"بينما كان رجالنا ينصبون الخيام قام عدد غفير من الترك بمهاجمتنا من الخلف. لما سمع ضجيج الصراع نادى الملك ريتشارد رجاله لخوض المعركة، أطلق العنان لحصانه، وبخمسة عشر رفيقاً معه فقط هجم على الترك صائحاً بصوت عالٍ "يا الله والقبر المقدس ساعدونا". صاح هذا مرة ثانية وثالثة، وعندما سمع باقي رجاله صدقه أسرعوا وتبعوه وهجموا على الترك وطردوهم من حيث أتوا لأحراج أرسوف...

عاد الملك إلى معسكره وجنودنا المرهقين من المعركة الشرسة استراحوا ليلتهم. أما الذين كانوا راغبين في النهب فعادوا إلى أرض المعركة وأحضروا كل ما رغبوا فيه من نِهاب. من هؤلاء ذكر بعضهم أنه رأى اثنين وثلاثين أميراً ملقى ميتاً - جميعهم ذبحوا في هذا اليوم. وقالوا كذلك أنهم لاحظوا أن الأمراء ذوي مراكز عالية وسلطة، من سلاحهم الرائع ولباسهم الثمين، ومن ثم طلب الترك حملهم لخارج أرض المعركة بسبب مراكزهم العالية. زيادة على ذلك

أحضروا أنباء عن وجود سبعة آلاف جثة من جثث الترك، عدا الجرحى الذين كانوا يصارعون الموت هنا وهناك، لكنهم ماتوا فيما بعد وظلوا مطروحين على الأرض. لكن شكراً لله وحمايته، فلم نفقد في المعركة سوى عشر هذا العدد ولم يكن واحد في المائة من الذين سقطوا من جانبنا".

ولا أمير ذو مركز متميز سقط سوى موزيك **Musik** من الأكراد؛ لكن المسيحيين فقدوا الفارس الذي لا يضاهى جيمس حاكم افيسنيس الذي وجدت جثته وحوله دائرة من خمسة عشر قتيلاً من العرب. أخذ أسير واحد من المسيحيين وقطع رأسه. كان صلاح الدين متأثراً جداً من النكسة حتى أنه لم يستمع لكلمات العزاء الصادقة من أمين سره. جلس تحت ظلال قماشة – لأن خيمته كانت قد ضربت – مهتماً بالجرحى ووهب خيله الخاصة للذين فقدوا مطاياهم. ثم تحرك الجيش وعسكر في الميادين الخضر قرب نهر يافا، على بعد أميال من معسكر العدو تحت أسوار أرسوف.

انتصار ٧ أيلول كان من أعظم ما أحرزه ريتشارد بفلسطين، بالرغم من أنها حدثت مخالفة لأوامره بخرق النظام. ولكن الصليبيين لم يلاحقوا الموضوع. كان صلاح الدين بعيداً عن الإنهيار نتيجة للهزيمة، واستعاد قواه وتخلص من الاكتئاب المؤقت، زحف بجميع قواته عائداً في اليوم التالي إلى أرسوف، وجهزهم للمعركة مقابل الأعداء، وطلب تحدي تجديد القتال. انتظر طوال اليوم لكن الافرنج لم يتحركوا. أعاد التحدي نهار الاثنين، وناوش العدو برماة السهام، ولكن الفرنج احتفظوا بعنادهم ونجحوا في الوصول إلى يافا بدون اشتباك عام. عندما وصلوا إلى هنالك كانت الأسوار تحمي ظهورهم، فصلاح الدين سحب قواته إلى الرملة، دزينة من الأميال إلى الجنوب الشرقي، ليتمسك بطريق القدس وينتظر التطورات، لقد تحقق السير على الساحل، ببطء ولكن بوجع، ولكن بإنجاز قدير وانتصار نهائي.

الفصل العشرون
رؤية القدس
أيلول ١١٩١م – تموز ١١٩٢م

لم يكن الافرنج مسرعين للاستمرار في انتصارهم، لقد رفضوا مناوشات صلاح الدين لزجهم في حرب، وأغلقوا عليهم في يافا لمدة شهرين. ثم نجحوا بصعوبة وبمعدل ثلاثة أميال في اليوم ساروا في طريقهم من عكا، ستين ميلاً إلى الجنوب، وبدأوا بتقوية قاعدتهم قبل أن يجرأوا على ترك الشاطئ والأسطول الذي كان يزودهم بلا انقطاع بالمؤن والمعدات. كانت بيارات يافا تغييراً منشطاً، بعد أن كان غذاؤهم من الخيول الميتة. بسبب إرهاقها لم تبدِ القوات حماسة للتقدم نحو القدس. "استراح الجيش لمدة طويلة مسروراً؛ بينما كانت تزداد خطاياه يوماً بعد يوم بسبب فقدان العقل والسكر والرفاهية. فالنساء من عكا بدأن يعدن إلى الجيش وكنّ أصل كل عار والسبب في إفساد جميع الناس، الذين تقلص حبهم للجميع وضعفت حماستهم الدينية". حقاً لقد قام عدد منهم يعودون جماعات إلى عكا "حيث قضوا أوقاتهم في الحانات". لم يبق ريتشارد على الأقل هادئاً لهذا الكسل وسوء الخلق. إذ أرسل الملك جاي إلى عكا ليدعو الفارين إلى العودة، ولما لم يفلح طلب جاي، ذهب هو بنفسه وحث بخطبة مؤثرة محرضاً الفارين أن يشدوا عضلاتهم للعمل المقدس.

بهذه التحريضات أُعيد الجيش إلى قوته وأكثر من ذي قبل. ولكن لمنتصف تشرين الثاني، بالإضافة إلى تحصين يافا، وإعادة مركزين أو ثلاثة في السهل، بضعة أميال في الطريق إلى اللد Lydda، فهذا الجيش الكبير والقوي لم يحقق شيئاً.[٧٠] كان هنالك بعض المناوشات الشديدة مع النقاط المتقدمة للعرب الذين منعوهم من إعادة بناء قصر السهول Casal of the Plains من غير أن يهاجموهم، والملك ريتشارد المحب للمغامرة والتحدي إبّان تجواله في البلاد، فوجئ مرة بالعرب وهو في رحلة صيد بالصقور وهو نائم، وكان من الممكن أخذه أسيراً لولا إخلاص وليام حاكم بريو William de Preaux الذي نادى بالعربية أنه "الملك" وأقنعهم بذلك أنه ليس بملك الانكليز، وحُمل بعد

ذلك بانتصار. ولكن بالنسبة إلى هدف الصليبيين، لم يسر الافرنج سوى مسافة يوم واحد باتجاه مدينة القدس طوال إقامتهم في فلسطين.

سبب واحد لعدم قيام الصليبيين بأي عمل هو وجود مفاوضات للسلام كانت جارية في شهر تشرين الأول وفي أيام من شهر تشرين الثاني. قوة صلاح الدين لم تضعف بالرغم من خسارته في سوف، وتحكم جيشه في طريق القدس. وقد أبدى أيضاً أنه لن يتخلى عن القيام بأية تضحية ليسيء إلى عدوه، لأنه رأساً بعد تراجعه للرملة دك تحصينات عسقلان إلى الأرض ليمنعها من مساعدة الافرنج. وقال لبهاء الدين "أقسم بالله، إنه أسهل عليّ فقد جميع أولادي من أن أرمي حجراً واحداً فيها؛ ولكنها مشيئة الله، واعتماد سلامة المسلمين عليها". استغرق عمل الهدم والحرق شهراً كاملاً وسط حزن عام، ونقل أهلها إلى مصر وأراضٍ أخرى. مركز عسقلان باعتبارها ميناءً كبيراً وقريباً من الحدود المصرية، ومركزاً قوياً للعمليات من البحر والبر لجنوب فلسطين، برر احتياط صلاح الدين؛ ولكن المسيحيين شعروا بأن الرجل الذي يقوم بمثل هذا العمل لن يتوانى عن عمل أي شيء آخر.

لكن قبل أن تصل الأخبار إلى يافا عن تدمير عسقلان، كان ريتشارد قد قدم عروضاً للسلام. عملية تسلم عكا كانت مثالاً بيّن إمكانية إجرائه دون إراقة دماء. خلال أسبوع من حرب أرسوف أرسل همفري حاكم تورون ليمهد الطريق لعقد اتفاق. كان صلاح الدين مشغولاً في هدم عسقلان، لكن أخاه العادل الذي قاد الحرس المتقدم إلى اللد، كان مفوضاً لعقد الصلح، ومنذ ذلك الوقت وصاعداً قام بإدارة المفاوضات. وعن بهاء الدين، الذي نعتمد عليه رئيسياً في هذا التاريخ الدبلوماسي، كان السلطان راغباً في السلام بسبب حالة جيشه المرهقة؛ حقاً إن السرعة التي هدم فيها عسقلان وبعدها فك دفاعات اللد والرملة والنطرون، لئلا يستولي عليها العدو ويحصنها، كانت علامة الرعب التي سيطرت عليه. ولكون صلاح الدين شديد الاندفاع مثل ريتشارد، فقد كان مستعداً لقبول الشروط بالرغم من أنها تضمنت تسليم جميع الساحل للغزاة؛ ولكن العادل

كان أكثرتريثاً لأنه دبلوماسي، وصمم على تطويل المفاوضات بالطريقة المناسبة، لكي يمهد الوقت اللازم لتدمير عسقلان.

بينما كانوا كذلك منهمكين، وُجِدَ عامل جديد في عقد المفاوضات لصلحة العرب تماماً. في الثالث من تشرين الأول فتح كونارد حاكم مونتفرات من صور مراسلات منفردة مع صلاح الدين. عرض الانفصال عن باقي الصليبيين ليصير حليف السلطان ويعيد عكا إلى العرب، بشرط زيادة صيدا وبيروت لمتلكاته. سفير آخر وصل من قبل ريتشارد في اليوم نفسه. وهذه كانت دبلوماسية وفقها الله؛ شعر العادل بارتياح لهذه المفاوضات وبدأ باستغلال موقف المركيز ضد الملك. نقلت الرسائل باستمرار خلال شهر تشرين الأول بين المعسكرين. اشتم ريتشارد رائحة خيانة مونتفرات وأصبح أكثر اهتماماً بالعادل الذي دعاه "صديقي الحميم وأخي"، وحث على حل نهائي للمنازعات. "كل المسلمين والافرنج"، كتب الملك حسب الفقرة العربية:

"كانوا تعبين؛ جميع مدنهم قد خربت؛ الحياة والثروة تتلاشى على الجانبين. وهذه المشكلة أخذت مداها لبعيد. السؤال الأوحد هو عن المدينة المقدسة والصليب والأرض. أما بالنسبة إلى القدس فلن نتراجع حتى ولو لم يبق منا رجل واحد. بالنسبة إلى الأرض، اعطونا حتى نهر الأردن. أما بالنسبة للصليب فهو لكم عبارة عن خشب لا قيمة له، أما لنا فهو لا يثمن. ليقم السلطان إذاً بالإنعام به علينا ليعم السلام ونركن للسكينة من هذا العمل الشاق".

كان جواب صلاح الدين لهذا الطلب:-

"القدس مقدسة لنا كما هي لكم، وزيادة على ذلك فهي مسرى الرسول (صلعم) حيث سيتجمع شعبنا في اليوم الآخر. لا تفكروا في أننا سنتراجع عن هذا، أو أن نكون متساهلين في هذه المسألة. أما بالنسبة إلى الأرض فهي لنا بادئ ذي بدء، وأنتم اكتسحتموها؛ ولولا ضعف المسلمين لما تمكنتم من ذلك؛ وكلما استمرت هذه الحرب فلن يسمح لكم باسم الله ببناء حجر فيها. وبالنسبة إلى الصليب،

فامتلاكنا له هو نقطة مؤاتية لنا ولن نسلمه إلا لمصلحة الإسلام".[٧١]

مما لا شك فيه أن أمين السر أدخل في هذه المراسلات النغم الذي اعتقد أنه مناسب لكل جانب، ولا يمكن اعتبارهم ضمنياً كنسخ أدبية. ولكنهم حفظوا الشعور العام للمراسلات. ويقول أن في العشرين من تشرين الأول أعلم العادل السلطان بآخر اقتراحات ملك انكلترا. عرض ريتشارد السلام بهذه الشروط:- كان على العادل أن يتزوج اخته جوآن **Joan**، الأرملة ملكة صيقلية، التي سيكون مهرها مدن الساحل عكا وعسقلان ويافا على أن تسكن في القدس. كان على صلاح الدين من ناحيته إعطاء العادل باقي فلسطين زيادة على ما لديه من إقطاعيات، وكان على الزوجين أن يحكما الأرض معاً. كان على المسلمين تسليم الصليب، والإفراج عن السجناء، وعليهم إعطاء مؤسسات للهيكليين والهوسبتاليين. وعند تحقيق هذه الشروط يغادر ريتشارد إلى انكلترا. ظن العادل أن المشروع ممتاز وأرسل ببهاء الدين ليحصل على موافقة صلاح الدين. قال السلطان "نعم؟!" ثلاث مرات وبحماسة أمام شهود. وزاد أمين السر بأن صلاح الدين اعتبر الموضوع نكتة سيئة من جانب ريتشارد، وكل الموضوع أخذ مجرىً مرحاً في الأوساط الدبلوماسية. المرح الرائع الناتج عن الفكرة أثر على سير والتر سكوت **Sir Walter Scott** الذي حولها في "الطلسم" إلى مشروع تحالف بين صلاح الدين والمختلقة اديت بلانتاجينيت **Editt Plantagenet**؛ بينما ليسنق **Lessing** في ناثان الحكيم **Nathan der Weise** استعمل النص الحقيقي.

لم يكن الموضوع ليتنافى مع أخلاق فارس ضال، ولكنه كان من الواضح أنه لن يلاقي استحساناً جاداً عند مسلم متشدد كصلاح الدين. مما لا شك فيه أن ريتشارد عقد صداقة حميمة مع العادل. أبلغ بالحقيقة أن جوآن رفضت بغضب الزواج من مسلم، وفكرة أخيها الثانية بأن العادل يجب أن يصير مسيحياً ليتزوجها كانت أقل عملية. ولكنه دعى العادل في الثامن من تشرين الثاني لمعسكره، استقبله ببذخ على العشاء في خيمته، وبعد يوم من الاحتفال العظيم افترقا بحبٍ متجدد. كان هذا الاجتماع هو الجزء الوحيد من المفاوضات التي جاء على ذكرها في "اليوميات" التي كره فيها

الطريقة الناصحة للعادل (أو كما تدعوه بصفا الدين أو سيف الدين):-

"أثر (العادل) كثيراً على الملك الواثق (ريتشارد) بأحاديثه المنمقة الذكية، مما يظن بأنهما اتفقا على صداقة حميمة بينهما. لأن الملك وافق على قبول هدايا صفا الدين، وكان الرسل دائمي الركض بينهما حاملين الهدايا من صفا الدين للملك ريتشارد. كان رجال الملك يلومون موقفه كثيراً، وكانت مقولة معروفة بأن الصداقة مع غير المسيحيين هي جريمة نكراء. لكن صفا الدين أعلن أنه متشوق لتكوين سلام ثابت ودائم... لذلك ظن الملك نفسه أن يتصرف بحكمة لصنعه سلاماً ظاهراً ومنصفاً لزيادة مساحة الأرض المسيحية".

رغبة ريتشارد في السلام لم تنقص بمعرفته أنه في اللحظة نفسها عندما كان يستضيف العادل، كان سفير كونارد فعلاً في معسكر صلاح الدين على بعد أميال قليلة منه. كان المركيز (كونارد) متشوقاً لتأمين مساندة السلطان بادعائه لملكية تاج القدس، ضد صديق وتابع ريتشارد الملك الاسمي جاي، الذي كان دوره ضعيفاً جداً في الأحداث الأخيرة. كان سفيره لهذا الهدف القدير ريجنالد نفسه حاكم صيدا الذي مرر حيلة لئيمة على صلاح الدين في كوكب قبل سنتين. لكن السلطان لم يكن حاقداً عليه بل استقبله بترحيب ووافق مبدئياً على اقتراح المركيز المتجدد بحلف ضد الصليبيين، ولكنه أجل الرد القاطع. في المساء نفسه وصل همفري حاكم تورون باقتراحات جديدة من ريتشارد، حيث أعاد رغبته في رؤية العادل ملكاً لفلسطين، ولكنه أصر على وجود حصة للمسيحيين في القدس. وأبدى له صلاح الدين أيضاً كل مسايرة ونية حسنة. دعى بعد ذلك إلى عقد مجلس وعرض اقتراحي المعاهدتين أمام الأمراء. فقد أمرهم أنه إذا كان لابد من عقد السلام فيجب عقده مع ريتشارد بدلاً من المركيز، لأن الخبرة علمتهم بأنه من غير الممكن الثقة بالافرنج السوريين. الشروط التي ووفق عليها كانت بزواج العادل من جوآن وأن يكون حاكماً لفلسطين كما اقترح سابقاً. أما رفض الملكة السابقة فلم يؤخذ بالحسبان بأنه نهائي. وفي آخر اتصالاته مع العادل اعترف بأن جميع المسيحيين يلومونه على تزويج اخته

لمسلم؛ ولكنه سيحاول الحصول على مباركة البابا، وإذا أخفق في ذلك، فسيزوج العادل ابنة أخيه (أو أخته) niece بدلاً من اخته، التي رفضت الفكرة، وعلى هذا الأساس استمرت المفاوضات، وكانت رؤية ريجنالد حاكم صيدا راكباً بجانب العادل على التلال بين المعسكرين قد أعطت أجنحة مؤقتة للمراسلين البطيئين للدبلوماسية. لكن لم يظهر أن شيئاً قد حُقق حين قطع الشتاء المفاوضات.(٧٢)

الفصول تلعب دوراً مهماً في الحملات السورية. بدء هطول الأمطار ساق صلاح الدين إلى منطقة المشتى. للآن حفظ حرسه المتقدم في اللد، ولكن معظم الجيش كان معسكراً على التلال في تل جزر Tell Jezer غربي طريق الرملة لتوفر الكلأ لخيوله. ثم سحب هذه القوات إلى القدس، وبعد وقت سرحت القوات البعيدة بالتدريج إلى ديارها حال الاستغناء عنها بسلام. كان لصلاح الدين ثقة كبيرة بحماية الطين في الشتاء، لكنه بقي لريتشارد أن يتعلم عن فضيلة الشتاء السوري. في كانون الأول تقدم الصليبيون في هجومهم الشهير على المدينة المقدسة، هدف حجهم. تقدموا بجسارة حتى الرملة، حوالي أحد عشر ميلاً عن قاعدتهم في يافا، وبعد بقائهم لمدة ستة أسابيع هناك في مدينة مهدمة ومعرضين للهجمات الدائمة من مراكز صلاح الدين المتقدمة، جمعوا شجاعتهم واخترقوا سبعة أو ثمانية أميال إلى الأمام حتى بيت نوبا Beyt Nuba؛ وعندما كانوا قريبين من رؤية القدس، عادوا أدراجهم إلى الخلف مرة أخرى.

"اليوميات" تصف القصة المحزنة. بعد وصف التأخير في الرملة المهدمة، والمغامرة الخطرة لايرل لايكستر وفرسان آخرون، تسترسل:-

"تقدم جيشنا بنظام نحو قلعة بيت نوبا، حيث انزعجنا من المطر الغزير والجو غير الصحي، الذي بسببه مات الكثير من حيوانات الأحمال. بالتأكيد كانت العاصفة من الشدة وغزارة الأمطار مصاحبة برياح عاصفة حتى خلعت أعمدة خيمنا ورمت بها

بعيداً بينما خيولنا نفقت من البرد والرطوبة. جزء كبير من غذائنا والبسكويت أيضاً فسد، ولحم الخنزير والمدعو عادة باكون **bacon** تلف. سلاحنا والصفائح التي تحمي صدورنا خربها الصدأ ولم يمكن إعادتها إلى لمعانها الأصلي مهما فركناها؛ بدأت ثيابنا تتهرأ وكثير منا بسبب طول الرحلة في أراض غريبة فقدوا صحتهم وأصيبوا بأمراض عقيمة. والشيء الوحيد الذي أبقى عليهم هو الراحة بأن يكون لهم الأمل أخيراً بزيارة القبر المقدس للسيد؛ لأنه أبعد من التصور كم كانت رغبتهم في رؤية مدينة القدس وإنهاء حجهم...

"ولكن مجموعة الرجال الحكماء لم يوافقوا على الحماسة الزائدة للناس البسطاء. لأن الهيكليين والهوسبتاليين والپولاني **Pullani**[٧٢] (الافرنج مواليد سورية) لديهم نظرة أشمل للمستقبل، أقنعوا الملك بعدم الذهاب إلى القدس في تلك اللحظة، لأنه كما قالوا سوف يقوم بالحصار لأخذ القدس من صلاح الدين وجميع الترك المسجونين معه في المدينة، فإن جيش الترك الموجود في رؤوس الجبال سيقوم بهجمات مفاجئة. فالخطر مزدوج في كل معركة مع العدو في القدس وخارجها. وأكملوا كلامهم بأنه حتى لو نجحوا في احتلال المدينة فلن يكون نجاحهم ذا فائدة إذ لم يكن لديهم محاربون أشداء يمكن الاعتماد عليهم بالاهتمام بالمدينة بعد ذلك. وهذا لم يكن بالإمكان تحقيقه في هذه الحالة، ومن وجهة نظرهم، فالناس متشوقون لإنهاء حجهم، ليعودوا إلى ديارهم دون تأخير، لأنهم كانوا تعبين مما جابهوه.

أخذ بهذه النصائح الحكيمة "مما عظم حزن عامة الشعب فتأوهوا وتنهدوا عندما وجدوا أن الأمل العزيز لقلوبهم لزيارة قبر السيد المقدس اضمحل فجأة... لعنوا التأخير والذين كانوا السبب في جلب العمل غير المرغوب فيه". لكن القرار كان قد صدر وأعيدت الجماهير بحزن تحت تساقط الثلوج والبرد إلى الخرابات الحقيرة التي كانت الرملة في أحد الأزمان. كان ذلك قبل عيد القديس هيلاري **St. Hilary**، الذي يقع في الثالث عشر من كانون الثاني.

"الآن بينما كان الجيش متمركزاً في الرملة بحزن كبير، كثيرون بدأوا بالفرار إما لعدم استساغتهم للسير المضني أو من

الغضب الشديد. بسبب هذا تقلص الجيش بنسبة كبيرة، فأكثرية الافرنسيين ذهبوا بغضب إلى يافا، وهناك مكثوا على راحتهم. بعضهم ذهب إلى عكا حيث كان الطعام متوافراً. والبعض قبل الدعوة المستعجلة من المركيز حاكم صور، بينما البعض رافق دوق بيرقندي بغضب وحرقة عندما ذهب إلى قلعة السهل حيث بقي لثمانية أيام".

من أجل أن يعوض فشله المشين، ويعيد القوة إلى جيشه فكر ريتشارد بإعادة بناء عسقلان وإعادتها إلى سابق عهدها كقوة كبيرة ومركز للمسيحيين. لكن في فصل الشتاء لم تكن هذه الخطوة موافقة، فالسير بالجيش لم يكن مشجعاً كثيراً. لذلك قاد ريتشارد وهنري حاكم شمبانيا الجيش المحطم والمضمحل إلى عبلين.

كانت الطرق مستنقعات موحلة ووجب عليهم إيجاد طريقة لنصب خيامهم حيث لم يفكروا في شيء سوى أفضل السبل لإراحة رؤوسهم التعبة. قضوا ليلة في عبلين منهكين من الحزن والتعب لا يمكن وصفهما بلسان أو بقلم. عند بزوغ الفجر تقدم الجيش بنظام تسبقهم ناصبي الخيام. لكن تعاسة اليوم السابق لم تكن شيئاً بالنسبة لمسيرة هذا اليوم. عندما سار رجالنا بثقل وتعب، تناثر الثلج الكثيف على وجوههم، والبرّد الثقيل انسكب نازلاً، والمطر المنهمر احتواهم. الأرض التي أصبحت مستنقعاً كانت تغور تحت أرجلهم؛ الأمتعة والخيول والرجال غطسوا في الأوحال، وكلما صارعوا كلما ازداد عذابهم... كانوا محطمين هدهم التعب يلعنون اليوم الذي ولدوا فيه ويضربون أنفسهم، عندما وصلوا أخيراً إلى عسقلان - ليجدوها مستوية مع الأرض بفعل العرب حتى أنهم بصعوبة استطاعوا الدخول من البوابة فوق أكوام الحجارة".

إعادة بناء عسقلان، والصعوبات مع الافرنسيين وكونارد حاكم مونتفيرات أشغلتهم لأربعة أشهر القادمة، ولم تجر أية محاولة للتحرش بالعرب. كان هنالك حرب أهلية في عكا. فدوق بيرقاندي والافرنسيون فروا مرة أخرى؛ ولتتويج كل ذلك، وصل قسيس هيرفورد **Proir of Hereford** من انكلترا حاملاً الأخبار بأن الملكة

(الانكليزية) تخرب من إرهاب جون الذي اغتصب الملك ببساطة. عند هذا أعلن ريتشارد بأنه يجب العودة إلى دياره ليسترجع ملكه. وبما أنه لن يبقى أحد للقيام بالحرب الصليبية دون قائد، وكان هنالك مطالبان اثنان للتاج، فإنه جعل الشعب يختار الملك. بدون تردد، الواحد والجميع اختاروا المركيز حاكم مونتيفيرات، وأعطى ريتشارد فوافق بتردد. الأرمل غير المحبوب لسيبيليا، الذي حمل ولكن لم يتمتع باللقب، عوض عليه بمملكة قبرس. الذي حل مكانه كان أقل حظاً. ما كاد كونارد يحقق طموحه حتى اغتاله فجأة اثنان من عناصر شيخ الحشاشين (٢٧ نيسان).[٧٤] تولى بعده ملكاً هنري حاكم شمبانيا بموافقة الجميع.

بينما كانت هذه الأحداث تأخذ مجراها على الساحل، قضى صلاح الدين الشتاء بهدوء في القدس بعد أن أرسل جيوشه إلى ديارهم. كان الافرنج مازالوا في مراسلات معه، لأن كونارد لم يقطع مفاوضاته طوال أشهر الشتاء. عقد حلفاً هجومياً ودفاعياً حقيقة في شهر نيسان، تفاصيله ليست بذات أهمية لأن المركيز الملك كان قد اغتيل فوراً بعد ذلك. لكن الاتفاقية كما لخصها بهاء الدين تحتوي على إشارة لتفاهم حاصل بين صلاح الدين وريتشارد الذي لربما يفسر الزيارة الغامضة التي قام بها ستيفين حاكم تورنهام **Stephen of Turnhan** إلى القدس. دهش ستيفين لرؤية مبعوثي المركيز خارجين من المدينة، باليان حاكم عبلين وريجنالد حاكم صيدا، "اثنان يائسان كانا وسيطين"، كانت كما يظهر مسألة إغريقي يقابل إغريقي، كان من المحتمل أن يكون ستيفين المحترم نفسه "واسطة" لأن أمين السر العربي يذكر وصول رسالة نحو شهر آذار من ملك الانكليز يطلب مقابلة "أخي" العادل، للنظر في معاهدة.

تحرك العادل من أجل هذه المهمة في العشرين من آذار وبتعليمات محددة. كانت له صلاحية عقد معاهدة سلام تتضمن تقسيم البلاد، تسليم الصليب، مع حق الحج للقدس وتأسيس مراكز للكهنة في كنيسة القبر المقدس؛ إذا أصر الملك على أخذ بيروت، فليأخذها ولكن بشرط هدمها أولاً. كانت هذه هي حدود صلاحيات العادل. عندما وصل إلى سهل عكا كان ريتشارد في حالة تأهب

للعودة إلى عسقلان، ولكن بنود الاتفاقية نفذت عن طريق وسيط، أبوبكر المستشار، وعاد العادل في أوائل نيسان وكما يظن نجح في مهمته. كانت القدس ستقسم بين المسيحيين والمسلمين، ولكن كان على الأخيرين الاحتفاظ بقبة الصخرة المشرفة. ولكن عدم التصديق على المعاهدة يظهر من الحوادث اللاحقة. الإثبات على المودة غير المعتادة التي سادت حينذاك موجودة في الكلمات الرائعة في "اليوميات" : "في أحد الشعانين (آذار ٢٩) طوق نطاق الفروسية ابن صفا الدين باحتفال مهيب، الذي كان قد أرسل له لهذه الغاية".

إنه لمن الصعب التصديق بعد علامة الصداقة الفريدة هذه – وتقريباً غير المعقولة – أن يستغل الملك إشاعة عن بعض المشكلات التي تواجه صلاح الدين بالنسبة إلى ابن أخ له ثائر في وادي الفرات، ليؤجل عقد الصلح على أمل أن يشهد حرب أهلية بين العرب. ولكن لا يوجد هنالك خلاف على الحقيقة أنه في أيار بالرغم من وجود اتفاقية لا ينقصها سوى التصديق، عاود ريتشارد مرة الهجوم، مبحراً على الساحل جنوباً محاصراً قلعة داروم، حيث أثبت الصليبيون بغير سرور بأنهم لم يفقدوا شيئاً بعد من وحشيتهم الاعتيادية بالتعامل مع المسلمين المغلوبين:-

"قام رجالنا بإلقاء من وجدوه من جنود الترك على التحصينات إلى أسفل الحفرة حيث تهشموا. لأن عدد الترك الذين ذبحوا في الأجزاء المختلفة من القلعة يبلغ الستين. أما الذين التجأوا إلى القلعة وجدوا أنفسهم خائفين... سلموا أنفسهم للعبودية الأبدية يوم الجمعة قبل الأحد السابع بعد عيد الفصح **Whit - Sunday** ... أمر الملك رجاله بمراقبة الترك الذين ظلوا في القلعة من مساء الجمعة حتى صباح السبت. ثم في ليلة العيد نزل الترك من القلعة بأمر الملك، وأيديهم مربوطة بشدة خلف ظهورهم بسيور جلدية حيث كانوا يصيحون من الألم. كانوا ثلاثماية بالعدد، زيادة على الأطفال والنساء. وهكذا قبل وصول الافرنسيين، استطاع الملك ريتشارد بمساعدة رجاله وحدهم الاستيلاء "بنبل" على داروم بعد حصار أربعة أيام".

احتلال داروم أحيت روح الصليبيين الذين لم يعتادوا النجاح مؤخراً، حتى أنهم تجرأوا للإغارة عبر السهل حتى عبلين التابعة للهوسبتاليين التي هي بيت جبرين (Beyt Jibrin)، وفي حزيران صمموا على التقدم نحو القدس. ترك ريتشارد عسقلان في السابع من الشهر وسار باتجاه بلانش جارد و"تورون الفرسان" النطرون "Toron of the Knights'' (Natrun) وعسكر مرة أخرى قرب بيت نوبيا Betenoble، حيث انضم إليه الافرنسيون. هنا انتظر الجيش كله الملك الجديد هنري لمدة شهر، وخلال هذا التأخير قام ريتشارد بجولة في البلاد بحثاً عن المغامرات. في احدى المرات، "صباح يوم القديس بارناباس". كان يلاحق مجموعة من العرب إلى التلال، رفع عينه وفجأة رأى المدينة المقدسة عن بعد؛ أو كما يقول الآخرون، لم يتمكن من رؤيتها ولكنه أمسك شعاره أمام وجهه ثم بكى وصلى، "يا أيها السيد العادل الرب، أدعو لك بأن لا تريني المدينة المقدسة، إذا لم أقم بتخليصها من أيدي أعدائك". لكن القدس لم تكن لتتخلص بسيفه. بينما كان الصليبيون مرتاحون في بيت نوبا، كان عدوه يزيد قوته يومياً. بدأت فرق صلاح الدين بالعودة من بلادها بعد انتهاء الشتاء وتجمعت تحت رايته بالآلاف. دولديريم Dolderim سيد قلعة كورتناي القديمة لطربسل كان أول الواصلين مع قوته التركمانية في آخر أيار. آخرون تبعوه فوراً. تحضيرات حذرة نفذت للدفاع عن القدس، وأخذت القوات الخفيفة بقيادة صلاح الدين نفسه لمناوشة العدو.

الجانبان أحرزا النجاح في هذه العمليات، ولكن في الثالث والعشرين من حزيران كان فقدان قافلة مهمة من مصر، محملة بالأموال والتموينات والأسلحة أسوأ ضربة يتلقاها المسلمون. بعد هذه، وبوجود حيوانات الأعمال النشطة بالآلاف تحت إمرتهم، لم يشك صلاح الدين أبداً بأن الصليبيين سيسيرون بدون تأخير نحو المدينة المقدسة، فبدأ بتدمير آبار المياه والخزانات في الجوار، حتى أنه لم يترك نقطة من الماء صالحة للشرب. لكن العدو مازال متردداً.

عقد مجلس متحفز في القدس مساء الأربعاء الأول من تموز. حتى أبو الهيجاء "الطخين" "Abu-l - Heyja "the Fat حضر بالرغم

من سيره بصعوبة وأعطي كرسياً في خيمة السلطان.(٧٥) أمر بهاء الدين بتوجيه كلمة للأمراء المجتمعين، "وتكلم كما أن الله دعاه" للحث على الحرب المقدسة. بقي صلاح الدين في تفكير عميق، ثم طلب بصدق من جنوده قائلاً: "حياة الأطفال وأملاك المسلمين تعتمد عليكم، إذا فشلتم لاسمح الله فسيلفون الأرض كلفافة من الجلد... المسلمون في جميع أنحاء البلاد يعتمدون على شجاعتكم. والسلام". ثم تكلم بالافري **Balafre** الذي فُدِي مؤخراً من سجنه في عكا قائلاً:

"يا مولانا، إننا مماليكك وعبيدك. لقد كنت كريماً معنا وجعلتنا عظماء وأقوياء؛ أعطيتنا وجعلتنا أغنياء؛ وليس لدينا سوى رقابنا لنقدمها لك، وهي بين يديك. والله، لن يعود رجل منا إلى الخلف إلا وسيساعدك حتى الموت!".

جميع الأمراء قالوا مثله، فسُرَّ صلاح الدين.

قضي نهار الخميس بعمل مرهق ولم تُهمل أي من التحصينات. وبعد صلاة المغرب جماعة، قضى صلاح الدين وأمين سره ليلتهم في مشاورات متحفزة. لم يكن السلطان مرتاحاً. كان ضباطه مختلفين عن أحسن الطرق لمجابهة الهجوم، والكرد والترك لم يكونوا متعاونين جيداً. طلع الفجر عليه وهو يتباحث، كان يوم الجمعة، وصلى في الجامع بتعبد أكبر من أي وقت مضى، وفي صوت منخفض، ودموعه تسقط على السجادة. شعر أنه في أي وقت يمكن للعدو أن يكون على البوابة وأن تسقط القدس. "المدينة المقدسة التي يكن لها كل عناية يعجز عنها الوصف".

في ذلك المساء جاء خبر من جورديك قائد الحرس المتقدم: "ركب العدو وتسلق التل وتمركز ثم عاد للمعسكر". في اليوم التالي (السبت، الرابع من تموز) جاءت رسالة أخرى: كشافة جورديك علموا بأن هناك عصيان في معسكر المسيحيين، بعضهم يريدون التقدم، والآخرون التراجع؛ الافرنسيون أعلنوا بأنهم غادروا بلادهم من أجل القدس ولن يعودوا دون استرجاعها. انكيتار **Inkitar** (رجل انكليزي) أشار بأن جميع الأبيار قد أفسدت ولم يكن هنالك مياه لتشرب.

أخيراً عين محكمون ليقرروا الموضوع.

قال الكشافة الحقيقة. فترة أخرى من الاحجام القاتل غمر هدف الصليبيين، وبضبابية المشورة المنقسمة ترك القرار إلى هيئة تحكيم منتقاة بالتساوي من فرسان الهيكل والهوسبتاليين، الافرنسيون، والافرنج السوريون. قرروا غض النظر عن التقدم نحو القدس، التي كانت تقريباً بمدى الرؤيا، واقترحوا التقدم نحو القاهرة - ٢٥٠ ميلاً عبر الصحراء! احتج الفرسان الافرنسيون دون طائل.

في اليوم التالي كانوا بتراجع كامل.[٧٦] خرج السلطان راكباً على رأس رجاله لمشاهدة المنظر العظيم. الترحيب فاق الوصف. لقد زال الخطر وشعر صلاح الدين بأن دعاءه قد سمع فعلاً. لقد أنقذت المدينة المقدسة.

الفصل الحادي والعشرون
آخر قتال في يافا
١١٩٢م

ما كاد الصليبيون يستريحون، حتى وصل سفير إلى صلاح الدين أرسله هنري "ملك القدس"، ليعلمه بأن الملك ريتشارد أعطاه جميع الأراضي التي احتلها على الساحل؛ وكان طلبه المتواضع "ارجع لي لذلك أراضيّ (الأخرى)"، لكي أصالحك وأصير واحداً من "أولادك". غضب صلاح الدين كان ساخطاً وبحدة، خصوصاً أنه جاء بعد تراجعهم المشين، وكان عليه تمالك أعصابه لكي لا يصفع السفير. تمالك نفسه بجهد وأرسل مندوباً في السادس من تموز مع الجواب للملك هنري، بأنه كخلف للمركيز يجب عليه التقيد بالاتفاقية مع كونارد، وأنه لا يمكن بحث أي موضوع سوى صور وعكا. بعد ثلاثة أيام جاءت رسالة أخرى من ريتشارد نفسه لكنها مختلفة تماماً، موصياً "ابن أخته الكونت هنري" لعطف صلاح الدين الطيب، ملِحّاً على ترتيبات بروح ودية ومهذبة. كان مجلس السلطان جميعه مع السلام وأرسل بجواب ودي :- بأن صلاح الدين سيعامل هنري كأحد "أبنائه"، يعيد كنيسة القيامة إلى المسيحيين، ويقسم البلاد. الشاطئ سيكون للافرنج والتلال للعرب، كما هي الآن، والأراضي ما بينهما ستقسم بالمساواة؛ لكن عسقلان ستهدم ولا تكون لأي طرف. تبع ذلك سفارة ثالثة ورابعة في غضون بضعة أيام مع هدية صقور من ريتشارد، هدفهم بحث التفاصيل وفوق كل ذلك الإبقاء على عسقلان. بقي صلاح الدين متشدداً وعرض اللد كبديل، ولكن عسقلان يجب هدمها في النهاية. تحطمت المفاوضات على هذه الصخرة، ورفض ريتشارد إنزال حجر واحد في عسقلان.

ملك الانكليز ومعظم جيشه استراح في عكا حيث كانوا متلهفين بالترتيب للعودة إلى أوربا، كارهين من كل قلوبهم الحملات الحربية. قرر ريتشارد أن يرسو في بيروت والتي اقترح أن يستولي عليها بضربة خفيفة من يده **Coup de main**. عندما سمع صلاح الدين عن فكرة مهاجمة مدينته بدلاً من الابحار الذي كان سيقوم

به ريتشارد، انتهز الفرصة بالهجوم السريع على يافا. فغادر القدس في ٢٧ تموز وكان قبالة أسوار يافا في اليوم نفسه. واجه مقاومة أشد مما كان يتوقع، ولكن بعد ثلاثة أيام من حفر السراديب تحت الأسوار بجهد كبير والقصف حيث كان لصلاح الدين في ذلك دورٌ عظيم، هُدم جانب من السور واندفع العرب في هجومهم إلى الأمام. قابلهم "سور من الفولاذ"، فعندما كان يسقط رجل يأخذ آخر مكانه. ثبات وشجاعة الحامية أفعمت المؤرخ المسلم بالإعجاب قائلاً: من هم هؤلاء الجنود الأبطال وكيف لم يخافوا لشجاعتهم. أخيراً لم يكن هناك مجال لرد المحاصرين، واتفق على التسليم بشروط تسليم القدس نفسها قبل خمس سنوات. لكن المسلمين كانوا مندفعين مع المعركة، ولم يكونوا مستعدين للمصالحة، واعترف صلاح الدين بعدم قدرته على كبحهم. أخبر المحاصرين "أن يعودوا إلى القلعة ويسلموا المدينة لأنه لا شيء سيمنع المسلمين من دخولها".

لم يكن الوقت مناسباً للمواطنين المسالمين ليكونوا هناك. كانت المدينة ملأى بالأكراد والتركمان المتوحشين الذين يجوبون الشوارع وسيوفهم في أيديهم ناهبين كل بيت يدخلونه: "مخازن ملأى من أجود البضائع، الذرة الصفراء لصنع الخبز، حتى بقايا نهب القافلة المصرية – جميعها سقطت في أيديهم". ولم يكن مستغرباً أن يقتل بعض المواطنين التائهين "خطأً". هذه الأخطاء تحدث في نشوة الانتصار. خلال هذا تلقى السلطان معلومات أوجبت ضرورة السيطرة على قواته. الضباط الآمرون لفرق المراقبة بالقرب من عكا[٧٧] قالوا أن الملك ريتشارد قد سمع بما تعانيه يافا ليلة مغادرته وأنه في طريقه لإنقاذها. كان من الضروري جداً احتلال القلعة التي بدونها لا يمكن السيطرة على المدينة. ولكن المشكلة كانت في إبعاد الحامية واللاجئين عنها. بالرغم من أنهم سلموا[٧٨] فقد كان من الصعب إهمالهم لحماية أسوارها دون ضغط كبير، حيث كان المسلمون مثقلين بالغنائم تعبوا من النهب ولم يهتموا لأوامر صلاح الدين المتكررة. حاول إرسال قوة إلى القلعة في وقت متأخر من الليل لكنه كان يتكلم إلى لآذان صُمٍ!

طوال الليل بقي أمين السر القدير بهاء الدين ساهراً قلقاً من

محاذير مزعجة. سمعت أصوات أبواق ريتشارد قادمة من البحر عند الفجر. كان الملك في عكا في حالة تأهب للعودة إلى انكلترا، في هذه اللحظة وصل مراسلون على عجل من يافا يمزقون ثيابهم ويجوحون على نهاية مدينتهم. وقبل أن يسمع باقي قصتهم تقدم ريتشارد بغضب قائلاً:- "بحماية الله وبمعونته، سأبحر وأعمل ما باستطاعتي". نادى المنادي للاجتماع، هب الفرسان تلبية لطلبهم، وبالقوة التي استطاع جمعها بسرعة أبحر إلى يافا. كانت الأبواق المنطلقة من سفنه هي التي نبهت العرب صباح السبت.

لم يكن هنالك وقت لإضاعته. أرسل صلاح الدين فوراً لبهاء الدين، رجل السلام، الذي راقب كثيراً من المعارك الدامية من على ظهر بغلته ولم يكن دائماً بعيداً عن الخطر، الذي أصبح مرشحاً الآن أن يتولى مهمة المساعد العسكري. بينما أرسل صلاح الدين قواته إلى الشاطئ تتصدي لنزول ريتشارد، كانت مهمة بهاء الدين إفراغ القلعة من حاميتها والسيطرة عليها. كان عليه أيضاً اصطحاب ثلاثة أمراء والأمير الزاهر في طريقه. وجدوا الأمير نائماً بسلاحه ملتفاً بمعطفه الجلدي المبطن (فروة)، ومع كونه مازال يغالب النعاس فقد امتطى صهوة حصانه ورافق الآخرين. توجهوا من الشوارع الخاوية ووصلوا القلعة. وعندما أمروا الحامية بالتسليم أطاعوا الأمر وأعدوا أنفسهم لمغادرتها قبل أن يعلموا بوصول ريتشارد في البحر. لو أنه سمح لهم بالمغادرة فوراً لكانت المسألة غير ذلك. ولكن أحد الأمراء المدعو جوردك، الذي خدم مع صلاح الدين عند فتح مصر قبل نحو الثلاثين عاماً، كان رجلاً جسوراً أعلن أنه لا يستطيع ترك الناس للقلعة من خلال جماهير المسلمين المجتمعة في الخارج، حيث يمكن أن يجردوهم من كل شئ ويضربونهم. بدأ يضرب الجماهير لإرجاعهم للخلف لفتح الطريق للحامية ولكن قواته كانت في حالة بائسة غير مسيطر عليها. أخيراً أخرج تسعة وأربعين رجلاً من الحامية مع خيلهم وزوجاتهم، ولكن مضى وقت طويل في انهماكهم بهذا العمل حتى قرب الظهر، وعندما ساروا خارجاً، كان من الممكن رؤية أسطول ريتشارد المؤلف بما يقدر بخمسة وثلاثين سفينة وخمس عشرة سفينة شراعية سريعة قرب الشاطئ. هذا المنظر المفرح جدد شجاعة من بقي من المدافعين، وتقدم أحدهم إلى بهاء الدين وأعلمه بلطف أنهم غيروا

رأيهم. في بضع دقائق عاد الرجال إلى أسوار القلعة وأتبعوا ذلك بهجوم حاميتها على المسلمين وأقصوهم عن المدينة. بسرعة لحق بهم المسلمون وأعادوهم إلى القلعة وهاجموا المكان بشراسة. حقاً لقد كانت حالتهم بائسة جداً وكانت النجدة بطيئة فتجرأوا مرة أخرى وأرسلوا إلى صلاح الدين يسترحمونه لينفذ الاتفاق السابق بشروطه لما عاكسهم الحظ.

في هذه اللحظة نفسها أوقفت السفن الشراعية الانكليزية عمل مجاذيفها. انتظر ريتشارد وتعجب لرؤية الرايات الإسلامية ترفرف على الحصون وخاف من أن تكون القلعة قد احتلت. صوت هدير البحر، صيحات المهاجمين، وهتاف المسلمين بصيحة الحرب كلها حجبت استرحامات الرجال الذين كانوا في موقف حرج والتي لم يسمعها ريتشارد. كانت مخاطرة متهورة حتى لقلب الأسد **Coeur de Lion** أن يواجه جيش عربي بعد أن سلمت القلعة ولم يبق شئ لتخليصه. في هذه الحالة غير الأكيدة واليأس، رأى بأعينه الثاقبة رجلاً يرمي بنفسه بجسارة من القلعة إلى البحر وسبح بقوة نحو الأسطول. رفع سريعاً إلى ظهر المركب وتبين أنه قسيس. لهث قائلاً: "أيها الملك النبيل، هنالك شوق لقدومك. إنهم يحملون سيوفهم المسلولة كالقصابين، وأعناقنا مشدودة مثل الماشية المستعدة للذبح. سوف يهلكون حالاً إلا إذا حماهم الله عن طريقك". ثم أشار للملك أين مازالت تقف الحامية على الخليج "إزاء تلك القلعة". كان هذا كافياً لريتشارد؛ "أتلف المؤخرة!" صاح قائلاً. وأسرعت سفينة الملك الشراعية الحمراء إلى الشاطئ. وقبل أن ترسو كان ريتشارد غائصاً في مياه البحر إلى الحزام؛ فرسانه تبعوه وهجموا على العرب بقوة وتصميم. يمنة ويسرة ألقى الملك الرجال إلى الأعماق بضرباته الجبارة من بلطته الدنماركية(٧٩) الشهيرة. تفرق المسلمون في كل اتجاه، أُخليَ الشاطئ، يقول أمين السر بذهول (بهاء الدين): "تحت نظري طردونا خارج الميناء". صعد الملك وحده على درج منزل الهيكليين وبلمحة كان العلم الانكليزي يرفرف على السور، إشارة لنجاة الحامية. اندفعوا منحدرين لملاقاة مخلصهم الذي وجدوه يضرب بسيفه بقسوة وبطولة يعرفهما ريتشارد وحده، وتكاثفوا معاً حيث لم يبق مسلم حي في الشوارع.

ما كان سيسمح به صلاح الدين هو مجرد حدس. لربما خدع بعدم قيام الاسطول بأية حركة لفترة طويلة وقدر أنهم لم يجسروا على مواجهة قواته. فرد عليه في اللحظة الحرجة وأخبره رجل السلام عن الخطر الذي يواجهه القائد. يقول أمين السر: "أسرعت على حصاني نحو السلطان ووجدته مع الموفدين" اللذان حضرا حينئذ من طرف الحامية ليفاوضوا على الشروط. صوت خافت أخبر صلاح الدين بما حصل، لكنه استمر في الحديث لئلا يدرك المندوبان حقيقة ما يجري. جماهير الهاربين من أمام الخيمة لم تترك أدنى شك، عندها أعلن السلطان الانسحاب رسمياً الذي كان هزيمة منكرة. تركت المنهوبات الكثيرة؛ واختفى الجيش باتجاه يازور ولم يبق سوى صلاح الدين وفرقة صغيرة من الخيالة.

وهكذا احتلت يافا وأعيد احتلالها خلال يومين. الإنقاذ الشجاع توج حملة ريتشارد الصليبية ببريق من المجد الآفل. لقد انتصر على جيش المسلمين بحفنة من الأبطال وثلاثة حصون[٨٠] وجعلهم يهربون.

الهرب انتهى لكن القتال لم ينته. عرف ريتشارد هذا كما عرفه أي واحد. ذهب أبوبكر المستشار لزيارته - بالتأكيد مع اقتراحات لعقد هدنة - في ليلة الهزيمة المنكرة نفسها، عاد بقصة غريبة. قال أنه وجد الملك يحاور بطريقة مرحة بعض الأمراء المسلمين - الأغلب أنهم سجناء - ورفع تقريراً عن الحديث بين الجد والمزاح: "لماذا سلطانكم العظيم فرّ هارباً بمجرد رؤيتي ؟ والله اني لم أكن مسلحاً أو مستعداً للقتال - لقد كنت عارياً تماماً مما يستر الجسم سوى حذاء يستر قدميّ في القارب! ولماذا هربتم؟" ثم استمر قائلاً: "والله العظيم ظننت أنه لن يحتل يافا في شهرين - ولكنه عملها في يومين!" موجهاً كلامه لأبي بكر قال: "تحياتي للسلطان وأخبره أنني أتوسل إليه باسم الله أن يحل السلام. يجب أن تكون هنالك نهاية لكل هذا. بلادي عبر البحر في حالة سيئة. ولا فائدة لنا أو لكم في الاستمرار بهذا.

لم يرفض صلاح الدين هذا العرض، لكنه ضيق الحدود

للمفاوضات لتشمل الشاطئ بين صور وقيصرية. لم يكن هذا موقف قائد مهزوم. بعد ذلك اقترح ريتشارد أن يقطعه السلطان يافا وعسقلان، حيث بذلك يصبح "رَجُلَهُ" على طريقة الافرنج، ويصبح هو وقواته بخدمة صلاح الدين. بما أن الملك كان مغادراً قريباً، لم يكن الولاء المقترح (حتى ولو نقل بصحة) ذا أهمية كبيرة، ولكن صلاح الدين لم يرفضه جميعه وعرض إقطاع يافا وإبقاء عسقلان. في نهار الأحد جاء سفير إلى الرملة مكرراً طلب عسقلان. أجاب صلاح الدين بلا تردد: لا نستطيع التخلي عن عسقلان، وملككم لن يستطيع المغادرة كما يقترح قبل أن يترك جميع البلاد التي فاز بها لتكون في أيدينا. إذا استطاع أن يقضي شتاءً هنا، بعيداً عن بلده وشعبه، وهو في ريعان شبابه ومسراته، فأنا كم من الوقت أستطيع البقاء هنا. الشتاء والصيف معاً؟ وزاد "أنا في قلب بلدي، أولادي وأهلي من حولي وأستطيع الحصول على ما أريد. أنا رجل كبير السن، ومسرات هذه الحياة لا قيمة لها بالنسبة إليّ - لقد استمتعت بها ورفضتها كلها... أعتقد في قرارة نفسي أنني أعمل أحسن الأعمال، ولن أتوقف حتى يهب الله النصر لمن يشاء".

تحطمت هذه المفاوضات على صخرة عسقلان كسابقتها. ومن الممكن أن تكون لكسب الوقت، لأنها وردت أنباء نهار الإثنين بأن التعزيزات كانت تسير من عكا لمساعدة الملك. أرسل صلاح الدين متاعه إلى التلال، وآخذاً معه فقط خيالته وذهب لملاقاة الخطر الجديد. وجد أن الافرنج وصلوا بسلام إلى قيصرية، تركهم هناك وعاد مصمماً على القيام بمحاولة أخرى على يافا. عرف العرب الآن جيداً بضعف القوة التي هربوا منها يوم السبت، وبالرغم من ذلك، فقد فضلوا وجود عامل المفاجأة. أحد أهل جنوى كان يتلصص عند الفجر نهار الأربعاء (٥ آب) سمع صهيل الخيول وخطوات رجال وشاهد لمعان الفولاذ من خلال شعاع الشمس المنحني. ركض راجعاً إلى المعسكر لينذر فنهض الفرسان من فراشهم. لم يكن لديهم الوقت كافياً لحمل أسلحتم كلها. ريتشارد وغيره كثيرون تقدموا بدون أن يشاهدوا حراساً أمامهم. بعضهم لم يكونوا قد لبسوا سراويلهم وبرد هواء الصباح ضرب أفخاذهم العارية. كل منهم تناول السلاح الأقرب له ثم هجموا مندفعين قدماً.

كان لدى الملك أربعة وخمسون فارساً فقط، لدى خمسة عشر منهم خيّالة، ونحو ألفين من الجنود الأشداء. لكن كان على رأسهم هنري حاكم شمبانيا وإيرل لايكستر، وبارثولوميو دي مورتيمر **Bartholomew de Mortimer** ورالف دي مالو - ليون **Ralph de Malo-leone** وأندرو حاكم شافقني، وجيرارد دي فيرنيفال **Gerard de Furnival** وكثيرون غيرهم من السيوف الموثوق بها. جاء العرب تخب بهم خيولهم في سبع فرق كل واحدة مؤلفة من ألف خيال؛ ولكن رماحهم أسندت على سياج من الحديد. وراءهم كان هنالك سياج نصب بسرعة من أوتاد الخيم لإعاقة الخيالة. كان الافرنج مرتبين على ركبة واحدة لاستقبال الخيالة، وأعقاب رماحهم مغروزة جيداً في الأرض، وتروسهم مسندة أمامهم.

بين كل اثنين من المحاربين وضع ريتشارد ضارباً بالقوس يطلق سهامه من فوق التروس، وخلف كل منهم رجل يشد قوس الاحتياط ويركز فيه السهم. كتيبة بعد أخرى جاءت ترعد للتوقف عند سور الحراب. جلسوا فترة من الوقت كالرجال المشلولين، متراصين رمحاً بجانب رمح، قادرين فقط على الصياح والشتم، ولقرب بعضهم من بعض لم يفك أحدهم خيط قوسه. خمس أو ست مرات أعيد الهجوم بالنتيجة نفسها، لكن أخيراً وفي الساعة الثالثة عصراً أمر ريتشارد رماة السهام بالتقدم إلى الأمام ورمى صلية من المسامير الغليظة على صف الخيالة. ثم تقدم رماة السهام من بين حملة الرماح وتابعوا الهجوم حتى أتموا خيبة العدو. في لحظة التراجع قام ريتشارد مع خمسة عشر من فرسانه على خيلهم بهجوم على العرب بغضبه الذي لا يضاهى، قاطعاً الرؤوس ومحطماً الأطراف في جميع الاتجاهات. إبّان احتدام المعركة ظُنَّ أن حصانه قد قتل، لأن تركياً تقدم فجأة نحوه على حصان يزبد ويقود معه حصاناً آخر. عندما رأى صلاح الدين ريتشارد راجلاً [٨١] أرسل له حصانين عربيين سريعين، مفكراً أنه من العار على محارب شجاع مثله أن يحارب راجلاً. تقبل ريتشارد الحصانين بالروح نفسها واستمرت المعركة. خلال ذلك حاول المسلمون احتلال المدينة من الخلف، لكن ريتشارد مع فرسان بعدد أصابع اليد صدوهم. هرب رجال السفن الشراعية الجبناء لكن الملك أعادهم لحفظ المدينة؛ النهار كله سجل طويل لما قام به ريتشارد.

هذه ليست تخيلات ملونة للمؤرخ المسيحي، فبهاء الدين يقر بالفشل الكامل للهجوم الإسلامي، الذي سببته الرحمة التي منحت لحامية يافا. قال أن بعض الجنود عيروا السلطان - "اجعل جنودك يهاجمون الذين ضربوا رجالنا يوم احتلالنا يافا". مهما كان السبب، فصلاح الدين لم يستطع إعادة رجاله للهجوم، ويقول أمين سره بإعجاب واشمئزاز، كيف أن ملك الانكليز سار راكباً أمام مقدمة الجيش العربي كله مسنداً رمحه ومتحدياً لهم حتى ولا رجل واحد حاول أن يمسه. أخيراً ترك صلاح الدين ميدان المعركة بغضب ووصل نهار الجمعة إلى القدس آمراً بإجراء تحصينات جديدة. لم يعد يثق الآن بأن ريتشارد سيتوجه إلى بلاده قبل أن يستولي على المدينة المقدسة.

في اليوم التالي كان السلطان عائداً إلى المعسكر في الرملة، مصلياً للتعزيزات، لم يستطع أن يثق بالرجال الذين خذلوه مرتين. جاءت المساعدة وفق الوقت اللازم قوات من الموصل، من مصر، المماليك القدماء لشيركوه، والجند المستنفرين من شمالي سورية. في بضعة أيام كان لديه جيش يخجل الرجال الذين تسللوا هاربين أمام يافا. ولكن لم يكن بحاجة إليهم. فملك انكلترا كان مريضاً جداً، فصحته والمشكلات في بلده تطلبت حركة سريعة. الصليبيون الآخرون كانوا متشوقين إلى المغادرة؛ وملك القدس الجديد حتى التنظيمين العسكريين (الهيكليين والهوسبتاليين) رفضا أن يكونا مسؤولين عن المدن المغلوبة على الساحل إذا لم يكن ريتشارد موجوداً لقيادتهم: "رفضوا اقتراحاته ولم يسيروا معه أبداً".

مع تابعين قليلين وأصدقاء كثيرين نبذوه، ملقىً على فراش المرض وحوله "جماعات من الترك". في كل مكان، ما كان على الملك إلا أن يعقد صلحاً مع صلاح الدين ويغادر. الفشل الثاني في يافا علّم السلطان درساً، حتى وبقواته الجديدة لم يكن متشوقاً ليقوم بحرب متجاوزاً للحد **a out rance**. كان هنالك قتال كافٍ، وبضمير مرتاح لا يستطيع أحد أن يقول أنه لمدة خمس سنوات لم يطرق المسلمون "طريق الله" بحماسة وتحمل الشهداء. مرض الملك رقق قلب صلاح الدين وقلب العادل، اللذين كانا دائماً مستعدين لصداقة خصم صريح

ومثال للجندية. في أثناء الحمى الحارقة كان ريتشارد يشتهي الفواكه المبردة، وكان صلاح الدين يرسل له دائماً ا لأجاص والدراق والثلج المنعش من الجبال. يقال أن العادل تأثر كثيراً بسبب الخطر على الملك وريتشارد ديفيزيس **Richard Devizes** يروي قصة جميلة عن إحدى زيارات العادل لخيمة الرجل المريض:-

"خلال ذلك جاء نازلاً وحسب رغبته لرؤية الملك أحد الرجال المهذبين صفا الدين، أخو صلاح الدين، جندي قديم ودود وحكيم، الذي اجتذبه الملك لجانبه بسماحته وإنعامه. عندما استقبله خدم الملك بترحيب أقل من المعتاد ولم يسمحوا له بالتحدث مع سيدهم قال بوساطة المترجم:- "أرى أنكم في حزن عظيم ولست جاهلاً السبب لذلك. صديقي الملك مريض ولذلك تغلقون الباب في وجهي". ثم هطلت دموعه وقال:- "يا إله المسيحيين، إذا كنت إلهاً حقاً فلا تعذب هذا الرجل، إنه لا يحتاج بشدة إلى الموت مبكراً".

مما يؤسف له، ولكنه من المؤكد أن العادل لم يكن أبداً في يافا خلال مرض الملك.

كان الأمر للعادل، بالرغم من ذلك، ومع وجوده مريضاً في مارصموئيل **Mar Samwil**، فقد اتجه له الملك في محنته. توسل إليه بأن يصل "لأحسن شروط يستطيعها" مع صلاح الدين. حث المستشار أبوبكر أن"- "اسأل أخي العادل كيف سيقنع السلطان بعقد السلام وتوسل إليه ليترك لي عسقلان". ولكن عسقلان لن تكون له. شغلت الدبلوماسية من الجمعة الثامن والعشرين من آب حتى نهار الأربعاء. مراسل سريع انتقل بين العادل والمعسكرين، أخيراً عقدت معاهدة السلام في الثاني من أيلول عام ١١٩٢م. أعطيت له مدن الساحل التي احتلها الملك ريتشارد من عكا حتى يافا، ولكن يجب هدم عسقلان، المسلمون والمسيحيون يستطيعون بحرية المرور من مناطق بعضهم بعضاً، والحجاج يستطيعون زيارة القبر المقدس في القدس. عندما وضع المراسل مسودة الاتفاقية في يدي الملك الذي كان مريضاً جداً قال:- "ليست لدي القوة على قراءتها ولكن هذه هي يدي للسلام". وعندما وصلت السفارة للتوقيع سلم ريتشارد باليد

على كل عضو فيها وأقسموا له على تنفيذ الاتفاقية. لم يقسم هو نفسه وقال أنها ليست طريقة الملوك. لكن هنري حاكم شمبانيا، بالرغم من كونه ملكاً، باليان حاكم عبلين، فرسان الهيكل والهوسبتاليون، وجميع الحاضرين أقسموا. في المساء أرسل الافرنج سفراءهم لتصديق السلطان على الاتفاقية، وفي الصباح صادق عليها صلاح الدين وأعلن السلام في أرجاء المعسكر. "كان يوماً شديد البهجة، الله وحده يعلم مدى فرح الشعبين".

صعد الملك ريتشارد على ظهر سفينته في عكا في التاسع من تشرين الأول. ولكن قبل أن يبحر أرسل رسالة إلى خصمه الكريم بأنه عند انتهاء هدنة ثلاث السنوات سوف يعود مرة أخرى ويخلص القدس. وكان جواب صلاح الدين له بأنه إذا كان ولا بد له من خسارة أرضه فإنه بطيب خاطر سيخسرها لريتشارد على أن يخسرها لأي رجل حي آخر. وهكذا افترقا وأخلدت البلاد للراحة.

الفصل الثاني والعشرون
الراحة
١١٩٢م - ١١٩٣م

الحرب المقدسة انتهت؛ مباراة خمس السنوات ختمت. قبل الانتصار العظيم في حطين تموز ١١٨٧م، لم يكن هنالك إنشاً واحداً من فلسطين غربي نهر الأردن في يد المسلمين. بعد صلح الرملة في أيلول ١١٩٢م، كانت كل الأرض للمسلمين سوى قطاع ضيق من الشاطئ يمتد من صور حتى يافا. لم يكن هنالك سبب يدعو صلاح الدين للخجل من الصلح. حقيقة أن الافرنج احتفظوا بمعظم ما كسبه الصليبيون، لكن النتيجة كانت تستحق الاحتقار بالنسبة إلى كلفتها الباهظة. عند نداء البابا جميع الأمم المسيحية هبت تحمل السلاح. الانبراطور، ملوك انكلترا وفرنسا وصيقلية، ليوبولد حاكم النمسا **Leopold of Austria**، دوق بيرقاندي، الكونت حاكم فلاندرز، مئات من البارونات والفرسان الشهيرين من جميع الأمم، رافقوا ملك وأمراء فلسطين والأخوان الذين لا يقهرون، الهيكليون والهوسبتاليون شاركوا في الجهاد لتحرير المدينة المقدسة واستعادة مملكة القدس المنقرضة. مات الانبراطور، عاد الملوك لبلادهم وتركوا العديد من أنبل أتباعهم مدفونين في الأرض المقدسة. لكن القدس بقيت مدينة صلاح الدين، وملكها الأسمي حكم مملكة ضئيلة في عكا.

كل قوة المسيحية المركزة في الحملة الصليبية الثالثة لم تستطع أن تهز سلطة صلاح الدين. من الممكن أن يكون جنوده قد تذمروا طوال الأشهر من الخدمة الصعبة والخطرة، سنة بعد سنة، ولكنهم لم يرفضوا أبداً طلباً له للحضور وقدموا أرواحهم في سبيل تنفيذ غايته. أتباعه في الأودية البعيدة كنهر دجلة لربما تأوهوا لطلباته الدائمة، ولكنهم قدموا خدمهم بإخلاص تحت رايته. أخيراً في موقعة أرسوف الأخيرة أظهرت فرقة الموصل شجاعة فائقة وعظيمة. خلال جميع هذه الحملات المتعبة كان صلاح الدين دائماً يعتمد على الفرق الوافدة من مصر ووادي الرافدين، كما اعتمد على فرق من شمالي وأواسط سورية من الأكراد والتركمان والعرب

والمصريين، كلهم مسلمون وهم خدمه عندما يدعوهم. بالرغم من الفروق في أعراقهم وغيرتهم الوطنية وفخارهم القبلي، فقد جمعهم كلهم كفريق واحد - ليس بصعوبة لكن لمرتين أو ثلاث بحساسية متشككة. بالرغم من تملص بعضهم في يافا فإنهم ظلوا جيشاً متحداً تحت إمرته في خريف عام ١١٩٢م كما كانوا في أول مرة قادهم "على طريق الله" عام ١١٨٧م. لم تسقط أية مقاطعة ولم يتخلَّ رئيس ولا تابع على الطاعة، بالرغم من متطلبات إخلاصهم وتحملهم كانت كافية لتجرب أقسى الإيمان وترهق قوة العمالقة. الفرار القصير والسماح السريع لأحد الأمراء الصغار من أقاربه في وادي النهرين، تؤكد بانفصاليتها تأثير صلاح الدين الكبير في رعاياه. عندما انتهت تجربة ومعاناة حرب السنوات الخمس، كان مازال يحكم بدون منازع من جبال كردستان إلى الصحراء الليبية، وأبعد من هذه الحدود فإن ملك جورجيا **Georgia** (في الاتحاد السوفياتي سابقاً) وكاثوليك ارمينيا، وسلطان قونيا، وإنبراطور القسطنطينية **Constantinople** كانوا متشوقين أن يسموه صديقهم وحليفهم.

لم يكن مديناً لمثل هؤلاء الحلفاء بشيء. لم يحضروا ليساعدوا بل ليهنئوا. (الصراع كان محتدماً من قبل صلاح الدين فقط. إلا عندما حضر أخوه أخيراً وظهر بوضوح في الأمام). لا أحد يستطيع أن يشير إلى قائد أو مستشار يمكن أن يقال عنه أنه قاد أو حتى حاول السيطرة على السلطان. بدون أدنى شك مجلس الحرب أثر في قراراته العسكرية، وفي بعض الأحيان سيطر على رأيه الأفضل، كما حصل أمام صور وعكا. لكن في ذلك المجلس كان من المستحيل أن يشار إلى صوت واحد كان له وزن أكثر من غيره في التأثير بفكر صلاح الدين. الأخ، الإبن، أبناء الاخوان، الأصدقاء القدماء، التابعون الجدد، القضاة الدهاة، أمناء السر الحذرون، المبشرون المتطرفون، كلهم كان لهم حصتهم في اتخاذ القرار العام. جميعهم عاضدوا سيدهم بولاء حسب مقدرتهم، لكن لم ينسَ رجل منهم أبداً من هو السيد. في كل ذلك الوقت العصيب والمتعب والحساس، كان الفكر واحداً وإرادة واحدة كانت إرادة صلاح الدين هي العليا.

عند انتهاء الصراع أخيراً دحر الافرنج إلى الساحل. الأماكن

المقدسة صارت للمسلمين كما هي للمسيحيين وعادت مرة أخرى تحت حماية صلاح الدين، لربما حلم صلاح الدين بإنبراطورية أوسع، ومشاريع أكبر. ذكرى انتصار العرب في المد العظيم الأول، حتى المثل الأخير لانتصار السلاجقة، هذا لربما ينعش أفكار صلاح الدين لوجود عوالم أخرى لاحتلالها. ولكن هذه التخيلات لم تكن ناضجة للاحتفاظ بالموجود حديثاً. كان همّ صلاح الدين الأول هو إراحة قواته التعبة. فوراً بعد توقيع الاتفاقية أرسلهم إلى ديارهم، وفي العاشر والحادي عشر من أيلول المسيرة الطويلة لرجال وادي الرافدين بدأت سيرها بالمرح نحو قراهم على الأنهر العظيمة وفي مرتفعات الأراضي العليا. اهتمامه الآخر كان متجهاً نحو قوافل الحجاج المسيحيين الذين جاؤوا ليريحوا أرواحهم المشتاقة لرؤية المكان الذي مات فيه السيد. كان هنالك جنود عرب خشنين في القدس، متشوقين للانتقام من ذابحي أقاربهم في سهل عكا؛ لكن مرافقي صلاح الدين في الطرق، وحكم جورديك الصادق الإنساني في المدينة، حمى الحجيج من كل الأخطار.

كان السلطان نفسه في القدس في أيلول، عندما أحضر هيوبرت والتر **Hubert Walter** مطران ساليزبوري القافلة الثالثة من الحجاج إلى الأراضي المقدسة.

"قيمة هذا المطران، وسمعته الحسنة وحكمته مشهورة كثيراً". لذا أرسل صلاح الدين يعرض عليه منزلاً مجانياً لإقامته. لكن المطران رفض ذلك على أساس أنه وفريقه هم من الحجاج. عندها طلب صلاح الدين من خدمه تقديم كل مظاهر الاحترام للمطران ولرجاله. أرسل له صلاح الدين أيضاً هدايا ثمينة حتى أنه دعاه للاجتماع به ليرى أي نوع من الرجال هو في الظاهر. عرض عليه الصليب المقدس، وجلس الإثنان معاً لوقت طويل في محادثة ودية. بهذه المناسبة استفسر صلاح الدين عن أخلاق وعادات ملك إنكلترا. وسأل أيضاً عما يقوله المسيحيون عن عربه. أجابه المطران - بالنسبة إلى سيدي الملك، أستطيع القول أنه لا يوجد فارس في العالم يمكن اعتباره نداً في المسائل الحربية، أو مساوياً له في الشجاعة والكرم. هو متميز بحيازته لجميع الصفات الحميدة... إذا استطاع أي واحد

أن ينسب صفاتك النبيلة للملك ريتشارد وصفاته لك، يكون كل منكما قد منح قدرات الآخر وشخصيته، لذلك لن يستطيع العالم كله أن يوجد أميرين في مثل هذه الصفات - أخيراً بعد أن استمع صلاح الدين للمطران بصبر قاطعه قائلاً: "أنا أعرف جيداً الشجاعة العظيمة والإقدام عند مليكك؛ لكن من غير أن أقسو عليه، فإنه يوقع نفسه مراراً في أخطاء هو ليس في حاجة إليها مفرطاً في السخاء بحياته. والآن أنا مهما أكن ملكاً عظيماً، أُفضّل أن أكون مالكاً للثروة، بجانب الحكمة والاتزان، على أن أكون جسوراً ومتهوراً".

بعد مقابلة طويلة عن طريق مترجم طلب صلاح الدين إلى المطران أن يطلب أية هدية يريدها لأنها ستوهب له. شكر المطران كثيراً هذا العرض، راجياً إعطاؤه مهلة من الوقت للمشاورة - حتى الصباح - ففي اليوم التالي توسل أن يسمح لاثنين من القساوسة اللاتين وشماسين بأن يحتفلوا بالخدمة المقدسة مع السوريين عند قبر السيد. وسوف يقيم أود هؤلاء القساوسة من تقدمات الحجاج. لأن المطران عندما زار قبر السيد لاحظ أن خدمة الكنيسة تقدم نصف تقدمة على الطريقة البربرية للسوريين. وقدم طلباً مشابهاً لبيت لحم والناصرة. كان هذا الطلب عظيماً كما كان يعتقد المطران لكنه يسر الله. عندما وافق السلطان، قام المطران بناءً على طلبه بتثبيت القساوسة والشماسين في كل مكان مفتتحاً خدمة جليلة لله".

قبل أربعة أشهر من رسامة هؤلاء القساوسة، قَدِمَ سفير من قبل الانبراطور اليوناني طلباً مماثلاً لصلاح الدين بالنيابة عن خوارنة الكنيسة الأرثذوكسية، لكن الطلب رفض. إنه من الغريب أن يكتشف أنه في القرن الثاني عشر كان التنافس نفسه على الأماكن المقدسة بين الكاثوليك والأرثوذكس الذي كان أحد الأعذار لدى الروس في شن الحرب على تركيا عام ١٨٥٤م.

عندما أُكّد له بأن ملك انكلترا قد توجه فعلاً بسفينته نحو بلاده، بدأ صلاح الدين بجولة في أنحاء البلاد التي حررها وبقيت تحت حكمه بثمن باهظ. زار جميع الأماكن المحصنة والمدن الرئيسية، متفحصاً دفاعاتهم آمراً بإجراء التحصينات، وواضعاً في كل منها

حامية قوية من الفرسان والمشاة. في بيروت، في الأول من تشرين الثاني، استقبل أمير أنطاكية بوهيموند الستامرر Bohemond the Stammerer، الذي شارك في اتفاقية السلام؛ كان الاجتماع ودياً وقدم للأمير أرض في سهل انطاكية بقيمة ١٥٠٠٠ قطعة من الذهب ما تنتج سنوياً. في كوكب – التي لم تعد تدعى بلفوار – وجد خادمه القديم في الأيام الأولى، قراقوش باني أسوار القاهرة الذي مرض من سجنه في عكا منذ استسلامها. لم يكن هنالك عتاب لكن ترحيب يناسب إخلاص مجرب وقديم. في الرابع من تشرين الثاني احتفلت دمشق مرة أخرى بسلطانها. لم يدخل أسوارها منذ أربع سنوات، واجتماعه الشعبي في اليوم التالي كان مزدحماً بالأصدقاء القدماء والرعايا الفرحين. لم تكن لدى الشعراء الكلمات النادرة والمعبرة بعمق التي تفي للمناسبة العظيمة.

مرة أخرى كان صلاح الدين في بيته وبين أولاده. تراه جالساً في البيت الصيفي في حرم القلعة وأولاده الصغار حوله. أُعلن عن قدوم مبعوثين من الافرنج، لكن لما حضروا بين يديه حليقي الذقون وشعورهم مجزوزة بملابسهم الغريبة، أخافت الصغير أبوبكر الذي أخذ يبكي. فكر الأب فقط بالإبن، فأذن للسفراء بالمغادرة بعذرما، قبل أن يسلموا رسالتهم. أولاده الكبار كانوا هناك، رجال حاربوا معه في معاركه، ومع هؤلاء وأخيه العادل كان يذهب يوماً بعد يوم لصيد الغزلان في السهل الواسع حول دمشق. كان يفكر بالحج إلى مكة، الواجب الأعلى للمسلم الورع؛ تمنى أن يزور مرة أخرى مصر التي كانت العتبة الأولى التي صعدها نحو السلطة. لكن الوقت مر وعاد الحجاج من الجزيرة العربية وصلاح الدين مايزال في دمشق يستمتع بملذات البيت الهادئ.

في يوم الجمعة العشرون من شباط ١١٩٣م. ركب ومعه بهاء الدين لاستقبال قافلة الحجاج. لم يكن بصحة جيدة مؤخراً، وكان الفصل رطباً وتحولت الطرق إلى جداول من المطر الغزير، ولعدم تحفظه نسي أن يرتدي معطفه من الجلد المبطن. في تلك الليلة داهمته الحمى[٨٢]، ولم يستطع مشاركة أصدقائه العشاء في اليوم التالي. ورؤية الابن يجلس في كرسي الأب أنهمرت الدموع من عيون

كثيرة – تشاءموا ورأوا أنه فأل سيء. في كل يوم كانت تسوء حالة السلطان، كان رأسه مرهقاً من الوجع وعانى داخلياً. قصده الأطباء في اليوم الرابع ومنذ ذلك الوقت ساءت حالته. الحمى لفحت جلده وأصبح أضعف فأضعف. في اليوم التاسع فكره تشتت وغط في سبات فلم يستطع تناول جرعة الدواء. في كل مساء كان بهاء الدين والمستشار الفاضل يذهبان لرؤيته أو على الأقل لسماع تقرير الأطباء. وفي بعض الأحيان كانا يخرجان ودموعهما منهمرة، وكانا يجاهدان لمنع تلك الدموع لئلا تراهما الجماهير خارج البوابات التي كانت تنتظر رؤية وجهيهما لتعلم عن حالة سيدهم. نهار الأحد، اليوم العاشر للمرض، أعطى العلاج بعض الراحة وتناول الرجل المريض جرعة جيدة من ماء الشعير وعرق عرقاً مستفيضاً. "نشكر الله... وخرجا فرحين". كانت هذه آخر محاولة. ليلة الثلاثاء دعي أمين السر المخلص والمستشار إلى القلعة، ولكنهم لم يشاهدوا السلطان الذي كان يتداعى بسرعة. كان معه رجل دين، يكرر اعتراف الإيمان ويقرأ من القرآن الكريم. وعندما قال: صدق الله العظيم. تمتم السلطان، "صدق". ابتسم الرجل المريض ونور وجهه، ثم سلم روحه لربه.

توفي صلاح الدين يوم الأربعاء، الرابع من آذار ١١٩٣م وعمره خمسة وخمسون عاماً.

دفنوه في اليوم نفسه في حديقة منزل القلعة في دمشق بعد صلاة العصر. وضع السيف الذي حمله في الحرب المقدسة بجانبه؛ "لقد أخذه معه إلى الجنة". لقد أعطى كل شيء، ووجب استقراض المال لدفنه، حتى قش الطوب الذي بني به القبر. كان احتفال الدفن بسيطاً كجنازة متسول. قطعة قماش مخططة غطت المحمل العادي. لم يسمح لأي شاعر بإلقاء مرثية ولا لخطيب بإلقاء خطبته. عندما شاهدت الجماهير المحتشدة عند البوابة المحمل، سمع عويل عظيم، وكان الناس ذاهلين بشكل إلى حد أنهم لم يستطيعوا قول كلمات الصلاة، ولكنهم بكوا وتأوهوا فقط. جميع العيون كانت مبتلة وقلة لم تبك بصوت مرتفع. ثم عاد كل رجل إلى بيته وأغلق الباب، وشهدت الشوارع الفارغة والساكنة على عظيم الحزن. أمين السر

ورجال بيت صلاح الدين ذهبوا للصلاة على القبر وحدهم ليطاوعوا حزنهم. في اليوم التالي ازدحم الناس حول القبر، يصلون بحزن ويقرأون القرآن الكريم، طالبين رحمة الله للراقد هناك.

عند نهاية السنة الثانية على موت صلاح الدين نقلت جثته بعناية ابن محب إلى المصلى على الجانب الشمالي من الكلاسة Kellasa، جانب الجامع الأموي الكبير، حيث يرقد الآن. على القبر كتب المستشار المخلص، الذي كان سيتبع سيده قريباً:- "يا الله، تقبل روحه، وافتح له أبواب الجنة، آخر نصر تمناه".

"دخلت إلى المصلى" يقول كاتب سيرة متأخر (ابن خلكان) "من خلال الباب الذي يفتح على الكلاسة، وبعد قراءة آيات من القرآن الكريم على القبر، طلبت رحمة الله لساكنه. أراني الحارس كيساً فيه ثياب صلاح الدين، ووجدت بينها صدرية قصيرة صفراء لها أزرار سوداء، وصليت أن يكون المنظر نعمة لي".

كتب الطبيب الحكيم عبد اللطيف، ببعض الارتياب، أنه حسب علمه كانت هذه المرة الوحيدة التي حزن فيها الشعب حقاً لموت ملك. سرّ قوة صلاح الدين تكمن في حب أتباعه له. ذلك الذي حاول الآخرون الحصول عليه بالخوف، بالقسوة، بالملكية، حققه باللطف. وبكلمات لا تنسى قالها قبل موته بقليل لأفضل من أحب من أولاده، الزاهر ez-Zahir، عندما أرسله لحكم إحدى المقاطعات حيث أفصح عن مصدر قوته.

قال: "يا بني، اعهد بك إلى القدير الأعلى نبع كل الخير. اعمل بمشيئته لأنه هناك يوجد السلام، امتنع عن سفك الدماء، ولا تثق بذلك، لأن الدماء المراقة لا تسكن. حاول أن تكسب قلوب الشعب، وراقب بحبوحتهم، لأنه لتأمين سعادتهم عينك الله وعينتك. حاول أن تكسب قلوب الأمراء والوزراء والنبلاء. فقد صرت عظيماً لأنني كسبت قلوب الرجال بالعطف والمحبة".

كان كرم الأخلاق النغمة المسيطرة على سلوكه. بحثنا دون

جدوى في الأوصاف المعاصرة للصفات المميزة للملوك. الجلالة؟ غير مذكورة لأن الإحترام الذي أوجده نبع من الحب "الذي طرد الرعب"، الدولة؟ بعيداً عن تبني مظهر متكلف ومفرط في مراعاة دقائق الأمور على أشكالها. لم يوجد ملك أكثر طيبة نفس وسهل الاتصال به. كان يحب أن يحيطه متحدثون أذكياء، كان نفسهُ "محبباً للتكلم معه". لقد علم عادات العرب، وأيام أبطالهم القدامى، وسلالات خيولهم الشهيرة. عطفه واهتمامه الحقيقي جعل الجميع مرتاحين، وبدلاً من أن يضغط على حرية المناقشات، جعل الحديث يجري حتى يكاد المتكلم لا يسمع صوته. المراسلون القدماء كانوا يأسفون للتشدد في استقبال نور الدين، حيث يجلس كل رجل صامتاً "وكأن الطير حط على رؤوسهم"، حتى يسمح له بالحديث. في بلاط صلاح الدين الجميع كانوا في محادثات مشوقة - طنين غير ملوكي. مع كل هذا كانت هنالك حدود لا يجسر أحد على أن يتخطاها في حضرة السلطان. لم يكن ليتحمل كلاماً بلا معنى، ولم يكن يسمح بالكلام المبتذل أو البعد عن المهابة والاحترام لأي شخص. لم يكن يستعمل أو يسمح باستعمال لغة خشنة. كان يحفظ لسانه حتى في أكثر الحالات إثارة وإغاضة تحت سيطرة قاسية، ولم يكن قلمه بأقل تنظيماً. لم يعرف عنه أنه كتب كلمة واحدة مُرّةً لأي مسلم.

ترك الطبيب البغدادي سجلاً مختصراً جداً عن أول انطباعاته عن صلاح الدين، حيث نرى السلطان من ناحيته الإجتماعية.

قال عبد اللطيف:- "لقد وجدته أميراً عظيماً يوحي منظره للحال بالاحترام والحب، كان قريباً، مثقفاً بعمق، متنعماً ونبيلاً في أفكاره. كل من اقترب منه اتخذه مثالاً... في أول ليلة كنت معه وجدته محاطاً بحشد كبير من العلماء الذين كانوا يبحثون مختلف العلوم. استمع بسرور وشارك في أحاديثهم. تكلم عن التحصينات، ومر على بعض أسئلة القانون، وكان حديثه خصباً بأفكار بديعة. كان حينئذٍ (٢-١١٩١م.) مشغولاً بشغف في تحصينات دفاعات القدس، وراقب العمل بنفسه، حتى أنه كان يحمل الحجارة على كتفيه. والجميع أغنياء وفقراء اقتدوا به، حتى عماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. كان على صهوة حصانه من قبل الفجر يراقب العمل حتى

الظهر... ومرة أخرى من بعد صلاة العصر وحتى يعود على ضوء المشعل. ثم يقضي معظم ليله بالإعداد لأعمال الغد".

كانت حياته جميعها بسيطة، فاعلة، زاهدة. عندما كان يرى صيواناً بني له في دمشق، نادراً ما كان ينظر إليه ويقول: "لن نسكن هنا للأبد، هذا البيت ليس لرجل يتطلع إلى الموت، نحن هنا لخدمة الله". كان يكره الفخفخة وإشباع الرغبات. وعندما وجد أن أحد أبنائه كان يهمل واجباته بإشغال عواطفه ببنت مملوكة (عبدة)، أنّب ابنه الشهواني بعنف وأبعد الصبية.

يقول بهاء الدين:- " كان سلطاننا نبيل القلب، واللطافة تلمع في وجهه، كان متواضعاً كثير الترحيب جداً". التواريخ ملأى بحسناته. لم يكن يتحمل أن يضرب خدمه مع أن الضرب في تلك الأوقات كان شيئاً عادياً. إذا سرق عماله فإنه يطردهم، لكنه كان يكره استعمال الكرباج. انهماكه وجدّه لم يعرفا حدوداً، ولم يمتلك مخزناً حفظاً لكرامته. يسرد بهاء الدين بخوف كيف وهما راكبان معاً نحو القدس في يوم ماطر، قامت بغلته بتلطيخ السلطان بالوحل؛ لكن صلاح الدين ضحك فقط، ولم يسمح لأمين السر المرتبك السير خلفه. مرة أخرى رمى أحد الخدم بفردة حذاء كادت أن تصيب السلطان، لكنه التفت مبتسماً إلى الجانب الآخر، وكأنه لم يلحظها. مملوك قديم ألح في طلب له عندما كان السلطان متعباً من الإجهاد، لكنه أحضر قرن الحبر بنفسه وأمر بلا أي علامة للمضايقة. عندما كان يجلس للاستماع للمظالم كان أصحاب الطلبات يتجمهرون حوله بكثرة حتى أنهم يدوسون على ديوانه بأرجلهم، ولكنه كان دائماً يأخذ طلباتهم بيديه ويهتم بمشكلاتهم، ولم يذهب أحد فارغ اليدين. في كل يوم كان يتلقى هذه الوثائق المزعجة، ويخصص بعض الوقت ليمر على أوراقها مع أمين سره ويوافق على أجوبتها المناسبة.

في أيام الإثنين والخميس كان يجلس على كرسي القضاء، مع القضاة والفقهاء في محكمة القانون، ويحكم بالعدل لجميع الحاضرين. لم يدعِ أو يسمح بأية امتيازات أمام المحكمة، وإذا كان لرجل دعوى ضد أحدِ الأمراء أو حتى السلطان نفسه، كان يجب عليهم

المثول أمام القاضي كأي مدعى عليهم آخرين ويخضعون للقانون. ولكن إذا حكم لصلاح الدين بالقضية فكان يلبس المدعي لباس الشرف، يدفع رسوم الدعوى، ويرسله مسروراً دهشاً. من مثل هذا القاضي لم يخف الناس صلابته. ولكن في الحرب للإيمان يمكن أن يكون عنيفاً، حتى غير متسامح، وقائمة الإعدامات على الأخص من رجال الهيكل ترينا كيف أن الدين يمكن أن يضغن أفضل الرجال خلقاً. ولكن الأمر لم يكن كذلك دائماً. يحكى كيف أن أحد أسرى الافرنج أحضر مرتجفاً أمام صلاح الدين، ثم صاح قائلاً: "كنت خائفاً جداً قبل رؤية وجهه، ولكن بعد أن رأيته الآن فإنني أعرف أنه لن يضرني". فذهب رجلاً حراً.

هذه الصفحات سجلت حوادث سماحته ولين قلبه، ولكن يمكن زيادة الكثير. هنالك القصة المؤثرة لامرأة حضرت من معسكر الصليبيين في عكا تبحث عن طفلتها، التي خطفها الجنود العرب. سمحت لها حامية المراقبة بالمرور وقادوها إلى السلطان حيث توسلت - "لأنه كثير الرحمة"، هكذا قالوا. انفعل صلاح الدين لمصيبتها، وجمدت الدموع في عينيه، وأمر بتفتيش معسكره حتى وجدت البنت الصغيرة وأعيدت إلى أمها سالمة. وأوصلتا إلى خطوط العدو. حبه للأطفال كان جزءاً جميلاً من أخلاقه. كان يشعر بأن كل طفل يتيم هو من مسؤوليته.[٨٣] كان متعلقاً بشدة بأطفاله هو نفسه، وعن زوجاته لم نقرأ شيئاً، الرجال الفضلاء في الشرق لا يتكلمون عن زوجاتهم؛ ولكن هنالك إشارات كثيرة لسروره بأولاده. لم يكن يسمح لهم برؤية مناظر الدم - حذر طبيعي كفاية في نظرنا، ولكنه كان نادراً في أيامه. قال صلاح الدين:- "لا أريدهم أن يعتادوا سفك الدماء في حقدهم أو يسروا بالقتل، في حين أنهم لا يعرفون الفرق بعد بين المسلم والمسيحي". كان يعلمهم بنفسه ولربما يسر أكثر منهم في ملء عقولهم اليافعة بشيء من خلاصة الفقه، الذي يجب عليهم حفظه عن غيب.

فوق كل شيء كان صلاح الدين مسلماً مخلصاً. وكان دينه كل شيء له في العالم. في هذا فقط كان متطرفاً، والعمل الوحيد من القسوة إبّان السلم الذي يمكن أن يسجل ضده هو إعدام الفيلسوف

الصوفي السهراوردي **es-Suhrawardy** على أساس السماع فقط. كان صلاح الدين يكره الفلاسفة الذين يدعون بأن الإنسان مخير والماديين وأحرار التفكير بغضب مقدس. كان إيمانه مستقيماً متشدداً كما كان بسيطاً، قوياً ومخلصاً. الإسلام في جوهره وكما يعترف به فهو دين نبيل في بساطته وشدة تضحية النفس. والقول بأنه كان اعتيادياً بمتابعة الشعائر فهو قليل، عدا أن تصميمه على تعويض شهرين من الصوم أجبر على إهمالها إبّان حروبه، لربما أسرعت في نهايته. مرضه المتكرر وأعماله المرهقة معاً جعلا الصيام خطراً على صحته. كانت تحذيرات أطبائه تذهب هباء، وتأكيده على تأدية هذا الواجب الديني لما كان هو في القدس في سنته الأخيرة أضعفت تكوينه وجعلته أقل قدرة على مقاومة الحمى القاتلة. لم يكن أحد أكثر منه مواظبة في أداء الصلوات الخمس اليومية وحضوره إلى الجامع في كل أسبوع، حتى عندما يكون شديد المرض، كان يدعو الإمام ويرغم نفسه على الوقوف وإعادة الخطوات المتبعة ليوم الجمعة. كان يسر بسماع القرآن الكريم يتلى له، ولكن على قارئه أن يكون خبيراً ومتدرباً. ويستمع صلاح الدين حتى يذوب قلبه وتنهمر الدموع على خديه. كان ضعيفاً تجاه المرأة، ولكن يعجب المرء بالعاطفة الحساسة في طبعه. "كان قلبه متواضعاً ومليئاً بالحنان وكانت الدموع تذرف بسهولة من عينيه". لقد كان محزناً له أنه لم يكن أبداً قادراً على تأدية فريضة الحج، ولكنه على الأقل كان من المحسنين للحجاج. إحدى أوليات أحكامه عندما تولي السلطة كانت إلغاء الضريبة الباهظة التي أرهقت كاهل المؤمنين الذين يزورون مكة لقرون خلت، وكان آخر ظهور عام له هو للترحيب بالحجاج العائدين. عندما حيّاه الحجاج لوحظ كم كان محيّاه مبتهجاً. وكان قد بقي له أسبوع واحد من الحياة.

لم يظهر حماسته الدينية أكثر من تجنيده لواجب المسلمين الرئيسي، ألا وهو الجهاد **Jihad** أو الحرب المقدسة. بطبيعته لم يكن يحب سفك الدماء، وحتى ولم يحب الحرب، ولكنه يصبح رجلاً آخر عند محاربته للمسيحيين. يقول بهاء الدين: "لم أكن أعرف عنه أنه اهتم يوماً لعدد أو قوة العدو. كان يستمع لخطط من جميع الأصناف ويبحث نتائجها بدون أية حماسة أو فقدان هدوءه". كان يركب، كما

رأينا، بين خطوط القتال يرافقه خادم له؛ وفي إحدى المرات امتطى حصانه محاطاً بضباط يستمع بهدوء لما كانت الآيات الكريمة تتلى له بصوت عالٍ أمام الأعداء. إشعال حرب الله كان متأصلاً في عواطفه، كل قلبه كان مملوءًا بها، ومن أجلها خصص نفسه جسماً وروحاً. لم يستطع التحدث في السنوات الأخيرة أو التفكير في شيء سواها، وقد ضحى بكل انبساط أو راحة أو السعادة البيتية لخدمتها. حتى أنه حلم بحروب أوسع من أجل الإيمان. عندما يطرد الافرنج خارج فلسطين، قال لأمين سره، انه سيلاحقهم عبر البحار ويغلبهم حتى لا يبقى واحد غير مؤمن على وجه الأرض. سأل صديقه، "ما أعظم موت؟" كان جوابه: "الموت على طريق الله". فقال صلاح الدين: "لذلك أمشي إلى الباب الذي يقودني للموت العظيم". عندما خارت قواه من المرض الموجع عند حصار عكا حيث لم يستطع الحضور إلى الطاولة، لكنه كان يمتطي حصانه طوال اليوم مواجهاً العدو، وعندما يعجب رجاله بإقدامه كان يقول: "الألم يزول عني وأنا على صهوة الحصان، ويعود الألم فقط عندما أترجل". مادام يعمل عمل الله، لا يشعر بألم؛ ولكن عدم القيام بأي عمل كان يعذبه.

في الحرب المقدسة أفنى كل شيء، قوته وصحته، حتى يستطاع القول حياته نفسها. أفرغ ما لديه من مال في سبيلها. كان من الطبيعي له أن يعطي، وقد أعطى بغير شح، بيديه المفتوحتين، وبيديه الاثنتين بسخاء عندما كان فقيراً كما كان لما أضحى غنياً. المال عنده كان كالغبار وكان يكره أن يمنعه عمن يطلبه. كان دائماً يعطي أكثر من المتوقع، ولم يقل أبداً "إننا أعطيناه قبلاً". كان يتكالب عليه الشحاذون الجشعون، وكان بهاء الدين يخجل من استغلالية الطلبات التي تمر بين يديه. ولو تركت الأمور له شخصياً لكانت حملاته قد فشلت لقلة الموارد - لأنه كانت قاعدته بأن إدارته العسكرية للأرزاق واللوازم يجب أن تدفع للأرزاق التي تؤخذ من الشعب. كان أمناء صندوقه يبقون دائماً جانباً رصيداً سرياً للطوارئ، وحتى عندما كان السلطان يبيع آخر مزرعة له أسرع من أن يرفض إعطاء رجل فقير. وهكذا حدث عندما توفي لم يجدوا سوى دينار واحد ضرب في صور و ٤٧ درهماً فضياً في الخزنة. لم يبق لا منزلاً أو بضاعة ولا حتى أفدنة أو قرى ولا حتى متاعاً شخصياً. مات

السلطان العظيم مفلساً تقريباً. إنه من الصعب إيجاد شخصية أكثر سخاء من صلاح الدين، ومخلصة للمثل العليا، أو أكثر محبةً للناس. كان مصنوعاً من مادة أصلب أو أمهر في الأمور الاقتصادية الحذرة ولما هو أبعد من أعمال السياسة الأنانية، ولربما أسس إمبراطورية دائمة ومتحدة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون غير صلاح الدين على نمط الفروسية الكريمة.

وعندما أنهى أمين السر المخلص سيرة حياة سيده كتب: "لقد أنهيت سجلي يوم موته، رحمة الله عليه. كان هدفي أن أكسب عطف الإله الأعلى، وأن أحرك الرجال ليصلُّوا لصلاح الدين ويتذكروا حسناته".

الفصل الثالث والعشرون
صلاح الدين في القصص

هذا الفصل والذي يبدأ بصفحة ٣٧٧ وحتى الصفحة ٤٠١ وهي آخر الكتاب الانكليزي يحتوي على قصص خيالية Romance. وقد رأيت أن لا أترجمه لأنه في الواقع لا علاقة حقيقية له بصلاح الدين الذي عرفناه في هذه الترجمة.

ولكن سأعطي القارئ مختصراً عما يحتويه:-

١- "قصة حب ريتشارد قلب الأسد" Romance of Richard" "Coeur de Lion ، وهي قصيدة باللغة الانكليزية القديمة Old English أخذت شكلها الحالي في أوائل القرن الرابع عشر.

٢- "قصص مغني ريمز" "Tales of a Minstrel of Rheims" (ريمز بلدة فرنسية) حرر الكتاب م.ن.دي ويلي M.N.de Wailly لمصلحة جمعية التاريخ الافرنسية عام ١٨٧٦م ولكنها كتبت في القرن الثالث عشر. وهي مجموعة من القصص وتحتوي على كثير من الشعر بالافرنسية.

٣- قصة "سير والتر سكوت" "Sir Walter Scott" التي لم يذكر عنوانها أو تاريخها جمعت بين الواقع والخيال وهي ملأى بالأغلاط التاريخية.

٤- قصة "ليسنق" "Lessing" باللغة الألمانية "ناثان الحكيم" "Nathan der Weise"، كذلك ملأى بالأغلاط التاريخية.

إلا أن المؤلف ستانلي لين بول، بعد أن فند ما جاء في هذه القصص لمصلحة التاريخ وصلاح الدين يتساءل كيف أن الشرق الذي كتبت فيه قصص رائعة كثيرة لم يأتِ على ذكر صلاح الدين إطلاقاً، ومنها كتاب ألف ليلة وليلة. ثم يذكر أنه عثر في برلين على قصة

مخطوطة بالعربية ولكنها قصة ركيكة ترجمت إلى الألمانية من قبل جويرجنز **Goergens** تحت اسم **Arabische Quellinbeitrage** .

ينهى المؤلف كتابه قائلاً:- "إنه من الغريب أن لا يكون هنالك قصة عربية متصلة بالموضوع. فأخلاق السلطان العظيم يعجب بها الأوربيون أكثر من المسلمين. الذين (الأوربيون) يعجبون بفروسيته أكثر من انتصاراته الحربية. إنه كرم الخلق ليس نجاح المهمة الذي يجعل صلاح الدين في نظرنا بطلاً حقيقياً كما كان بطلاً خيالياً".

انتهت ترجمة هذا الكتاب
في مدينة الشونة الجنوبية من غور الأردن
في الخامس عشر من ربيع الثاني ١٤١٦هـ.
الموافق يوم الأحد العاشر من أيلول ١٩٩٥م.

هوامش الكتاب

١- نستطيع أن نعطي مجال للتحيز والمغالاة عند الشرقيين، ولكن يجب أن لا ينسى أن كاتب الاتهامات أعلاه عاش فوراً بعد الأحداث التي يذكرها، وأن والده كان شاهد عيان على كثير من هذه الأعمال.

٢- كانت قاعدةً متفقاً عليها في حكم السلاجقة بأنه لا يتولى الحكم من هو دون السادسة والثلاثين؛ زنكي كان الآن في السابعة والثلاثين، لذلك استحق الترقية في عمر مبكرتقريباً.

٣- لم يمت زنكي في المعركة من أجل الإيمان، وهي اللقب الأعلى لاسم الشهيد؛ ولكن اللقب يطلق أيضاً على المسلمين الذين يسقطون، كما فعل، بالاغتيال أو لأسباب أخرى.

٤- **Almeida** بالعربية الميدان، ساحة كبيرة أو مساحة مكشوفة تستعمل لسباق الخيول، ومباريات البولو، ورياضات أخرى.

٥- حادثة محزنة شوهت وصوله. بينما كان يقلب خزنة وخزائن حكام حلب شاهد ثوباً ملوثاً بالدماء. لقد كان نفس المعطف الذي قتل فيه والده؛ والزوجة التي وقفت إلى جانبه كانت حفيدة السلجوق توتوش **Tutush** الذي أمر بالقتل. وبنفور غير مسيطر عليه حولها جانباً، وبالرغم من توسلاتها واعتراضات الحاكم فقد طلقها بقسوة.

٦- المنجنيق أو مقلاع الحجارة كان آلة لقذف الحجارة تعمل بواسطة حبال ملوية. والأداة الأخرى للحصار في تلك الأيام، المرجام **Catapult** التي تشبه القوس **Crossbow** .

٧- في ترتيبه التاريخي للحملة الأولى على مصر بهاء الدين يسبق

التاريخ سنة (١١٦٣م). والمؤلف يوافق ابنه الأثير في كتابه "الكامل"، أي ١١٦٤م.

٨- في العربية دنانير **dinars**. الدينار نقد ذهبي يزن بعض الذرات أكثر من العشرة شلنات الانكليزية الذهبية **half-sovereign**، وتحتوي على كمية أكثر من الذهب (٩٧.).

٩- كما ذكرها وليام حاكم صور في تاريخه **Historia etc.** المؤرخون العرب لم يسجلوا هذه السفارة.

١٠-ابن الأثير، الكامل، ٥٤٨؛ بالنسبة إلى الأتابكة كانت تسبق هذا التاريخ بشهر. الأعداد الشفيعة يختلف تقديرها. المؤرخ العربي يقول أنه كان مع شيركوه ألفا خيال. ويليام حاكم صور، من الناحية الأخرى، يقدر القوة العربية بتسعة آلاف رجل مرتدين الزرد لحمايتهم، وثلاثة آلاف مطلقو الأقواس وعلى الأقل عشرة آلاف عربي مسلحين بالرماح. يقول أنه كان لدى اللاتين ٣٧٤ فارساً، وعدد غير معروف من الخيالة الخفيفة **(Turcopoles)**، وفرقة من المصريين الذين كانوا عبئاً أكثر منهم مساعدة (١٩ ، ٢٥).

١١-إنه من الإنصاف أن نذكر أن الافرنج لم يوافقوا تماماً على هذا التعهد من جانبهم في اتفاق السلام.

١٢-أسد الدين "أسد الإيمان" **"Lion of the Faith"** كان الاسم الأول لشيركوه الذي أصله فارسي "أسد الجبل".

١٣-الشهادة الأصلية للتعيين محفوظة في برلين بألمانيا، وهي من ثمانية وتسعين صفحة.

١٤-وصل أيوب لمصر في منتصف نيسان ١١٧٠م، وذلك بعد وصول ابنه بسنة، (ابن خلكان ١، ٢٤٥).

١٥-أسس صلاح الدين عام ١١٧٠م كليات الناصرية أو الشريفية قرب جامع عمر في الفسطاط.

١٦-بعضهم يقول ٢,٦٠٠,٠٠٠ مخطوطة، وفيها ١٢٢٠ نسخة من كتاب واحد، تاريخ الطبري الشهير. لا يمكن الوثوق دائماً بأرقام وإحصائيات الشرقيين.

١٧-دعى العرب عاصمة مصر باسم مصر **Misr** نفسها، وهذا الاسم استعمل عادة للفسطاط، والتي بقيت المركز التجاري لفترة طويلة بعد بناء القاهرة. مصر الآن تلفظ مَصْر **Masr**، ومن الممكن أن تكون قد لفظت هكذا على زمن صلاح الدين، لأننا نجد في كتابات وليام حاكم صور، والذي كان بالتأكيد يعرف العربية، تهجئة **Macer**.

١٨-هنالك التباس ظاهر بما يذكره المؤرخون العرب للحملتين المتشابهتين على الشوبك **Mont Real** والكرك عام ١١٧١م وعام ١١٧٣م، وبعض الوقائع لربما تكون قد بدلت. إنه من المحتمل بأن صلاح الدين لم يكن يرغب في رؤية نورالدين في كلا المناسبتين.

١٩-لقد اتبعنا هنا قول ابن الأثير في حصار الاسكندرية. بهاء الدين يقول ان السفن كانت ٦٠٠ وأن القوات كانت ٣٠,٠٠٠، ويؤرخ بدء الحصار في ٧ أيلول.

٢٠-هنالك نقود معدنية في المتحف البريطاني تحمل سوية اسم الصالح وصلاح الدين. (انظر نشرتي **Catalogue** الجزء التاسع والزيادات صفحة ٣٠٨)، ولكن هذه لربما صكت بعد احتلال دمشق ومن دار ضرب النقود في تلك المدينة.

٢١-تواريخ مختلفة عينها كل من ابن الأثير وبهاء الدين لدخول دمشق. ابن الأثير يقول في "آخر ربيع الأول"، أي آخر تشرين الأول، ولربما نقل خطأ عن تاريخ بهاء الدين الأكثر دقة "٣٠ ربيع

الثاني"، أي ٢٧ تشرين الثاني.

٢٢-هنالك قطع ذهبية في هذا التاريخ (٥٧٠هـ)، ضربت في القاهرة والاسكندرية، في المجموعة الخديوية ومجموعة آرتين باشا في القاهرة.

٢٣-إنه لمن الصعب إعطاء المعنى الحقيقي للألقاب العربية. الناصر هو الذي يساعد آخر للنصر، على الأخص الذي يساعد في انتصار الإسلام، بطل الإيمان. إنها تعني فكرة النجاح، ولذلك تذكر بالغالب المنتصر Victorious . قطعة معدنية علها هذا النقش ضربت في القاهرة عام ٥٧٠هـ أي ١١٧٥م. محفوظة في المكتبة الخديوية في القاهرة. اعتقد أن السير شارلز ولسون Sir Charles Wilson ترجم المعنى المناسب "قوي في المساعدة" "Strong to aid".

٢٤-اتهم صلاح الدين مراراً بعدم الإخلاص، ولكن بقليل من التعقل. كان الملك الاسمي ألعوبة في أيدي منافس صلاح الدين، ولم يسمح له أبداً أن يكون مخلصاً. ولو ترك صلاح الدين سوريا وحدها لسقطت في أيدي أمراء طامحين آخرين بدلاً من الملك الصبي.

٢٥-الثوب Gambeson بالانكليزية Kazagkand بالفارسية، ثوب ثقيل مبطن كان يلبسه صلاح الدين دائماً وهو راكب حصانه.

٢٦-لربما طواشين Tauashiin وتعني الرجال الجيدين. ومن المستبعد أن تكون من الطواشي Tawashi "الخصي"، مع أن كثيرين من هذه الفئة قادت في جيوش صلاح الدين.

٢٧-ارنول يزيد بأن الملك أعاد بناء القلعة بالرغم من المعاهدة مع العرب، وبالرغم من تقديره، لكن الهيكليون أقنعوه بذلك. شيزني Chesney يقول بأن عرض الحوض ٨٠ قدماً وعمقه ٤ أقدام.

٢٨-وليام حاكم صور يقر بالتقرير عن غضب ريجنالد، ولكنه يتهم صلاح الدين بالحنث بالقسم باحتجاز السفينة، كرهينة مقابل عدم نقض بنود المعاهدة. إنه من الواضح من الشرح اللاتيني نفسه، بأن صلاح الدين حجز السفينة والأسرى كسداد لنقض سابق للمعاهدة على أيدي الافرنج. ايرنول، ٩٦-٩٧، يسجل بوضوح نقض القسم.

٢٩-بعض مراسلات صلاح الدين طبعت باللاتينية. إحداها للبابا سنة ١١٨٣م تقر بوصول رسالة بواسطة أوليفر فيتاليس **Oliver Vitalis** وتشير إلى أسرى الحرب. مراسلات سابقة من العادل إلى لوشيوس الثالث **Lucius III** تشير إلى الموضوع نفسه. هنالك أيضاً رسالتان إلى فريدريك باربروسا وواحدة من الامبراطور إلى صلاح الدين.

٣٠-ابن جبير، كما ورد في كتاب لـ ستريتج **Le Strange** "فلسطين تحت حكم المسلمين" صفحة ٢٥٥ يقول أن **Mall** أو **Polo** لعبة فارسية قديمة تدعى شوجن **Chogan**. كان صلاح الدين مشهوراً بمهارته في البولو ولكنه كان متهوراً في اللحاق بالطابة مثل والده.

٣١-لم يلتحق السفير بصلاح الدين أميناً لسره حتى عام ١١٨٨م.

٣٢-قطع من العملة الموجودة في المتحف البريطاني تظهر أن اسم صلاح الدين ظهر كملك على العملة التي ضربها الأسياد أتباعه في سنوات مختلفة؛ أمير ماردين (يولوك - أرسلان)، أمير قيافا (سوكمان)، أمير الجزيرة (سنجار شاه)، لورد اربيل (كوكبري)، وأتابيك الموصل. انظر صورة العملات في آخر الكتاب.

٣٣-الاقتراح البعيد لابن الأثير بأنه قد سمم حسب أوامر صلاح الدين لا تستحق الاهتمام.

٣٤-هذا اعتراف المؤرخين المسيحيين، ايرنول واليوميات، التي يؤكدها المؤرخون المسلمون.

٣٥-وردت في كتابات عماد الدين وأبو شامة وجيورجنز وابن الأثير في كتابه الكامل وارنول، ١٤١، الذي يذكر أن صلاح الدين أرسل قوة من العرب إلى طبرية ليقوي حامية ريموند.

٣٦-أفضل مصدر لهذه النقطة هو ارنول الذي لم يذكر شيئاً. ولكن مؤلف معاصر مجهول كتب باللاتينية أن البعثة كانت بقوة ٧٠٠٠ رجل. أما ابن الأثير الذي لم يكن مع الجيش يقول (٦٧٨) أن صلاح الدين قد أمر الأفضل (أكبر أبنائه) ليخرب الأراضي حول عكا، ولكن الأفضل لم يذهب بنفسه بل أرسل كوكبري حاكم حاران وأميرين آخرين مرموقين مع ٧٠٠٠ من الخيالة. غياب الأفضل مؤكد لأنه ذكر بأن معركة حطين كانت أول معركة موقع له. لكن هذا ما يذكره ابن الأثير. على كلٍ، حضوره أو عدمه لا يؤثر في القصة.

٣٧-كريسون، وتكتب بالانكليزية بعدة أشكال، لم يذكرها المؤرخون العرب، الذين يضعون مكان المناوشة في صفوريا، وهي غير موجودة على الخارطة. من الممكن أن تكون على الطريق إلى طبرية.

٣٨-من الممكن أن يكون العدد قد قدر بـ خمسين ألف من قبل عماد الدين (أبو شامة، ٧٠) ولكن هذا التقدير مغالى فيه. ٢٥ ألف أو ٣٠ ألف رقم أقرب للواقع والتيركوبولس لم يكونوا مغالين كما يظهر.

٣٩-اللفتنانت كولونيل (المقدم) سي.آر.كونديـر **C.R.Conder, R.E.** في كتابه "المملكة اللاتينية في القدس" (١٨٩٧)، ١٤٨-١٥٠ .

٤٠-قلعة القصر التاسع كانت حنين **Hunin**، لربما المقدم كونديـر يشير إلى القلعة الجديدة على مخاضة يعقوب ولكن هذه كانت قد دمرت.

٤١-أخطأ بهاء الدين بسبب حبه ليوم الجمعة فقرّب وقوع المعركة بيوم. عماد الدين، وابن الأثير وأبو شامة وايرنول والمؤلف اللاتيني المجهول جميعهم يقولون نهار السبت.

٤٢-يقول بهاء الدين شعراً عندما يصف حوادث مهمة، ويؤكد الأحداث بنثر موزون، كل بيتين منها ينتهيان بقافية واحدة.

٤٣-ذكر مقتل ريجنالد حاكم شاتيليون يختلف في التفاصيل. بعضهم يقول أن صلاح الدين عرض عليه أن يسلم - مسألة اعتيادية في ذلك الزمان - ولما رفض قطع رأسه. آخرون يقولون أن الحرس قتله خارج خيمة صلاح الدين.

٤٤-يختلف المؤرخون إذا كانت ثورون قد استسلمت أو احتلت بالقوة وكذلك إذا كان قد أطلق سراح حاميتها أم أسر أفرادها. يافا عوملت بقساوة ولكن ذلك كان من قبل العادل.

٤٥-ابن الأثير، ٦٩٤ . المؤرخ كان في حلب في هذا الوقت، ويظهر أنه كان عنده وسائل جيدة للمعلومات.

٤٦-أبو شامة، ٧٩ . كانت الأجراس تقرع في عكا عند قدوم سفينة للميناء.

٤٧-انظر الوصف المثير للحصار كتبه وزير صلاح الدين القاضي الفاضل إلى الخليفة في بغداد، ذكر في ابن خلكان جزء ٤، ٥٢٠-٥٢٨ .

٤٨-هذا هو تقرير المؤرخ المسيحي ايرنول، الذي لربما كان حاضراً (٨-٢٢٧). من المهم ملاحظته أن المصدر نفسه يذكر بأنه عندما وصل اللاجئون المسيحيون الذين أطلقهم صلاح الدين إلى طرابلس، أغلق الكونت المسيحي الأبواب في وجوههم، حتى أنه أرسل قواته لسرقة رجال الدين من ما يحملونه، الذين احترمهم المسلمون دينياً (٢٣٤). لكن لا يفهم أن صلاح الدين أطلق جميع

الفقراء، كان هنالك بلا شك عدد كبير من بقايا العبيد الصغار، لربما خمسة عشر ألفاً؛ هكذا يقول عماد الدين والذي هو نفسه حاز على نصيبه من النساء والأطفال. أبو شامة، ٨٩ .

٤٩-الخطبة موجودة في ابن خلكان الجزء ٢، ٦٣٤-٦٤١ والتي اقتبست منها الفقرات التالية.

٥٠-هذا الفارس الاسباني حمل ترساً أخضر، وجوز من قرون الوعل على خوذته الخضراء أيضاً. يقول ارنول أن صلاح الدين سر لرؤية الفارس الأخضر ويقدركثيراً الفرسان المتفوقين على الرغم من كونهم مسيحيين أو مسلمين.

٥١-ابن الأثير، ٧٠٧-٧١١، يشجب بدون تحفظ سياسة الإنسحاب.

٥٢-قبل هذه الحملة رافق صلاح الدين مؤرخ حياته في المستقبل بهاء الدين، والذي بقي معه كاتما لسره من (حزيران ١١٨٨م) وعن قرب حميم حتى وفاة السلطان. كان كذلك مع صلاح الدين ابن الأثير (٧١٧) خلال فترة على الأقل من حربه ضد أنطاكية.

٥٣-يقول أبو شامة (٤-١٠٣) أن قلعة صهيون كانت محمية بخمسة أسوار وما بينها كان مليء بالدببة والأسود! عماد الدين يتألم على الخراب الذي أحدثه العرب في البنايات الرخامية في اللاذقية - أروع وأغنى بلد شاهدها في حياته.

٥٤-حسب المؤرخين المسلمين والمسيحيين صمدت الشوبك حتى أيار القادم.

٥٥-أُحِلَ الملك بقرار من الكهنوت من قسمه العظيم "اليوميات"، الجزء الأول ٢٥.

٥٦-بهاء الدين، حكيماً بعد الحادثة، يتذكر في صفحة متقدمة (١٥٢) من تاريخه بأنه سمع صلاح الدين يطلب بإلحاح من مجلسه في

مرج عيون بأن يؤخذ برأيه ويهاجم العدو في سيره، قبل أن يتمكن من التمركز في الخنادق؛ ولكن المجلس فضل الانتظار حتى يكون الافرنج في موقع أمام عكا. بهاء الدين يكتب من وجهة نظر عبدة الأبطال والقصة تزخر بروح "بعدما حصل". تكرارها مع أن بن الأثير يبدلها (الجزء الثاني ٦) لربما تأكيد خفيف لها.

٥٧-الخروبة موقع مهم إبّان حملة صلاح الدين ضد عكا، غير موجودة على الخارطة. معناها "شجرة الخروب" ولربما أعطي الاسم لأكثر من موقع به مثل هذه الأشجار. من المؤكد أنها تلة بين صفورية وعكا (أبو شامة ١٢١) في سلسلة الجبال التي تحاذي السهل على الجانب الشرقي. ومن الممكن مشاهدة المعسكر في عكا من هذا المركز حسب بهاء الدين. وعلى الأرجح يجب وضعها شمالاً من شفرعام، وليس بعيداً من عبلين الحالية.

٥٨-يقول بهاء الدين أن الرجل المسؤول عن عربات الموتى عدّ ٤١٠٠ جثة من الجناح الأيسر للافرنج فقط. عماد الدين قال أن خسارة المسيحيين الكلية كانت عشرة آلاف (جيورجنز ١٢٤)، ولكن لا يعتمد على الأرقام المقربة.

٥٩-ركب عماد الدين بصحبة بهاء الدين وجالا في ميدان المعركة وذكرا أن عدد القتلى المسيحيين عشرة آلاف (أبو شامة، ١٣٧).

٦٠-أحسن وصف للاشتباك في رأس النبع هو وصف عماد الدين؛ انظر أبو شامة، ٤-١٦٢، وبهاء الدين.

٦١-كانت الجلود عامة مشبعة بالخل لحماية الخشب من النار الاغريقية والنفط **naphta** .

٦٢-يؤكد بهاء الدين فقدان السفينة العظيمة من بيروت، مع جنودها الستماية والخمسين ومستودعاتها ومؤنها وآلياتها الحربية. ولكنه يقول أن قائدها أغرقها، عندما عرف بأنه سيغلب، حتى لا يأخذ العدو شيئاً من حمولتها (١-٢٢٠) .

٦٣-"صفا الدين" هو سيف الدين الملك العادل.

٦٤-يقول بهاء الدين أن صلاح الدين قاد شخصياً.

٦٥-تذكر "اليوميات" (الجزء الثالث، ١٧) أن صلاح الدين وافق سابقاً على التسليم؛ ولكن كل إثبات آخر يشير إلى الخلاصة المناقضة.

٦٦-هذا خطأ. فقد حجز سكان عكا كسجناء (ارنول ٢٧٤) ورهائن، لحين تنفيذ بنود الاتفاق كما سيظهر فيما بعد.

٦٧-بهاء الدين ٤-٢٢٣؛ الذي يعظم ذكر ريتشارد ملكاً "لقوته الجبارة، شجاعته العظيمة، إرادته الثابتة، المعارك العظيمة التي حاربها وكيف كان شجاعاً في الحرب".

٦٨-"اليوميات" الجزء الرابع ٢ . التفسير لهذه الجريمة الوحشية البشعة هو أن ريتشارد لم يستطع أن يترك خلفه بسلام هذا العدد الكبير من المساجين عندما تحرك جنوباً. والإنسان يفرح إن اكتشف سبباً أقل كرهاً لوحشيته. سبب آخر يدعيه روجر في كتاب هاودن **Howden**، الذي يقول أن صلاح الدين كان قد ذبح أسراه المسيحيين قبل يومين. لا يوجد أي شيء يسند هذا من أي مصدر آخر.

٦٩-لقد أخطأ المؤلف في تفسير علم معروف في نسبة الرتب وشعاراتها، والمنقولة عن رسمة هيروغليفية مصرية قديمة. استعمال الشعارات الحربية كان معروفاً لدى العرب، وعلى الأخص مماليك التركمان.

٧٠-حسب بهاء الدين (٢٨٠) تقدمت المراكز الأمامية للافرنج حتى يازور فقط، ثلاثة أميال ونصف من يافا، في الثلاثين من تشرين الأول.

٧١-بهاء الدين، ٢٧٥ . قابل "اليوميات" الجزء الرابع ٣١، لصورة مختلفة.

٧٢-جميع هذه المراحل المتفرقة من المفاوضات وصفها بهاء الدين جيداً مع التواريخ (٢٦٥، ٩-٢٧٠، ٩٣-٢٨٣)، ولكن تاريخ المجلس الذي عقد في "١١ شوال" هو كما يظهر من المحتوى، غلطة لـ ٢١ .

٧٣-أنصاف النسل، افرنج سوريون أو بالأحرى بمعنى أوسع كريولز creoles - افرنج ولدوا في سوريا.

٧٤-اتهم الافرنسيون ريتشارد بحثه على القتل، وابن الأثير يتهم صلاح الدين بأنه رشى الحشاشين لقتل ريتشارد وكونارد. ولا هذا يستحق أخذه بعين الاعتبار قبل التبرئة المزورة المنسوبة لشيخ الحشاشين.

٧٥-بدانة الأمير كانت فائقة للحد حتى أن معدته لمست رقبة حصانه عندما كان حاكماً لوادي الرافدين، صانعوا الفخار في الموصل بدلوا له الثناء بعمل وعاء واسع ومرح على شاكلته، وكانت هذه تعرف تجارياً بأبو الهيجاء "Abu-Il- Heyjas". أبو شامة وجيورجنز ٣٩.

٧٦-تتبعت تاريخ الحوادث لبهاء الدين الذي كان حاضراً وعلى العموم صحيحة. أنها تتفق مع ما ورد في "اليوميات" (الجزء السادس، ٩) بأن الصليبيين وصلوا إلى قلعة قرب اللد في السادس من تموز. النص السابق (الجزء السادس، ٧) وبأن عيد القديس جون St. John كان قريباً (٢٤ تموز). لا بد أن نشير كما يُظهر المحتوى لوقت سابق لقرار الحلفين بترك التقدم.

٧٧-طوال فترة الحرب كان يحتفظ صلاح الدين بفرق من قواته تراقب الأماكن الرئيسية مثل عكا وصور وإنطاكية وغيرها عند الضرورة (ابن الأثير، جزء ٢ صفحة ١٠).

٧٨-بالنسبة إلى "لليوميات" أعطى صلاح الدين الحامية يوماً آخر، لكن بهاء الدين يناقض هذا. ومع أن النص اللاتيني جوهري جداً وأنه من غير المعقول أن ينقض صلاح الدين كلمته، فلربما كان هنالك سوء فهم منهم.

٧٩-هذا قول ايرنول، ٢٨١ ورالف حاكم كوجيشال ٤٣، **Ralf of Coggeshall** . "اليوميات" تقول أن ريتشارد أشرع قوساً.

٨٠-يقول رالف حاكم كوجيشال، الذي أخذ معلوماته من شاهد عيان، هيو نيفيل **Hugh Neville**، أنه يقدر قوة ريتشارد بـ ثمانين فارساً وأربعمئة ضاربي سهام، وجيش صلاح الدين بـ اثنين وستين ألفاً. من المؤكد أنه لم يأخذ بالحسبان أهل جنوى وبيتزا والتي ضخمت قوات ريتشارد بألفين أو ثلاثة آلاف (اليوميات، الجزء السادس، ٢٠).

٨١-ايرنول ٢-٢٨١، يروي القصة على شكل آخر، الذي يجعل العادل الكريم، أو كما يلمح البعض، بالخائن الذي أعطى. لكن العادل كان طريح الفراش مريضاً في القدس في ذلك الوقت، وهذا النص واضح الخطأ.

٨٢-كانت على الأكثر حمى مترددة حادة، من النوع الصفراوي (أو السوداوي) - "الحمى الصفراء" حسب الكتاب العربي - بسبب تسمم الدم. تعرضه لمرض الملاريا عدة مرات وتعرضه للتعب المضني المتواصل والمعاناة القاسية، وأخيراً للرطوبة والبرد، لربما أنتج مضاعفات عضوية. العوارض كما سجلها بهاء الدين كاملة -توقف الخروج مع الاحتفاظ بالسموم في الجسم، والتي ازدادت حتى تفجرت من خلال الجلد بتعريق متعب تبعه الموت- هذا شيء عادي لعدة أشكال من الحمى الخبيثة والشديدة العدوى. هكذا أخبرني السير وليام جوارز **Sir William Gowers M.D., F.R.S.**، والذي تلطف للاهتمام بنفسه بموضوع مرض صلاح الدين المميت. كما واستشرت الخبرة المحلية للدكتور اف. جيه. ماكنون **Dr. F.J. Mackinon** من مستشفى فيكتوريا في دمشق،

الذي أكد التشخيص.

٨٣-الزوجة الوحيدة لصلاح الدين التي نعرفها بالاسم هي عصمة الدين Asimat -ed- din ، ابنة أنار، وزير دمشق الشهير. تزوجها السلطان نور الدين (زنكي) سنة ١١٤٧م. وبعد وفاته تزوجها صلاح الدين عام ١١٧٦م. وهي بالرغم من كون عمرها ٤٥ عاماً على الأقل، فقد سجل بأنها كانت حاملاً عام ١١٨٢م. على كلٍ لم يعش طفلٌ لها عند موتها عام ١١٨٥م. مثل أخت صلاح الدين، سيدة سوريا "The Lady of Syria"، كانت مؤمنة بإنشاء المساجد. ترك صلاح الدين عند موته سبعة عشر ولداً وابنة واحدة صغيرة، وعدد من الأطفال توفوا سابقاً. (عبد الباسط في "وصف دمشق" ترجمة سوفير Sauvaire ١٩٨ و ٢٤٨؛ وعماد الدين في أبو شامة، ٤٠).

Heroes of the Nations

EDITED BY

Evelyn Abbott, M.A.

FELLOW OF BALLIOL COLLEGE, OXFORD

FACTA DUCIS VIVENT, OPEROSAQUE
GLORIA RERUM. — OVID, IN LIVIAM, 265.

THE HERO'S DEEDS AND HARD-WON
FAME SHALL LIVE.

SALADIN

SALADIN

AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM

BY

STANLEY LANE-POOLE, M.A.

AUTHOR OF THE "LIFE OF STRATFORD CANNING," "THE ART OF THE SARACENS"
"CAIRO," "STUDIES IN A MOSQUE," "THE MOORS IN SPAIN"
"TURKEY," "THE BARBARY CORSAIRS" ETC.

G. P. PUTNAM'S SONS

NEW YORK
27 WEST TWENTY-THIRD STREET

LONDON
24 BEDFORD STREET, STRAND

The Knickerbocker Press
1898

COYRIGHT, 1898
BY
G. P. PUTNAM'S SONS
Entered at Stationers' Hall, London

The Knickerbocker Press, New York

MINE EYES HAVE SEEN THE DAYS OF HIS MAJESTY,
KING STRONG TO AID; THE SUM OF PIETY,
BANE OF THE CRUCIFIX-IDOLATRY,
BANNERET OF RIGHT AND GENEROSITY,
SALĀH-ED-DĪN,
LORD OF ISLĀM AND MUSLIMĪN,
SAVING GOD'S HOUSE FROM THE NAZARENE,
SERVING THE HOLY PLACES TWIN,
VICTORIOUS YŪSUF, SON OF AYYŪB, OF SHADHY'S KIN:
GOD WATER HIS GRAVE WITH SHOWERS OF CLEMENCY,
AND GRANT HIM IN MERCY'S HOME THE MEED OF CONSTANCY.

BAHĀ-ED-DĪN

Heroes of the Nations.

PER VOLUME, CLOTH, $1.50. HALF MOROCCO, $1.75.

I.—**Nelson.** By W. CLARK RUSSELL.
II.—**Gustavus Adolphus.** By C. R. L. FLETCHER, M.A.
III.—**Pericles.** BY EVELYN ABBOTT, M.A.
IV.—**Theodoric the Goth.** By THOMAS HODGKIN.
V.—**Sir Philip Sidney.** By H. R. FOX-BOURNE.
VI.—**Julius Cæsar.** By WARDE FOWLER, M.A.
VII.—**Wyclif.** By LEWIS SERGEANT.
VIII.—**Napoleon.** By WILLIAM O'CONNOR MORRIS.
IX.—**Henry of Navarre.** By P. F. WILLERT.
X.—**Cicero.** By J. L. STRACHAN-DAVIDSON, M.A.
XI.—**Abraham Lincoln.** By NOAH BROOKS.
XII.—**Prince Henry.** By C. R. BEAZLEY.
XIII.—**Julian the Philosopher.** By ALICE GARDNER.
XIV.—**Louis XIV.** By ARTHUR HASSALL, M.A.
XV.—**Charles XII.** By R. NISBET BAIN.
XVI.—**Lorenzo de' Medici.** By EDWARD ARMSTRONG.
XVII.—**Jeanne d'Arc.** By MRS. OLIPHANT.
XVIII.—**Christopher Columbus.** By WASHINGTON IRVING.
XIX.—**Robert the Bruce.** By SIR HERBERT MAXWELL, M.P.
XX.—**Hannibal.** By WILLIAM O'CONNOR MORRIS.
XXI.—**U. S. Grant.** By W. CONANT CHURCH.
XXII.—**Robert E. Lee.** By HENRY A. WHITE.
XXIII.—**The Cid Campeador.** By H. BUTLER CLARKE.

G. P. PUTNAM'S SONS, NEW YORK AND LONDON.

The Story of the Nations.

MESSRS. G. P. PUTNAM'S SONS take pleasure in announcing that they have in course of publication, in co-operation with Mr. T. Fisher Unwin, of London, a series of historical studies, intended to present in a graphic manner the stories of the different nations that have attained prominence in history.

In the story form the current of each national life is distinctly indicated, and its picturesque and noteworthy periods and episodes are presented for the reader in their philosophical relation to each other as well as to universal history.

It is the plan of the writers of the different volumes to enter into the real life of the peoples, and to bring them before the reader as they actually lived, labored, and struggled—as they studied and wrote, and as they amused themselves. In carrying out this plan, the myths, with which the history of all lands begins, will not be overlooked, though these will be carefully distinguished from the actual history, so far as the labors of the accepted historical authorities have resulted in definite conclusions.

The subjects of the different volumes have been planned to cover connecting and, as far as possible, consecutive epochs or periods, so that the set when completed will present in a comprehensive narrative the chief events in the great STORY OF THE NATIONS; but it is, of course, not always practicable to issue the several volumes in their chronological order.

The "Stories" are printed in good readable type, and in handsome 12mo form. They are adequately illustrated and furnished with maps and indexes. Price, per vol., cloth, $1.50. Half morocco, gilt top, $1.75.

The following are now ready:

GREECE. Prof. Jas. A. Harrison.

ROME. Arthur Gilman.

THE JEWS. Prof. James K. Hosmer.

CHALDEA. Z. A. Ragozin.

GERMANY. S. Baring-Gould.

NORWAY. Hjalmar H. Boyesen.

SPAIN. Rev. E. E. and Susan Hale.

HUNGARY. Prof. A. Vámbéry.

CARTHAGE. Prof. Alfred J. Church.

THE SARACENS. Arthur Gilman.

THE MOORS IN SPAIN. Stanley Lane-Poole.

THE NORMANS. Sarah Orne Jewett.

PERSIA. S. G. W. Benjamin.

ANCIENT EGYPT. Prof. Geo. Rawlinson.

ALEXANDER'S EMPIRE. Prof. J. P. Mahaffy.

ASSYRIA. Z. A. Ragozin.

THE GOTHS. Henry Bradley.

IRELAND. Hon. Emily Lawless.

TURKEY. Stanley Lane-Poole.

MEDIA, BABYLON, AND PERSIA. Z. A. Ragozin.

MEDIÆVAL FRANCE. Prof. Gustave Masson.

HOLLAND. Prof. J. Thorold Rogers.

MEXICO. Susan Hale.

PHŒNICIA. Geo. Rawlinson.

THE HANSA TOWNS. Helen Zimmern.

EARLY BRITAIN. Prof. Alfred J. Church.

THE BARBARY CORSAIRS Stanley Lane-Poole.

RUSSIA. W. R. Morfill.

THE JEWS UNDER ROME. W. D. Morrison.

SCOTLAND. John Mackintosh.

SWITZERLAND. R. Stead and Mrs. A. Hug.

PORTUGAL. H. Morse-Stephens.

THE BYZANTINE EMPIRE. C. W. C. Oman.

SICILY. E. A. Freeman.

THE TUSCAN REPUBLICS. Bella Duffy.

POLAND. W. R. Morfill.

PARTHIA. Geo. Rawlinson.

JAPAN. David Murray.

THE CHRISTIAN RECOVERY OF SPAIN. H. E. Watts.

AUSTRALASIA. Greville Tregarthen.

SOUTHERN AFRICA. Geo. M. Theal.

VENICE. Alethea Wiel.

THE CRUSADES. T. S. Archer and C. L. Kingsford.

VEDIC INDIA. Z. A. Ragozin.

BOHEMIA. C. E. Maurice.

CANADA. J. G. Bourinot.

THE BALKAN STATES. William Miller.

BRITISH RULE IN INDIA. R. W. Frazer.

MODERN FRANCE. André Le Bon.

THE BUILDING OF THE BRITISH EMPIRE. Alfred T. Story.

THE FRANKS. By Lewis Sergeant.

Heroes of the Nations.

EDITED BY

EVELYN ABBOTT, M.A.,

FELLOW OF BALLIOL COLLEGE, OXFORD.

A SERIES of biographical studies of the lives and work of a number of representative historical characters about whom have gathered the great traditions of the Nations to which they belonged, and who have been accepted, in many instances, as types of the several National ideals. With the life of each typical character will be presented a picture of the National conditions surrounding him during his career.

The narratives are the work of writers who are recognized authorities on their several subjects, and, while thoroughly trustworthy as history, will present picturesque and dramatic "stories" of the Men and of the events connected with them.

To the Life of each "Hero" will be given one duodecimo volume, handsomely printed in large type, provided with maps and adequately illustrated according to the special requirements of the several subjects. The volumes will be sold separately as follows:

Large 12°, cloth extra	$1 50
Half morocco, uncut edges, gilt top	1 75

The following are now ready:

Nelson, and the Naval Supremacy of England. By W. CLARK RUSSELL, author of "The Wreck of the Grosvenor," etc.

Gustavus Adolphus and the Struggle of Protestantism for Existence. By C. R. L. FLETCHER, M.A., late Fellow of All Souls College.

Pericles and the Golden Age of Athens. By EVELYN ABBOTT, M.A.

Theodoric the Goth, the Barbarian Champion of Civilisation. By THOMAS HODGKIN, author of "Italy and Her Invaders," etc.

Sir Philip Sidney, and the Chivalry of England. By H. R. FOX-BOURNE, author of "The Life of John Locke," etc.

Julius Cæsar, and the Organisation of the Roman Empire. By W. WARD FOWLER, M.A., Fellow of Lincoln College, Oxford.

John Wyclif, Last of the Schoolmen, and First of the English Reformers. By LEWIS SERGEANT, author of "New Greece," etc.

Napoleon Warrior and Ruler, and the Military Supremacy of Revolutionary France. By W. O'CONNOR MORRIS.

Henry of Navarre, and the Huguenots of France. By P. F. WILLERT, M.A., Fellow of Exeter College, Oxford.

Cicero, and the Fall of the Roman Republic. By J. L. STRACHAN-DAVIDSON, M.A. Fellow of Balliol College, Oxford.

Abraham Lincoln and the Downfall of American Slavery. By NOAH BROOKS.

Prince Henry (of Portugal) the Navigator, and the Age of Discovery. By C. R. BEAZLEY, Fellow of Merton College, Oxford.

Julian the Philosopher, and the Last Struggle of Paganism against Christianity. By ALICE GARDNER.

Louis XIV., and the Zenith of the French Monarchy. By ARTHUR HASSALL, M.A., Senior Student of Christ Church College, Oxford.

Charles XII., and the Collapse of the Swedish Empire, 1682–1719. By R. NISBET, BAIN.

Lorenzo de' Medici, and Florence in the 15th Century. By EDWARD ARMSTRONG, M.A., Fellow of Queen's College, Oxford.

Jeanne d'Arc. Her Life and Death. By MRS. OLIPHANT.

Christopher Columbus. His Life and Voyages. By WASHINGTON IRVING.

Robert the Bruce, and the Struggle for Scottish Independence. By SIR HERBERT MAXWELL, M.P.

Hannibal, Soldier, Statesman, Patriot; and the Crisis of the Struggle between Carthage and Rome. By W. O'CONNOR MORRIS, Sometime Scholar of Oriel College, Oxford.

Ulysses S. Grant, and the Period of National Preservation and Reconstruction, 1822–1885. By LIEUT.-COL. WILLIAM CONANT CHURCH.

Robert E. Lee, and the Southern Confedracy, 1807–1870. By Prof. HENRY ALEXANDER WHITE, of the Washington and Lee University.

The Cid Campeador, and the Waning of the Crescent in the West. By H. BUTLER CLARKE, Fellow of St. John's College, Oxford.

Saladin, and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. By STANLEY LANE-POOLE, author of "The Moors in Spain," etc.

To be followed by:

Moltke, and the Military Supremacy of Germany. By SPENCER WILKINSON, London University.

Bismarck. The New German Empire, How it Arose and What it Displaced. By W. J. HEADLAM, M.A., Fellow of King's College.

Judas Maccabæus, the Conflict between Hellenism and Hebraism. By ISRAEL ABRAHAMS, author of "The Jews of the Middle Ages."

G. P. PUTNAM'S SONS, NEW YORK AND LONDON.

THE CITADEL OF CAIRO, EAST ANGLE.

Frontispiece.

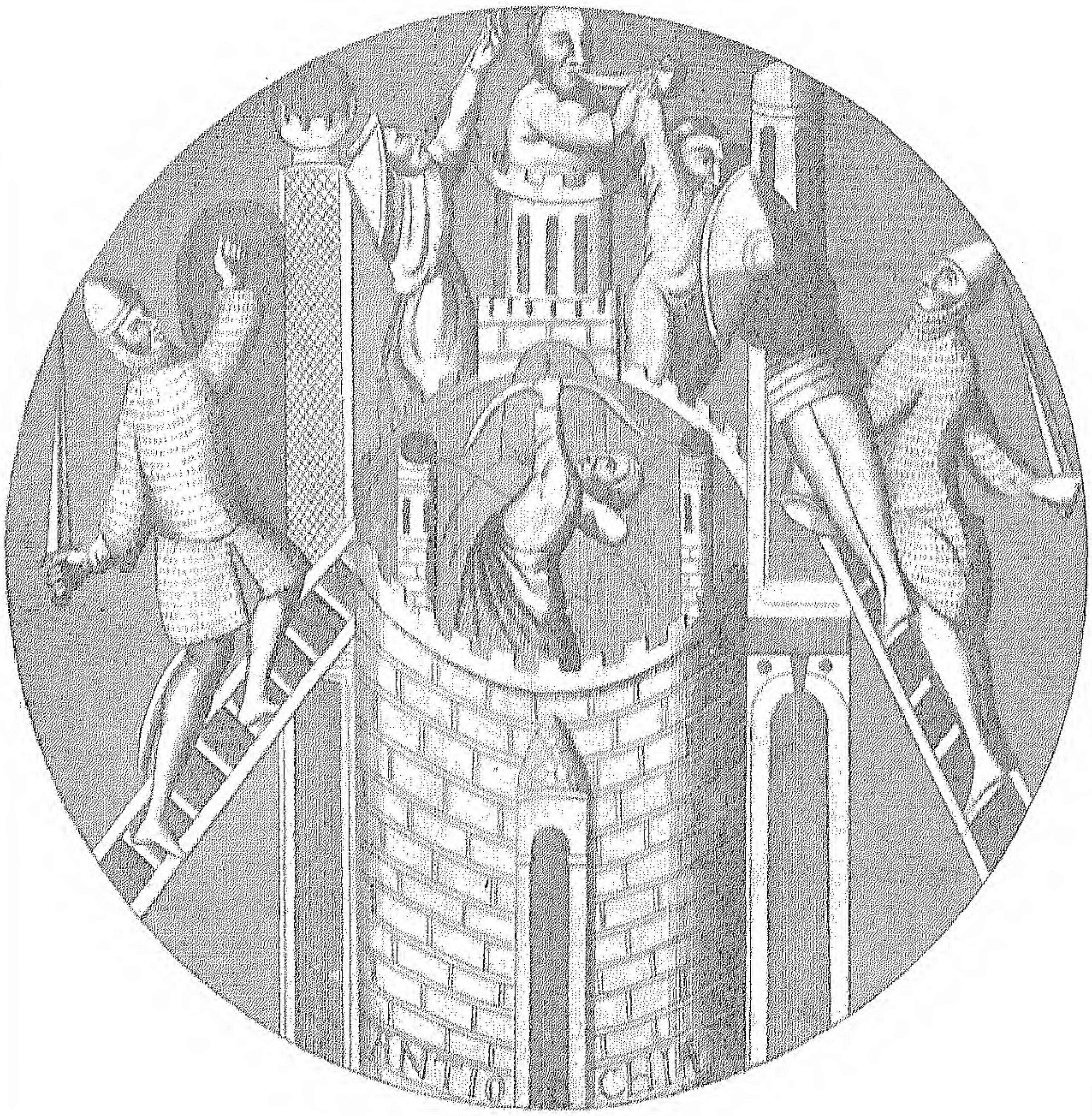

STORMING OF ANTIOCH, 1098.

(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

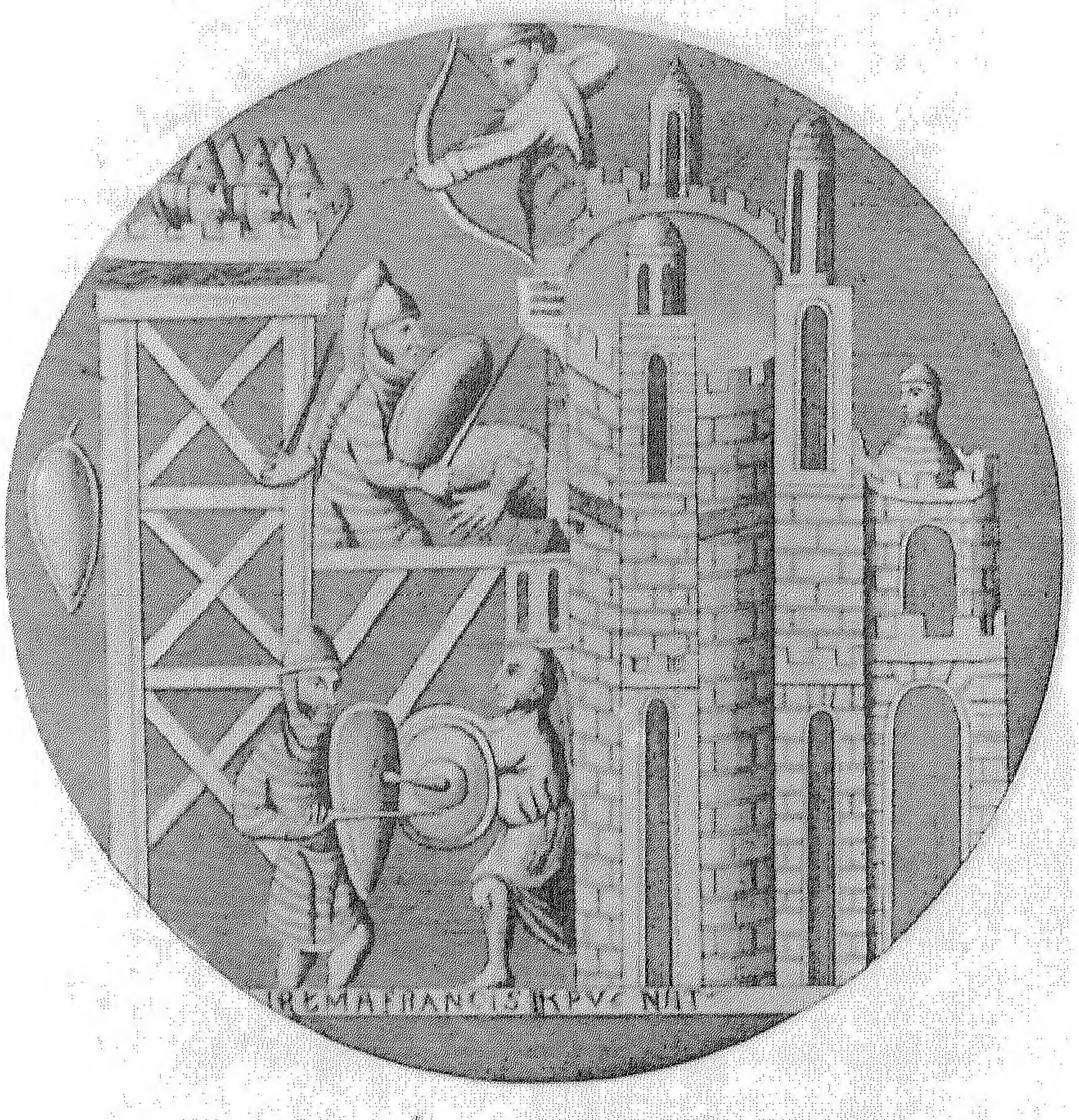

THE TAKING OF JERUSALEM.

(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

ROBERT OF NORMANDY UNHORSES A SARACEN.
(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

CRUSADERS PURSUING SELJUKS.

(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

BATTLE BETWEEN CRUSADERS AND KURBUGHA.
(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

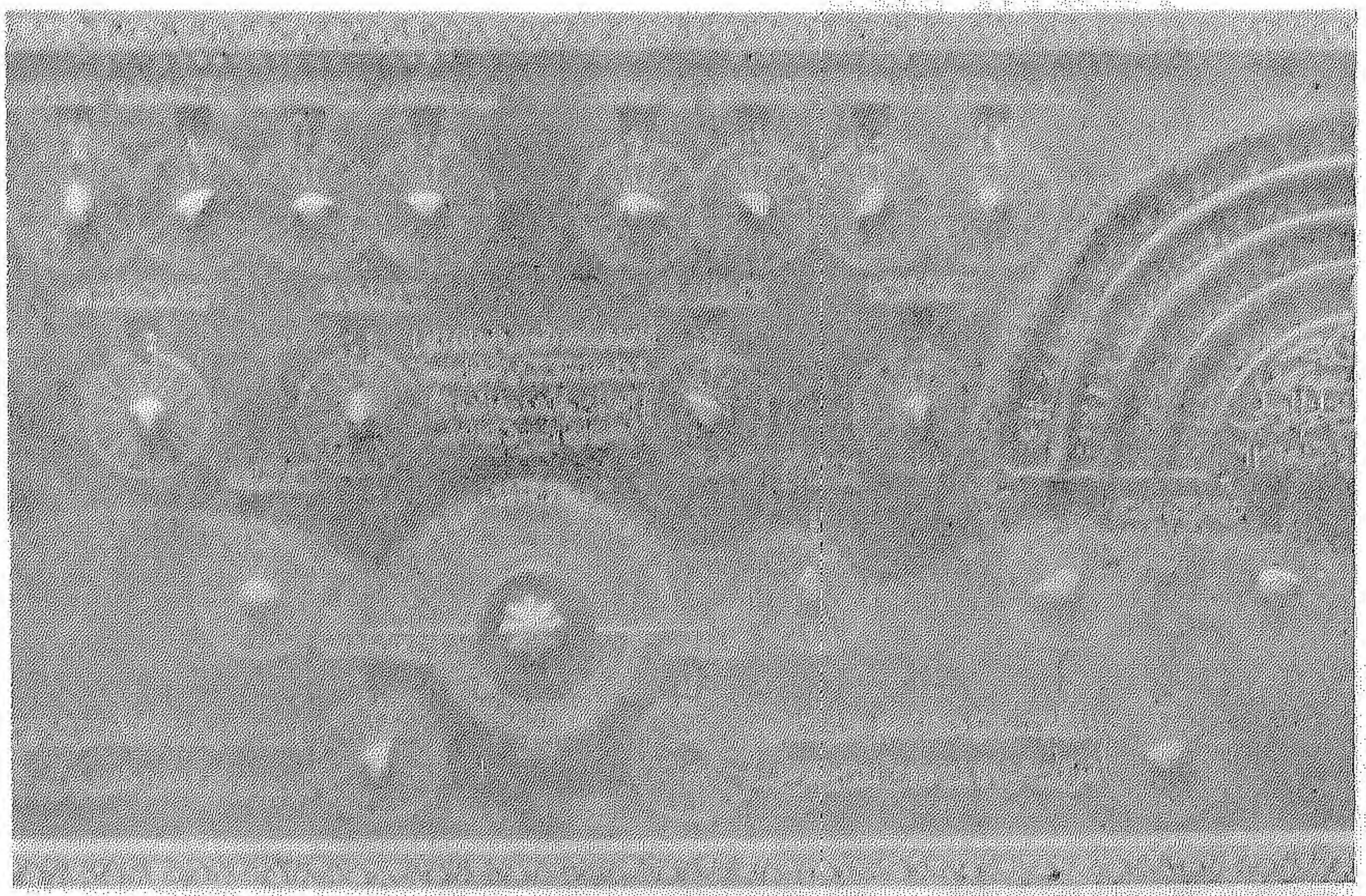

ASTROLOGICAL CALCULATOR MADE BY MOHAMMED IBN KUTLUKH OF MOSIL, A. H. 639.

(IN THE BRITISH MUSEUM.)

A PARTY OF CRUSADERS RETURNING FROM A FORAGING EXPEDITION.

FROM A THIRTEENTH-CENTURY MS. OF WILLIAM OF TYRE.

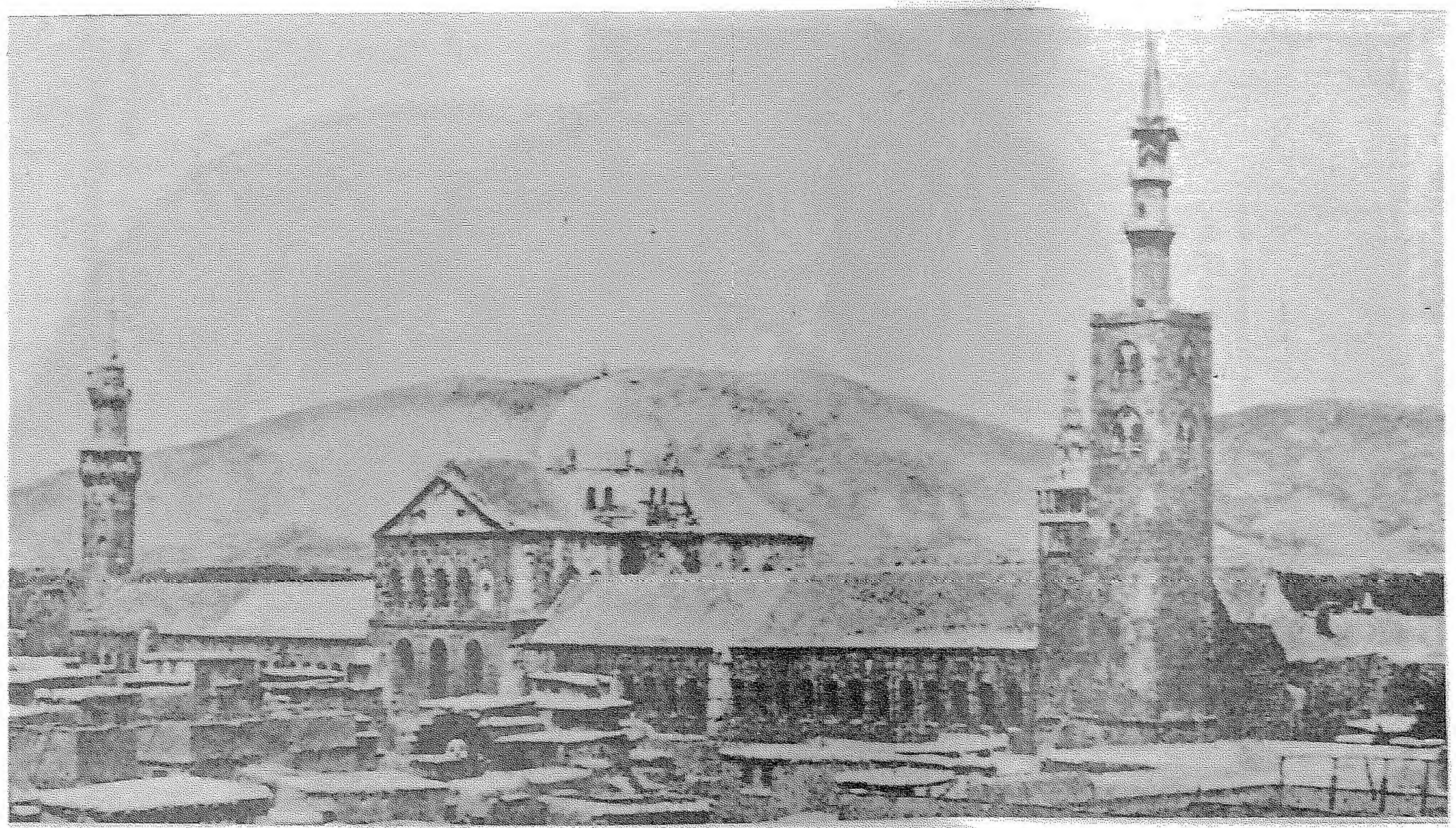

THE OMAYYAD MOSQUE AT DAMASCUS.

CRUSADERS AND EGYPTIANS BEFORE ASCALON.
(FROM A PAINTED WINDOW AT ST. DENYS, 12TH CENTURY.)

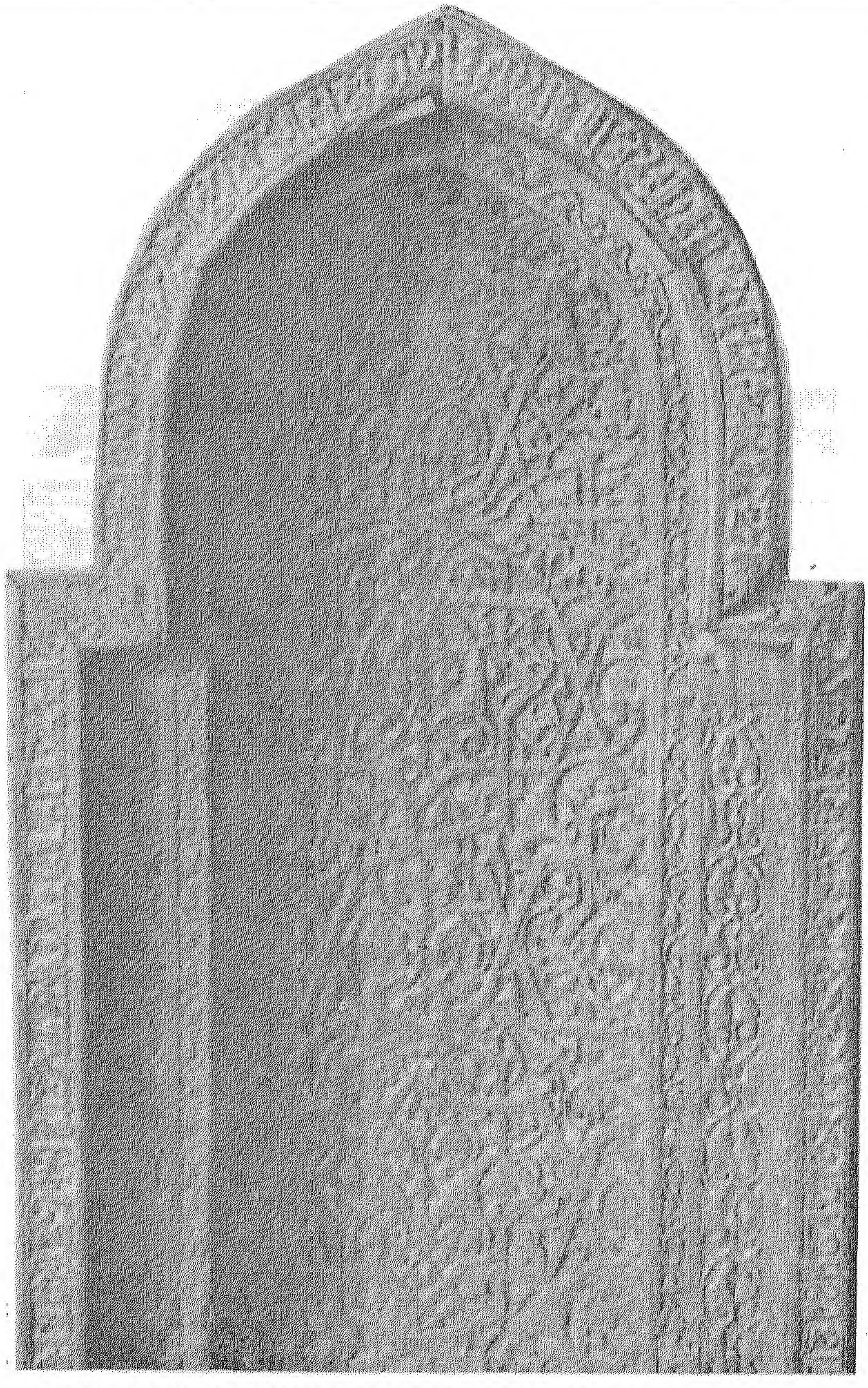

NICHE FROM THE CHAPEL OF SITTA NEFISA, ARAB MUSEUM, CAIRO.

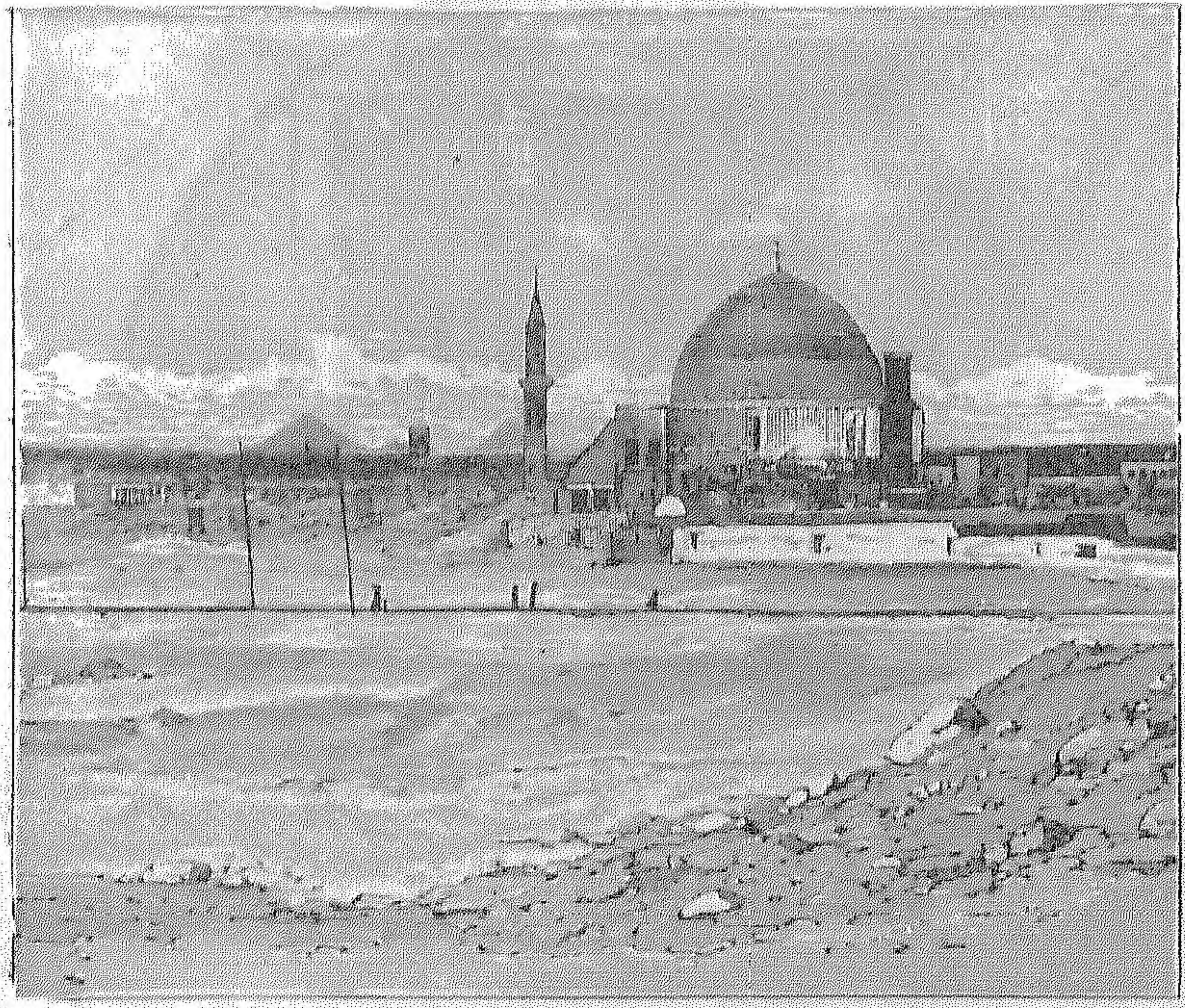

MOSQUE OF IMAM ESH-SHAFI'Y, CAIRO.

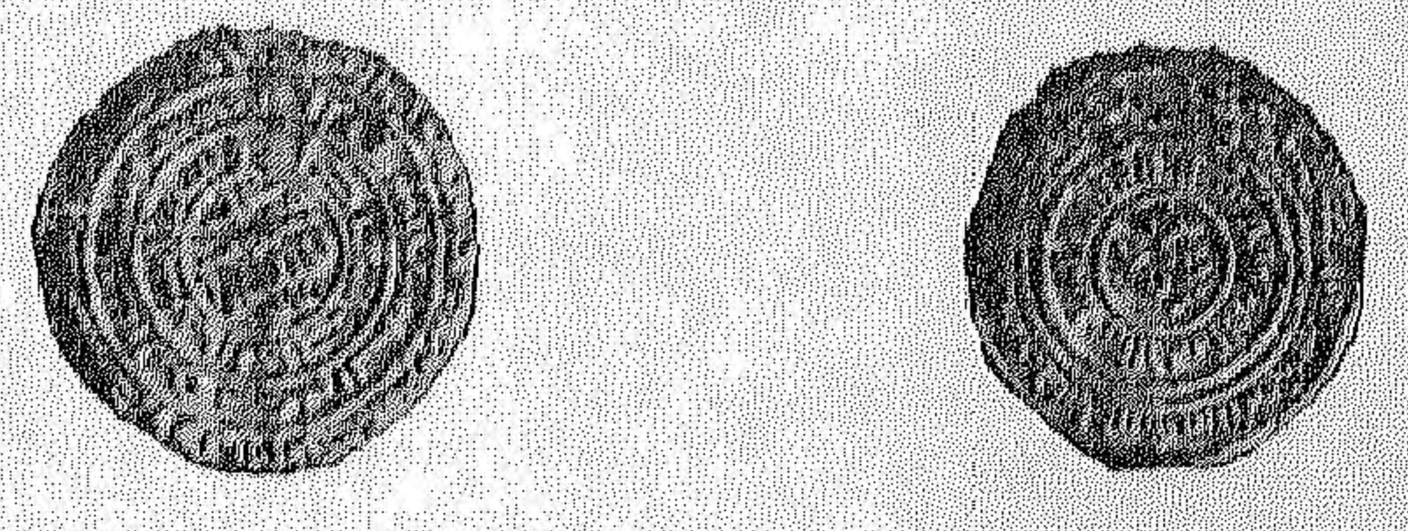

GOLD COIN OF NUG-ED-DIN ISSUED BY SALADIN AT CAIRO IN 1173.

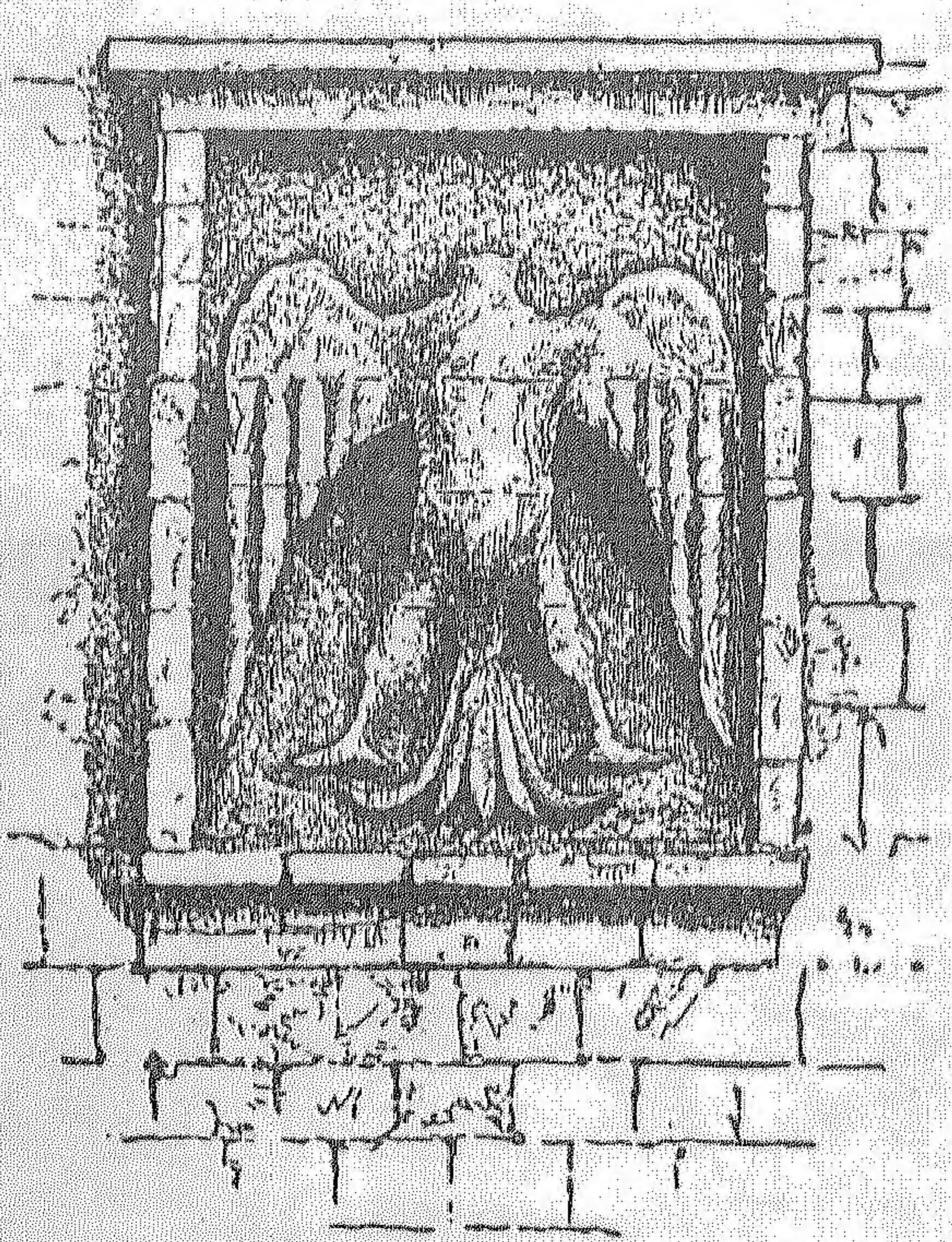

EAGLE ON THE WALL OF SALADIN'S CITADEL AT CAIRO.

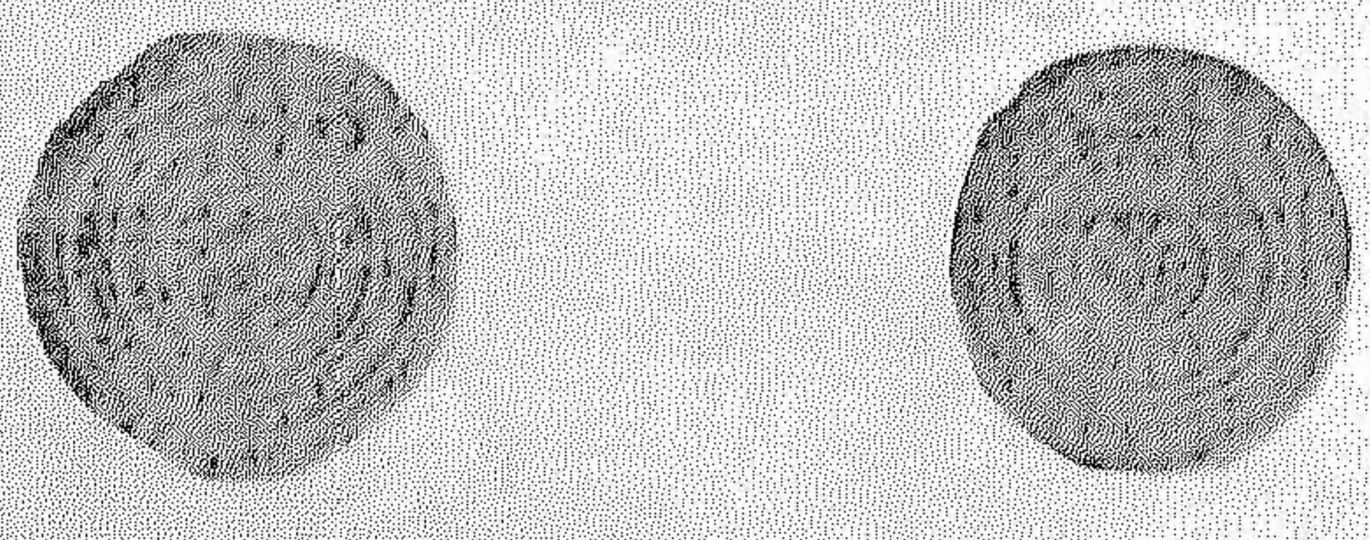

GOLD COIN OF SALADIN STRUCK AT ALEXANDRIA IN 1183.

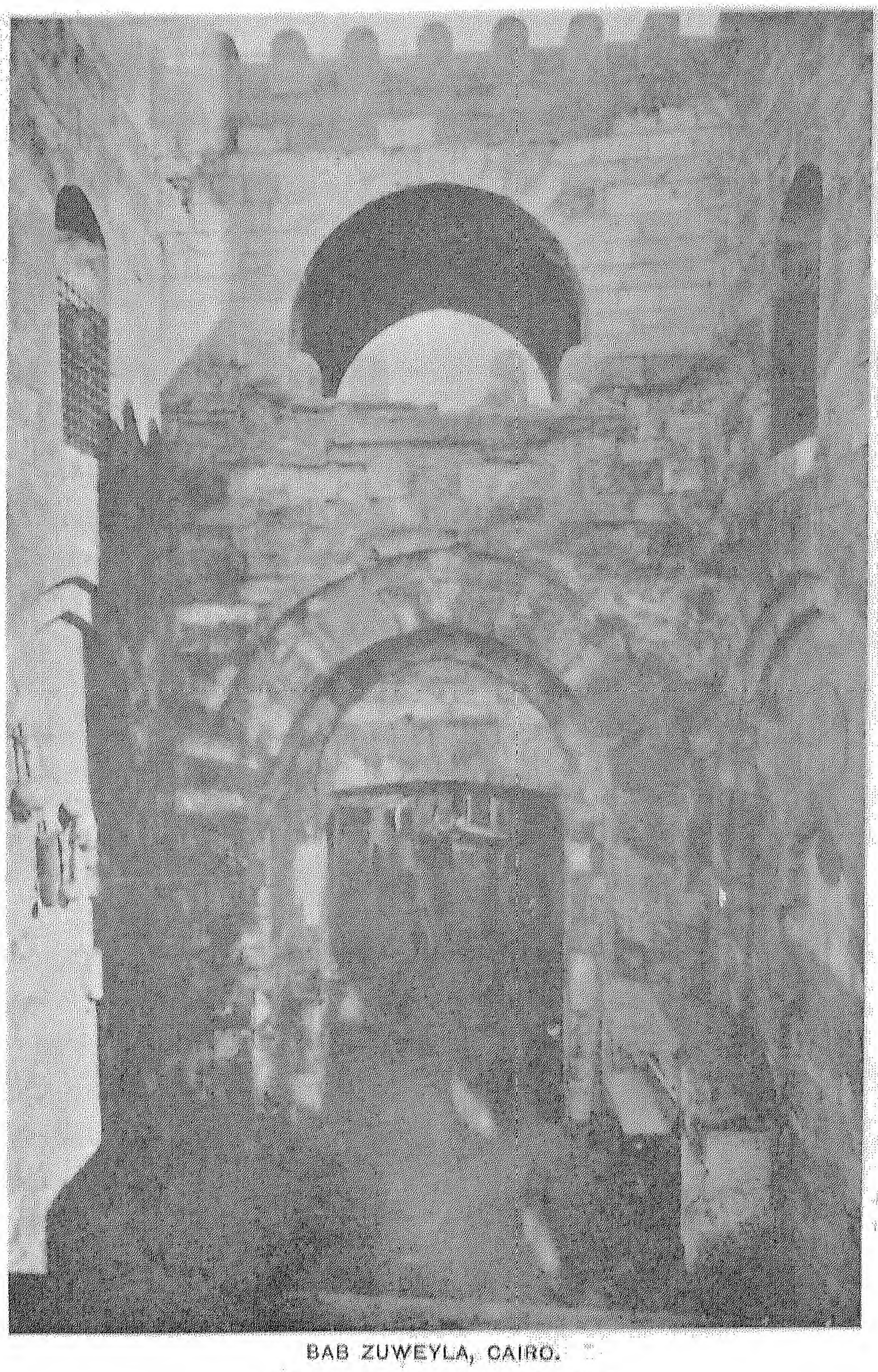

BAB ZUWEYLA, CAIRO.

A FATIMID GATE OF THE 11TH CENTURY.

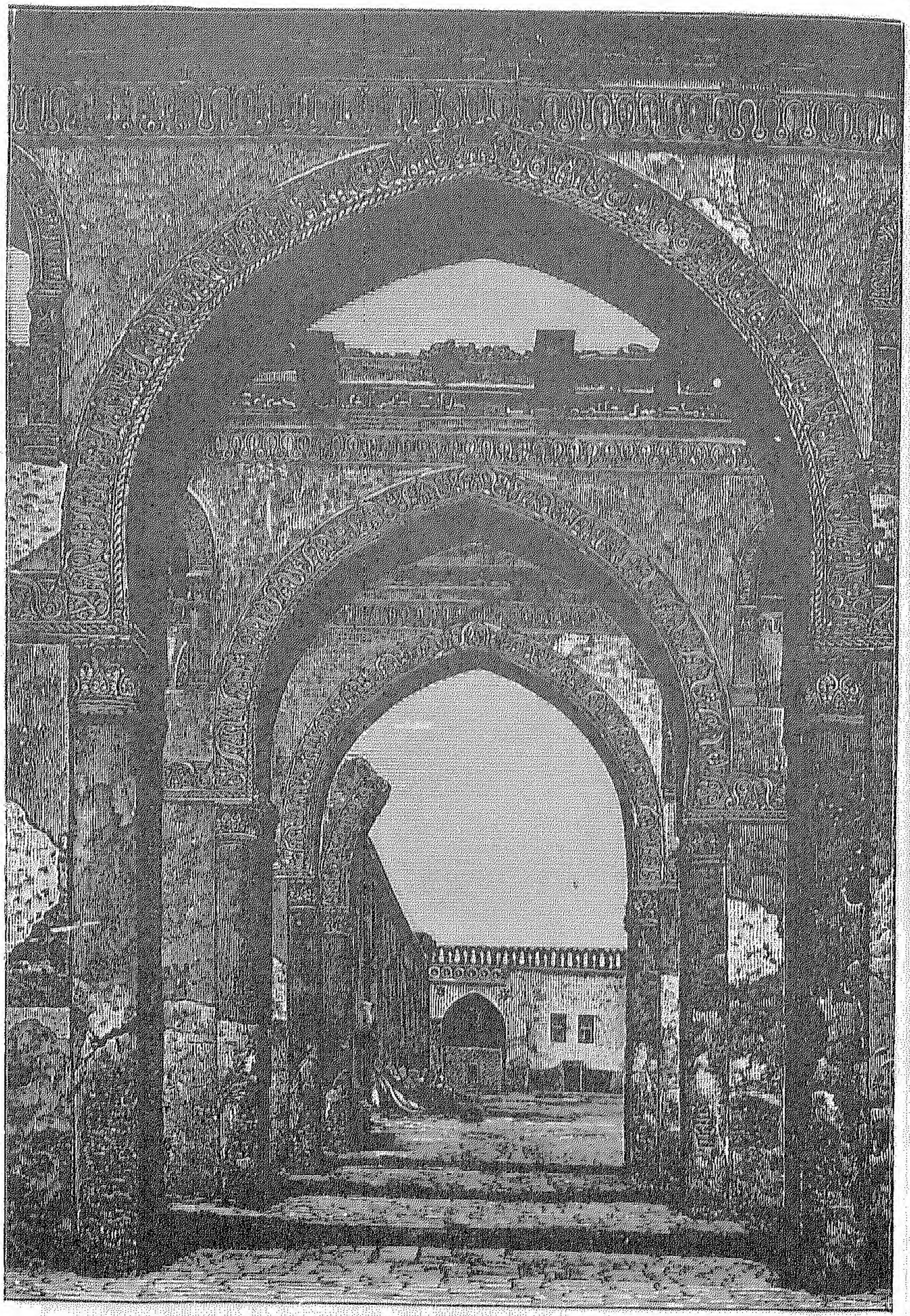

MOSQUE OF IBN-TULUN, CAIRO.

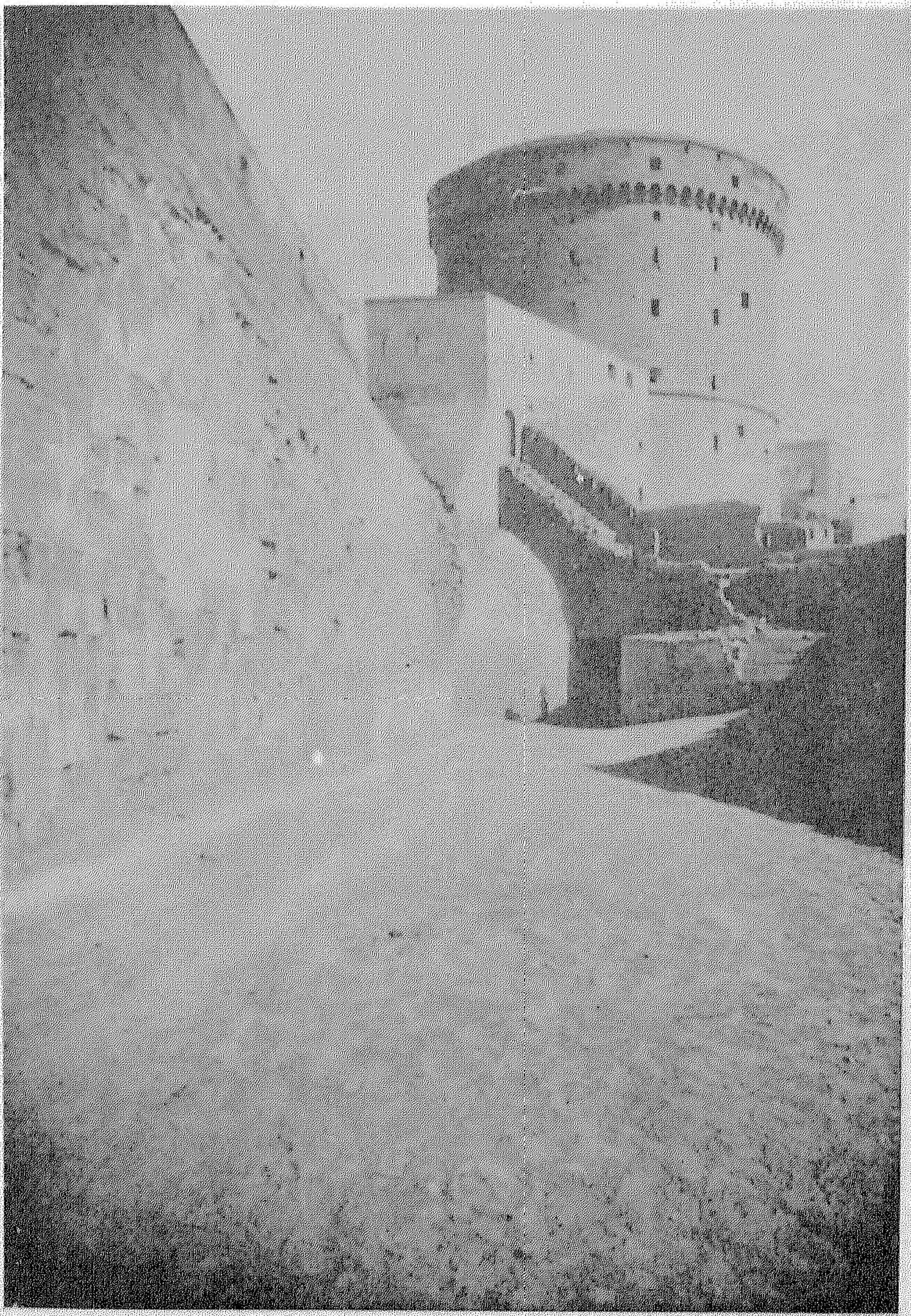

A TOWER IN THE CITADEL OF CAIRO.

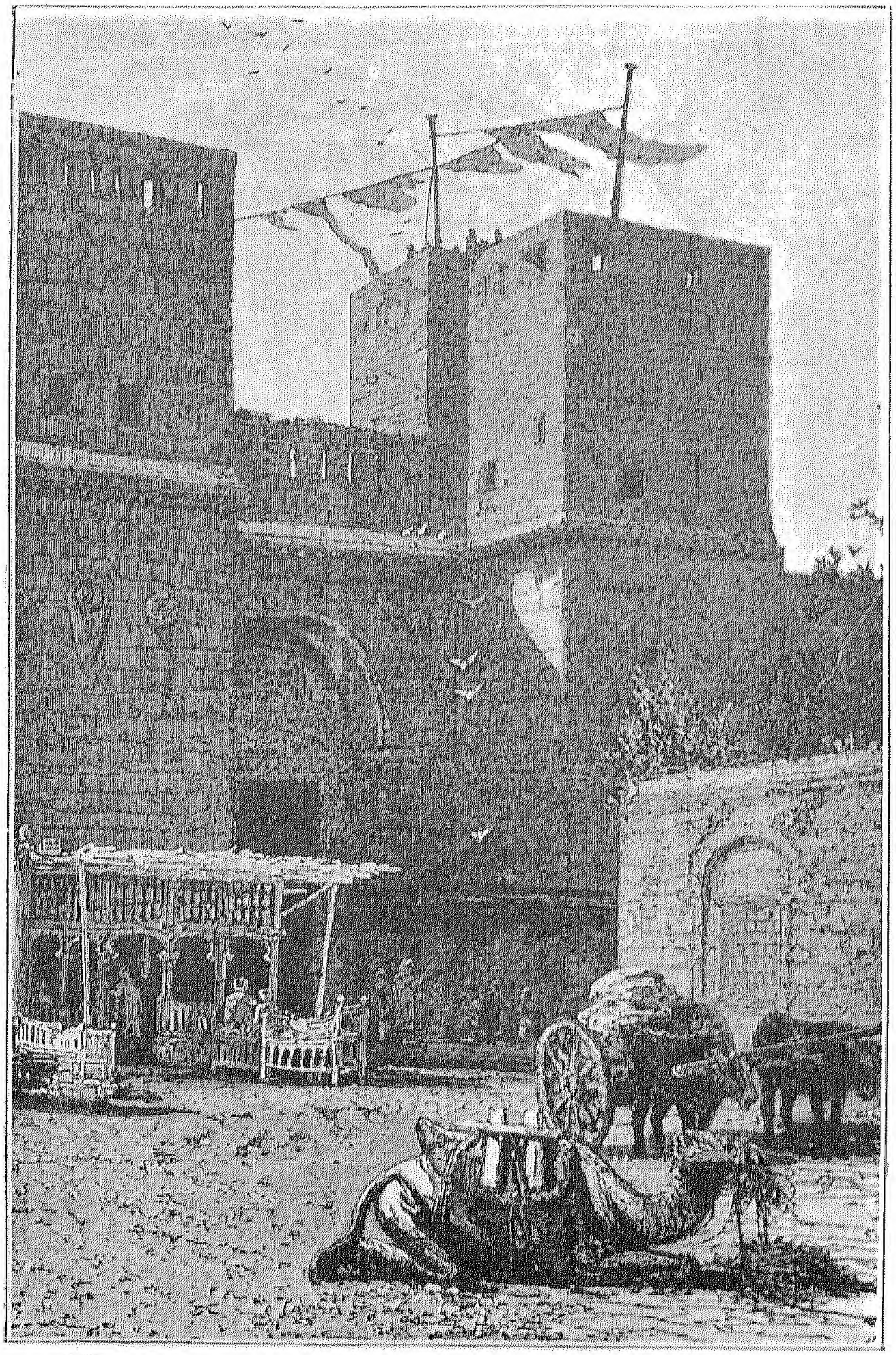

THE GATE OF VICTORY (BAB EN-NASR), CAIRO.

SIEGE OF A SARACEN FORT.
FROM A 13TH CENTURY MS.

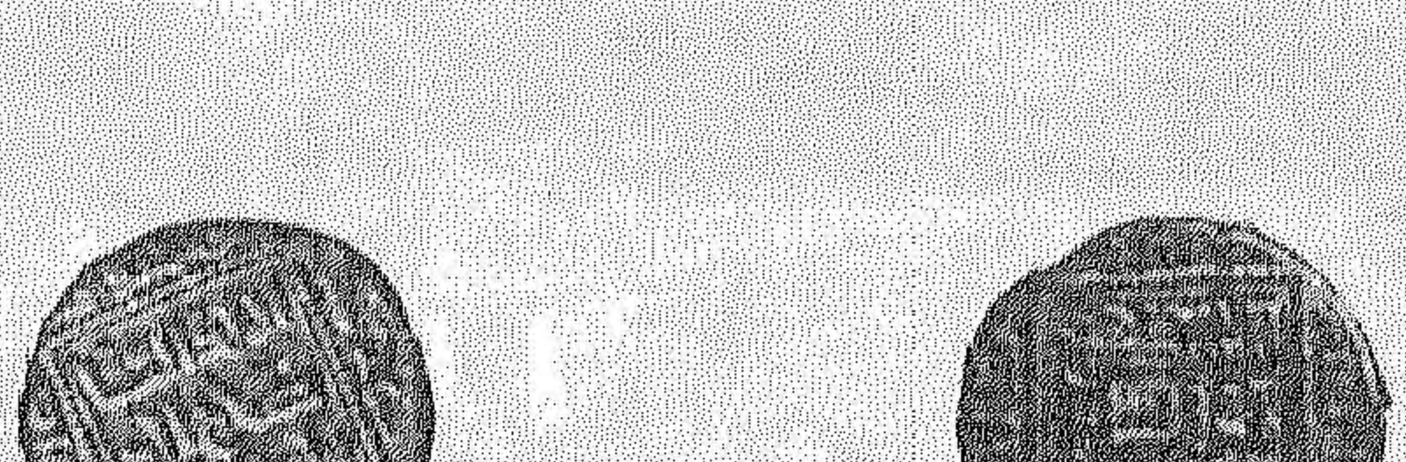

SILVER COIN OF SALADIN STRUCK AT DAMASCUS IN 1177.

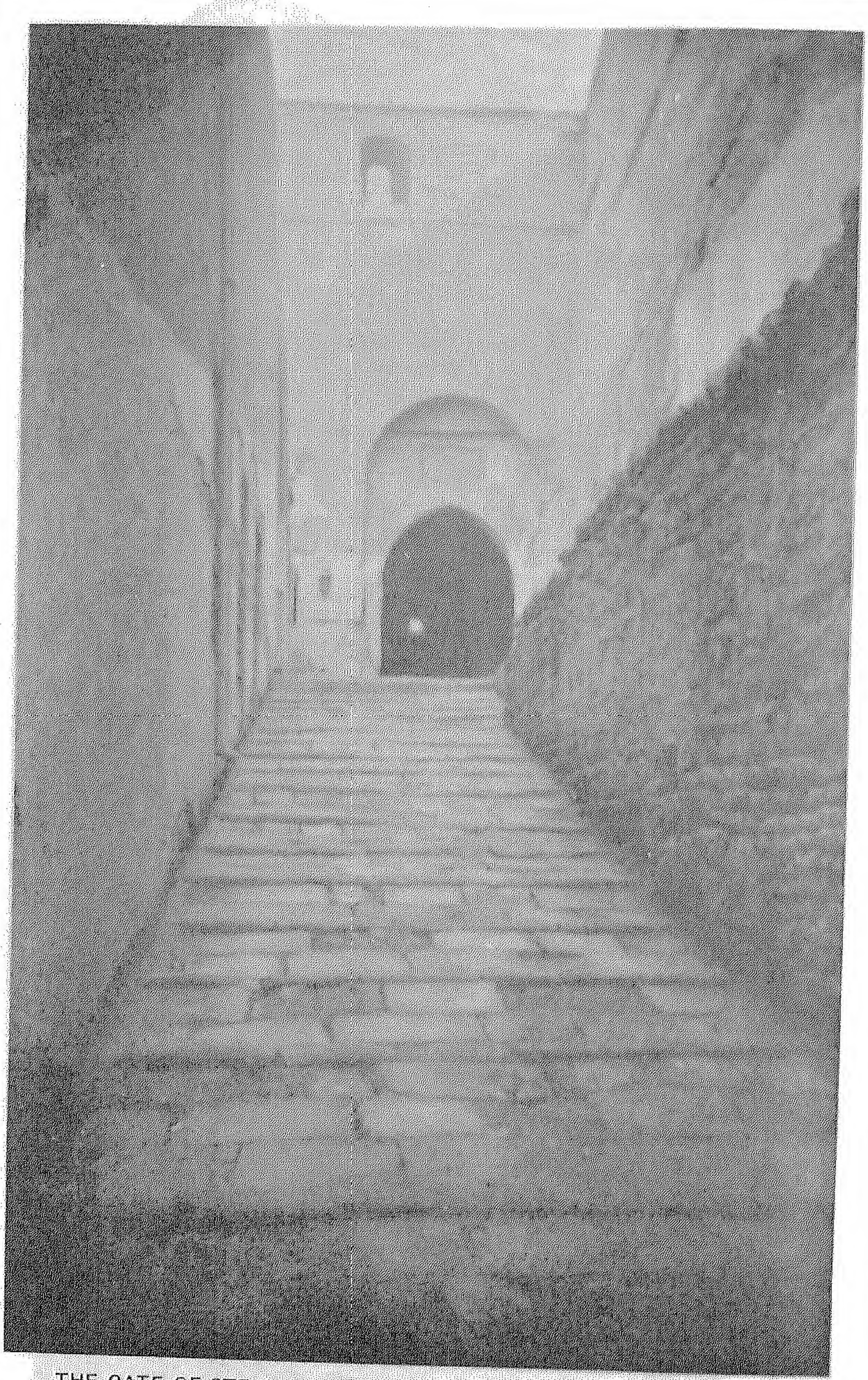

THE GATE OF STEPS, IN THE CITADEL OF CAIRO, WITH SALADIN'S INSCRIPTION OVER THE ARCH.

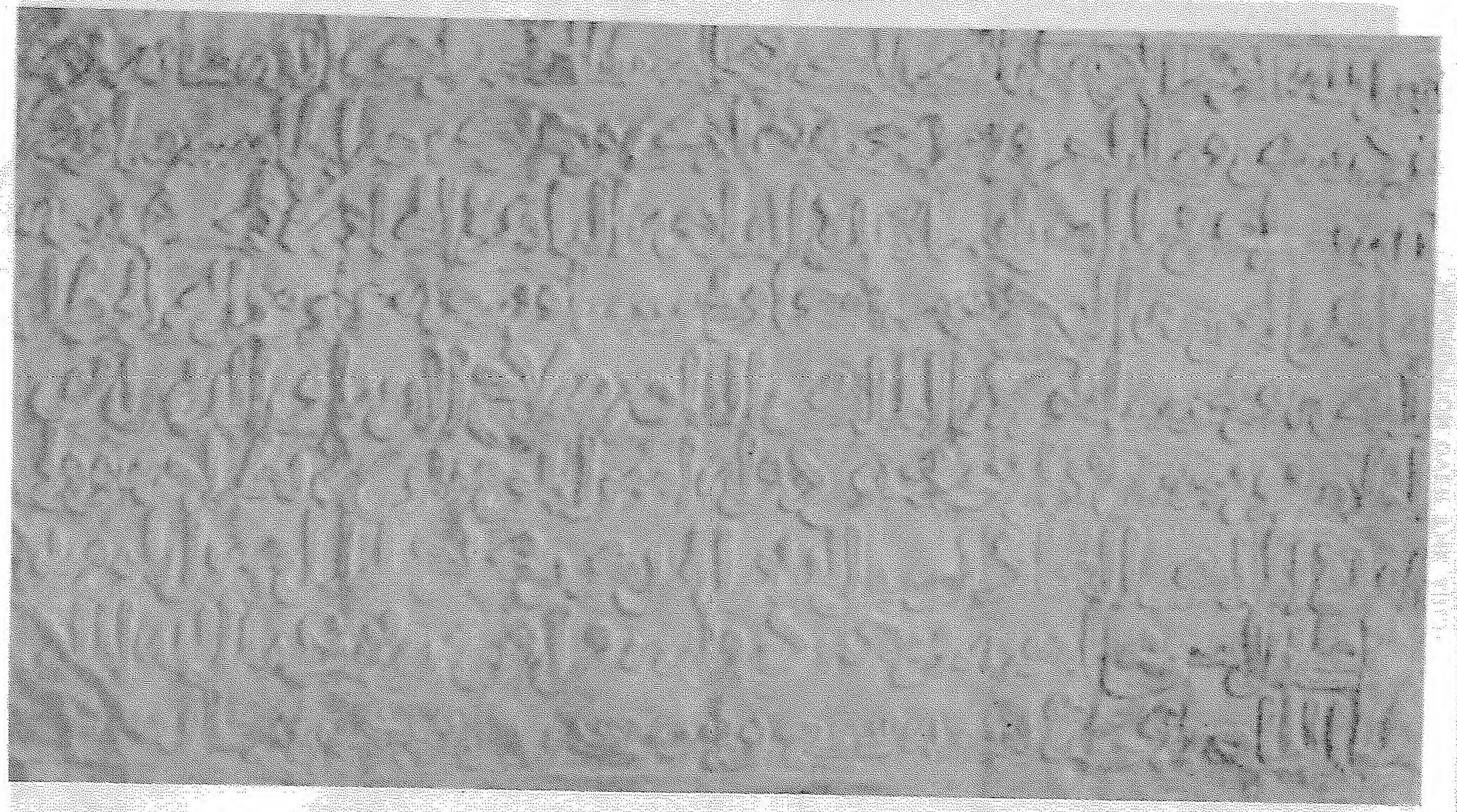

INSCRIPTION OF SALADIN AND KARAKUSH OVER THE GATE OF STEPS, RECORDING THE FOUNDATION OF THE CITADEL OF CAIRO, DATED 1183.

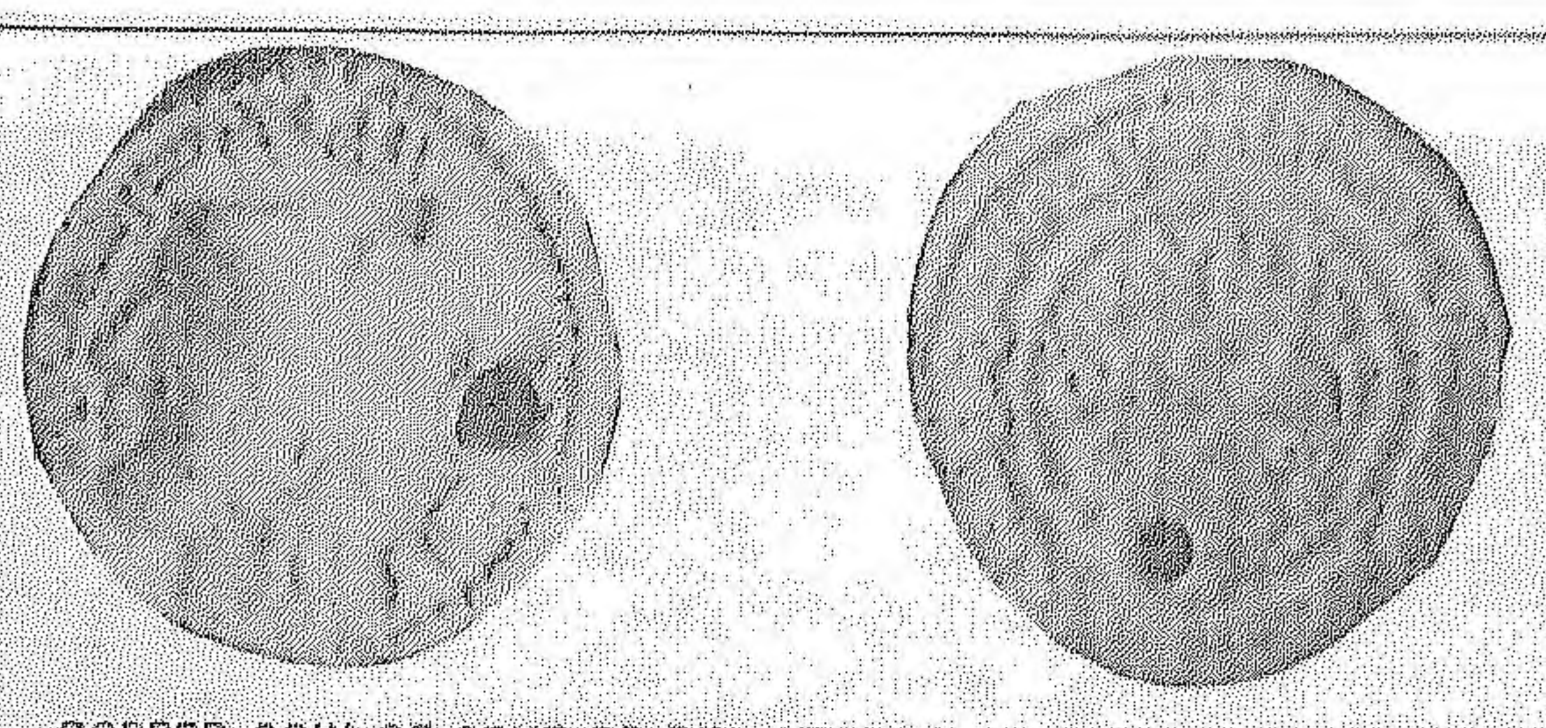

COPPER COIN OF SEYF-ED-DIN, ATABEG OF MOSIL, STRUCK IN MESOPOTAMIA (JEZIRA) IN 1179-80

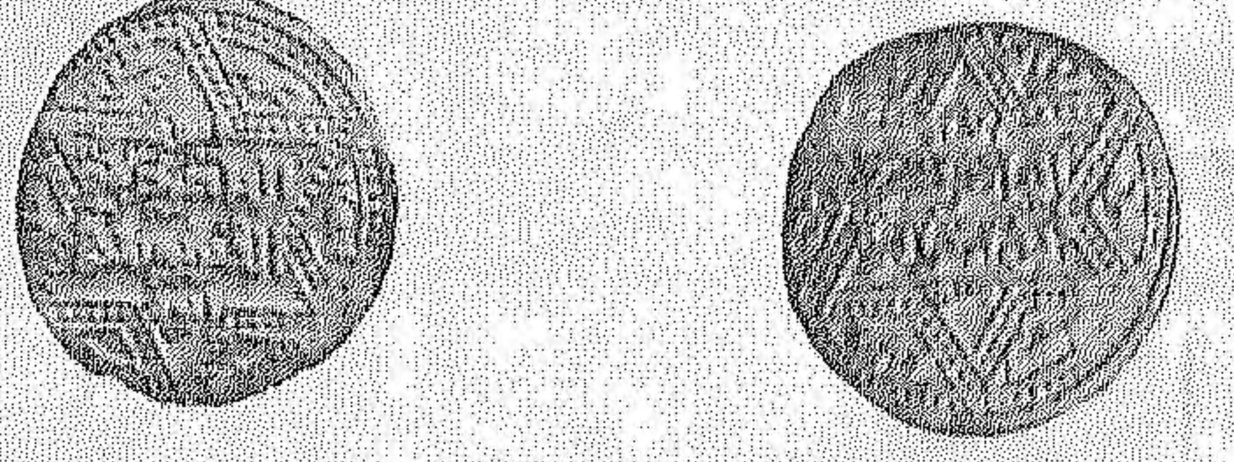

SILVER COIN OF SALADIN STRUCK AT ALEPPO IN 1186.

SEAL OF REGINALD OF CHÂTILLON.
FROM ARCHER'S "STORY OF THE CRUSADES."

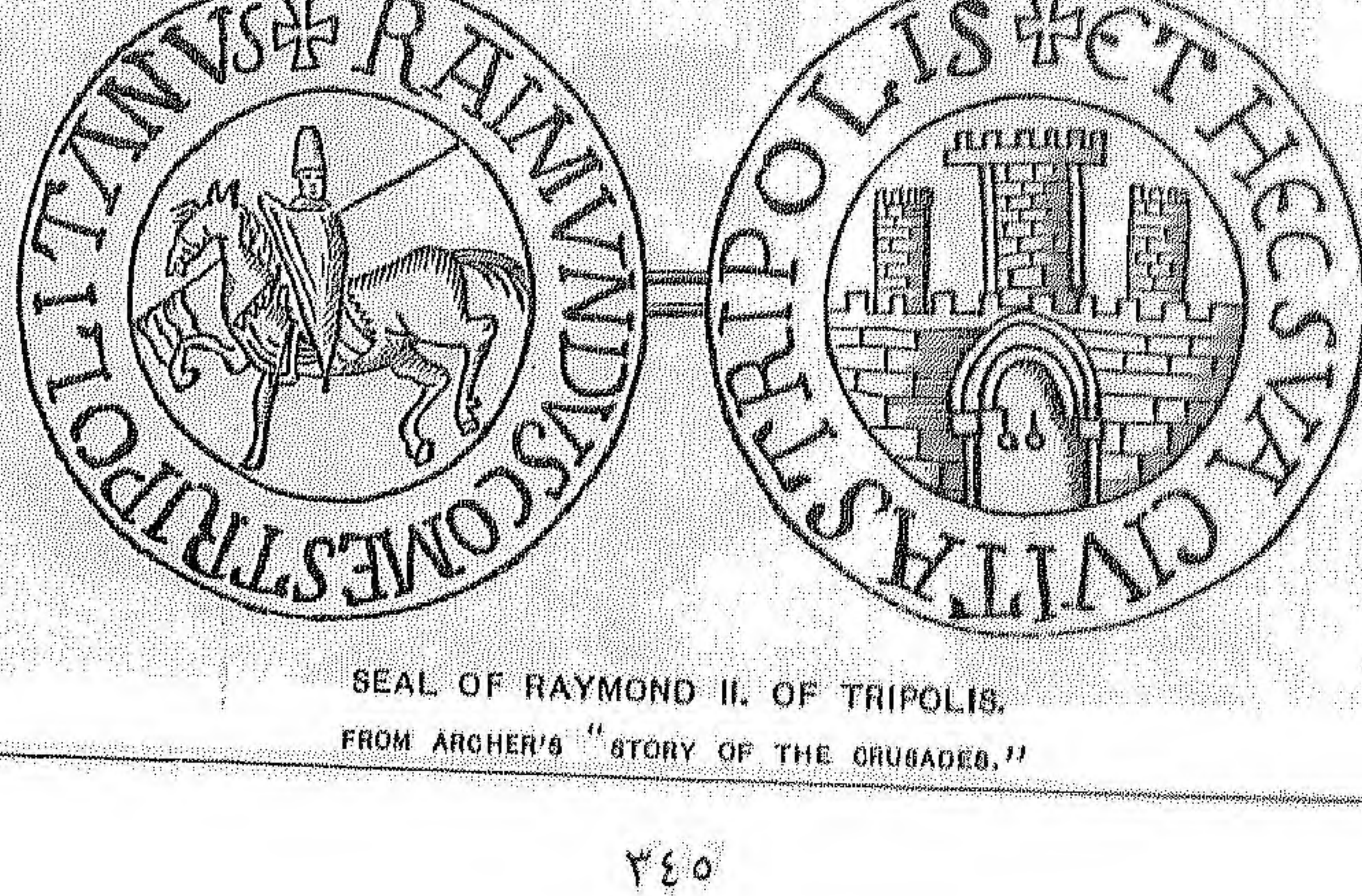

SEAL OF RAYMOND II. OF TRIPOLIS.
FROM ARCHER'S "STORY OF THE CRUSADES."

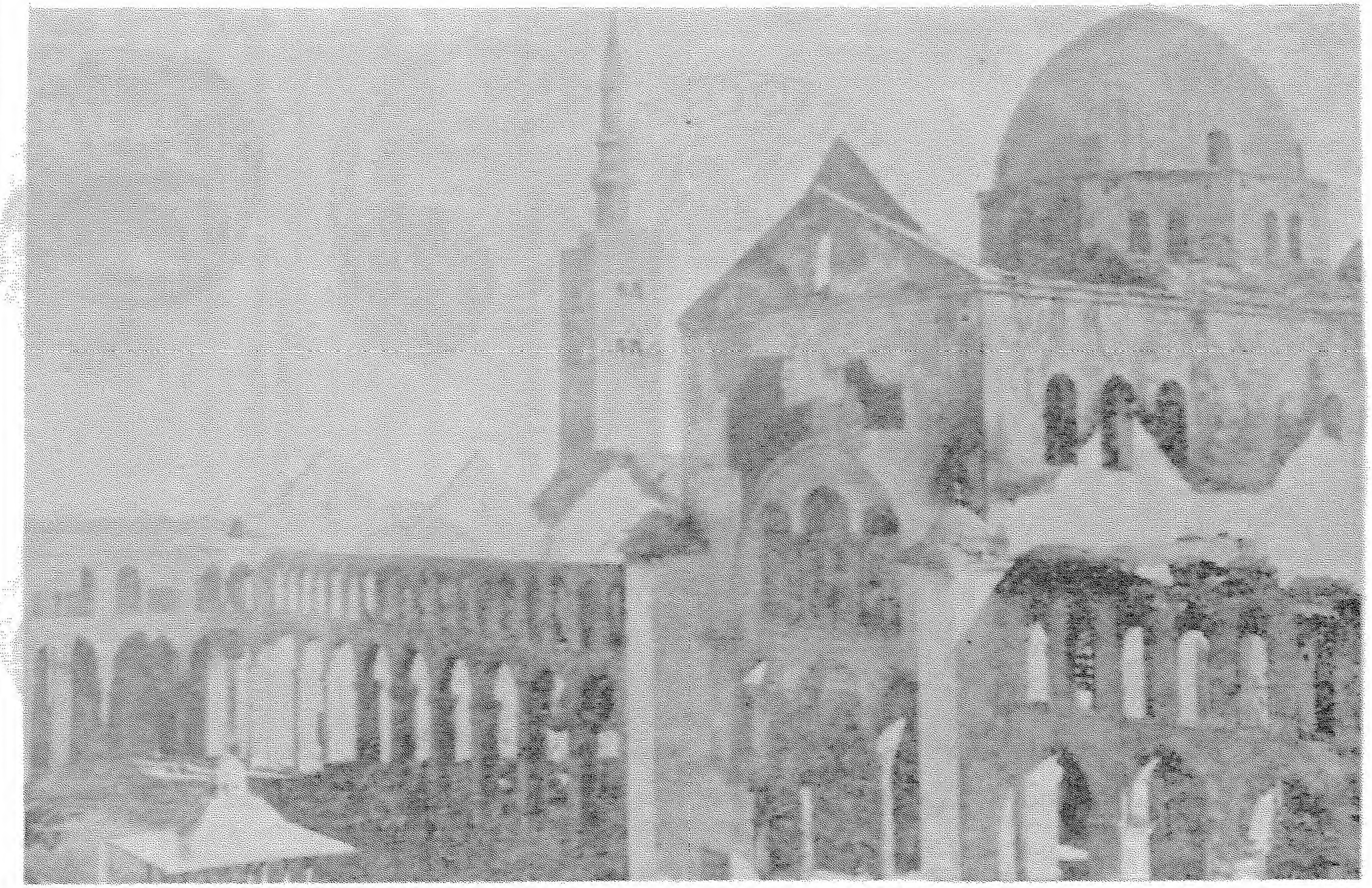

DOME OF OMAYYAD MOSQUE AT DAMASCUS.

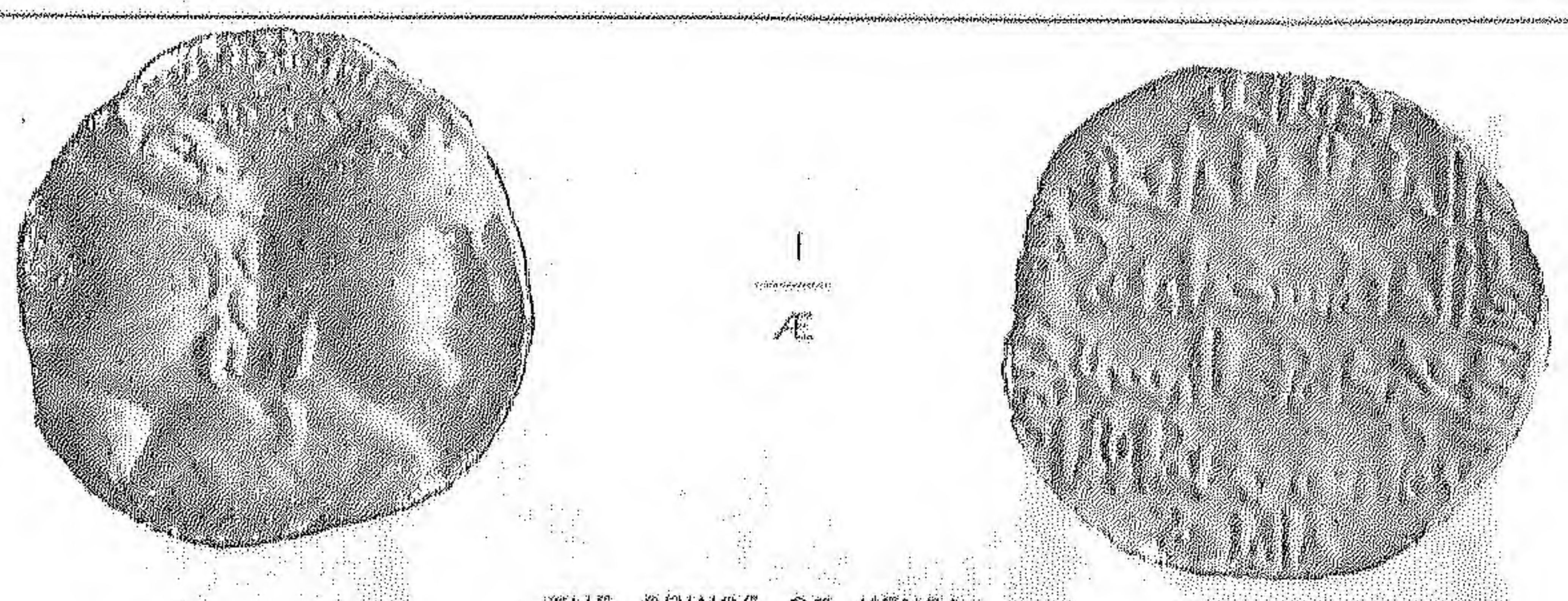

THE PRINCE OF KEYFA.

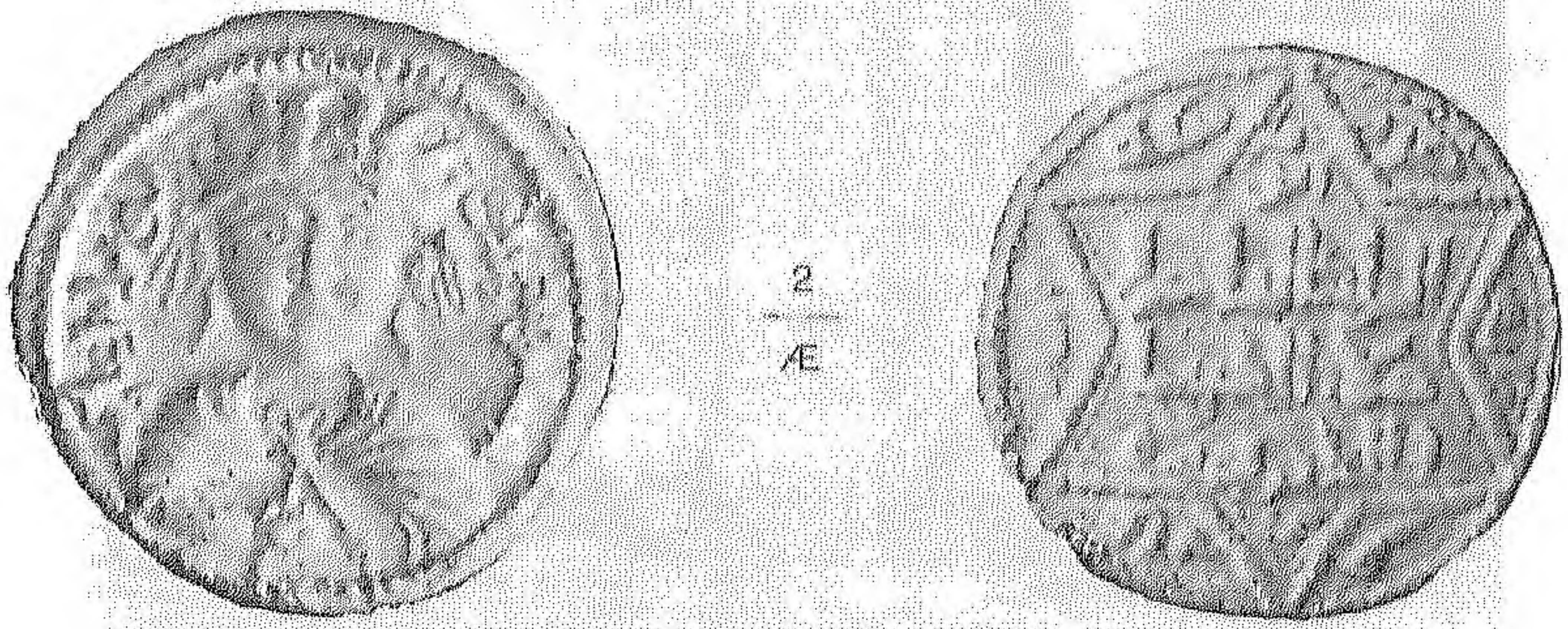

THE PRINCE OF MARIDIN.

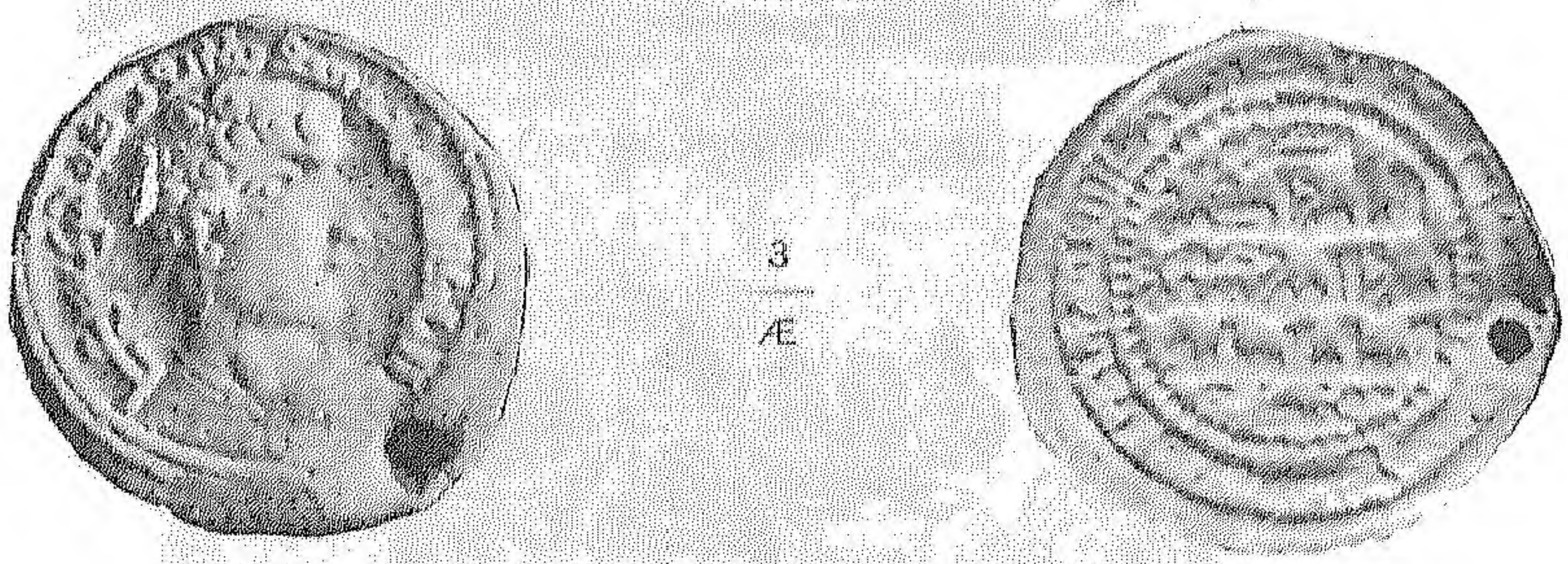

KUKBURY, LORD OF IRBIL.

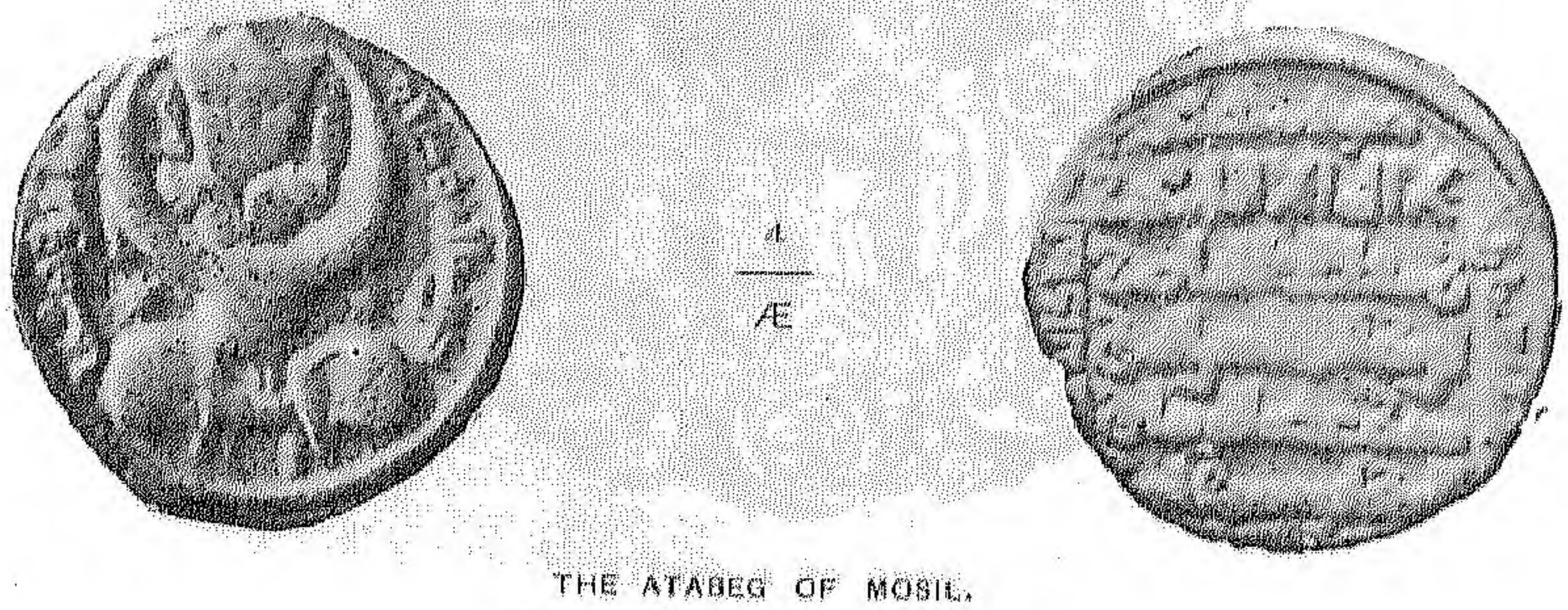

THE ATABEG OF MOSIL.

COINS OF SALADIN'S VASSALS.

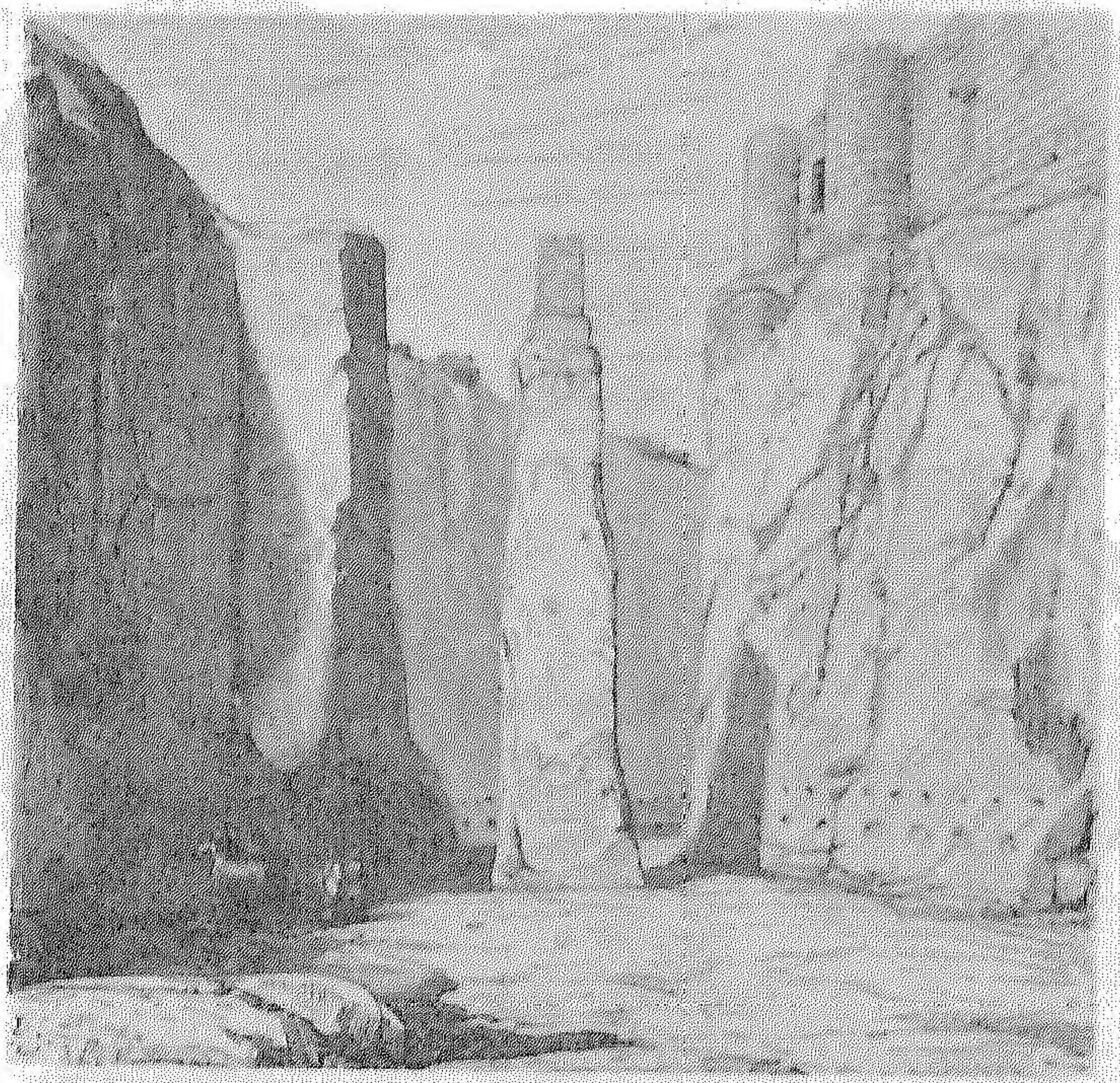

CASTLE OF SAHYUN (SAONE).

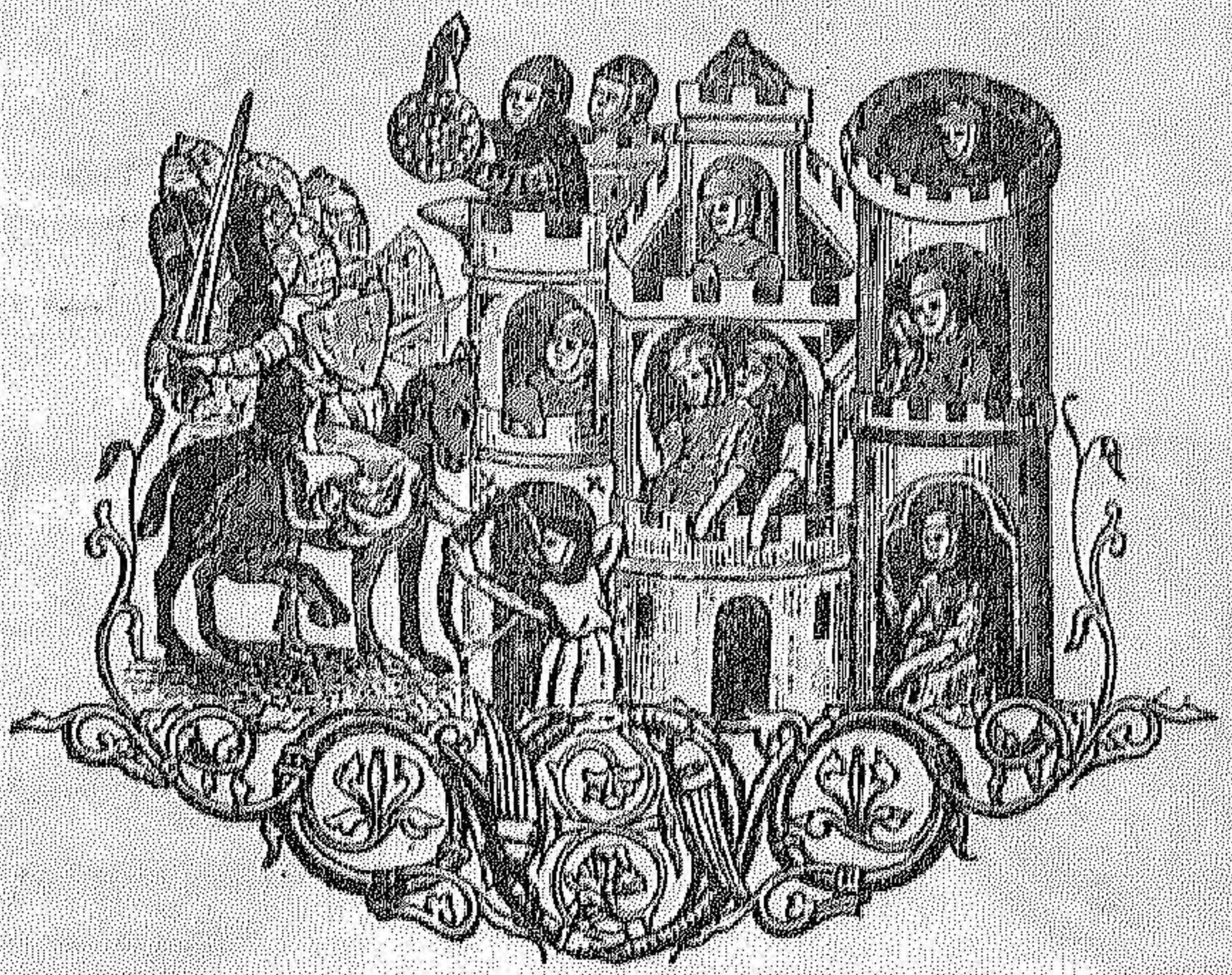

SIEGE OF A CASTLE.
FROM A 13TH CENTURY MANUSCRIPT.

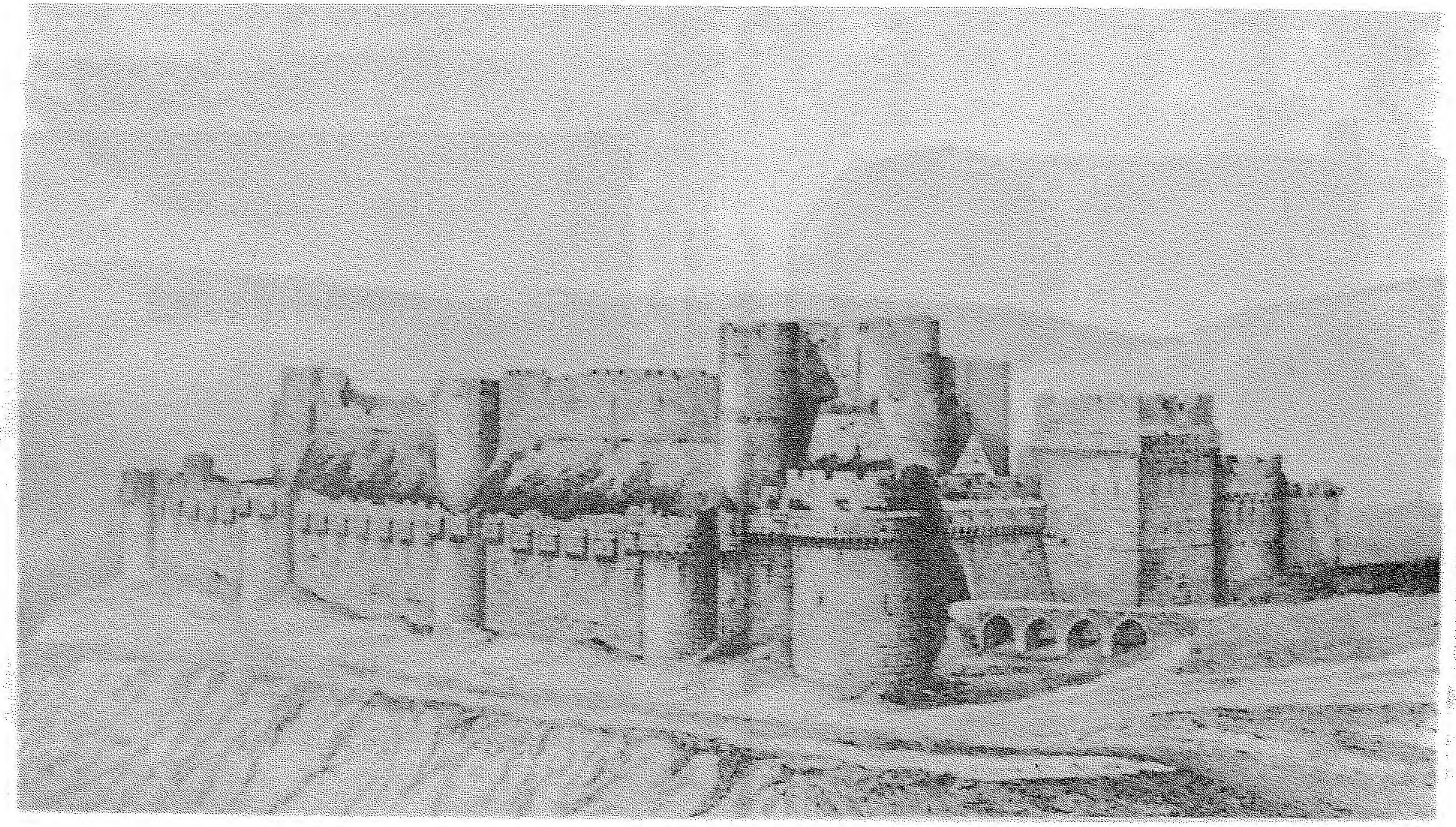

THE KURDS' CASTLE, CRAC DES CHEVALIERS.

SEAL OF RICHARD I. (1195.)

FROM ARCHER'S "STORY OF THE CRUSADES."

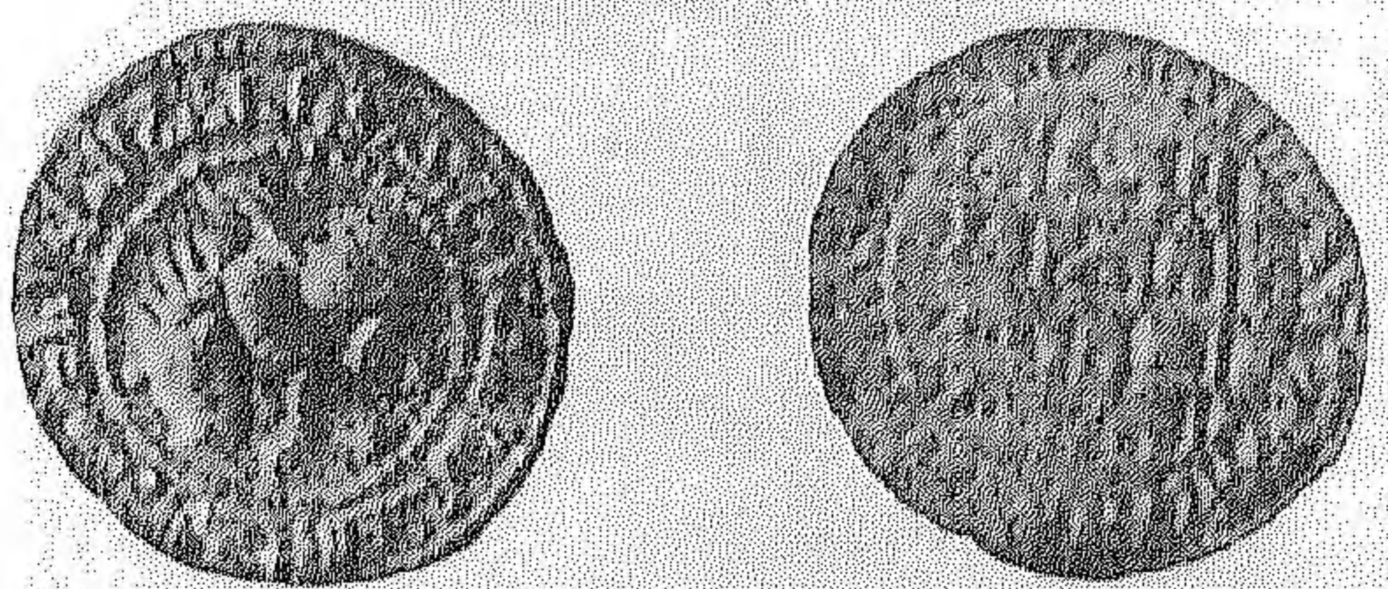

COPPER COIN OF SALADIN STRUCK IN 1187-8.

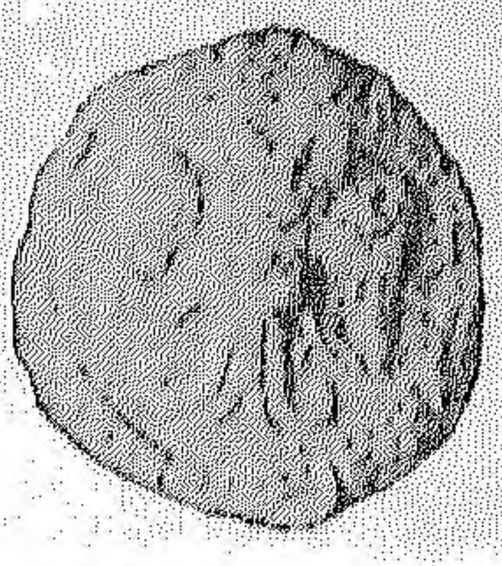

COIN OF IMAD-ED-DIN OF SINJAR STRUCK IN 1188 (OBVERSE).

COVER OF CASKET OF EL-'ADIL.

CASKET OF EL-'ADIL.

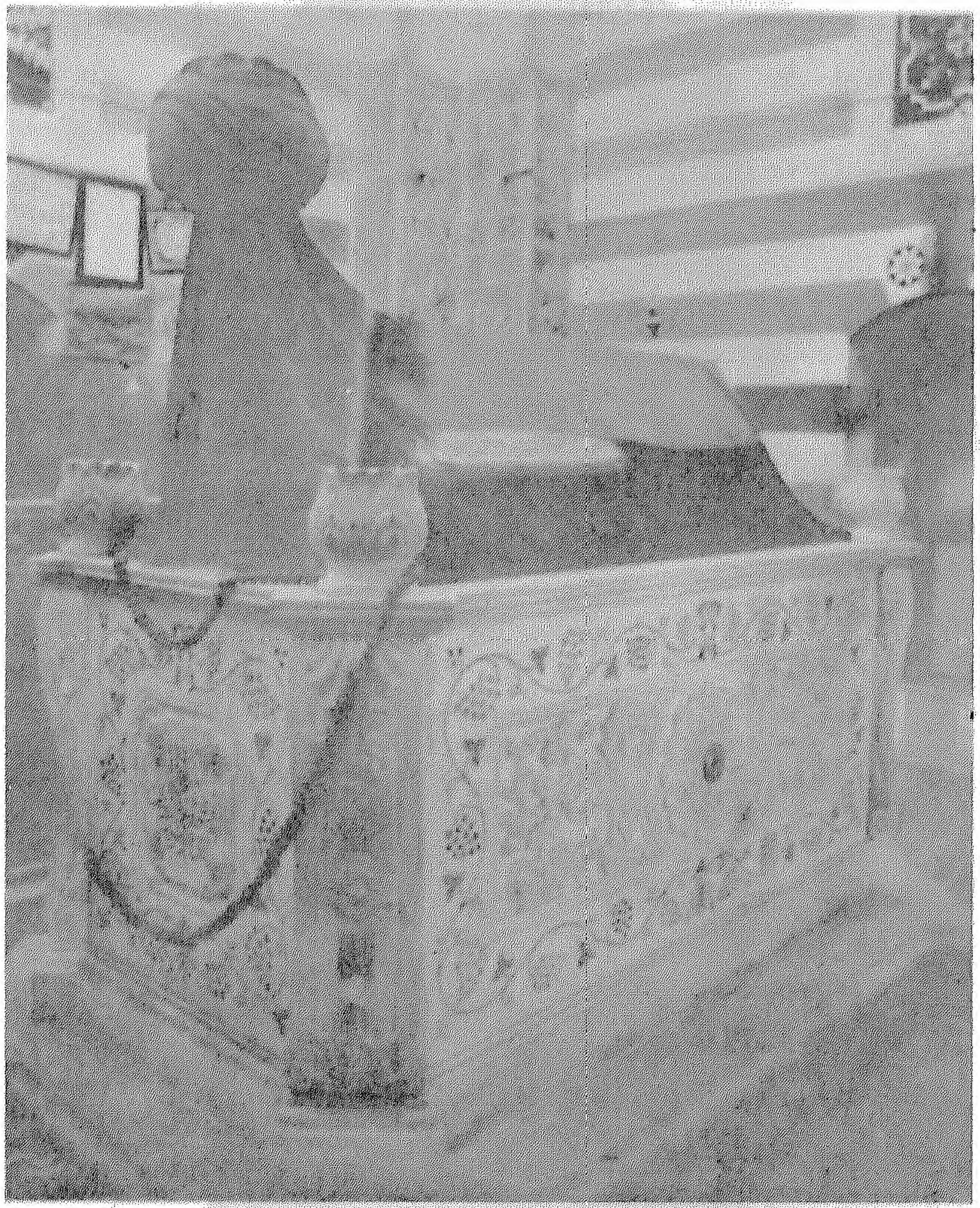

TOMB OF SALADIN, DAMASCUS.
(FROM A PHOTOGRAPH BY BONFILS.)

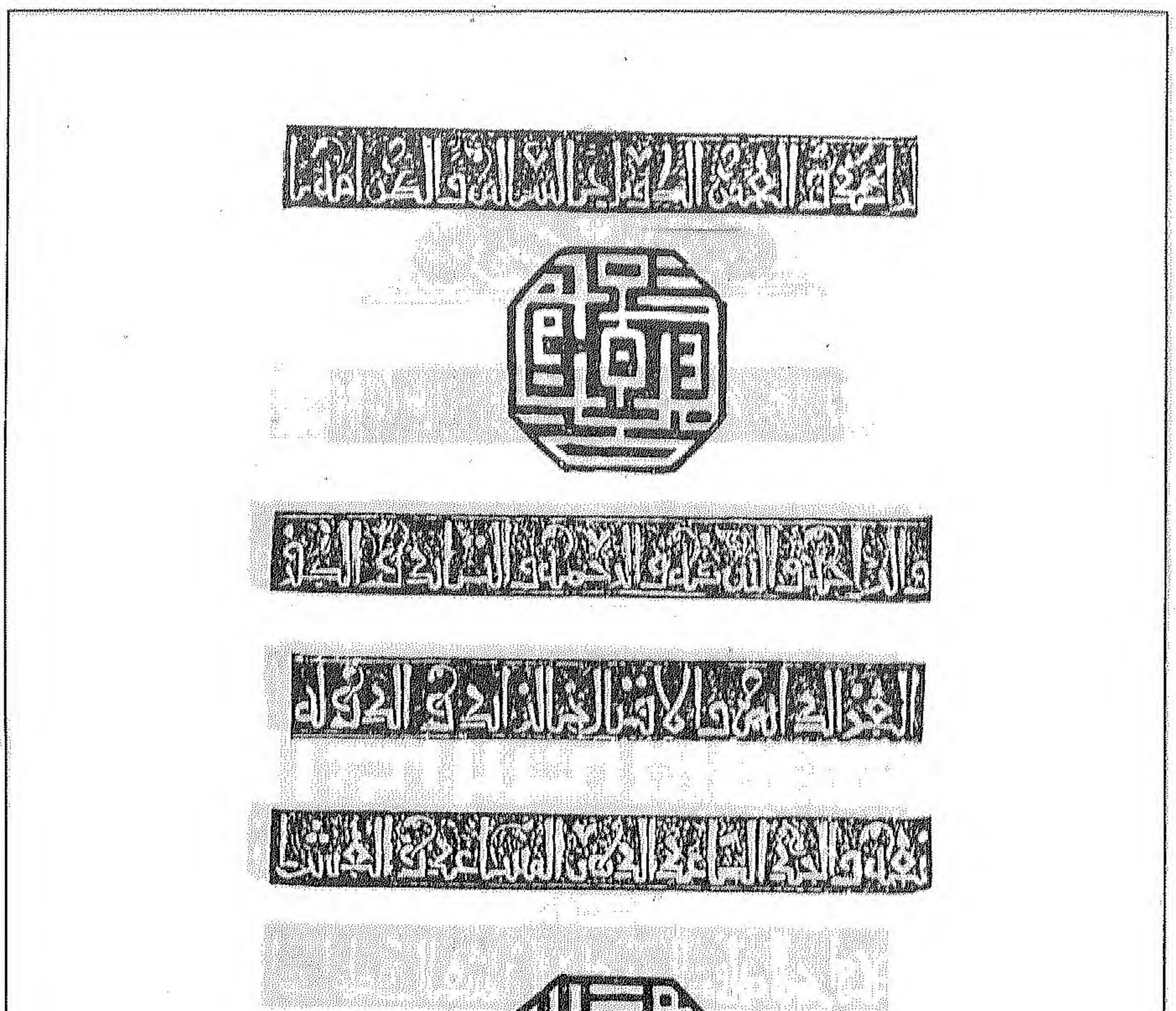

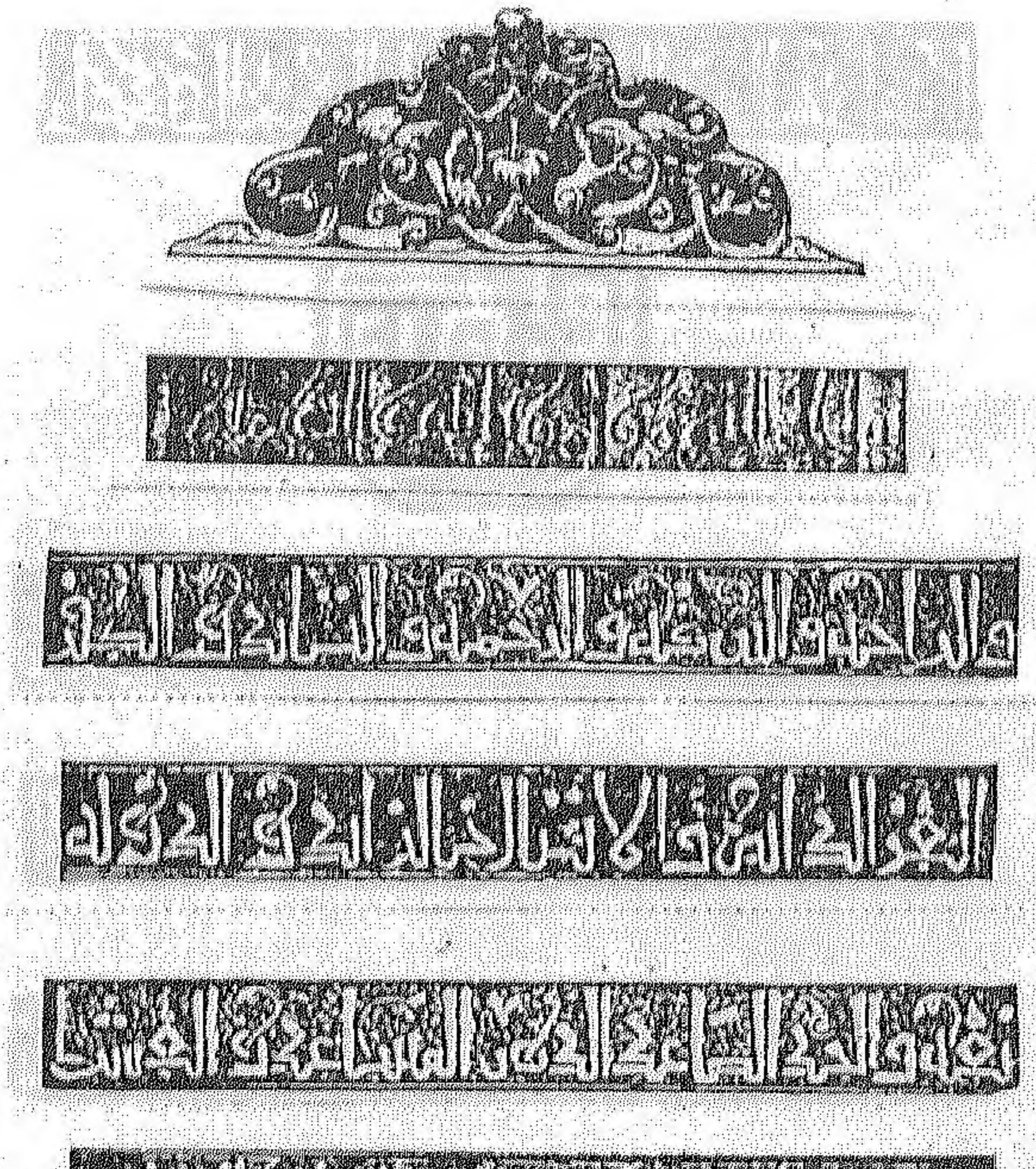
بسم الله الرحمن الرحيم

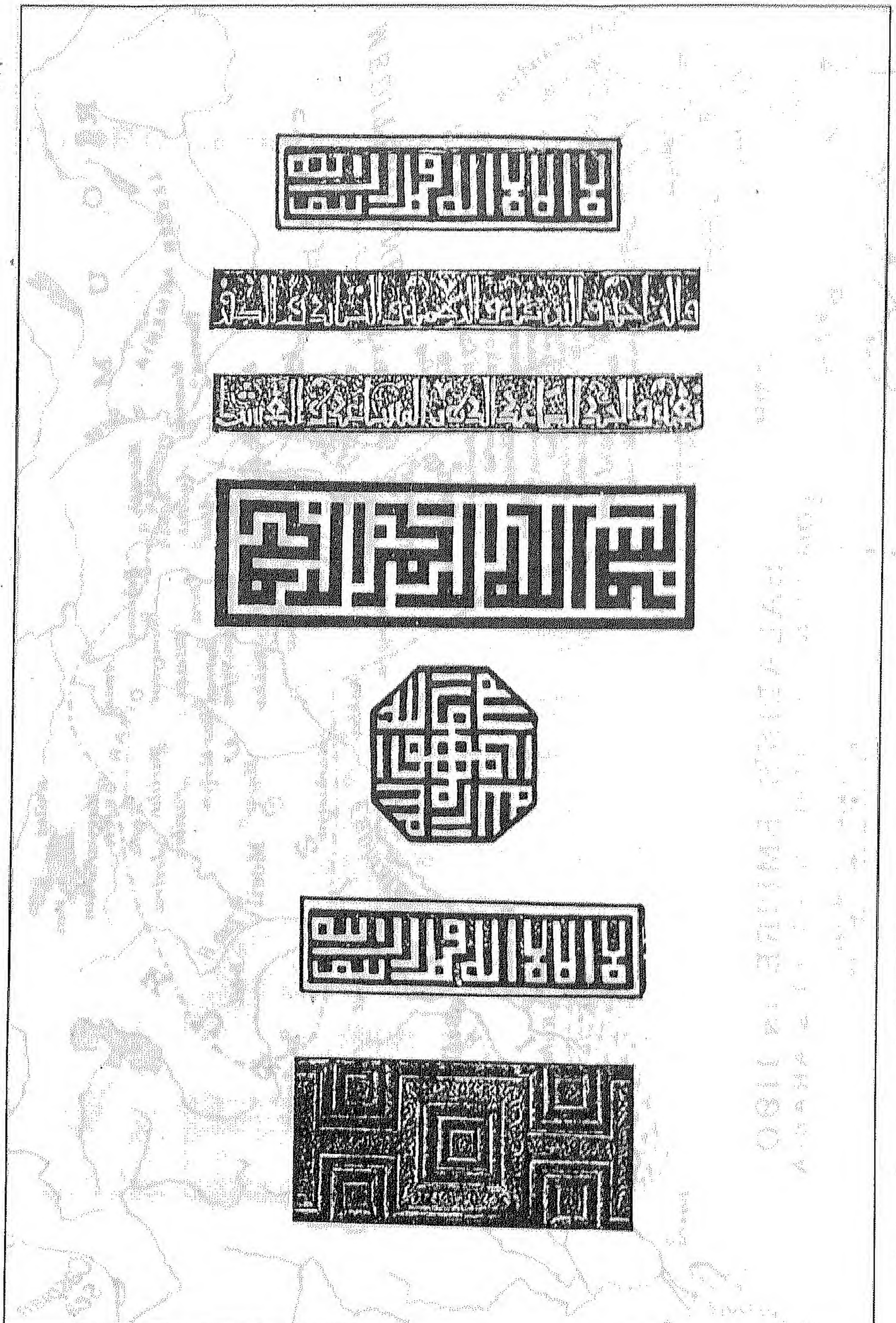

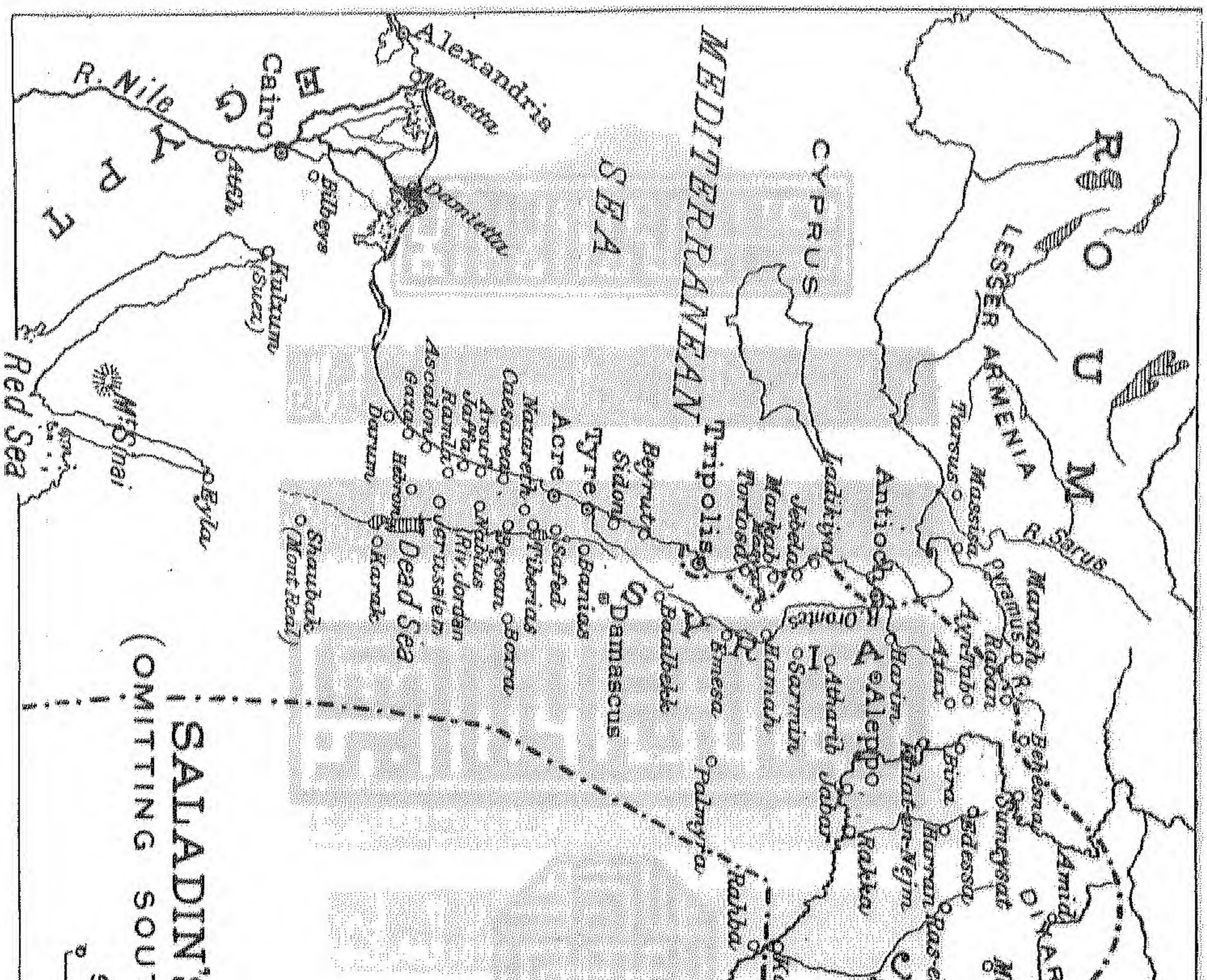
SALADIN'S EMPIRE IN 1190
(OMITTING SOUTHERN EGYPT & ARABIA)
Scale of Miles
0 50 100 150 200
MEDITERRANEAN SEA
CYPRUS
LESSER ARMENIA
Alexandria
Rosetta
Damietta
Cairo
Bilbeys
R. Nile
Kulzum (Suez)
Mt. Sinai
Red Sea
Eyla
Tripolis
Beyrut
Sidon
Tyre
Acre
Nazareth
Tiberias
Caesarea
Arsuf
Jaffa
Nablus
Ramla
Jerusalem
Ascalon
Gaza
Darum
Hebron
Dead Sea
Karak
Shaubak (Mont Real)
Banias
Safed
Damascus
Bosra
Baalbek
Emesa
Hamah
Palmyra
Antioch
Ladikiya
Jebela
Tortosa
Orontes
Harim
Atharib
Aleppo
Sarmin
Jabar
Rakka
Tarsus
Massisa
R. Sarus
Maragh
Aintab
Bira
Edessa
Harran
Ras-el-Ayn
Sumeysat
Amid
Mayyafarikin
Mardin
Nasibin
Sinjar
Mosil
Jezira
Zab R.
Irbil
Tekrit
Shahrzur
Rahba
Karkisiya
Ana
R. Euphrates
Kerbela
Hilla
Kufa
Baghdad
R. Tigris
Wasit
Basra
Persian G.
Caspian Sea
Van
Khilat
R O U M
E G Y P T
S Y R I A
D I A R B E K R
J E Z I R A
I R A K
K U R D S

CAIRO IN THE DAYS OF SALADIN – 1170

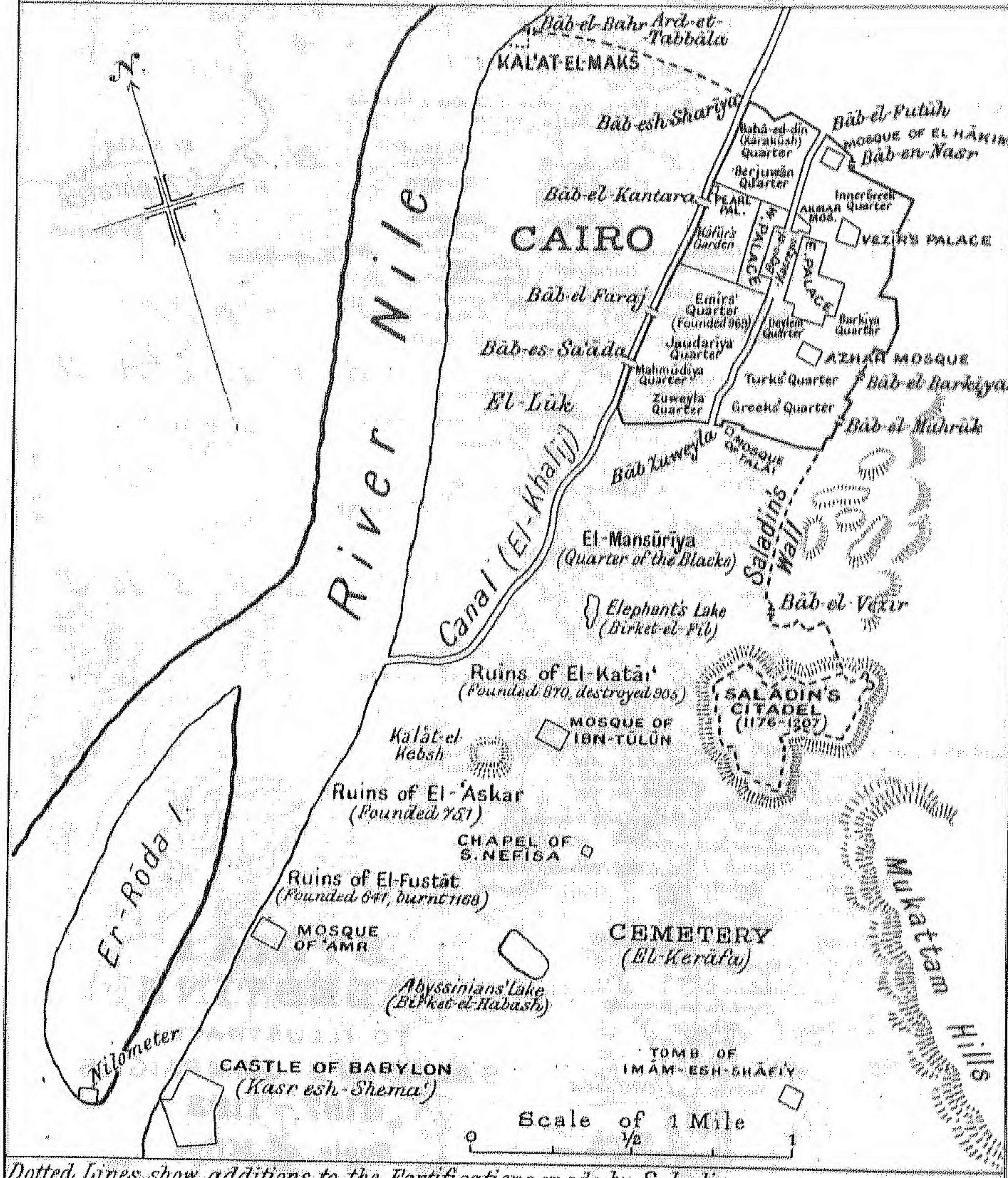

Dotted Lines show additions to the Fortifications made by Saladin.

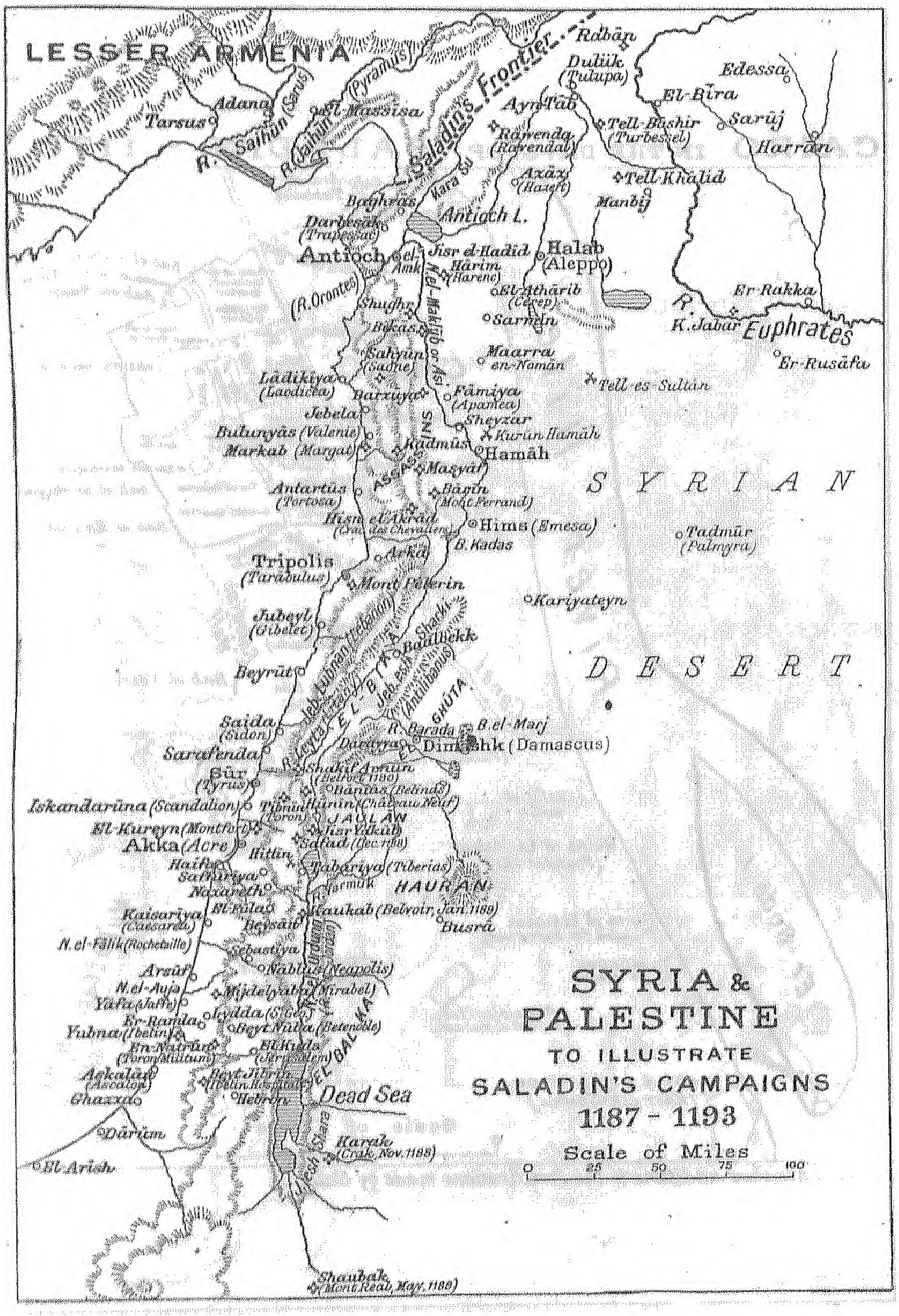
SYRIA & PALESTINE
TO ILLUSTRATE
SALADIN'S CAMPAIGNS
1187 - 1193
Scale of Miles
0 25 50 75 100
LESSER ARMENIA
Saladin's Frontier
Tarsus
Adana
El-Massisa
Antioch
Antioch L.
Halab (Aleppo)
Edessa
El-Bira
Saruj
Harran
Euphrates
Er-Rakka
Dulük
Ayn Tab
Tell-Bashir (Turbessel)
Tell-Khalid
Manbij
Er-Rusafa
Tell-es-Sultan
Ladikiya (Laodicea)
Jebela
Markab (Margat)
Antartus (Tortosa)
Famiya (Apamea)
Sheyzar
Hamah
Hisn el Akrad
Hims (Emesa)
Tadmur (Palmyra)
SYRIAN DESERT
Tripolis (Tarabulus)
Mont Pelerin
Kariyateyn
Jubeyl (Gibelet)
Baalbekk
Beyrut
Saida (Sidon)
Sarafenda
Sur (Tyrus)
Dimishk (Damascus)
Iskandaruna (Scandalion)
Akka (Acre)
Haifa
Nazareth
Tabariya (Tiberias)
HAURAN
Kaisariya (Caesarea)
Busra
Arsuf
Yafa (Jaffa)
Nablus (Neapolis)
Er-Ramla
Askalan (Ascalon)
Ghazza
Dead Sea
Hebron
Karak (Crak, Nov. 1188)
El-Arish
Shaubak (Mont Real, May, 1189)

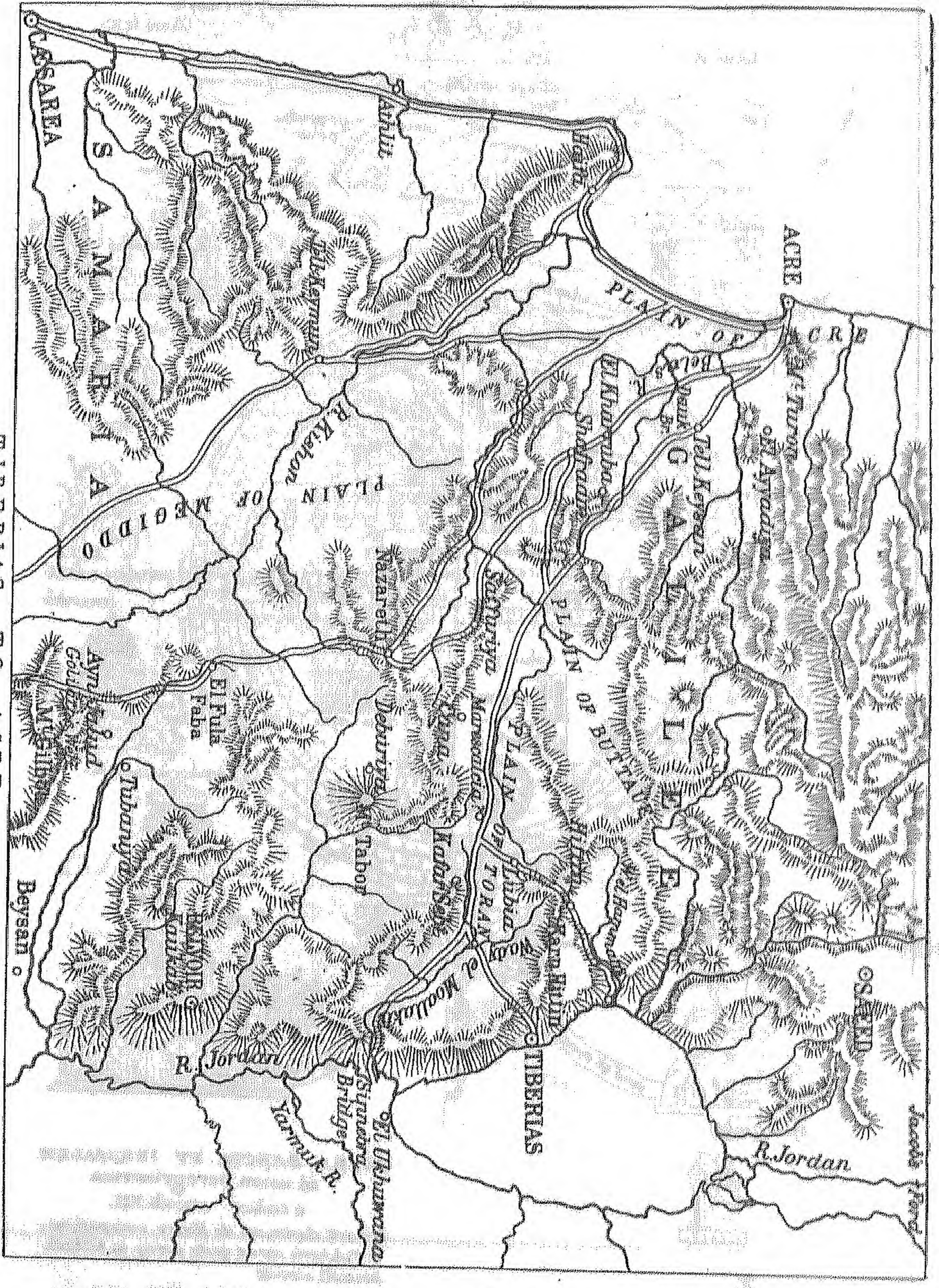

TIBERIAS TO ACRE

Scale of English Miles

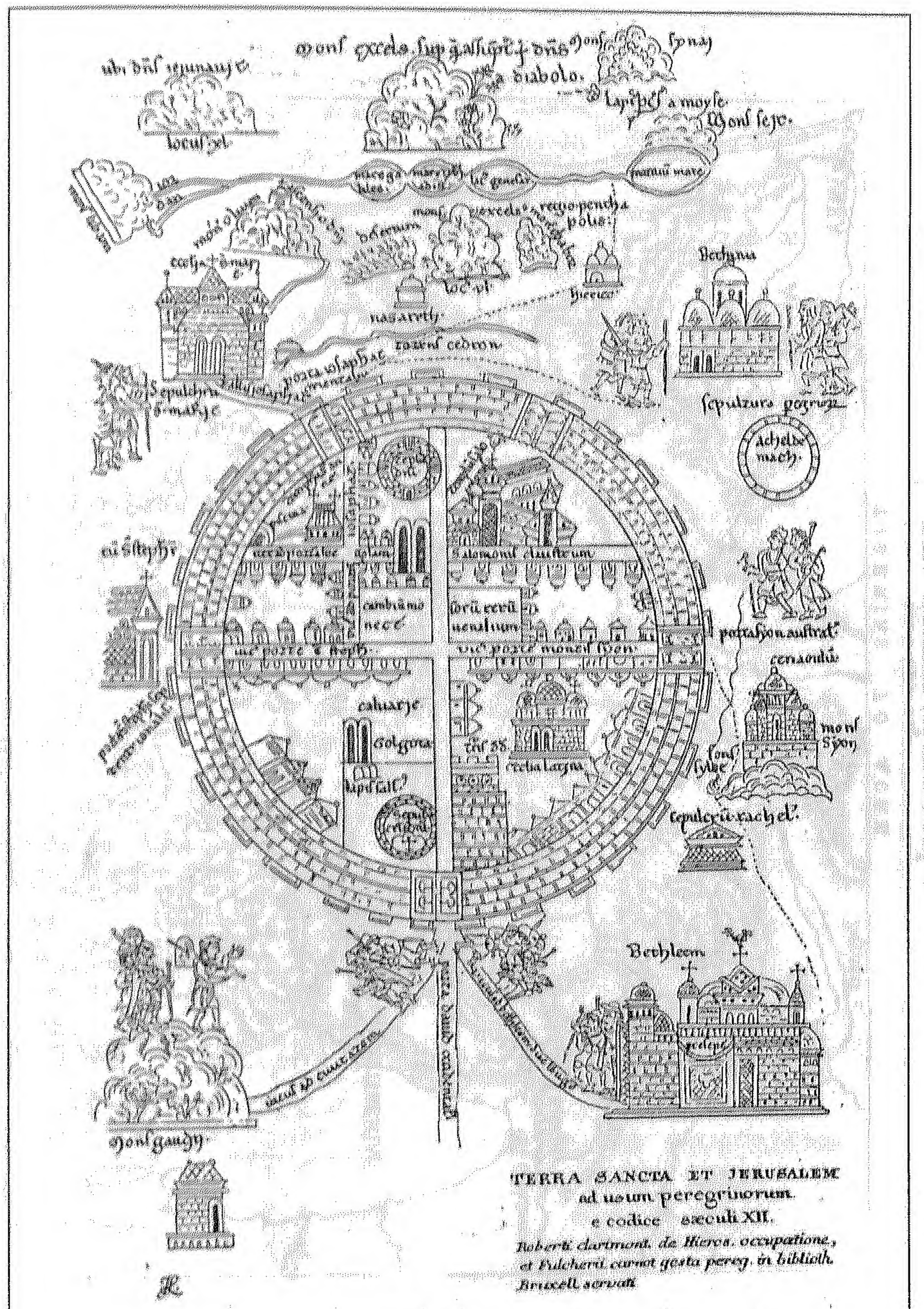

PLAN OF JERUSALEM.

(FROM A 12TH CENTURY MANUSCRIPT.)

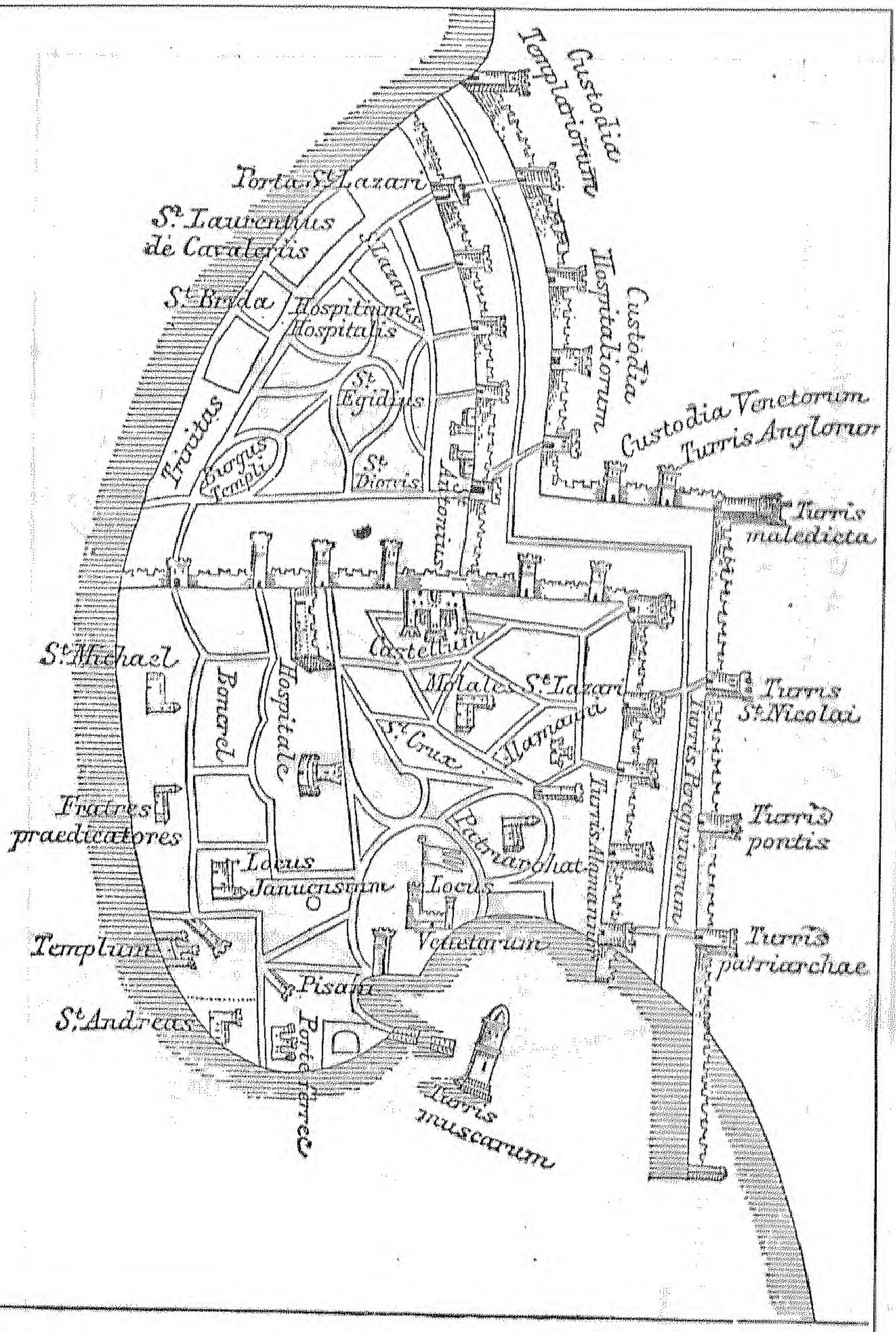

PLAN OF ACRE IN THE THIRTEENTH CENTURY.

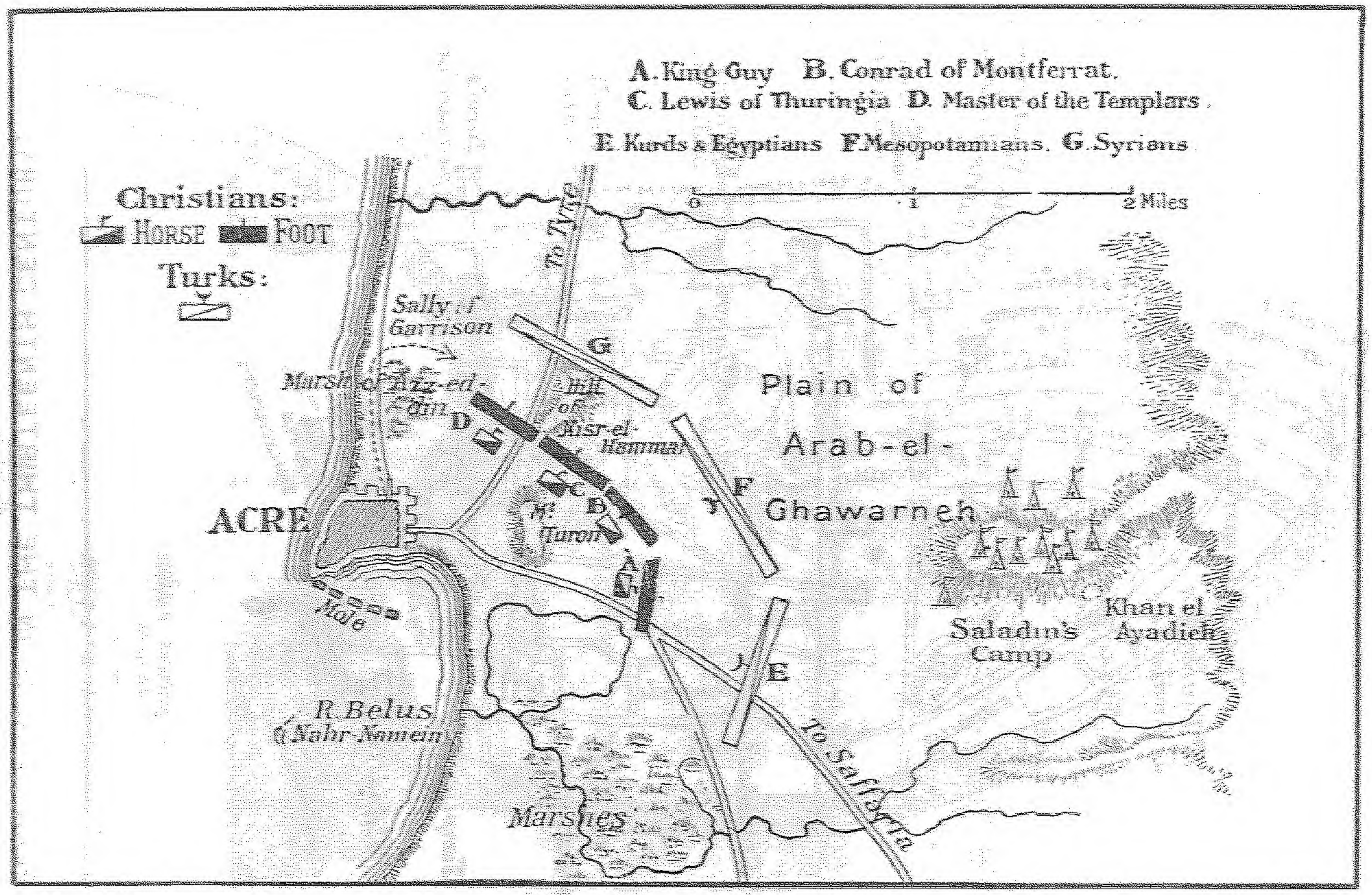

THE BATTLE OF ACRE, OCT. 4, 1189.
(FROM OMAN'S "ART OF WAR.")

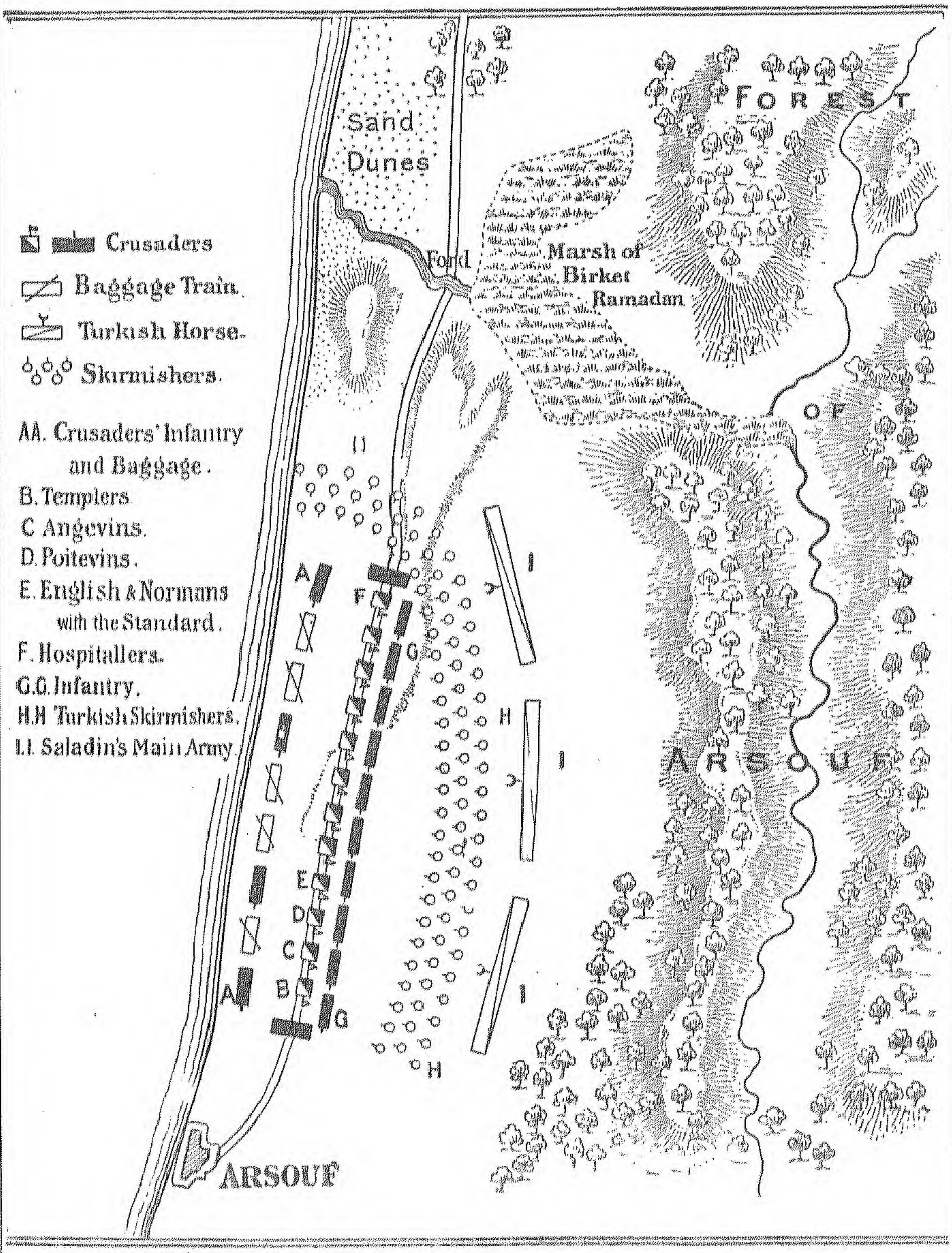

THE BATTLE OF ARSUF, SEPT. 7, 1191.
(FROM OMAN'S "ART OF WAR.")

رقم الايداع

١٩٩٥/١٠٠٥٩

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

TABLE II.—THE FAMILY OF SALADIN.

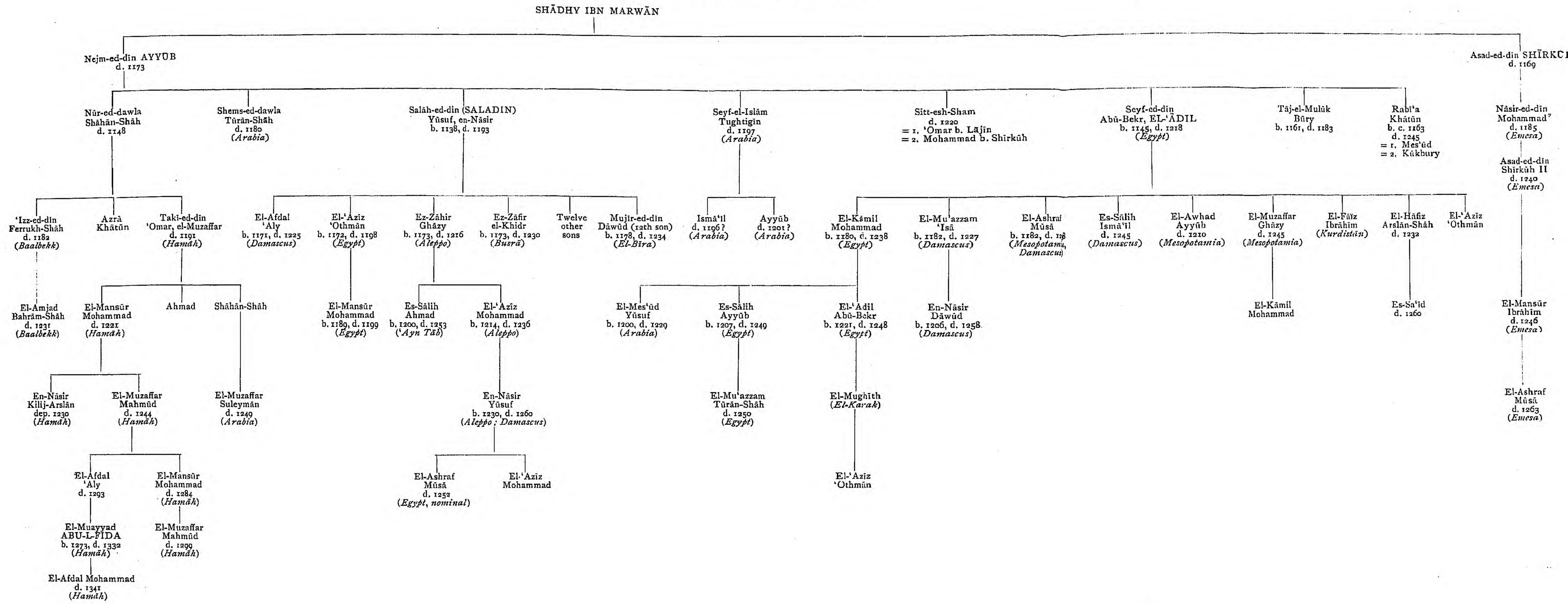

TABLE III.—KINGS OF JERUSALEM, PRINCES OF ANTIOCH, AND COUNTS OF TRIPOLIS.*

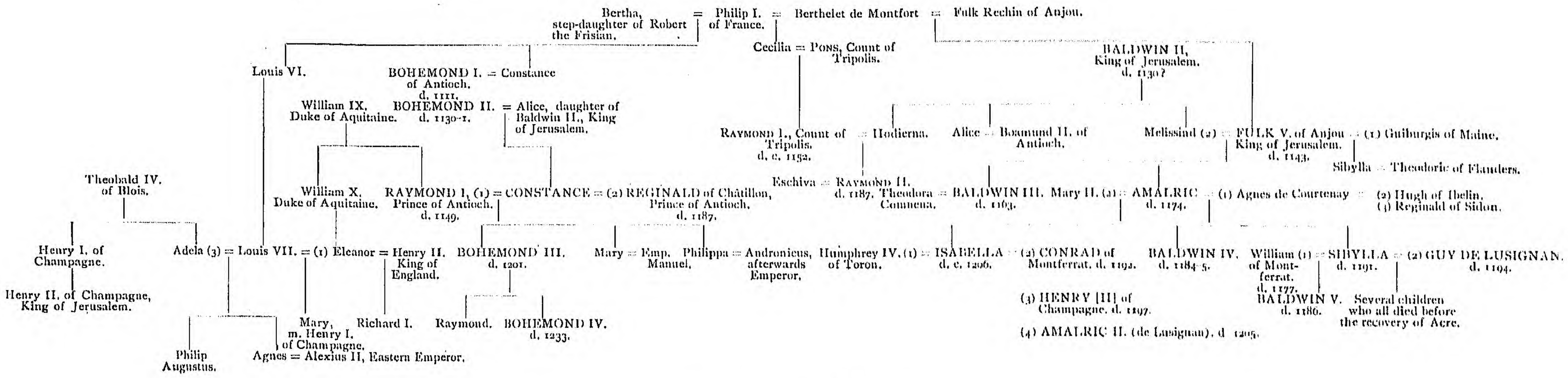

* After Archer's *Crusade of Richard I*

TABLE IV.—THE GREAT LORDS OF PALESTINE.*

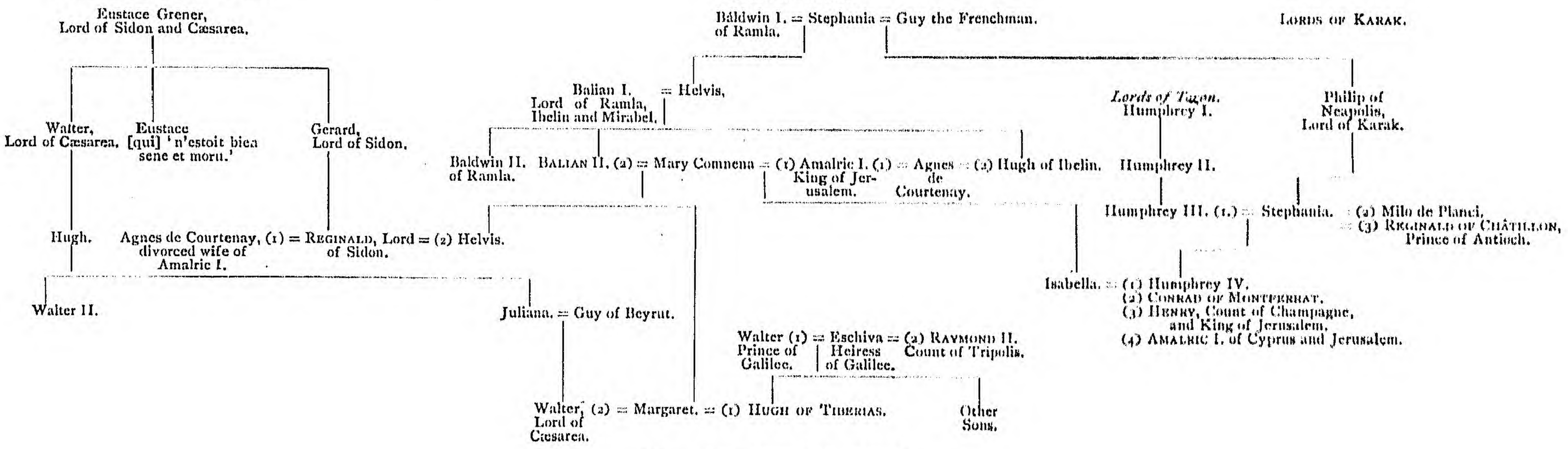

* From Archer's *Crusade of Richard I*.

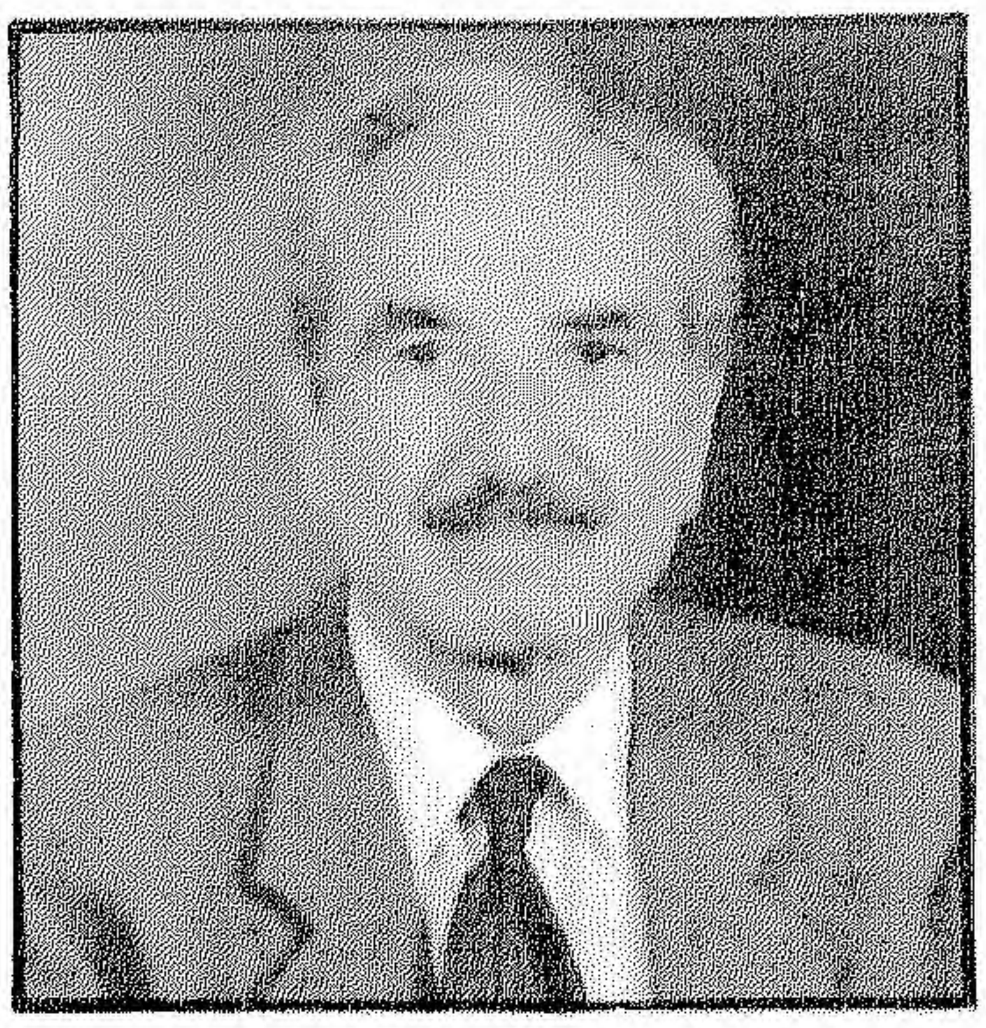

فاروق سعد ابو جابر

مواليد عام ١٩٣٤
السلط ـ الاردن

انهى دروسه الابتدائية والثانوية
فى الاردن وفلسطين

حصل على بكالوريوس
فى الآداب عام ١٩٥٦
من الجامعة الاميركية فى بيروت

رجل أعمال في الاردن

المؤلف

ستانلي لين بول

مستشرق انكليزي

مدير المتحف المصري

له مؤلفات عديدة

الكتاب

طبع عام ١٨٩٨
فى نيويورك ولندن

ذكرت دائرة المعارف البريطانية
الصادرة عام ١٩٩٣
انه احسن ما كتب على
صلاح الدين حتى تاريخه

سيرة حياة صلاح الدين
كما لم تظهر بالعربية من قبل

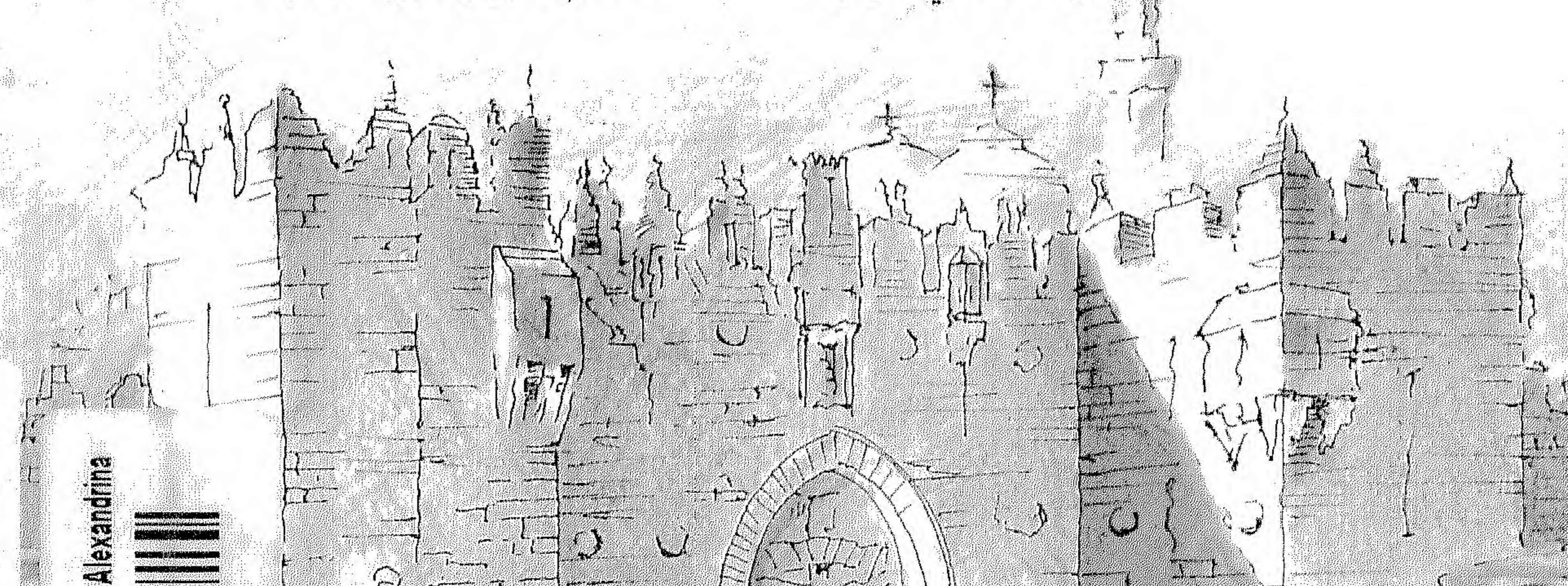

Bibliotheca Alexandrina
0213081

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر